

obeikandi.com

الڄورنالجي



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والهوية القومية العربية، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بآية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش. العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكهف كات - القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

نصر رأفت

الجور ناجي

رواية



نصر رأفت:

روائي مصري حاصل على بكالوريوس الصحافة والإعلام من جامعة القاهرة، عمل بالعديد من الصحف العربية والمصرية منها.. أخبار اليوم، الأيام البحرينية، الديار اللبنانية، والحياة.. وهو حاليًا مذيع في إذاعة صوت العرب.

صدرت له من قبل ٣ روايات.. (الرجال لا يعرفون الرحمة) التي اختارتها جامعة جورج تاون في واشنطن لتدريسها لطلابها كأفضل رواية تتناول الحياة في القرية المصرية في السنوات العشر الأخيرة، ورواية (شلالات فياجرا) وروايته الثالثة (ماسبيرو)..
للتواصل مع الروائي:

nasraafat@yahoo.co

الكتاب:

الجورنالجي

المؤلف:

نصر رأفت

الناشر:

مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى:

القاهرة ٢٠١٢

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد النجدي

رقم الإيداع:

٢٠١٢/١١٢٠١

رأفت، نصر.

الجورنالجي: رواية/ نصر رأفت. ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٢.

٣٨٤ ص، ٢١ سم.

تدك: ٦ - ١١٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية.

أ - العنوان

إهداء:

إلى رئيسة جمهورية بيتي
أبايعك يا سيدتي على الحب
والطاعة مدى الحياة.
إلى أهراماتي الثلاثة
"ريهام وأحمد وفرح"..
أنتم شمسي وقمري
وأروع إنجازاتي..
دمتم لي أباهي بكم الدنيا
ما دمت حيًا.
نصر رأفت

تنويه:

الطبيب يدفن جريمته في بطن المريض
والمحامي يخبي خطيئته في ملف موكله
والجورنالجي ينشر فضيلته
تلك هي القضية.

تحذير:

"حرام أن يقوم العلماء بتعذيب الحيوانات
والفئران ليتهم يجرون تجاربهم على
الصحفيين!"

هنريك إيسن.

الجورنالجي يقرأ جريدته!

فى أعلى الصفحة.. صورة رجل مات
فى أسفلها راقصة ساخنة راسخة
كالأهرامات..

امتعض الجورنالجي غاضباً وقلب
صفحات جريدته.. فارتطمت راقصة مصر
الأولى بالرجل الميت.. نهض واقفاً منتشياً..
أيقظه عطرها الفواح.

فغنى الرجل لراقصة الوطن نشيداً مرتعش
الخطوات.. لم تكن الراقصة الأولى فقط
كالأهرامات.. بل كانت معجزة المعجزات
تحى الأموات!

من ساعتها قرر هذا الجورنالجي المنكوب
أن يكتب كل جرائدنا بالمقلوب!

أقر وأعترف أن:

في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي يرتدى عباءة الوقار، ويتدثر برداء الفضيلة وهو يخضع
الجميع بحبر الرذيلة!

في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي يطلق لحيته ويقف على باب نقابته ممسكًا بالميكروفون
يدعو للحرية، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقاب، ويحرم
عليهن مشاهدة التلفزيون أو ارتداء البنطلون!

في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي يقضى أكثر من نصف الليل ساهراً بيدع سطوراً عن القيم
العليا، والمبادئ الأخلاقية السامية، وبعد صلاة الفجر يسكرويعريد
ويضاجع راقصة مصر الأولى!
في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي لا يكتب حرفاً ولا يخط سطرًا إلا إذا وصله المعلوم في
مظروف مختوم من جهة سيادية عليا، ومملوء بآلاف الجنيهاات ثم
الكلمات ولا يجرؤ مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم
الذهبي مرثشياً!

في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي يرسل بامرأته لمسئول سياسى كبير فى فندق شهير تحت
حراسة مشددة طمعاً فى أن يمن عليه الكبير بكرسى رئيس التحرير!
في بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجي يتباهى بحب مصر جهازاً نهاراً ويفخر فى مقالاته بأنه يركب

طائرة الرئاسة ، وفي سره يلعن المحروسة ، ويصف شعبها بالحقير ، ويعرب
لأقرب المقربين بتأفف أن حظه العثر جعله يعيش في هذا البلد القذر!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جورنالجي نال الحصانة الدبلوماسية بعضويته البرلمانية ، وأسس حزباً
سياسياً للعدالة الإنسانية ، واتخذ ستاراً للموبيقات وغسيل الأموال القذرة ،
والسمسة في الممنوعات والمحرمات!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جورنالجي جاء من قريته النائبة بإحدى المحافظات الزراعية ودخل
المهنة ، وهو لا يملك تذكرة العودة بالقطار ومع الأيام صار نقيباً لكل
الجورنالجية ، واستغل موقعه الحساس لبيتز الأكابر والوزراء ، ويصبح من
أثرى الأثرياء!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جورنالجي يحج كل عام ، ولا يترك ركعة من صلاة ، ويعلن الجهاد ضد
الفنانات المحجبات ، ويطلق البهن بنزع الحجاب ، والعودة لإرتداء المايوهات!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جورنالجي يبيع صفحات جريدته يومياً ويؤجرها مفروشة لبرامج
الفضائيات الليلية التي يطلقون عليها " التوك شو " لتحقيق رواجاً جماهيرياً
قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدي القراء في اليوم التالي!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جورنالجي طاهر قديس شفاف عذب ، وآخر داعر واعر عاهر تائه بين
الأخبار والأشعار يبحث له عن قرار!
في بلاط صاحبة الجلالة :

جنرال المقالات النارية ، والمدافع الصحفية ، عاش طفولة بائسة ونهشه
الضنك ، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية

كبرى فحول أحد طوابقها إلى فندق خمس نجوم، وكان يدير ٥ آلاف عامل وموظف ومحرر ومصور من تحت الماء المعطر في مقر إقامته بالجاكوزي الذي أقامه في المؤسسة!

في بلاط صاحبة الجلالة:

بارونات تربعوا على عرش الصحافة ربع قرن، وكان أحدهم يتقاضى ٢ ملايين جنيه شهرياً، وعندما دخل السجن طلب صندوق مياه ماركه "إيثيان" الفرنسية!

في بلاط صاحبة الجلالة:

قليل من ملائكة الفردوس الأعلى

وكثير من شياطين أسفل سافلين!

" لا تختلف الحياة الخاصة للجورنالجي عن الحياة الخاصة
لممثل السينما .. إنها طبيعة النجوم سواء أمام الكاميرا أو
أمام الكعبة! "

لم تكن " الجورنالجي " كلمة شائعة في البلاد العربية قبل بداية القرن
الثامن عشر، وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر عام ١٧٩٨ بالمطبوعة ،
وأنشأ محمد على صحيفة " الوقائع المصرية " عام ١٨٢٨ صار الجورنالجي
هو اللقب الرسمي لكل من يحترف مهنة البحث عن المتاعب، ويتكسب
رزقة في بلاط صاحبة الجلالة!

فمنذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وخلق في شرايينه غريزة حب
الاستطلاع، تلك الغريزة التي أخرجت آدم وحواء من الجنة، اعتمد الإنسان
في كل مكان وزمان أن يحترف نقل الأخبار عمداً أو سهواً ليتواصل مع
الآخرين.. حدث هذا منذ آلاف السنين، بمعنى أن عملية نقل الأخبار قديمة
قدم الدنيا وولدت مع مولد الإنسان.. وليست النقوش الحجرية في مصر
والصين وعند العرب وغيرهم من الأمم العريقة إلا درباً من دروب الصحافة
في العصور السحيقة، وقيل أن يعرف الإنسان الصحافة الحديثة بزمان!
ولعل أوراق البردى التي استخدمها المصري القديم قبل أكثر من خمسة
آلاف عام كانت نوعاً من النشر أو الإعلام أو الصحافة في فجر نهارها
الأول.

وكان الحكام والملوك والفراعين يلجأون إلى الحجارة قبل أن يعرفوا
ورق البردى لنقش الأوامر الرسمية والحكومية على أنواع متعددة من
الأحجار ثم ترسل إلى حيث توضع في المعابد التي يكثر تردد الناس
عليها، ومن أشهر وأخلص هذه الأحجار حجر رشيد الذي فك طلاسم رموز

لغته الهيروغليفية العالم الأثرى العبقري الفرنسي "شامبليون"، ومن خلاله وقفت الدنيا كلها على سر الكتابة المصرية القديمة، وقد وجدوا من هذا الحجر نسختان في منتصف القرن العشرين، إحداهما أخذها الإنجليز عقب حملة نابليون بونابرت على مصر، ووضعوها في المتحف البريطاني في لندن، أما النسخة الثانية فقد تم العثور عليها بعد ذلك، وهي توجد الآن في المتحف المصري بقلب القاهرة.

والطريف في الأمر أنهم وجدوا أن "حجر رشيد" مكتوبًا بثلاث خطوط هي.. اليوناني والديموطيقي والهيروغليفى، وهذا الحجر العتيق يعود إلى عهد بطليموس، أى نحو عام ١٩٦ قبل الميلاد، وكان الغرض من كتابته هو إذاعة قرار أصدره المجمع الدينى في ذلك الوقت، وقد كتبوه بالخط اليوناني ليخطبوا اليونانيين، والخط الديموطيقي ليخطبوا به عامة الشعب، والخط الهيروغليفى للكهنة، وبذلك فإن حجر رشيد كان يعد جريدة واسعة الانتشار قيل أن تعرف الدنيا معنى الجورنال والجورنالجية في زماننا هذا... ويروى المؤرخ اليهودى "يوسف فلافيوس" أنه كان لبابليين مؤرخون مكلفون بتسجيل الحوادث اليومية، شأنهم في ذلك شأن الصحفيين أو الجورنالجية في عصرنا الحالى، وقد كان لبابل شهرة واسعة ذائعة الصيت لاتقل عن شهرة منف وطيبة في مصر القديمة والتي بلغت أوج مجدها في عهد الملك حمورابى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد الذى تسبب إليه أول صحيفة في العالم، وهى مجموعة حمورابى للقوانين، والتي عدها علماء تاريخ القانون أول صحيفة صالحة للتداول بين الناس، ولا تختلف كثيرًا عن صحيفة الوقائع المصرية، وغيرها من الصحف الرسمية التى تنشر القوانين، واللوائح، وقد لا يعرف الكثيرون أن معظم الحضارات القديمة مثل حضارة الصين، والأغريق والرومان تبادلت الأخبار المخطوطة فيما بينها.

ويذكر المؤرخون أن يوليوس قيصر عقب توليه السلطة عام ٥٩ قبل الميلاد أنشأ صحيفة مخطوطة اسمها "أكتاديورنا" وتعنى "الأحداث"

ونشر فيها أخبار مداولات مجلس الشيوخ، وأخبار الحملات العسكرية، والأخبار الاجتماعية، وأخبار الفضائح والجرائم، وحتى الموالييد والوفيات، وكان لهذه الصحيفة محررون، ومراسلون في جميع أنحاء العالم، وكانوا غالباً من موظفي الدولة.

ولم يعرف العالم الانتقال الهائل في معنى الصحافة إلا في القرن الخامس عشر الميلادي وبعد إختراع يوحنا جوتنبرج للطباعة بالحروف المعدنية، وكان هذا الفتى الفذ الذي ولد في مدينة ميونخ الألمانية عام ١٤٠٠ ميلادي قد كتب تاريخاً جديداً للكلمة المكتوبة، ولاحظ يوحنا جوتنبرج أن عملية التعلم والقراءة والكتابة، وتداول الكتب مقصورة على الأغنياء فقط من دون الفقراء، وذلك بسبب نظام النساخ الذين ينسخون الأوراق نظير أجر كبير لا يقدر عليه سوى الأثرياء، ومن هنا فكر جوتنبرج في تكرار النسخ على نطاق أكثر اتساعاً من خلال اختراعه لحروف الطباعة المتفرقة والمسبوكة من المعدن، مما أحدث انقلاباً فكرياً لم يشهده العالم من قبل إذ بفضل هذا الإختراع أمكن حفظ تراث الأجيال السابقة، وتمكين الأجيال اللاحقة من تحصيل العلم والمعرفة، واقتناء الكتب والمطبوعات.

وقد أراد جوتنبرج أن يشكر ربه على هدايته إياه لهذا الإختراع، فبدأ بطباعة الإنجيل، وطبع منه آلاف النسخ بين عامي ١٤٥٢ و ١٤٥٥، وبعد ذلك انتشرت طريقته جوتنبرج في الطباعة، وعرفها العالم كله، تلك الطريقة التي ساعدت على ظهور الصحافة الورقية بشكلها الحديث.

وبعد النقش على جدران المعابد، وأحجار المسلات والتماثيل تعد مصر أول دولة عربية عرفت الصحافة بمعناها العصري، وارتبطت معرفتها بالصحافة من خلال الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ومن خلال صحيفتين أصدرتهما الحملة آنذاك.. الصحيفة الأولى كانت صحيفة عسكرية صدرت باسم "كورييه دي ليجييت" وأصدرتها الحملة بعد شهر واحد من

غزوها مصر، وكانت تشتر الأوامر العسكرية فضلاً عن بعض النوادر، والفكاهات التي ترفه عن الجنود وترفع روحهم المعنوية، أما الصحيفة الثانية فكانت صحيفة علمية صدرت باسم "لاديكاد اجبيسيان" وصدرت في أكتوبر من عام ١٧٩٨ وكانت تهتم بدراسة مصر من الناحية العلمية والثقافية والأدبية، ومن المؤسف أن كلا من الصحيفتين لم توجها إلى المصريين ولذلك صدرتا باللغة الفرنسية، ولم يكن من بين محرري الصحيفتين مصري واحد.

وكانت هناك محاولات لتعويض هذا النقص بإصدار صحيفة باسم "التنبيه" من جانب القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر الجنرال "جاك فرانسوا مينو" الذي عاش بين عامي ١٧٥٠ و ١٨١٠ حيث ولد في إحدى مدن غرب فرنسا والتحق بالعمل العسكري في فترة مبكرة من حياته حتى انضم إلى جيش نابليون بونابرت وبعد مقتل كليبر القائد الثاني للحملة الفرنسية على يد سليمان الحلبي الشاب السوري الذي كان يدرس في الأزهر الشريف.. تسلم الجنرال جاك مينو أو عيد الله مينو بعد إعلان اسلامه ليتزوج من امرأة مصرية مسلمة تدعى زبيدة، وهي ابنة أحد أعيان مدينة رشيد، وأثناء قيادته للحملة الفرنسية في مصر رزق عيد الله مينو من زوجته زبيدة بولد أسماه سليمان تيمناً باسم سليمان الحلبي الشاب الذي قتل القائد الفرنسي كليبر، وأعدمه الفرنسيون.. وأصر مينو على هذا الإسم لإبنته نتيجة كراهيته الشديدة لسلفه وقائده الجنرال كليبر.. وبعد هزيمة الفرنسيين أمام الإنجليز، وتحطم أسطولهم الذي كان أقوى ما يميزهم، ووآد أحلامهم الإستعمارية في مصر وقعوا معاهدة الإنسحاب من المحروسة، والعودة إلى فرنسا على متن السفن البريطانية، وعاد الجنرال مينو إلى وطنه أيضاً، وبرغم مرارة الهزيمة وضيق الحلم الفرنسي الجميل على شواطئ مصر قلدته فرنسا العديد من المناصب الرفيعة، وظل محط تقدير واحترام حتى رحل عن الدنيا في ١٢ أغسطس ١٨١٠، وعمره حوالي ٦٠ عاماً بالتمام والكمال.

وبعد نهاية عصر الفرثسيين في مصر سطع نجم الجندي الألباني تاجر الدخان المعروف باسم محمد علي، وصعد إلى كرسى الحكم في مصر عام ١٨٠٥ وعرفت البلاد الإزدهار على يديه في كافة المجالات، سواء من الناحية الثقافية أو العسكرية أو الاقتصادية بهدف بناء الدولة الحديثة القوية، واستدعى ذلك تنظيم إداري للدولة بفكر جديد مما استلزم تقديم ما يحدث في صورة تقارير تعرض على والي، وعرفت هذه التقارير في ذلك الوقت باسم "جورنال" وكان في بداية صدوره شهرياً ثم بعد ذلك أسبوعياً حتى صار فيما بعد يومياً.. وتطور اسمه مع الأيام ليصبح "جورنال والي" ويطلع منه مائة نسخة بمطبعة القلعة، وكان متضمناً الأخبار الرسمية، وبعض قصص ألف ليلة وليلة، ومنذ ذلك عُرف كل من يكتب أو يحرق في "جورنال" باسم الجورنالجي وهي كلمة أصولها القريبة إنجليزية، وجذورها البعيدة لاتينية، وظلت متداولة فيما بعد لتشمل كل من يعمل بمهنة الصحافة، وعندما صدرت أول صحيفة فعلية في مصر موجهة للمصريين، وتوزع على الشعب ألا وهي "الوقائع المصرية" عام ١٨٢٨ بأوامر من والي محمد علي باشا أطلق على كل محرر فيها لقب "جورنالجي" وكانت تطبع في مطبعة بولاق، وتشر فيها أخبار الحكومة والمحكومين، وما يستجد من شئون البلاد والعباد، وفي بدايتها كانت تحرر باللغة التركية ثم تترجم إلى اللغة العربية، وبلغ عدد النسخ المطبوعة منها كل مرة ٦٠٠ نسخة توزع على كبار رجال الدولة، والعلماء والعسكريين، وطلاب المدارس، وفي سنة ١٨٤٠ تولى رفاعة الطهطاوي رئاسة تحريرها، وقام بإصدارها باللغة العربية على أن تترجم فيما بعد إلى اللغة التركية، حيث كانت مصر في تلك الفترة لم تخرج بعد من تحت عباءة الدولة العثمانية ولغتها الرسمية التركية!

كانت القاهرة دائماً وأبداً هي كعبة هواة الصحافة في العالم العربي.. وكانت الصحف والمجلات التي تصدر في مصر في أيدي جماعة من الصحفيين الشوام.. "الأهرام" من إنتاج أسرة تقيلا.. ودار "الهلال" أصحابها

آل زيدان.. والصحف المصرية مائة في المائة ، وكانت تزدهم هي الأخرى بالصحفيين والفنيين والإداريين الشوام. واستمر الوضع على هذا الحال ، إلى أن تبه الجيل الجديد من الصحفيين المصريين إلى أهمية هذه الصناعة ، وإلى ضرورة أن تصدر الصحف بأيدي مصرية ، وبأقلام مصرية ، وظهرت مجموعة من الصحف والمجلات المصرية أشهرها " المصري " ، و " روزاليوسف " ، و " أخبار اليوم " ، و " آخر ساعة " . ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووضح منذ البداية أن هناك من لا يرضى عن حرية الصحافة ، ومن يزعمه النقد الذي تشهده الصحف.. كان البعض شديد الحساسية تجاه أية كلمة تكتب ضده أو ضد عمله أو ضد الجهة التي يشرف عليها.. وكان البعض لا يثق أبداً في الصحافة ، ولا في معظم أقلامها القديمة والمعروفة ، باعتبار أن هذه الأقلام سبق أن هلكت للماضي ، وأيدت الفساد ، وباعت نفسها للأحزاب ، وبالتالي فمن الصعب جداً الآن الإطمئنان إلى إخلاص تلك الأقلام ، أو الثقة في أصحابها ، والدليل على عدم ثقة الثورة عند قيامها وخوف السلطة من الصحافة أن مجلس قيادة الثورة قرر إصدار صحيفة تعبر عن الثورة ، فصدرت " الجمهورية " وكان صاحب امتياز إصدارها هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وتولى أنور السادات رئاسة تحرير " الجمهورية " بجانب مهامه الأخرى كعضو مجلس قيادة الثورة ، ولحسن الحظ أن أنور السادات كان قد سبق له العمل الصحفي قبل قيام الثورة بسنوات طويلة وكان يعمل محرراً في مجلة " روزاليوسف " وعمل في " المصور " ، ومارس جميع تخصصات العمل الصحفي حيث عمل مخبراً صحفياً ، وكاتباً سياسياً ، وترجم القصص عن الانجليزية والألمانية والفارسية.

وهناك من الضباط الأحرار الذين لم يحترفوا الصحافة من قبل كما احترفها السادات ولكنهم عملوا بالصحافة وتولوا مراكزها الأولى في الصحف والمجلات التي أصدرتها الثورة في سنواتها الأولى.. رأينا خالد محي الدين يتولى مسئولية إصدار صحيفة " المساء " .. ورأينا ثروت عكاشة يتولى رئاسة تحرير مجلة " التحرير " وتولى صلاح سالم مسئولية

"دار الشعب" وأصدر صحيفة "الشعب" ثم انضمت هذه الصحيفة إلى دار التحرير واندمجت في صحيفة "الجمهورية" وتولى صلاح سالم رئاسة تحرير "الجمهورية".

وكانت القاهرة تمتلئ بالصحفيين اللبنانيين منهم الأكفاء، ومنهم غير الأكفاء، منهم من ثقفتهم المعاهد والجامعات، ومنهم من ثقف نفسه بجهوده الذاتية.

منهم من احترف الصحافة لأنها المهنة الوحيدة التي قبلته، ومنهم من عمل بالصحافة لأنها المهنة الوحيدة التي عشقها وأحبها!

وسارت الصحافة فوق الأشواك بين شد وجذب مع السلطة، عملت السلطة الرابعة خادمة تحت أقدام الحكام، وتمردت وثارت أحياناً ودفعت الثمن بتكميم الأفواه، واسكات الأقلام بقوة السلاح وبلسعات الكرياج!

تلك هي قصة الصحافة عبر العصور.. تلك هي قصة الجورنالجي في أي عصر وأيه جريدة أو مجلة من البداية ولكن مازالت أحداثها ممتدة بلا نهاية.. والآن نطوى الصفحات القديمة لجورنالجي الزمن الغابر، ونطالع صحيفة أحوال جورنالجي الزمن الحاضر!

"المرتشون واللصوص والقوادون والزناة واللوطيون وحائكو
المؤامرات هم الذين يصيغون وجه الحياة مثل الصالحين
والمصلحين تمامًا"

لم تكن الشهادة الجامعية هي أزمة ناجى شرف الدين، ولم يكن التخرج
معضلته المستعصية، بل كانت أم الأزمات هي التي اصطدم بها بعد التخرج
من الجامعة، وحصوله على البكالوريوس في الاعلام، ودائمًا طوال سنوات
الدراسة في قسم الصحافة بجامعة القاهرة كان صديقه عزت النجار زميل
غرفته في المدينة الجامعية يقسم له بأغلظ الأيمان أنه رأى بعينه في مكتب
شئون الطلاب بالكلية الآلاف من شهادات البكالوريوس المطبوعة على
بياض، وتنتظر فقط أن يمسها الحبر لتدوين أسماء الطلاب.. الكلية ليست
في حاجة إليها.. إذن فالتخرج مضمون، ولكن الطامة الكبرى تأتي بعد
ذلك.. فالجو معبأ بالمتعطلين، والبطالة تيث سمومها في جسد المجتمع مثل
فيروس رهيب، ولا مجال لاختراق سوق العمل والإفلات من قبضة البطالة إلا
ببركة دعاء الوالدين أو وساطة أحد الواصلين ذوى النفوذ في هذا البلد!

ولت سنوات الدراسة كطيف خفيف لطيف عابر، مرت كحلم وردى
هادئ رومانسى، وتراءى له الواقع بعد ذلك قائم مثل كابوس كئيب أسود
لا فكاك منه!

انتهت علاقته العابرة بحاضرة مصر، وقاهرة المعز في يوم تخرجه، وكأنه
يوم خروجه النهائي الأبدى من تلك المدينة التي تشبه زوجة الأب الشرسة التي
تقسو على ضيوفها من الغريباء وتبارزهم بلا هوادة ولا رحمة!

تحنو على أولادها فقط، وتقسو على ما سواهم، وتبدو بلا قلب ولا منطق
عكس كل المدن التي لها قلوب ومشاعر.. هي مدينة ليست كالمدائن

الأخرى فى العالم.. مدينة لها فلسفتها وأبجديتها السريالية التى تثير حيرة الكثيرين فى كل زمان ومكان.

عاد ناجى شرف الدين إلى قريته النائمة على كف النيل ، ولا مكان لها على خريطة المحروسة سعيداً تقيساً ، فرحاً مرحاً قلقاً هلعاً.. نال من جامعة القاهرة العريقة بغيته ، وحقق مأربه ، وحصد شهادته العليا ، وانتزع حلمه من علمه ، وصار واحداً من حملة الدرجات العلمية الكبرى فى قريته الصغرى ، ومن كلية مرموقة يطلقون عليها فى الصحف كلية القمة.. كانت ومازالت تلك الكلية مقصد الفقراء وأولاد الذوات ، ومحط أنظار أبناء الأكابر والأكرمين.. فهى المفتاح السحرى الذى يفتح أمامهم أبواب صاحبة الجلالة ، ويمنحهم تأشيرة عبور ملكية إلى فضاء الشهرة الصحفية والنجومية فى القنوات التليفزيونية ، والمحطات الإذاعية.. ولم لا؟ والاعلام صار هو الطريق البراق لكل باحث عن شهرة أو ثروة أو مجد ذاتي.. ولم لا؟ وتلال الصحف السيارة تتوالى فى الصدور ، والمطابع لا تتوقف وتلقى بثمارها وفلذات أكبادها على الأرصفة وفى المكتبات مع بزوغ كل فجر ، ومئات الفضائيات تملأ السماوات ، والأقمار الصناعية تجول فى الأفاق ، وتتزاحم فوق السحاب وتقض مضاجع الكواكب والأفلاك ، وتزعج سكون المجرات!

لم يصدق ناجى شرف الدين أنه أتم رسالته ، وأكمل مهمته ، وعاد من القاهرة بشهادته التى طالما سمع أمه تدعو له باقتناصها فى كل صلواتها ، وانضم لطابور العاطلين المكتئبين ، ولم يصدق أيضاً أن تكون تلك نهاية رحلته بين الكتب والفصول والمحاضرات والمدرجات ، فهو لم يقصر ذات يوم فى أى شئ ، لم يتكاسل عن أداء واجب ، ولم يتخاذل عن الدرس والبحث والفحص والمحص ، وانفاق نور عينيه بين الكتب حتى نجح بتفوق فى كل مراحل دراسته ، ولم يخطر له يوماً على بال فى أسوأ حال أن تفعل الحكومة فعلتها ، وترفع يدها التى كانت بيضاء عن الخريجين ، وتفض

ولايتها عن تعيينهم، فجأة وبلا مقدمات وجد نفسه كما لو كان عارياً
فى ميدان عام، والدنيا كلها تتفرج عليه.. لقد تخرج فى واحدة من أعظم
الكليات.. فلماذا إذن تركوه هكذا؟

لماذا إذن كرمه محافظ الغربية بعد حصوله على ٩٠٪ فى الثانوية
العامّة؟ ولماذا ألقوا به فى النهاية لوحش البطالة كى يفترسه بضراوة؟
أليس هو ذات الشخص الذى تفوق، وحصد الدرجات العلا فى كل المراحل
التعليمية؟

لم يستطع أن يتفهم هذا التناقض المريب فى هذا البلد الغريب، وذات
مرة طرح هذا التناقض على واحد من أبناء قريته كان قد هاجر إلى فرنسا
قبل عشرين عامًا ثم عاد فى إجازة قصيرة لزيارة الأهل والأحباب، وقراءة
الفتاحة على روح ذكريات الصبا والطفولة، ومطلع الشباب.. فقال الرجل:
— يا ناجى لا تنسى أنك تعيش فى مصر وما أدراك ما مصر.. إنها بلد
المتناقضات.. المضحكات المبكيات.. ولو اطلعت على دستور مصر يا
عزيزى سترى العجب العجائب!

انبرى ناجى دهشًا متسائلًا: الدستور.. ماذا فى الدستور؟
قال الرجل العائد تَوًّا من بلاد الجن والملائكة:

— المادة الثانية من دستور مصر تنص على أن الاسلام دين الدولة ومبادئ
الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.. أما المادة الخامسة من
الدستور المصرى أيضًا تقول: "لا تجوز مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام
أحزاب سياسية على آية مرجعية دينية أو أساس دينى". .. هل هناك تناقض،
وتضاد أكثر من ذلك يا صديقى؟ الحمد لله أنتى فضلت الهجرة عن هذا
البلد منذ سنوات وعقب تخرجى من الجامعة وسافرت إلى فرنسا، وحصلت
على جواز سفر وجنسية فرنسية، ولو بقيت فى مصر حتى اليوم لمت كمدًا
وهماً وغيطًا أو أصابنى مس من الجنون!
تساءل ناجى شرف الدين باعجاب:

— وكيف تحفظُ نصوص الدستور المصري، وأنت تعيش في باريس منذ أكثر من عشرين عامًا؟

الدستور يا ناجي لم يتغير منذ كنت تلميذًا في الابتدائية، وأظن أنه لن يتغير في حياتنا، قد يتغير القرن القادم أو بعد القادم الله وحده يعلم ولا تنسى أن بعض مواد الدستور كان مقررًا علينا حفظها، ونحن في المرحلة الابتدائية ضمن مادة التربية الوطنية، التي كنا ندرسها في ذلك الزمن. وأعرف هذا التناقض منذ كنت طفلًا غرًّا!

كما أن هذا الأمر ليس هو أول ولا آخر المتناقضات في مصر المحروسة.. بل هناك في الوقت الحالي حوالي ١٨٠٠ مستشار فوق الستين من العمر يتقاضون أكثر من مليار و٢٠٠ ألف جنيه سنويًا، وأنه لا توجد معايير محددة لاختيارهم بالإضافة إلى عدم وجود نص قانوني لتحديد مهامهم أو رواتبهم.. هل يعقل ذلك في دولة تئن من البطالة ويصل عدد عاطلين بين شبابها أكثر من أربعة ملايين عاطل؟

لأن ناجي بالصمت الرهيب شاردًا يفكر في لأشئ ويحدق في الفراغ وهمس لنفسه دون أن يسمعه أحد:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. الهجرة صارت الآن من رابع المستحيالات، ومن لم يمت اليوم في بلده كمداً من أحوالها وتناقضاتها، مات غرقاً في محاولات السفر أو ألقوا القبض عليه بتهمة الشروع في الهجرة السرية غير الشرعية إلى جنة أوروبا الموعودة!

" الأنثى كالدynamيت .. أخطر الألعاب! "

انتفض هاتف الجيران من شدة الرنين ، وإلحاحه المتواصل ، استدعوه ليرد .. كانت على الناحية الأخرى من الخط زميلته إيناس مندور .. بمجرد أن سرت نبرة صوته عبر الأثير وسمعتها قالت:

— ألف مليون مبروك يا ناجى.

— الله يبارك فيك يا إيناس .. أخيراً تحقق الحلم .. لكن يا ترى ما التقدير؟

— جيد جداً يا حبيبى .. قالتها بعفوية ، وتلقائية وبراءة الأطفال الذين أكل السوس أسنانهم من كثرة إلتهاام الحلوى.

سألها ناجى شرف الدين بطريقة ميكانيكية دون تفكير:

— وأنت يا إيناس؟

ضاحكة مستبشرة قالت:

— وهل تشك فى كفاءتى .. نجعت طبعاً .. صحيح تقديرى أقل منك لكنى أسعد منك بالتخرج!

— لابد أن تقديرك يا إيناس جيد؟

— صحيح .. هو كذلك.

— مبروك .. مبروك.

— لكن ماذا ستفعل يا ناجى فى الأيام القادمة .. أقصد بعد التخرج والحصول على البكالوريوس؟

سادت بينهما لحظة صمت عبر الهاتف كأنها الدهر كله ثم قال بعد شهيدة حارة ذات مغزى:

— والله يا إيناس لا أدري ماذا سأفعل ، ولا ماذا تخبئ لى الأيام على كل الأحوال المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى وحتى الآن لم أفكر فى الغد ولا ماذا أفعل.

هتفت إيناس بحماس:

— أحسن شئ تفعله أن تعود إلى القاهرة ، وتبدأ حياتك العملية فى الصحافة فهى حلم حياتك ومجال دراستك وتخصصك.

— معك حق يا إيناس لكن يبدو أنك تغافلت عن شئ مهم جداً

— ما هو؟

— الخدمة العسكرية.

— يا سلام عليك يا ناجى.. قد تحصل على تأجيل أو إعفاء لا تفقد الأمور.. المهم أريدك فى القاهرة ، ولا تنسى عندما تقرر أن تبغنى فوراً.

— طبعاً.. طبعاً.. وأنت يا إيناس ماذا ستفعلين؟

قالت ضاحكة بثقة وزهو:

— سوف أعمل فى أكبر مؤسسة صحفية قومية فى البلد.. فى مؤسسة الأيام طبعاً.

— الأيام مرة واحدة يا إيناس؟

هل نسيت يا ناجى أننا تخرجنا فى كلية الاعلام قسم الصحافة والنشر.. أفضل الكليات المرموقة فى البلد.. أم تريدنى أن أعمل فى مؤسسة الأيام على صفحة وأترك صفحة؟

— ربنا يوفقك يا عزيزتى.

قالها بصوت نحاسى بارد منزوع الحرارة وهو يتمتم فى نفسه دون أن تسمعه: والله أبناء القاهرة أكثر حظاً منا نحن أبناء الأقاليم.. فلا تصل إلنا مثل هذه الفرص الذهبية للعمل فى المؤسسات الصحفية الكبرى التى تعد حلمًا عزيزاً بعيد المنال على الريفيين أمثالى!

شرد قليلاً وهي لا تزال معه على الجهة الأخرى من الهاتف، وصار صوتها أشبه بالصدى البعيد الشاحب أو السراب الخافت الواهن وهي ترد:

— سأنتظر منك مكالمة تليفونية.. يجب أن تلتقى في أول مرة تعود فيها للقاهرة.. سأنتظرك لا تتأخر.. هيا أيها الريفى إرجع..

أفاق من شروده على مداعبتها بوصفه بالريفى فتبسم قائلاً:

— إن شاء الله.. إن شاء الله فى القريب العاجل.. مع السلامه ألف سلامة. كانت علاقته مع ايناس مندور تلك الفتاة الغامضة تتأرجح بين الإعجاب والحذر ويعتبرها نوعاً من مواكبة حياة المدينة، والإختلاط بين الفتى والفتاة داخل أسوار الحرم الجامعى، وكانت تصرفاتها تثير حيرته فى كثير من الأحيان للدرجة أنه وصفها ذات مرة بالمجنونة، فقد كانت تزوره بين العين والحين فى المدينة الجامعية حيث يسكن على بعد خطوات معدودات من بوابة الجامعة، عندما يتغيب عن حضور المحاضرات تباغته بزياره دون ترتيبات مسبقة، واللقاء دائماً ما يكون فى استراحة المدينة الجامعية، وذات يوم فوجئ بها تطرق باب غرفته، هذه المرة دسست ميلغاً مغرياً من المال فى يد الحارس، وأوحى إليه بأنها تود زيارة شقيقها فى غرفته لأنه مريض وهي تحمل له بعض الأطعمة، والفواكه وسوف تعود بسرعة دون أن يشعر بها أى مخلوق.. أدرك الحارس كذبها لكنه تركها ودفع المبلغ فى جيب سرواله الميرى الأسود، وهو يتلفظ فى كل الاتجاهات كأنه يرتكب أكبر الكبائر.. يومها فوجئ ناجى شرف الدين بطرقات خفيفة هامسة ناعمة على باب غرفته، نهض من فراشه مرتدياً ثي شيرت أبيض عليه صورة كاريكاتيرية لتوم وجيرى وفى نصفه الأسفل يرتدى شورتاً أزرق اللون، فتح الباب ظناً منه أن زميله عزت التجار جاء كعادته يطلب السخان الذى يستعيره أكثر من مرة فى اليوم الواحد كلما أراد اعداد الشاي.. ألجمته المفاجأة، وبجراحة تحسد عليها اقتحمت غرفته ودخلت دون أن ينطق بكلمة ألقت عليه كلمات ترحيب قصيرة وحميمة لم

يرد من شدة الصدمة، ثم جلست على السرير، وتركت كرسي المكتب خاوياً، أغلق الباب والنافذة بسرعة خوفاً من أن يراها أحد معاً بين أربعة جدران وثالئها الشيطان..

لم تتعجب هي أو تزعج من فعلته تلك، وإنما تساءلت بهدوء وثقة فجاءها رده فزعماً مرتبكاً:

— يا ايناس.. ممنوع.. ممنوع.. كيف دخلت إلى هنا؟ كيف تخطيت الأسوار والبوابات والحواجز والحرس؟ هذه المدينة فيها الحراسة مشددة أكثر من سجن عسقلان الإسرائيلي! قالت مطمئنة اياه:

— لا تخف يا ناجي أنا أتحمل المسؤولية.. إهدأ وافتح النافذة حتى لا تتحول غرفتك إلى زنزانة بالفعل.

— يا ايناس حرام عليك.. لا أريد فضائح هنا.. لا مأوى لي في القاهرة سوى هذه الغرفة.. هل تريدني أن يطردوني من هنا شرطردة؟ بالله عليك المفروض أن المقابلات والزيارات تتم خارج الغرف، سواء في الاستراحة المخصصة للزوار أو حتى في حديقة المدينة الجامعية، لكن يبدو أنك بجنونك سوف تجعليني من سكان الرصيف!

ضحكت بملء فمها ضحكة هيسستيرية مجلجلة من صميم قلبها خشى أن يصل صوتها المدوى إلى جيرانه من الطلاب في الغرف المجاورة فتكون الطامة الكبرى، وهي المرة الأولى التي تزوره فيها أنثى..

وضع يده على فمها فأحس بسخونة شفيتها النافرتين المكتنزتين، وكأنهما خلقتا للقلبات ليس إلا وقال محذراً متوسلاً:

— أرجوك يا ايناس.. أصمتي يرحمك الله.

قالت بنبرة رجاء وتوسل:

— الله يا ناجي.. لماذا تحرمني من الضحك يا قاسي القلب؟ ألا تعرف

أن علماء النفس يؤكدون من واقع دراساتهم العلمية أن الضحكة
الواحدة تعادل ٤٥ دقيقة من الإسترخاء اللذيذ.. ألا تعرف؟
بدا في قمة غيظه :

— أي استرخاء هذا؟ ولماذا أيضًا؟ ومن أين يأتي الإسترخاء وتأتي اللذة؟
والله يا إيناس يا مندور لن تأتي المصائب إلا من وراء جنوبك!
وبالفعل ما هي إلا لحظات معدودات، وسمع طرقات عنيفة غليظة تدق
الباب وتضربه.. ظن أن القيامة قد قامت، وأنه هالك لا محالة، والجريمة
ثابتة عليه ولا تقبل التكرار أو التشكيك.. ها هي الأنثى بشحمها ولحمها
في غرفته والباب مغلق عليهما.. الجريمة كاملة متكاملة الأركان،
والفضيحة واضحة.

همس لها :

— ألم أقل لك.. ها هم قد جاءوا ليقبضوا علينا حتى تستريح يا إيناس.
تساءلت دهشة :

— ومن هم هؤلاء يا ناجي؟

— سؤال غريب.. ماذا تظنين.. جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر!

قالها ساخرًا متحسرًا قبل أن يسمع من يتكلم أمام باب الغرفة :

— افتح يا ندل يا جبان.. افتح يا مفجوع.. أين الطعام هل ستأكله
وحده؟

عرفه من صوته الأجلش المتحشرج الغليظ كصوت قطار الدرجة الثالثة ،
كان زميله سامح إدريس الطالب في كليه دار العلوم ابن المنصورة الذي
يلعب ضمن فريق الجامعة للمصارعة الحرة ، ويتدرب يوميًا على رفع الأثقال
، ولا هم له إلا التدريب ، والتهام دجاجتين على الأقل يوميًا عن طريق
الحصول على وجبات زملائه الذين يسافرون إلى محافظاتهم ، ودائمًا ما

كان يستعين بصديقه ناجى شرف الدين لمساعدته فى الحصول على بونات يصرف بها وجبات غذائية إضافية، وفى هذا اليوم أكله الجوع، فهجم على غرفة ناجى كالوحش الضارى، وبسرعة أدرك ناجى مراده ومقصده! فتح له الباب ريع فتحة، وناولته أربعة بونات للطعام، ولم يسمح له بدخول غرفته بحجة أنه مرهق، ويريد أن ينام، وذلك بعد أن وارى إيناس فى أحد الأركان بعيداً عن مرمى بصر سامح إدريس، ونظراته الجريئة المقتحمة.

— نام يا جيان.. نام.. لو عشت ستين عاماً ستنام منها أربعين.. ستقضى أكثر من نصف عمرك نائماً يا مغفل!

قالها مازحاً ساخرًا وهو يقبض على البونات كما يقبض الأسد الجائع على فريسته الشهية، وتبسم بخبيث وهو يدرك أنه الآن أصبح يمتلك دجاجتين، وسوف يأكل حتى الثمالة.

أغلق ناجى شرف الدين باب غرفته، وتلفت فاحية إيناس مندور وقال لها لائماً معاتباً:

— هذا المجنون صديقى، لكنه على أتم استعداد لأن يفضحنى، ويشهر بى بلا رحمة فى آيه لحظة.. أرايت يا حلوة نتيجة طيشك وهوسك ها أنذا أعطيت بونات طعامى حتى يتلهى بعيداً عنى.. لكننى لن أتركه يجهز عليها وحده، لسوف أباغته وأقتنص نصيبى منها.

— عمومًا لا تغضب يا ناجى سوف أعزملك.. هيا ارتدى ملايسك ودعك من صديقك وهذه الغرفة التى تشبه زنازة الحبس الإفرادى وتعالى نخرج سوياً لنقضى يوماً جميلاً، ونرى الدنيا وما فيها.

وبالفعل خرجا معاً، وبالقرب من بوابة المدينة الجامعية استقلا سيارتها الصغيرة الجديدة، وانطلقت بهما حيث لا يعرف إلى أين تقوده، وما وجهتهما.. كان مازال شارد الذهن يفكر فى حراس بوابة المدينة الجامعية وهم بيتسمون لها وهى سعيدة وواثقة من نفسها كأنها تخرج من قصرها.. أدارت الراديو على أغنية.. هذه ليلتى.. لأم كلثوم، وعاد هو

لشروده مجدداً..

سأل نفسه: لماذا تفعل معه كل ذلك؟ هل هي تعطف عليه أم متعاطفة مع ظروفه البائسة؟ هل هي تحبه أم مجرد إعجاب؟

بينما هو يميل إليها فحسب، واهتمامها به يرضى غروره، ويجعله يشعر بذاته، وأنه شاب له فتاة معجبة به، كانت جميلة، طويلة رشيقة بيضاء هيفاء، سوداء الشعر، عيونها عسلية وبشرتها خمرية، تهوى ارتداء الجينز، ولها جسد ممشوق يغرى الأبصار، ويدبر العقول ويحرك ما نام من الفرائز الذكورية، دائماً تخفى سحر عينيها بنظارة سوداء مثل بطلنة رواية إحسان عبد القدوس "النظارة السوداء" وتتحدث بدلال وغواية، ولها ضحكة مثيرة مجنونة فاتنة تشعل نار الشهوة، وتفزعها من سيئاتها العميق في مكنتها العظيم، وحصنها الحصين، وقرارها المكين!

استرجع ناجي شرف الدين من صندوق ذكرياته أحداثاً كثيرة، هبت عليه عواصف فترة تجنيده بالجيش الثالث الميداني في سيناء، وصحراء الاسماعيلية القاحلة، وتذكر كيف كانت حقبة زمنية عصيبة من حياته، ويعتبرها الأسوأ والأسود على الإطلاق، قضائها صابراً مثابراً، ناقماً متذمراً، لا يعي مغزى ما يدور حوله من أوامر ونواهي ما أنزل الله بها من سلطان!

كره الحياة العسكرية، وبغض لون الرمال الأصفر الكالح، ومقت الميرى والتدريبات والرماية الليلية والنهارية، كما كره بروفات الموت في الحروب الافتراضية، والصراعات الوهمية عن مواجهة لا تأتي أبداً مع العدو على خط النار هناك في الجبهة الشرقية، حتى مرت الشهور وانتهت مدة تجنيده الإجبارية القسرية، وخرج عاجزاً نفسياً وعقلياً عن إستيعاب أبجديات الحياة الصحراوية الجافة دفاعاً عن حبات الرمال التي لا تطلق، وتحث وطأة المعاملة الغبية الصارمة التي تلغى فريضة الفكر وتمجد ميداً الأمر، وتعلو من شعار الطاعة العمياء هي قمة الولاء

عاد من جديد يتنسم عيبر الحرية ، ويتنفس رائحة الحياة المدنية ، ويمحو
من أعماق أعماق ذاكرته الحير الأسود لتلك الأيام الجهمية!

﴿وَأَلْنِي بِأَتِينِ الْفَنَاحَةِ مِنْ دَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ
أَزْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَهُنَّ
الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

حكاية ايناس مندور أغرب من الخيال، ولا تخطر لعاقل على بال، وهى لم تبح بها لأحد فى حياتها قط إلا عندما ذهبت للطبيب النفسى، بعد أن تسلمت بالشجاعة وتعاملت مع مصيبتها بعقل مفتوح، وأن ما تعاني منه مجرد داء لا وباء.. كانت قد ضاقت من نفسها ولم تعد قادرة على الاحتمال، وصارت تكن لجسدها كل احتقار.. كان الطبيب هادئاً رزيناً وسيماً قسيماً أصلع قليلاً فى بداية العقد الخامس من عمره، يتدلى من بطنه مشروع كرش صغير فى أوله.

يبدو الرجل من ذلك الصنف من البشر الذى يبعث على الراحة والطمأنينة فى نفس من يتعامل معه، وبصفة خاصة مرضاه.. أجلسها أمامه يود كصديقة قديمة، وطلب لها مشروباً بارداً، وأعطها حبة مهدئة للأعصاب، فشعرت بعد دقائق معدودات بحالة من الخدر، والإسترخاء وبدأت تهمس له بحكايتها الغريبة المثيرة العجيبة التى تفوق أغرب ما فى حكايات شهر زاد، أدار السيمفونية الرابعة لبيتهوفن، فانسابت الموسيقى صافية عذبة تسرى فى نفسها كما يسرى الماء الفرات فى الجداول والأنهار، وتقمص هو شخصية شهريار على صفحات ملحمة ألف ليلة وليلة.. قالت وقد توردت وجنتاها خجلاً ووجلاً:

بصراحة يا دكتور لا أعرف كيف أبوح لك بأزمتى، ولا أدري من أين أبدأ سرد مأساتى التى تفوق مستوى الفضيحة، خجلى الشديد يمتنعنى.. وأفكر فى رد فعلك.. وماذا ستقول عني أو تذهب بك شياطين الظنون؟

حاول طمأننتها قائلاً:

— كل كلمة تقولونها هنا لن يسمع بها أى مخلوق فى الدنيا.. تأكدى أن الحفاظ على أسرار مرضاى شئ مقدس أقسمت عليه، وهو عهد ووعد الأطباء منذ عهد أبقراط.. أنا هنا فى خدمتك لمساعدتك، وحل مشكلاتك فلا تخافى ولا تفزعى على الإطلاق، وارمى الخجل جانباً، واعتبرينى أخاً وصديقاً وحدثينى بصدق وثقة وقلب مفتوح.

تيسمت قائلة:

— لقد ترددت كثيراً قبل أن أتى إليك، وأبوح لك بسرى العظيم، وهى الكبير، وأقر وأعترف بين يديك يا دكتور للمرة الأولى فى حياتى أن ما قمت أنا به لا يعقل أن تقوم به فتاة مسلمة، ولا تقدم على مثل هذه الفعلية النكراء سوى مريضة عقلياً ونفسياً أو مجنونة رسمياً!

ولكنى أرجو أن يتسع صدرك لمصيبتى، ولا تنظر لى نظرة دونية، ولا تتعامل معى كمومس منحرفة، لأن مشكلتى تؤرقنى ليل نهار، تزلزل كيانى وتمزق ضميرى، وتعذبنى عذاب جهنم الحمراء، وأرجو أن أجد عندك الدواء..

أنا يا سيدى الآن شابة فى مقتبل حياتى، أبلغ من العمر ٢٢ عاماً بالتمام والكمال، ومن عائلة محافظة وميسورة، والحمد لله..

مشكلتى المستعصية، وسر أسرارى، بدأت منذ ما يزيد عن الخمس سنوات حينما كنت طالبة فى المرحلة الثانوية.. فى ذلك الوقت كانت لدى زميلة كنت أعتبرها صديقتى الصدوقة، وزفيقتى الحميمية، بل أعتبرها أختى التى لم تلدها أمى، وكنت فى قمة سعادتى عندما عثرت على هذه الصديقة الجميلة الرقيقة، رقة الأفاعى فى الصحارى والبرارى، وبالرغم من وجود زميلات أخريات لى إلا أن علاقتى بهن لم تصل إلى مسمى الصداقة الحقيقية، ولا إلى هذه الدرجة من التآلف والحب، فقد كانت تغلب عليها المجاملات، وكانت هذه هى أول صديقة ظننتها مخلصه لى وقد كنا

جبران سكن أيضاً مما سهل علينا كثيراً لقاءاتنا المتعددة في كل وقت
وحين.. كنا نقاسم الهوايات المشتركة، ونتفق في الإهتمامات، وربما
قضائى معها الكثير من الوقت، وزوال جميع الحواجز بيننا، وارتباطنا
بمشاعر قوية وعاطفية جياشة متأججة جعلنا نخطئ في حق أنفسنا،
وفى حق ديننا، فقد بدأت هى تتحرش بى بنعومة ورفق، كمن يطارد
فريسة، ويخشى أن يفزعها صوت طلقات بندقيته، أخذتنا العزة بالإثم،
وتمادينا فى السباحة بين أمواج بحر الرذيلة، فلمساتها الدافئة الحانية
لى، وقبلاتها الساخنة المشبوبة بنار الرغبة فى بعض الأماكن الحساسة
للغاية من جسدى، وحتى عنافها لى أصبح غريباً مريباً، وقد بدأت أحس
فعلاً بالخطر يداهمنى، وصارحتها بضيقى وقلقى من تصرفاتها فى الفترة
الأخيرة، وهى اعترفت لى بما لا يقبل مجالاً للشك بأنها لم تعد تحبنى حب
صداقة عادية، بل وصل حبها لى إلى أخطر مراحل الحب المتقدمة، صار
حالة من العشق والغرام والوله، وهى تريد منى أن أرفع لها الراية البيضاء،
وأستسلم لهذا الأمر الحتمى المكتوب علينا أنا وهى، وأبادلها المشاعر
بالمشاعر، والشوق بالشوق، وما يترتب على ذلك من نار ودمار!

كنت مازلت قوية وصلبة إلى حد ما فى البداية، كنت مثل جبل الجليد
المتماسك الذى سرعان ما يذوب مع أول لفحة من حرارة الشمس الدافئة..
رفضت جنونها وعهرها رفضاً قاطعاً فى البداية، فلا دينى ولا أخلاقى،
ولا جسدى يسمح لى بذلك الفعل الآثم، وكانت نتيجة رفضى المستمر
لجميع محاولات تقربها منى بهذه الطريقة أن تسبب ذلك لعلاقتنا بالفتور،
والبرود الذى قارب على القطيعة.. لقد تألمت جداً، وتأثرت نفسيتى
كثيراً، بل حتى درجائى الدراسية بدأت تتراجع وتتهقر، وأنا المتفوقة
طول عمري، وانتاب القلق أهلى أيضاً فى تلك الفترة خوفاً على مستقبلى،
وأصررت بعدها ألا أثير قلقهم وحيرتهم على الإطلاق حتى لا يكتشفون
أمرى المخجل، وفى نهاية المطاف ضعفت، نعم ضعفت وانهارت قوتى،
وسقطت أسوار صمودى، كما سقط يارليف الحصين أمام خراطيم المياه

فى أكتوير المجيد.. حدث هذا ، وأنا أخجل من قول ذلك ، لكنى يجب ألا أكون فى غياب النعامة أدفن رأسى فى الرمال ، وجسدى فى العراء يواجه الأنواء ، فانا لم أتحمل بعدها عنى ، وهجرها لى وحاولت إعادة صداقتنا مرة أخرى ، وحدث ما كنت أتوقعه ، وأخشى وقوعه ، وأخاف من عدم وقوعه ، تحرشت بى صديقتى من جديد ، ووافقت لها هذه المرة ، كنت راضية تمامًا مستسلمة بين يديها كما لو أننى قطعة من الصلصال تفعل بى ما تشاء ، وتشكلنى كما يحلو لها ، بعد ذلك شعرت بوخز الضمير ، وبهزة نفسية عنيفة لدرجة أننى عندما رجعت إلى البيت بكيت كثيرًا ، واستغفرت الله طويلاً ، ولا أظنه قد غفر لى وشعرت بالعار والمهانة والهوان ، وعاهدت نفسى ألا أعود إلى تلك الفعل الشنيعة مرة أخرى حتى لو كلفنى ذلك صداقتها ، وقلت لنفسى :

إذا كانت تريد صداقتى فقط لتفرغ بى نزواتها فلسوف أتخلى عنها نهائياً ، ولكن ذلك للأسف الشديد لم يحدث ، وكررت هذا الفعل الآثم المشين معها مرثين وثلاث وعشر مرات أو يزيد ، وكنت فى كل مرة أقول لنفسى إنها المرة الأخيرة ، وبعدها أعلن التوبة ، لكن هذا لم يحدث ، وصار مستحيلاً..

حتى استمرأت هذا الفعل وأحبته بل أصبحت أنا من يقدم عليه ، ويقبل عليها ، وعادت حياتى لتوازنها بالرغم من هذا السلوك الأعوج غير المتزن ، لكن ماذا أقول.. كل امرئ مسير لما خلق له.. عدت متفوقة من جديد ، ولم أعد أثير الشكوك والمخاوف فى نفوس أهلى وأحبائى ، ولكن فى كل مرة أجلس فيها وحدى أحس بالذنب والخزى والعار ، وأبكى ندمًا ولوعة وأدعو الله أن يتوب على ، وينتشلنى من الوحل ، فلقد أصبحت مثلية الرغبة الجسدية ، ولا مجال للإنكار أو الفكاك من مصيرى.. ها أنذا من الجنس الثالث الذى لا هو ذكر تمامًا ولا أنثى تمامًا ، بل هو خليط من هذا وذاك.. وظللت معها على هذا الحال حوالى عام كامل!

أنهيت الثانوية العامة بتفوق والحمد لله ، وإلتحقت بالجامعة ، وانخرطت فى كلية الاعلام وقسم الصحافة الذى أردته ، وحلمت به كثيراً.. ولم تقطع طوال هذه الفترة الحرجة من مراهقتى علاقتى بصديقتى الحميمة ، واستمرت كلتانا فى هذه الممارسات المجنونة ، ولكن مع فارق أنه أصبح لدى صديقات أخريات وهى أيضاً ، بل و صار لدينا الكثير من الصديقات المشتركات ، فهى ذات شخصية اجتماعية ومحبوبة جداً ، وأغلب من عرفتنى صديقتى عليهن كن مثلاً إلا أننى لم يكن لدى أية علاقة شاذة أو مريبة بإحدهن ، فصديقتى كانت توفر لى إشباعاً عاطفياً وجسدياً مما جعلنى لا أفكر فى غيرها!

وبعد عام قضيناه سوياً فى علاقتنا غير السوية ، أصبت بصدمة عنيفة عندما علمت بالصدفة البتة أن صديقتى التى ظننتها لى وحدى تقوم بنفس هذه الممارسات مع فتيات كثيرات غيرى.. شعرت بغيرة قاتلة ، تملكتنى حالة جنونية وكأنى فقدت أعز ما أملك و ثرت ، وغضبت وفكرت جدياً فى قتلها حتى أستريح وتستريح البشرية كلها من شرها وإثمها ، ثم هدأت ثورتنى ، وخمدت فورتنى لكى عايتها فلم تهتم بعتابى ، وحاولت إقناعى بأن وجود شريكات أخريات فى حياتها لا يقلل أبداً من حبها لى ورغبتها فى!

رفضت منها هذا المنطق ، وأنا التى رضخت لها فى البداية بدافع الحب ، والصداقة الحميمة ، وللأسف الشديد كل الجرائم الشيطانية ، والأفعال الجنونية ترتكب بإسم الحب.. الآن فقط عرفت لماذا كانت تصفنى بالقطة العمياء ، وتعتبرنى ساذجة وطيبة.. مجرد أنثى تسكن جسداً جميلاً مثيلاً ليس إلا ، الآن فقط إكتشفت الحقيقة المرة وهى أننى مجرد جسد من بين أجساد أخرى متعددة فى حياتها ، وأننى مجرد محطة واحدة من محطات العبث المتنوعة فى رحلتها الشائكة المشوقة مع السحاق!

إكتشفت أننى دمية تعبث بها وقتما تشاء ، وتلقى بها فى سلة المهملات وقتما تمل وتزهق ، ويصيبها الضجر والسأم.. شعرت بالنقرز والألم والرغبة

فى الموت، فالحب الذى كنت أحاول أن أجعله يقوم بتشريع هذه الأفعال لى، ويمنحها صك الحلال لم يعد موجوداً، لقد أصبحت مجرد رذيلة وعادة مذمومة!

ابتعدت عن هذه الصديقة تماماً وفى البعد طوق النجاة فى كثير من الأحيان ورفضتها وصدقتها حتى عندما حاولت العودة إلى، وقد أقنعتها بأننى تغيرت، ولن أفعل ذلك مرة أخرى، لن أسبح فى بحر الخطيئة مجدداً ولكن الواقع أننى لم أستطع نسيان الأمر والفكاك منه، فالعادة أقوى من الحب، والإنسان أسير مجموعة عادات تكبله مثل قيد حديدى حتى وإن تظاهر بعكس ذلك، وكنت كلما مر على الوقت، وأنا بعيدة عنها أفكر فيها وكأن جسدى يستغيث بها ويستجديها، ويناديهها ومن ناحية أخرى أشعر بالراحة التامة لأننى بهجرى لها، وبعدى عنها سوف أتخلص من هذه التصرفات الحمقاء التى تشعرنى بالعار ووخز الضمير!

لكن المفجع فى الأمر أن هناك من بين زميلائى من كانت تعرف قصة علاقتى السابقة بصديقتى تلك، وبدأت بالفعل تتقرب منى، ولم أقاومها هى الأخرى، بل أعطيته الضوء الأخضر، فقد كنت فى حالة صراع مع نفسى وجسدى، فتعلقت بها بجنون، وأذهلتنى بأدائها فى الفراش، حيث وجدتتها معترفة جداً فى هذه العلاقة، وشرهة جداً وتمارس الحب معى بإخلاص وصدق، وتعلمت على يديها آخر فنون هذه الرذيلة، وبعد فترة زمنية ليست طويلة أدخلتلى تلك الداعرة الملعونة فى مجموعة خاصة من البنات الحسنات عاشقات الجسد ولفته، هوايتهن ممارسة هذا النوع من الفجور والفسق الأنثوى الناعم اللذيذ!

فى تلك الفترة عادت علاقتى بصديقتى القديمة.. سمحت لها بالعودة إلى أحضانى بعد أن أذلتها عامدة متعمدة مع سيق الإصرار جراء ما فعلت بى سابقاً، وعادت معها أيضاً ممارسة الحب على طريقتها الخاصة جداً.. السرية جداً.. الجنونية جداً جداً مع فارق بسيط للغاية، وهو أننا لم نعد

نكتفى ببعضنا أنا وهى.. فكلانا لديها الآن من العشيقات الكثير، وما بينى وبينها على وجه الخصوص صار أقرب ما يكون آنذاك إلى علاقة الود القديم، ولم يعد للإخلاص أى مكان بيننا.. سافر إلى المجهول ولم يرجع!

وكان من آثار هذه العلاقة الجنوبية أن تغيرت مفاهيم كثيرة فى مفردات تعاملى مع الصديقات والزميلات والرفيقات.. أصبحت كل نظرة أو لمسة أو همسة أو بسملة بالنسبة لى هى عبارة عن دعوة صريحة لممارسة هذا النوع من الحب الأسطورى بين بنات حواء، وقد أخطأت ذات مرة فى تقدير مشاعر ود بريئة من إحدى الزميلات، وفسرتها على أنها دعوة خجولة منها للفراش، وتصرفت بحماقة معها على أساس هذه المشاعر الخاطئة وهى لم تكن من هذا النوع من الفتيات مما جعلها تهرب منى، وتهرب من صداقتى، وتقتصر علاقتى بها على زمالة فى أضيق حدود الزمالة، ولا أتذكر أننى تمكنت من النظر إلى عينيها بعد ذلك بسبب خجلى منها.. ماذا أفعل وقد أصبحت مشاعر الود، والصداقة والحب الصافى مرتبطة فى عقلى بالعبث فى جسدى؟!

مرت على أربع سنوات وأنا فى الجامعة، وبرغم أننى كنت قد شعرت بميل عاطفى نحو زميل لى يدعى ناجى شرف الدين، إلا أننى كنت أنتقل من فتاة لأخرى، وأعاشر هذه وتلك تعاشرنى، وأطارد هذه الفتاة، وتلك الأنثى تلاحقنى.. أشعر بالملل من هذه وأعشق تلك، وأغار من أخرى.. لم تكن الفتاة التى تعجب بى تبذل جهداً يذكر لجذبى إليها، واستمالتى لحبائلها وشبكة حبها الخطرة، وبرغم كل هذه المغامرات الشائكة، والسير حافية فى حقل من الأعغام ظللت محافظة على غشاء يكارتى، أغلى ما تملك الفتاة فى مجتمعنا الغيبى، فلم أكن أسمح لأى منهن بالاقتراب من كهف متعتى أو تهديد سور عذريتى.. هذا هو مبدئى الذى لا أحيد عنه مهما كانت درجة اللذة التى أحسبها، ومع كل هذا الحذر والخوف على شئ ما

يتعلق بالعفة كنت أعلم تمامًا في قرارة نفسي أنني ساقطة حتى ولو كان غشاء بكارتي ورمز عفتي ما يزال في حصنه الحصين بمأمن من عبث العاثات!

كانت هذه الحياة قد تمكنت من قلبي وعقلي وجسدي، بالرغم من شعوري المؤلم بالذنب الفظيع الذي كان يظهر من حين لآخر كلما كنت وحيدة فأرجع للبكاء والندم والاستغفار، فأنا أخشى الموت وأنا مصرة على هذا الإثم الذي يعد من أكبر الكبائر إن لم يكن أكبرها بالفعل، خصوصًا حينما توفيت في حادث سيارة إحدى الفتيات اللواتي كانت لي علاقة سرية بهن.. بكيت كثيرًا في هذه الأثناء، ودائمًا أدعو لهذه الفتاة بالمغفرة والرحمة وأتصور نفسي مكانها الآن.. فماذا أنا فاعلة؟! وكيف كنت أقابل ربي ويأى وجهه، وماذا أقول له سبحانه؟!

لكن وأسفاه بعد فترة قصيرة عدت بلا أسف إلى علاقائي السابقة، وقد تملكني شعور قميئ بأنني سأظل رهينة هذا الانحراف طوال حياتي.

المهم أنني تخرجت من الجامعة، وأنهيت دراستي بكلية الإعلام، قسم الصحافة ولم أعد أمتلك سببًا منطقيًا أقنع به أهلي برفض فكرة الزواج حتى الآن وإن كان قلبي يميل إلى زميلي ناجي من بين كل شباب الجنس الآخر، وأشعر في ذات الوقت بالخوف والارتباك، وبأنني لا يمكن أن أكون زوجة وأمًا بحال من الأحوال!

لا أدري يا دكتور ماذا أفعل؟!

ما زال عندي تفاصيل وأحداث كثيرة لكنني أريد أن أسمع منك شخصيًا لحائتي.. أشار لها الطبيب أن تهدأ وتلزم الصمت وتسترخي قليلًا بعد أن أحس بأنها قد تعبت وبدأ الإجهاد ينال منها، وبدأ يتكلم هو بإستفاضة وثقة كأنه واعظ حكيم أو أستاذ مخضرم في قاعة المحاضرات بالجامعة.. قال ولا فض فوه:

— يا إيتاس.. يؤسفني أن أقول لك إن ما أنت عليه الآن هو ما يعرف علميًا

باسم السحاق، وهو بطبيعة الحال يتمثل في ملامسة والتقاء مباشر للأعضاء الأنثوية الحساسة لطرفين من بنات حواء، ومعلوم أن هناك كثيرًا من الأمراض التناسلية كالهريس، والسيلان، والزهرى، والإيدز نتيجة لهذه الممارسات، وكذلك الأمراض الجلدية المتعددة والخطيرة مثل القرحات، والطفيليات التي تنتقل من أنثى إلى أخرى عن طريق ملامسة الأعضاء التناسلية والعيث فيها لإثنتين مع بعضهما، والغريب أنه حصلت حالات حمل لفتيات لم يكن متزوجات بسبب ممارسة الحب مع أخريات متزوجات أو من البغايا، وهو مرده أن تكون إحداهن قد ضاغت زوجها أو عشيقها ثم إرتكبت عملية السحاق مع الضحية!

والطريف في الأمر أن هذه الظاهرة تنتشر في المجتمعات المغلقة على الإناث فقط، خاصة في المدن الجامعية للبنات، وسكن الطالبات، حيث تلبس الفتاة ملابس النوم، الضيقة القصيرة المثيرة وتبدأ حالة الإعجاب عندما تسترجل إحدى الفتيات ويمارسان معًا الحب في تلك الحالة، تقوم المسترجلة بدور الذكر، وتقوم الفتاة ذات الملابس المثيرة بدور الأنثى وكأنهما رجل وأنثاه في فراش الزوجية، وفي نفس الغرفة أحيانًا يحدث ذلك على مرأى ومسمع من الفتيات الأخريات في نفس السكن، وهذه الظاهرة للأسف الشديد في تزايد مستمر في ظل وجود العوامل المثيرة للرغبات الجسدية مثل القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية المعروفة باسم الإنترنت، والهاتف الجوال الذي أصبح الآن للعلاقات غير المشروعة!

وإن أغلب الفتيات اللاتي وقعن في هذه الممارسات السيئة ضحايا أكثر من كونهن سحاقيات، وهناك حوالي ٧٠% من الفتيات الشابات لا يرغبن في تعديل وعلاج سلوكهن خاصة اللاتي مارسن هذه الظاهرة وحصلن منها على المتعة، ولا يجدن في أنفسهن ميلًا أو إثارة في الرجل

وفي دراسة عن مركز البحوث الاجتماعية والجنائية كشف أن هذه

الظاهرة تنتشر بين ٩٪ من بنات ونساء مصر، في حين تبلغ نسبته ٢٨٪ بين بنات ونساء دول الخليج العربي (وئمة انحرافات عديدة بينها تلك الظاهرة جاءت إلينا من الحضارة الغربية.. صدرتها لمجتمعاتنا العربية عبر وسائل الاعلام وأدوات الثقافة، والأفلام، وعشرات الجسور الأخرى.

والدليل على ذلك ما تناقلته وسائل الاعلام العالمية عن السحاقيات الأكثر شهرة في العالم، فقد كشفت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية النقيب عن ممارسة وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبي ليفني وزعيمة حزب كاديما الحب المحرم مع نظيرتها الأمريكية كونداليزا رايس، برغم أن الوزيرة الاسرائيلية جميلة للغاية، ولا تقل أنوثة وأناقة عن نجمات السينما بينما الوزيرة الأمريكية، سوداء عجفاء، غليظة النبرة دميمة الملامح تجاوزت الخمسين من عمرها ولم تتزوج لذلك فهي تقوم بدور الرجل، بينما الفاتنة الاسرائيلية تلعب دور الأنثى ببراعة واقتدار!

هذه حقيقة راسخة يعرفها الجميع في معظم دول العالم وليست محض خيال جامع، أو تشويه صورة بنات أمريكا وتل أبيب حاشا لله.. لكن واقع الأمر أن وزيرة التعليم الاسرائيلية "ليمون لفنات" وهي صديقة مشتركة للوزيرة ليفني والوزيرة رايس هي التي كشفت العلاقة السرية بينهما لأنها كانت شاهدة على لقاءاتهما الملتهبة والحميمية في الغرفة رقم ٥٠٢ بفندق داوود في تل أبيب!

توقف الطبيب لحظات، يلتقط أنفاسه بعد أن دخلت سكرتيرته وقدمت كوبين من عصير البرتقال ثم خرجت وقبل أن يعود للثرثرة من جديد، فاجأته إيناس بسؤال مباغت وساذج.. قائلة:

— ماذا تعني كلمة سحاق يا دكتور؟

تبسم الرجل وقال مجاملاً إياها بلطف:

— هذا سؤال في غاية الأهمية.. كنت أنتظره منك.

— أصل كلمة السحاق يعود إلى جزيرة "ليسيوس" في بحر إيجة

باليونان، حيث كانت مسقط رأس الشاعرة اليونانية الجميلة " صافو " التي عشقت السحاق وحرصت على ممارستها مع النسوة اليونانيات فى القرن السادس قبل الميلاد، وكان حُسنها يفتح لها الأبواب والقلوب والأحضان والسيقان أيضاً، تميزت بجاذبية مبهرة، وذكاء غير عادى وقد عاشت فى الفترة ما بين عامى ٦٣٠ وحتى ٥٦٠ قبل الميلاد.. ومعنى " صافو " هو الصوت النقى العذب الشفاف وكانت اسماً على مسمى.. ولدت صافو فى قرية صغيرة تدعى " أريسبوس " على الجزيرة اليونانية، ومات أبوها وهى فى التاسعة من عمرها، وتولت أمها الجميلة المبهرة الفاتنة رعايتها، وعندما بلغت صافو الخامسة عشرة من عمرها، تزوجت وأنجبت طفلة، وبعد شهور معدودة فشلت فى حياتها الزوجية الجديدة، وشعرت بإحباط عظيم عندما خذلها زوجها، وأصيب بالحنة والعجز الرجولى الكامل، فلم يعد قادراً على إشباع غريزتها الأنثوية وأصبح جمالها سر لعتتها، فلم تقدر هى الأخرى على كبت ثورة جسدها فكرهت الرجال جميعاً، واتجهت نحو بنات جنسها من العذارى الحسنان اللاتى يرددن معها الشعر، ويغنين ويعزفن أحلى الألحان، ويمارسن معها الشهوة، حتى عشقت السحاق، واستغنت به وبهن عن كل الرجال فى هذا العالم!

وفى آخر حياتها توارطت فى مشاكل جزيرة " ليسبوس " السياسية، واضطرت للفرار إلى صقلية، وماتت هناك، وأحرقوا جثمانها حسب الطقوس الدينية السائدة آنذاك، ونقلوا رمادها إلى بلدها، كما خلدوا اسمها برسم صورتها على الأوانى والنقود!

وتركت صافو وراءها مجموعة قصائد شعرية بديعة فى تسعة دواوين تحوى بين دفتيها ١٢٠ ألف بيت من الشعر، وتركز شعرها فى عشق البنات، ووصفه ومدحه والإشتياق إليه، وكيف كانت تمارسه مع أنثائها المفضلة " آئيس "، ولذلك سميت المساحقة فى بعض البلدان " صافوية "

نسبة إلى صافو، وكان هذا الشعر أفضل دعاية سيئة لإنتشار الظاهرة الأسوأ بين بنات ونساء صقلية واليونان وفرنسا، ولم يكن هذا الفعل البشع مقتصرًا في بدايته التاريخية على اليونان فقط، بل امتد إلى بلاد أوروبا، وروما، فقد كانت في روما حمامات كثيرة للنساء، أعدت خصيصًا لممارسة السحاق بينهن بكل أشكاله وأنواعه وفنونه، وما زال هناك في فرنسا حتى اليوم جمعية سرية تسمى "بنات صافو" تمارس السحاق في معبد "فسنا"، وللجمعية فروع أخرى في جميع أنحاء فرنسا، وتضم الكثير من الحسنات ونجمات المجتمع والفن بين عضواتها، وكل امرأة أو فتاة رغبت في الإلتحاق بالجمعية لممارسة السحاق مع عضواتها لا يتم قبولها بسهولة، فلا بد من اختبارها واجتيازها لشروط صعبة من أهم هذه الشروط أن تتعري أمام عضوات الجمعية للتدقيق في محاسن جسدها، والتأكد من مدى صلاحيتها، وقدرتها على إثارة الشهوة في نفوس وأجساد عضوات الجمعية الأخريات!

وفي مدن الشرق الأقصى، وخاصة الصين والهند هناك الكثير من بنات صافو يمارسن مع بعضهن البعض الحب الشاذ المحرم.

المدعش أن السحاقيات لا يختلفن كثيرًا عن غيرهن من النساء الطبيعيات السويات من حيث اللجوء للإستثارة الحسية للحصول على النشوة، وبلوغ الرعشة بالقبيلات، والمداعبات باليد واللسان والشفاه واستثارة المناطق الحساسة المثيرة، وبعضهن يعترفن بأنهن يفضلن العناق والإلتصاق الجسدي بغيرهن من النساء أكثر من إهتمامهن بإستثارة أعضائهن الجسدية بأنفسهم أو عن طريق الرجال، وهذا بحسب ذاته يشير إلى أنه حتى المرأة المثلية تهتم كثيرًا بالناحية العاطفية، وتشعر الفتاة التي تمارس علاقات حميمة مع غيرها من بنات جنسها، كما يشعر الرجل وتتصرف كما يتصرف، فهي في كثير من الأحيان تقص شعرها وتخوض ألعاب الرجال، وتغشى مجتمعاتهم، وتكون في الغالب ذات عاطفة حادة!

وإذا خطر لسحاقية أن تغرى فتاة بلا تجربة فإنها تبدأ بالتعایل عليها ، ومحاولة إستمالتها ، واكتساب عطفها وودها بأن تظهر نحوها شيئاً من الحب والحنان العاديين ثم تتبع ذلك بالقبلات والعناق ، والنوم معها فى فراش واحد وبعد ذلك تسعى جاهدة بكل خبرة أناملها الشريرة المدرية على إيقاظ حواسها النائمة ، واستنفار مشاعر اللذة والشهوة فى نفس فتاتها التى دائماً ما تجهل أن وراء هذه الأحاسيس العاطفية تتخفى علاقة غير طبيعية ، فتقع بدورها فى حب صاحببتها ، وتنتهى هذه العلاقة النهاية المخطئ لها سلفاً ، وقد تدوم تلك العلاقة سنوات عديدة !

فى الحقيقة هذه الظاهرة الخطيرة أكثر انتشاراً فى الغرب وإن كانت موجودة فى مجتمعاتنا العربية فإنها سرية ودائماً تتطلق من وراء ستار ، بينما هى فى الغرب علنية ، ويتباهون بها ولها جمعيات ومنظمات وهيئات تطالبين بحقوق عضواتها وتحمى سلوكهن المشين ، والسحاق مثل غيره من أوجه الشذوذ الأخرى بحاجة إلى علاج نفسى دؤوب وصبر طويل حتى يمكن مساعدة المريضة أو الضحية على نيل هذه العادة الجهنمية ، والعودة بها إلى صوابها النفسى والجسدى !

صمت الدكتور لحظات بينما ايناس مندور فى حالة استرخاء تام أمامه كأنها تتابع فيلمًا بوليسيًا أو تنصت لحدثه قبل النوم ثم أنهى الجلسة العلاجية على وعد بجلسة أخرى فى الأسبوع القادم.

...

" في الصفحة الأولى من كتاب الحرب.. لا هجوم على
روسيا بالديابات، ولا زحف على الصين بالمشاة، ولا استهانة
بالضعفاء! "

فكر ناجي شرف الدين طويلاً في طريقة للفكاك من بين أنياب البطالة
بعد فترة قضائها خاملًا نائمًا في العسل، يئن من الفراغ، ينهشه الملل
والكسل والإكتئاب حتى ذهب ذات يوم إلى مكتب جريدة الأيام بمدينة
المحلة الكبرى وهي المدينة الأقرب لقريته ومسقط رأسه، اختار جريدة
الأيام باعتبارها المؤسسة الصحفية القومية الأكبر، والأكثر توزيعاً، لم
يكن يرغب في أن يترك أمه ويخوض غمار الحياة، وصراعاتها في القاهرة،
طلّرات عليه فكرة وأعجبه.. لماذا لا يعمل مراسلاً لصحيفة الأيام من
المحلة، وعندما يلتقى مدير المكتب وعرض عليه الأمر، دهش الرجل،
وكان ودوداً معه للغاية، وبعد أن سمع قصته نصحه بضرورة الانتقال إلى
العاصمة رغم كل الظروف والصعاب.. هناك في القاهرة المستقبل يفتح
ذراعيه، وأكد له الرجل أنه سيتحمل وزراً كبيراً لو سمح له بالعمل في
مكتب اقليمى، بينما مكانه الطبيعي في المؤسسات الصحفية الكبرى
وأوضح له أنه برغم وصوله لمتنصب مدير المكتب إلا أن مؤهله الدراسى
مجرد " دبلوم صنایع " واحترف التصوير الفوتوغرافى، وهذا ما ساعده على
الإستمرار فى العمل الصحفى، وأنهى الرجل المقابلة بحنان أبوى، وهو
يشد على يد ناجى شرف الدين قائلاً:

يا بنى حرام عليك.. إذهب إلى القاهرة هناك سوف تتجح ولن يضيعك الله
أبدأ، ما دمت تقصد وجهه الكريم.

انصرف ناجى حزيناً مهموماً يرى الدنيا من ثقب ضيق، وكأنها ارتدت
عباءة سوداء وهمس لنفسه:

ياربى.. لقد رضيت بالهم.. والهم لم يرض بى!
وأحس الفتى وقتها أنه لامناص أمامه من العودة للقاهرة، وليكن ما
يكون.. ولكن كيف؟!

هل يهبط أرض القاهرة المعز، ويقف فى شوارعها، وعلى نواصيها ليقول
للناس.. أنا خريج كلية الاعلام، قسم الصحافة والنشر.. افتحوا لى الأبواب
المغلقة فى صحف المحروسة، ومؤسساتها الاعلامية المرموقة؟!

نصحوه بأن يكتب طلباً لعضو مجلس الشعب عن الدائرة التى تقع فيها
قريته الصغيرة، وبالفعل لم يتوان النائب البرلمانى عن خدمته، فالمحافظة
كلها ليس فيها من خريجى كلية الإعلام سوى عدد محدود يعد على
أصابع اليد الواحدة ولذلك يعد ناجى بمؤهله الدراسى عملة نادرة فى
محافظة الغربية واستطاع النائب البرلمانى الذى كان صديقاً شخصياً
لرئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة "المصرية"، وكثيراً ما نزل
الصحفى الكبير ضيفاً على النائب البرلمانى مع احدى محظياته يقضى
أحلى الأوقات فى مزرعة سيادة النائب يأكل ويشرب، ويتنزه فى حدائقها
الفناء بحرية وبحبوحة وعبث، وكأنه فى جنته الموعودة، وجيش من الخدم
يلبون طلباته، ويحققون رغباته..

كانت فرحة ناجى شرف الدين كبيرة بالتأشيرة الواضحة الصريحة
على طلبه حيث وقع الكاتب الكبير عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس
تحرير مؤسسة "المصرية" يخط يده الجميل، ويقلمه الحبر الأسود..

"إلى السيد مدير عام شئون العاملين..

يعين فوراً فى مجلة الحرية، وأفاد بما تم"

أمسك ناجى بالطلب كمن يمسك بطوق النجاة لينجو من الغرق فى بحر
الظلمات، وهتف لنفسه، وهو يتأمل تأشيرة عنتر رجب رئيس التحرير
بإنهار:

— أحمدك يا رب.. الآن أستطيع أن أسافر إلى القاهرة، وأنا مطمئن القلب
أننى لن أضيع فى زحامها، ولن أذوب فى طوفان ضجيجها!

عقد العزم على أن يستقل أول قطار يتحرك فجر اليوم التالى متجهاً من
محطة المحلة الكبرى إلى القاهرة لتكون جريدة "المصرية" العريقة
التي رأس تحريرها فى يوم من الأيام الرئيس الراحل أنور السادات قبلته
الصحفية الأولى، وكعبته التي آن الأوان ليزورها وقد يبقى فيها إلى ما
شاء الله له أن يبقى..

وصل القطار فى السادسة صباحاً تأخر كعادته نهائياً قليلاً، وكأنه
أرجوحة تهدد الركاب قبل أن تتوقف لتلفظهم من أحشائها على الرصيف،
لينتشروا فى مواكب العاصمة التي تسير فى كل الاتجاهات، كل مسير
لما خلق له، ثم أتجه ناجى شرف الدين سيراً على الأقدام إلى حيث مبنى
مؤسسة "المصرية" للصحافة التي تبعد عن محطة السكة الحديد فى
ميدان رمسيس مئات الأمتار، وجد الوقت مبكراً فجلس على مقهى قريب
من مقر الجريدة.. إشتري نصف دسنة ساندوتشات من الفول والطعمية،
والتهم منها ما يكفى معدته، وأتبعها بكوب من الشاي الساخن بالنعناع
الأخضر، ثم أتبعه بكوب آخر حتى أحس بالامتلاء، ويثقل فى بطنه،
كما لو كان ألقى بحجر فى جوفه، استرخى فى مقعده مضجعا يراقب
حركة المارة، وهم يهرولون إلى أعمالهم، وعلى وجوههم ترسّم الجدية،
مرت عليه أكثر من ساعة وهو قابض فى مكانه ينتظر.. شعر بأن عقاربها
لا تسعى، وهو فى مكانه يزدرد مشروبه المفضل ويتلذذ بدفته مع وهج
الشمس الحانى الحالم، وعندما تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، نهض
متجهاً إلى هدفه داخل المؤسسة الصحفية، وفى صالة التحرير التقى ناجى
مع حسن فودة رئيس تحرير مجلة "الحرية" التي اختارها له عنتر رجب
رئيس مجلس الإدارة ورئيس تحرير الجريدة اليومية الأولى التي تصدر عن
دار المصرية لكى يتم تعيينه فيها، تناول رئيس تحرير المجلة الطلب من

ناجى شرف الدين وابتعد به عن زحام وضجيج صالة التحرير، ودلف به إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة مستفسراً عن التأشيرة التى يعرفها جيداً لكنه يعرف أيضاً أن تعليمات رئيس مجلس الإدارة صريحة وواضحة، وتقضى بعدم التعيين، والمؤسسة فيها عشرات المحررين الذين عملوا تحت التمرين لأكثر من خمس سنوات دون بارقة أمل فى التعيين.. انتظر ناجى بشغف، وقلق حتى عاد حسن فودة وبدأ جاداً متجهماً على غير عادته، حاول قدر جهده أن يبدو طبيعياً دون جدوى حتى إنبرى يشرح لناجى ويفسر له أن المؤسسة مزدهرة وبها طابور طويل يحلم بالتعيين، والأفضل له ألا يقف فى هذا الطابور، وعليه أن يبحث له عن فرصة أخرى فى مكان آخر.. كادت الدموع تفر من عيني ناجى الذى قطع هذا الطريق على الرجل قائلاً:

— أرجوك أعطني فرصة، فلا مجال أمامى للعمل فى مكان آخر، ودراستى لا تؤهلنى للعمل فى أى مجال آخر سوى فى الصحافة.. أم أنكم لا تريدون وجودى هنا؟

بدأ التأثير واضحاً على رئيس تحرير مجلة " الحرية " الذى تغطى جبهته علامة الصلاة الجميلة، والتى تشبه حبه الفول السوداني، ثم قطع الشك باليقين قائلاً:

يا ولدى بصراحة رئيس مجلس الادارة أعطاك الموافقة على طلب التعيين فى ظروف خاصة.

ظروف خاصة.. ماذا تقصد يا أفندم؟

رئيس مجلس الادارة الأستاذ عنتر رجب كان قد شرب الكحوليات أكثر من اللازم فى ذاك اليوم حتى ثمل.. هذا ما قاله لى بنفسه.

انتابت ناجى شرف الدين خيبة أمل كبيرة، وأدرك حسن فودة ما يعتمل فى نفس الفتى، فحاول أن يخفف وقع الصدمة عليه، ضغطاً بعصبية على زر أمامه مثبت بإحكام فى مكتبه، وعلى الفور دخل الساعى بملابسه الزرقاء الرسمية التى تشبه زى السجن، أعطاه الرجل تعليمات سريعة

وقصيرة وموجزة، لم يتبين ناجى معناها فى ظل شروده، واحساسه بعظيم الإحباط، وبعد لحظات جاءه الساعى بخمسة محررين من الذين قضوا أكثر من خمس سنوات تحت التمرين على أمل قد يأتى، وقد لا يأتى، وأمرهم بالكلام، فبدأ كل محرر يروى قصته وكفاحه ومعاناته فى العمل داخل دهاليز بلاط صاحبة الجلالة، فى مهنة البحث عن المتاعب، مقابل أجر رمزى، ومع الأيام يتلاشى الأمل فى تحقيق حلم التعيين، والحصول على كارنية تقابة الصحفيين والذي يعادل تأشيرة هجرة إلى أمريكا!

طلب ناجى أن يأخذوه لمقابلة رئيس مجلس الإدارة عنتر رجب صاحب التوقيع بالموافقة على تعيينه، فقالوا له: هذا مستحيل فمن السهل عليك أن تقابل ريك، بينما من الصعب جداً أن تقابل الرجل الأهم فى الصحافة والسياسة، فهو الأقرب إلى قلب وعقل الرئيس، وهو الذى يكتب له خطبه السياسية، ويسبح بحمده ليل نهار فى مقالاته التى تعد دستوراً لا مثيل له فى التفاق والتلف والتلق!

خرج حزينا مكفهر الوجه لا يدري ماذا يفعل!

سأل نفسه: لماذا يعيش الناس الأكابر فى عزلة عن الناس الذين منحوهم الشهرة والنجومية، والنفوذ والفلوس!

وجاءه الجواب على الفور عندما تذكر كلمات عن الفرور والتعالى لا يدري بالضبط أين قرأها.. تقول تلك الكلمات:

"منذ نحت الشاعر الفرنسى الأشهر سانت بييف مصطلح "البرج العاجى" فى قصيدته الرائعة "أفكار أغسطس" عام ١٨٣٧ راج المعنى فى الثقافات المختلفة تعبيراً عن العزلة والتعالى، وهناك فى كل مؤسسة صحفية أو مطبوعة يومية أو أسبوعية أو شهرية جورناليجى يسكن البرج العاجى، ويتعالى على المشاكل اليومية للناس البسطاء والمهمشين التى يعتبرها تأكل الروح أكلاً!"

"من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!"

بعد مساء يوم الخميس بدت القاهرة ممطرة ساحرة، فى إحدى أمسيات الشتاء الدافئة اللذيذة التى تبعث على الأمل، ارتدت إيناس مندور جاكيت جلد طبيعى أسود، ومن تحته بلوفر صوف أبيض، وينطلون جينز أزرق، ودست قدميها فى حذاء رياضى أبيض خفيف، واتجهت إلى طبييها النفسى فى حى المهندسين فالיום هو موعد جلستها العلاجية الثانية، كانت العيادة هادئة يخيم عليها صمت القبور، استقبلها الطبيب بترحاب معتاد، وابتسامة صافية حانية رقيقة كأنه حبييها، وبعد تبادل كلمات قصيرة سريعة عن الصحة والأحوال، عقب هذه التحيات التقليدية استرخت إيناس على كرسى الإعتراف، وبدأت مجدداً تحكى عن خطاياها وهو يتأملها كراهب يمنح مؤمناً فرصة البوح حتى يتطهر من الذنب، اضطجع على مقعده فى غاية الهدوء، والسكينة، وفى يده قلم حبر أسود، وبين يديه أجنده حمراء يدون فيها من حين لآخر بعض الملاحظات..

قالت بثقة هذه المرة:

— بعد انتهاء دراستى الجامعية، وإلتحاقى بالعمل كمحررة صحفية تحت التمرين بمؤسسة صحفية قومية عريقة ترضى طموحى، أعلنت رغبتى للأهل والأقرباء بالذهاب للأراضى الحجازية المقدسة لأداء شعائر العمرة وفعلاً حدث ما كنت أتمناه، ورافقنى أبى، وهناك بكيت بحرقه ومرارة واشتياق للتوبة، وشعرت أن دموعى طهرتتى، وأزالت تل ذنوبى وعندما عدت أصبحت إنسانة أخرى كأننى خلقت من جديد..

عدت وأنا كارهة للحياة التى عشتها فى مستمتع اللذة الحرام لأكثر من ست سنوات.. عدت تائبة نادمة على كل ما فعلته من قبل، وقطعت علاقتى

بكل صديقة كنت أمارس معها هذا الفعل المشين ، وأولهن بالطبع تلك الشيطانة العاهرة التى قادتني إلى هذا الطريق الملعون ، وقد قاومت كل الإغراءات التى يمكن أن تذكرنى بعلاقاتي ومشاعري السابقة ، ولم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق ، ولست واثقة فى أعماقي إذا كنت قد نجحت أم لا ؟! مع أن الدلائل الخارجية تشي بذلك ، وبعد حوالى أربعة أشهر من خصامى لهذا النوع من العلاقات قابلت مهندس كمبيوتر ، وقد تعرفت عليه فوجدته ، ودوداً مهذباً ، خلوقاً ، مثقفاً ، وسيماً متيماً ، لم أكن أتصور أنتى فى يوم من الأيام سوف أعجب برجل لأسباب متعددة ، من أهمها ميولى المثلية ، وكنت أعرف أن علاقتى مع زميل دراستى ناجى شرف الدين محكوم عليها بالإعدام لا محالة ، برغم ميلى إليه وتعاطفى وجدائياً معه لأسباب كثيرة منها أنه ريفى طيب من أبناء الأقاليم ، وليس له مأوى فى القاهرة وظروفه الاجتماعية بائسة ، هى مبررات تبدو ساذجة وغير منطقية ، لكن أحكام القلوب والمشاعر لا تسير وفق قواعد المنطق إتخذت قرارى وارتبطت بمهندس الكمبيوتر هذا ، وصارت الخطوبة تجمعنا ، وبدأت أحس أن الأمور تتطور بسرعة دون أن أقدر على السيطرة عليها أو التحكم فيها ، ولا فى نفسى.. هو أصبح يحبنى بجنون ، ولا يترك مناسبة إلا ويشئ على جمالى ، وثقافتى وتهذيبى ، وأخلاقى السامية ، وأنا أمام كل ذلك أشعر بالذنب.. فأنا أخشى الفشل فى علاقتى مع أى رجل ، وأخشى ألا أتعلم أبجديات اسعاده ، وارضائه أخشى أن أعود إلى تلك الميول الجهنمية مرة أخرى مع أنتى لم أفكر فيها منذ فترة ، فمنذ عدت من العمرة ، وأنا أحس بروحى طاهرة نقية شفافة ولو كانت مجرد إحساس إلا أنتى لا أريد أن أغامر بفقدان هذا الشعور بإقترابى مرة أخرى من أى أنتى لدوافع ساذجة !

كنت أتحدى نفسى ، وأرغب فى إنهاء مأساتى تلك.. لكن دائماً تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد زارتنى صديقتى الحميمة السابقة ، وطلبت منى أن أقطع علاقتى بخطيبى ، لأننى أخدع نفسى ، فأنا لا أصلح أن أكون زوجة لرجل لأن الله خلقنى لأشارك أنثى مثلى فراشها.. وأعيش معها

كشريكيتين حياتها السرية ، وهددتني بأننى لو تزوجت من جنس الرجال
فسيكون الطلاق مصيرى المحتوم فى الأسابيع الأولى من الزواج، وقد
يحدث فى شهر العسل وتكون فضيحة للسماء، يلوكها بلسانه القاصى
والدانى، وقالت لى أيضاً بنبرة تهديد، ووعيد حادة بأنها لن تتركنى أعقد
قرانى على أى رجل لأنها رجلى وشريكة فراشى.. وجسدى لها وحدها!
أعلم أنها قد تكون قالت ذلك من باب الحقد والغيرة لأننى هجرتها
وأهملتها.

أبدت لها اصرارى وعنادى وتمسكى بطوق النجاة، وبعد أسبوع واحد
اتصل بى خطيبى الذى كان مهووساً بى ومتيمًا بحبى مبدئياً أسفه واعتذاره
على أننا لن نستطيع الزواج، حاولت بإلحاح أن أعرف منه السر فى تراجعه
المفاجئ، لكنه رفض بكبرياء وهو يكاد ييكى بصوت مختنق مبحوح
قائلاً:

.. أرجوك يا إيناس إغفنى من ذكر الأسياح والميررات، وإن كنت
أتمنى لك حياة سعيدة موفقة، حسبما تختارينها، وبالطريقة التى تحلو
لك!

هنا فهمت أنه قد عرف السر المخبوء فى صدرى.. بكيت.. حزنت اجتاح
الغضب قلبى أياماً طويلة، وسهرت ليلالى مؤرقة معذبة لكن قلت لنفسى..
إن الزمن كفيل بتضميد كل الجراح.. حاولت أن أنسى أو أتناسى، وأنهمك
فى عملى الصحفى حتى عرفت بالصدفة السر الذى حيرنى، فقد وصلت
لخطيبى مشاهد من علاقتى مع صديقتى عبر موبايله الشخصى مع رسالة
تقول.. بأننى مثلية الجنس فهل يقبل أن يضيع عمره معى؟!

كان هذا سبب فراره منى.. المهم أننى ألقيت بهذا الموضوع فى خانة
النسيان بذاكرتى، ولم أعد إله لأنه يجرح كرامتى ويجعلنى أشعر
بالمهانة.

وذاث يوم كنت مرهقة للغاية، وفضلت الراحة والمكوث فى البيت،

وفى هذا اليوم اتصلت بى إحدى زميلاتى الصحفيات، وقالت لى أنها قادمة لزيارتى، فلم يكن أمامى سوى الترحيب بها، ولم أكن أعرف سبب رغبتها فى زيارتى هذه المرة، وعلى كل الأحوال فقد كانت تزورنى على فترات متباعدة ولا ضير فى هذا، وكانت والدتى تسعد بلقائها مثلما كانت تسعد بلقاء أية فتاة أخرى تأتى إلى بيتنا، بينما تمنع بشدة، وبغياء متقطع النظير حضور أى زميل لى لزيارتى، ومازلت أذكر كيف كدت أنفجر غيظًا عندما جاء فنى الصيانة لإصلاح عطل فى جهاز الكمبيوتر الموجود بغرفتى، وبمجرد أن دخل الفتى غرفتى ظلت أمى تتابعه بحرص شديد كأنه جاء لإختطافى ودخلت وخرجت عشرين ألف مرة بالقهوة والعصير والشاي، ومرات عديدة بدوافع القلق والتوتر، وفى كل مرة كانت تخلق حجة لترى ماذا يفعل فنى الكمبيوتر كل ذلك رغم أن باب الغرفة مفتوح على مصراعيه، والرجل منهمك فى إصلاح الكمبيوتر ليس إلا.. كانت أمى حريصة أشد الحرص من جنس أى رجل يقترب منى، فى الوقت الذى جهلت فيه كيفية مراقبة صديقاتى البنات.. وهن أخطر على من كل الرجال.. تلك هى الحقيقة المرة التى لم تدركها!

علاقتى بأمى لم تكن على ما يرام على الدوام.. كانت فى معظم الأحيان علاقة متوترة، فيها جفاء وخشونة، لا تزيد عن إملاء الأوامر والنواهي وكنت أقضى الساعات فى غرفتى بمعزل عن البيت كله.. أعتكف عن الجميع، كما يفعل المؤمنون الأتقياء فى العشر الأواخر من شهر رمضان، وليس لى من رفيق فى محبسى الاختيارى سوى التلفزيون الصغير الملون تقابله منضدة صغيرة عليها جهاز كمبيوتر حديث جدًا، وكرسى من الجلد المريح للغاية، وكذلك السرير المملوء بالوسائد والبدايب!

جاءت زميلتى فى الجريدة كى تزورنى وتطمئن على أحوالى كما ظننت وليس كل الظن إثم وفجأة ودون سابق إنذار قالت إنها ستطلعنى على شئ خطير ومثير، وأمام دهشتى، واستغرابى طلبت أن يكون هذا الأمر سرًا

بيننا للأبد ، أقسمت لها أنني سأفعل ولن أبوح بما تقوله لى لأى كائن كان ، وإذا بها تطمئن لموقفى ، وتخرج أسطوانة لامعة وتدسها بسرعة داخل أحشاء الكمبيوتر ، حاولت أن أمنعها خاصة أنني سمعت صوت أقدم والدتى ، تجئ وتروح أمام باب غرفتى إلا أن زميلتى كانت أسرع منى فى تشغيل الكمبيوتر ثم قالت هامة :

— لا تخافى يا ايناس لا تخافى.. انتظرى.. لحظات يا حبيبتى وتشاهدى المفاجأة الممتعة!

استسلمت لرغبتها ، ودون مقاومة أخذت أحرق فى شاشة الكمبيوتر بعد أن سمعت التهديدات المحمومة ، وبدأت اللقطات المثيرة الساخنة تروق لى ، وتشعرنى فى الوقت نفسه بالنشوة والإشمئزاز معاً ، وفيما أنا على هذا الحال ، إقترت منى زميلتى كثيراً لامست جسدى ، وبدأت أنفاسها الحارة تلمح عنقى وهى تقبلنى وتعلق رقبتى ، وأنفاسها الملهبة النارية تحرقنى رغبة وشوقاً ، ولهفة للعودة إلى الماضى الحلو المخجل ، وأخذت تداعب شعرى وتمص لسانى ونهدى وتقول لى :

— فلنحرب يا ايناس.. الحياة حلوة.. لماذا لا نستمتع بها وأحلى ما فى الحياة الجسد الجميل.. هو نعمة من الله هيا بنا نتمتع بنعمته!

لا أدرى كيف حدث ما حدث؟! ولا أعرف لماذا بصقت على نفسى أمام المرأة إثر مفادرة زميلتى الصحفية الملعونة عائدة إلى مقر الجريدة مرة أخرى ، وهى تهمس فى أذنى وتقيلتى من شفتاى مع حضن دافئ ببراءة ذئب لئيم قائلة :

— لا تنسى يا حلوتى.. كل ما حدث بيننا سيطر للأبد اتفقنا يا ايناس.. أليس كذلك؟

لم أستطيع التطق من شدة خجلى وارتياكى وندمى وخوفى واضطرابى ، ولا أدرى كيف عدت إلى هذه الدائرة الشيطانية الجهنمية مع زميلة أخرى من عائلة مرموقة والدها سفير شهير ووزير سابق ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت

أخضع لمضاجعة زميلتي، وأنا ذليلة، وأطيعها طاعة عمياء، ودائمًا أكون لها كلما أرادتني، وكيفما أرادتني.

سادت برهة صمت رهيب، لم ينس الطبيب بينت شفة.. كان كمن على رأسه طير جارح، دون يخط يده بعض الملاحظات، ثم سألها بنبرة العالم المحنك الواصل من علمه وحكمته، ونفاذ بصيرته:

— هل في أسرتك حالات مشابهة لحالتك؟

ردت دون تفكير وكأنها تنفي وصمة عار عن عائلتها:

— لا.. لا يا دكتور.. ليس بين بنات العائلة من هن في مثل ظروف.

هز الطبيب رأسه، وعاد الكتابة في أجندته، وباغتها بسؤال لم يكن أبدًا في الحسيان:

— وماذا عن مشاعرك تجاه ناجي شرف الدين؟

تبسمت قليلًا فظهرت أسنانها الناصعة البيضاء المتناسقة بإتقان وقالت:
لا أدري.. أحيانًا أحس أن مشاعري نحوه تتأرجح بين الحب والكراهية، وبين الإحترام والإحتقار.. أكن له مشاعر تبدو متناقضة، لكنني في كثير من الأحيان أشفق عليه، وأنجذب نحوه.. لا أدري إن كان هذا عطفًا أم حياءً؟

حواسي كلها مشوشة، ما عدت قادرة على التمييز.. ما عدت أستطيع التفرقة بين المشاعر البيضاء، والأحاسيس السوداء!

أنهى الجلسة العلاجية، وكتب لها روصة وطالبها بأن تلتزم بها لمدة أسبوع وهي تتضمن مجموعة من المهدئات، ثم شكرها على وعد بقاء جديد الأسبوع القادم

انصرفت وقد شعرت بإرتياح وأطمئنان بعد فاصل طويل من الثثرة والفضفضة.

"النسر هو قيصر الطيور، ومع ذلك يحترس من الذباب!"

ذات يوم كان ناجى شرف الدين يتمشى على النهر المار أمام قريته الصغيرة النائية بإحدى محافظات وسط الدلتا.. تلك القرية التى يعيش فيها خمسة آلاف نسمة، ولم يرد ذكرها على خريطة مصر المحروسة.. فى هذه الأثناء رتب له القدر صدقة خير من ألف موعداً، فقد لقيه حمدان الششتاوى جاره فى نفس الشارع، سأله الرجل عن أحواله كالعادة فبدأ ناجى متذمراً من سوء حظه، وتعثره حتى الآن فى الحصول على فرصة عمل مناسبة فى بلاط صاحبة الجلالة تليق بشخص يحمل درجة البكالوريوس فى الاعلام والصحافة بتفوق وجدارة.. لاذ حمدان الششتاوى بالصمت المطيق ثم قال له:

— إسمع يا ناجى.. ياذن الله مشكلك لها حل.. غداً فى العاشرة صباحاً سانتظرك.. لا تتأخر لعل القدر يخيبك لك خيراً كثيراً.

— إلى أين سندهب؟

— إلى مقر الحزب الوطنى فى سمهود.. بمشيئة الرحمن لن يردنا رب العباد مخذولين.. لا تتأخريا ناجى.

— أمرك يا سيدى أمرك.

وهمس فى نفسه دون أن يسمعه أحد.. عسى الله يضع سره فى أضعف خلقه من عياده البسطاء.

ولم يكذب ناجى شرف الدين خيراً، ولم يخلف وعداً، وبالفعل فى صباح اليوم التالى نهض مبكراً، وصلى ركعتين ثم تناول افطاره، وطرق باب جاره.. سر حمدان الششتاوى لرؤياه، وأسعده حرصه على مستقبله وكان حمدان طيب القلب يتسم بالشهامة، وحب الخير للناس، ومعروف عنه فى

القرية كلها بالمرءة، ونجدة الملهوف..

انطلقا سوياً بحماس صوب مدينة سمثود الأقرب إلى قريته والتي تتبعها القرية إدارياً وجغرافياً، وهناك في مقر الحزب الوطنى سأل حمدان الششتاوى بثقة عن الحاج عوض الدميرى أمين عام الحزب فقالوا له.. انتظر فالرجل على وصول.. جلسا سوياً فى حديقة صغيرة متناسقة أمام الحزب، واحتسبا الشاى بالنعناع، وتحدثا فى أمور شتى حتى وصل الحاج عوض الدميرى، فرآه ناجى لأول مرة، تأمله برفق، كان يتخلله عكس ما رآه، وجده ضئيل الحجم، نحيل الجسد، صغير الرأس مستديره، قصير القامة، يرتدى جلباباً أبيض اللون ناصع البياض يبدو نظيفاً ومكويماً بعناية فائقة، وتنفوح منه رائحة عطر رخيص الثمن، الرجل أصلع من مقدمة رأسه، لكنه يصفى ما تبقى فى حواف رأسه من شعر غير متناسق، مثل الدنيا.. غزارة فى الإنتاج، وسوء فى التوزيع وهو حريص للغاية على العناية بالقلة الباقية عساها تستر أكبر مساحة فارغة فوق جمجمته.. حركاته سريعة متوترة، متضبطة آلية ميكانيكية كما لو كان عقرب الثوانى فى ساعة الحائط، يتكلم بتلعثم واضطراب.

طال بهم الحديث عن الحزب، وكوادره، وقياداته وتربيطاته، والانتخابات القادمة التى أصبحت على الأبواب.. واستعرضوا الأسماء المرشحة لنيل ثقة الحزب.. وقيل أن يختتم حمدان الششتاوى حديثه الودى مع عوض الدميرى عن دهاليز الحزب والأعيب السياسية وخباياها قال له حمدان بود:

— يا حاج عوض.. لنا عندك خدمة، ونعرف أنك لن تخذلنا أبداً.. فأنت أهل كرم ومروءة وشهامة.

انفجرت أسارير الحاج عوض الدميرى، وأرضت كلمات الإطراء غروره ونزلت على نفسه برداً وسلاماً، وبدت السعادة على وجهه وكان فى قمة الإصفاء والتركييز.. فالإنسان دائماً يحب من يمدحه ويهوى سماعه.. قال الرجل:

— أنا تحت الأمر يا حمدان.. أنا فى الخدمة.. اطلب يا صديقى ، وأنا أنفذ فوراً.

أشار حمدان إلى ناجى شرف الدين قائلاً:

— هذا الشاب يهمنى أمره للغاية ، وهو خريج إعلام قسم الصحافة والنشر ونريد منك توصية بشأنه للأستاذ جلال عمار زوج أختك ، وأظن أن الكاتب الكبير رئيس تحرير جريدة "الأحداث" لن يرفض لك طلباً ، وسوف يشمله برعايته ، وعنايته وعطفه ، والفتى بلدياى وجارى ومن المقربين لقلبى ، وليس له فى القاهرة أى مخلوق يساعده.. والأمل معقود عليك.. دبت الحماسة فى أوصال الرجل ، وبسرعة البريق أخرج من جيب جلاببه " كارت شخصى " أبيض اللون مطرز باللون الذهبى باسم الرجل ورقم هاتفه ، وسحب قلمه الفضى وكتب على ظهر الكارت كلمات معدودات أثلجت صدر ناجى شرف الدين وكذلك حمدان الششتاوى الذى قرأ الكلمات بصوت مسموع:

"أخى جلال بك عمار رئيس تحرير جريدة الأحداث.. حامل هذا الكارت يهمنى أمره للغاية، فأرجو أن تشمله بعطفك وعنايتك"

مع خالص الود.. عوض الدميرى.

تبسم ناجى شرف الدين ابتسامة الناجى من غرق محقق وسط طوفان الحياة ، لم يصدق أن السماء قد أهدته أخيراً طوق النجاة ، وصار الطوق بين يديه الآن ، ها هى تأشيرة المرور إلى مدينة الألف مثذنة فى جيبه ، ها هو سيعود إلى عاصمة المعز ليعمل فى واحدة من أهم وأعرق مؤسساتها الصحفية المرموقة.. فى تلك الليلة جافاه النوم طويلاً من شدة السعادة واقترب حلمه من أرض الواقع.. وعندما غلبه النعاس جاءه التوأم الأشهر فى تاريخ الصحافة المصرية على ومصطفى أمين يأخذان بيده ويعبران به بحر

هائج عاصف حتى وصلابه إلى شاطئ الأمان والسلامة.. استيقظ من غفوته مبتهجا منشرح الصدر، وقد أدرك أن هذه لابد وأنها البشرية الطيبة التي لا تقبل الشك.. وبعد صلاة الفجر مباشرة شد الرحال في عز البرد إلى محطة القطار، ودس جسده بين ركاب الدرجة الثالثة في قطار الساعة السادسة المزدحم دائما بالعمال والطلاب والموظفين، وحينما وصل القطار وهو يئن من ثقل ما يحمل في حشاه عند محطة بركة السبع هبط من هبط، وصعد من صعد، بينما ناجى شرف الدين يتسلق الشبكة الحديدية المخصصة للحقائب فوق رؤوس الجالسين على المقاعد، استرخى في الأعلى مع عشرات آخرين، راح في غيبوبة، وغط في نوم عميق وهو قابض على الحديد بيديه، وإذا به يرى مصطفى أمين يهل عليه بجسده الضخم ووجهه الطفولي البشوش باسمًا حاملاً قلمه الذهبي، وأهداه إياه وقال:

يا ناجى.. ينتظرك مستقبل واعد في عالم الصحافة وعليك أن تراعى الله، وتعمل ضميرك، ولا تغمس قلمك في مداد الظلم والعدوان والانحراف.. لأن الكلمة كالطليقة قد تقتل بريئا، وقد تقتص من مجرم.. هيا يا ولدى.. هيا إلى جريدة الأحداث.. فالمجد ينتظرك!

فجأة اهتز القطار هزة عنيفة، وكادت المقضبان تفر من تحت عجلاته ولم يشعر ناجى شرف الدين سوى بصدمة قوية في رأسه، وجسده كله مسجى فوق فخذي امرأة، ورأسه ارتطم بأحد الكراسي الخشبية في القطار.. سقط ناجى فوقها.. صرخت المرأة بعصبية، وهمهم الرجال الجالسون باستهجان، وانزعاج.. فقد سقط من غفوته.. ألمهم الارتطام المفاجئ، وقض مضجعه.. يادر بالإعتذار، وتوسل إليهم طالبا العفو والصفح، والغفران، ولولا تدخل بعض الركاب من الطيبين الواقفين بين الكراسي شهود الواقعة لصارت مشاجرة، وفتك المتضررون بالفتى الذي سقط فوق رؤوسهم في غفلة منهم، وغفوة منه.. كما سقطت التفاحة على أم رأس إسحاق نيوتن فألهمته قانون الجاذبية الذي غير حياة البشرية.. حكاية هذا الرجل أغرب من الخيال فقد ولد في ٤ يناير

عام ١٦٤٣ فى إحدى مقاطعات بريطانيا ، مات أبوه وهو ما يزال فى بطن أمه قبل ولادته بثلاثة أشهر ، وبعد ذلك تركته والدته لتعيش مع زوجها الجديد بعد عامين فقط من مجيئه إلى الدنيا ، وترعرع فى طفولته فى كنف جدته حتى صار شاباً يافعاً.. وفى عام ١٦٦٥ بدأ نيوتن بتطوير معادلات رياضية وكان آنذاك يدرس فى جامعة كامبردج الشهيرة ، وعقب حصوله على شهادته الجامعية عام ١٦٦٥ أغلقت الجامعة أبوابها كإجراء وقائى ضد وباء الطاعون الذى اجتاح أوروبا ، ولزم نيوتن البيت لمدة عامين تفرغ خلالها للتأمل والتفكير ، وتدوين أفكاره مثل راهب مخلص فى محراب العلم.. وكان منزل نيوتن له حديقة واسعة عامرة بأشجار الفاكهة يحب أن يتمشى فيها بين الحين والآخر سرعان ما تقطعها فكرة جديدة فيهرول إلى مكتبه ليسجلها ، كان قليل الجلوس ، كثير المشى حتى لتخاله واحداً من جماعة أرسطو المشائين وكان مقلداً فى الطعام ، وكثيراً ما نسى تناول وجباته الغذائية ، وكان ضيقاً فى الاهتمام بصحته ومظهره ، ودائماً ثراه فى هيئة مزرية ، حذاءه بالى الكعبين وجواربه بلا رباط ، ورأسه غير ممشط إلا فيما ندر وقد رويت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه ، ويؤكد المقربون منه أنه كان يجلس بالساعات عقب استيقاظه من النوم ، ويظل فى فراشه دون أن يرتدى ثيابه ، وقد استغرقه التفكير العميق وكأنه يعيش فى كوكب آخر ، وكان أحياناً إذا جاءه زائرون يختفى فى غرفة أخرى ، ويخلد أفكاراً على عجل ، ويتسلى أصحابه ثمناً.. وذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ وبينما نيوتن معتكفاً فى حديقة بيته رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرة ، وهو راбض تحتها فأمسك بالتفاحة ، واستغرق فى تفكير طويل وعميق ، لم يخطر على باله أن يلتمها ويستريح من التفكير فى سر سقوطها للأرض.. سأل نفسه والحيرة تكاد تهزمه :

ما الذى يجذب الأجسام إلى أسفل؟

ومن خلال هذه الواقعة هداه تفكيره إلى قانون الجاذبية الذى غير الكثير من مفاهيم العلم التى كانت سائدة آنذاك.. وذات مرة سأل غريباً

نيوتن: كيف اكتشفت قانون الجاذبية؟

فأجاب قائلاً: بإدمان التفكير فيه!

لقد ذاق الرجل الفذ طعم الشهرة والنجاح ، وفى عام ١٦٦٧ أصبح عضواً فى هيئة التدريس بالكلية التى تخرج فيها ، وألّف حوله المعجبون لدرجة أن أستاذه فى الرياضيات إسحاق بارو وصفه بأنه "عبقري لا نظير له" وأوصى بتعيينه خلفاً له فى الجامعة ، وفى عام ١٦٨٩ تمكن من أن يكون عضواً فى البرلمان لكنه لم يتكلم قلم طوال الجلسات سوى مرة واحدة فقلّ طلب فيها إغلاق الشباك لأن قاعة الجلسات كانت باردة جداً وهو يريدّها دافئة..

الغريب والطريف فى حياة هذا العبقري أنه برغم نجاحاته المدموية وشهرته التى بلغت الأفاق لم يتزوج ، وبالطبع لم يكن له أطفال يحملون اسمه فى هذا العالم.. وظل هكذا يعيش وحيداً حتى رحل عن الدنيا فى ٣١ مارس عام ١٧٢٧ وهو يبلغ من العمر ٨٤ عاماً ودُفن فى إحدى مقابر العاصمة البريطانية لندن إثر إصابته بمرض غامض.

لا يدري ناجى شرف الدين لماذا تذكر قصة هذا العالم الإنجليزى التى قرأها منذ فترة بعيدة؟

ولا يدري لماذا مر كل شريط حياة وممات نيوتن أمام عينيه وهو فى عز محنته يعانى أثر الإرتطام بين الدهماء فى قطار الدرجة الثالثة المتجه من المحلة الكبرى إلى القاهرة..

بعد دقائق معدودات هدأت روعته ، وتلاشت رجفته ، وتناثرت صدمته على رصيف الذكريات المؤلمة ، وعاد ليتذكر حلمه الذى رآه منذ قليل.. سره أن يزوره مصطفى أمين عملاق الصحافة الحديثة فى القرن العشرين ومؤسس دار "أخبار اليوم" مع توأمة على أمين فى صيف عام ١٩٤٤ استبشر خيراً برؤياه ، وتفاعل هذه المرة ، وأدرك أن نحسه سوف يفارقه للأبد ، والحظ سوف يتسم له ، وقد يقهقه فى وجهه.. كان القطار يكاد يلفظ

أنفاسه على الرصيف في محطته الأخيرة، وهو يترنح بما يحمله في حشاه، كما تترجرج الحامل في أربعة توائم خلال شهرها التاسع.. تراقص قلبه بين أضلعه من شدة فرحته، وهو بين السماء والأرض في المصعد بمبنى جريدة "الأحداث" حيث الموعد المأمول، والأمل المرتقب والعلم الذي يواعده ولم يبلغه بعد.. كان مكتب جلال عمار رئيس التحرير المزمع الذي قيع فوق كرسيه حوالى ٢٥ عامًا يعج بحركة دؤوبة.. ضيوف كالتمل من كثرتهم.. محررون يدخلون، وآخرون يخرجون، وفي أيديهم أوراق لموضوعات صحفية، وصور فوتوغرافية، وبروفات لصفحات من الجريدة قبل الطبع، ومخرجون صحفيون يتناقشون في ملاحظات رئيس التحرير بشأن توضيب الصفحات.. وأحاديث تدور هنا وهناك، جلس ناجي شرف الدين أمام السكرتيرة البيضاء الهيفاء الحسناء ذات الشعر الأسود الطويل، والعيون العسلية اللامعة، وسأل نفسه خلسة:

لماذا كلما ذهب إلى مكتب أحد كبار المسؤولين الكبار وجده يقتنى سكرتيرة حسناء؟ فهل الحكومة تختارها له بعناية حتى تساعد على العمل بمزاج عالٍ وعطاء منقطع النظير؟ هل الحكومة تفعل ذلك لكي توفر لأكابر القوم السلطة والمال ويجوارهما الجمال الأتقن؟

بدا ناجي مبهورًا، فخورًا بأنه هنا في هذا المكان المعطر برائحة الخبز والذى عاش فيه من قبل عظماء وأساطين ونجوم الصحافة وفرسان القلم وجنرالات الكلمات في سنوات مضت.. تأمل لوحاتهم الزيتية بدهشة.. كان الدم ينبض في وجوههم كأنهم أحياء يرزقون يتسمون له، ويهمسون إليه وحده دون غيره.. أفاق من شروده وتأمله واستغراقه في تفحص الوجوه الشهيرة على صوت ملائكى شفاف رقرق مثل تغريدة كروان.. سألته السكرتيرة برقة عما يريد من رئيس التحرير، فحكى لها القصة باختصار خجل، وأعطاه الكارت الذى يظن أنه سيجعل قارب مستقبله يسير على الإسفلت بسرعة الصاروخ، التقطته منه بثغر باسم، وشفاه مكتزة لم تخلق

إلا للقبلات لا للثرثرات في توافه الأمور ، وهو يمنى النفس بألا تحرمه الأقدار
من رؤية هذه الأنتى الجميلة مرات عديدة في الأيام القادمة ، بدا واثقاً من
أنه سيكون واحداً من محرري الأحداث المحظوظين الذين يكتبون تاريخ
مصر ، وحياتها اليومية لحظة بلحظة وكلمة بكلمة!

تأمل مؤخرتها المحبوبة في ينطلون جينز أزرق وساقها الملفوفتين
وضيق البنطلون يحدد معالم الطريق إلى كهف متعتها ، وبلوزة أشبه
بقميص رجالى مفتوح الصدر قليلاً ، فيطل جزء مثير من نهر ثديها ،
وحلمتها تبرزان بجرأة من تحت البلوزة التركواز كأنهما في حالة تمرد
على ثيابها!

همس لنفسه: سيجان المبدع الخلاق..

عاد من جديد يتأمل وجوه كبار الصحفيين على الحائط بدقة كان
بعضهم باسمًا ، والبعض الآخر متجهماً ، لا يدري سر الابتسام لدى هؤلاء
ولا يفهم سبب التجهم عند أولئك كاد يسألهم عن سر خلودهم وتفوقهم
وتفردهم.. ومن أين استمدوا جينات عبقريتهم؟!

بعد لحظات لمح السكرتيرة تخرج من مكتب جلال عمار رئيس التحرير
وابتسامتها الساحرة التي لا تفارق شفيتها قد اختفت وانتحرت فوق ثغرها ،
وحل محلها بالقوة الجبرية الحزم والجدية.. بدت عابسة غاضبة.. كاد قلبه
ينخلع من القلق.. بحلق في صفحة وجهها محاولاً سبر أغوارها ، وقراءة
طالعها ، وفك شفرة تجهمها المفاجئ سألها.. تلعثت قليلاً في الكلام
ثم قالت:

— الأستاذ يقول لك اترك لنا بياناتك وعندما نحتاج محررين سوف نتصل
بك بإذن الله.

نزلت كلماتها القليلة المقتضية عليه ناراً ودماراً ، وكان يتمناها برداً
وسلاماً.. انقبضت أساريره ، وانصرف حزناً صامتاً بعد أن سجل بياناته
أمامها بيد مرتعشة ، ودمعة حائرة تكاد تفر من عينيه أمامها لكنه تماسك

ومضى لحال سبيله مكلومًا دون أن ينطق سوى بكلمة وحيدة قالها لها:
شكرًا.

وأثناء خروجه من مبنى مؤسسة "الأحداث" قال لنفسه:

حسبي الله ونعم الوكيل.. لماذا غلقوا كل الأبواب في وجهي؟ ولماذا
فتحوا كل المتاريس أمام أبناء الأكابر من زملائي بمجرد تخرجهم من
الجامعة وأحيانًا قبل أن يتخرجوا؟

لماذا يتحدثون ليل نهار عن العدالة الاجتماعية والمساواة، وتكافؤ
الفرص والشفافية وهم أبعد ما يكونوا عن هذه الشعارات الجوفاء الرنانة
الفارغة؟

لماذا الفقراء وأبناء الفقراء دائمًا ضحايا هذا المجتمع مهما فعلوا ومهما
حصلوا على شهادات عليا ألم يقل الله.. فطوبى للفقراء؟

من يدري ماذا تخبئ لي الأيام؟

الحمد لله على كل الأحوال.. قدر الله وما شاء فعل.

" السماء لا تفتح أبوابها إلا لمن يجيد فن الإلحاح عليها
لاستجداء عطاياها ! "

عاد إلى أمه التي تعلق عليه كل آمالها.. حزينا مهموما لا يفادر الدار كأنه في حالة حداد، دعت له أمه بالفرج، وتوسلت للسموات أن تستجب للدعوات وما هي إلا أيام معدودات، وحدثت الانفراجه الكبرى، وكان آذان السماء كانت مصغية، وأبوابها كانت مفتوحة، فسمعت الدعاء، واستقبلت الرجاء.. بدأت وفود المرشحين للبرلمان تتهاافت على قريته، والقرى المجاورة وأقنعة المناهضين لهم تأوى إلى سكران تلك القرى طلباً للمنازلة والتأييد وبحثاً عن الأصوات الانتخابية.. وفى مثل هذه المناسبات دائماً ما يعرض النواب المتنافسون على الكراسى البرلمانية تقديم خدماتهم المجانية للناخبين كعربون محبة عساهم يفوزون بالأصوات التي تجعلهم يحصلون على الحصانة ويمثلون الناس تحت القبة!

عاود ناجى شرف الدين المحاولة من جديد، وبرغم إحساسه بالمرارة والإحباط لم يكن اليأس قد تمكن منه بعد، فما زالت الأمانى ممكنة، والأحلام قيد التحقيق على أرض الواقع.. حكى مسأله المستعصية لأحد المرشحين الذى ضحك بثقة قائلاً:

— يا ناجى.. مشكلتك لها عندى ألف حل فلا تقلق يا بنى.. هناك فى القاهرة ابن عمى عباس مبروك رئيس القسم العلمى فى مؤسسة " الأيام " للصحافة، ويأذن الله سوف أوصيه عليك لكى يساعدك على أن تتضمن لأسرة تحرير المؤسسة الصحفية الأعرق والأقدم، والأعظم فى الشرق الأوسط كله..

لم يكن ناجى قانطاً من رحمة الله، ولم ييأس ولم يكن متفائلاً كثيراً هذه المرة مثل المرات السابقة، ولا مانع لديه من أن ينال شرف المغامرة،

ولو نجحت فيكون قد حقق أعظم أمنية في حياته ، ولو أخفق فلا بأس ، ولا جديد تحت الشمس فقد اعتاد على الإخفاق ، والانكسار.. فلا ضير.. تلك مشيئة السماء طالما أنه ليس من أبناء الأكابر المسنودين ، أهل الخطوة ذوى النفوذ ، ولا يملك الكارت الذى يجعل القارب الخشبي يسبح فوق الإسفلت!

فى صباح اليوم التالى ، وقبل أن تطلع الشمس على الدنيا بوجهها المشرق الذهبى بدأ غزوة جديدة من غزواته المتكررة إلى القاهرة المعز.. تلك المدينة المتوحشة.. الكافرة بالغرياء.. الكارهة لوجودهم والتي لا تقبلهم بين ضلوعها حتى لو طلبوا حق اللجوء الإنسانى ، تلفظهم بإصرار ، وتطردهم بإنكار مثلما أبى الجسد غرس المسامير بين أوصاله حتى ولو كانت لإصلاحه وعلاج أوجاعه..

هذه المرة كانت جريدة " الأيام " قبلته وميتفاه.. فى طريقه لأهم صحيفة ناطقة بلغة الضاد كانت أحلام الشهرة تراوده ، وكوايس الإخفاقات فى المحاولات السابقة تطارده.. صار ممزقاً بين النقيضين ، خائفاً من الفشل وهو أجسه.. يحده الأمل.. دعا ربه فى سره وهو ساجد يصلى ذات مرة أن يجبر بخاطره هذه المرة ، لأنه أصبح مسخرة ، وموضع سخرة أبناء قريته من الجهلاء ، وأشباه المتعلمين لدرجة أن بعضهم وصف شهادته العليا بالمزورة ، واتهمه آخرون بأنه عاش فى القاهرة أربع سنوات لتحصيل العلم فى أكبر جامعاتها ، وعاد منكس الرأس بلا شهادة من الأصل!

أمام هذه الظنون الخبيثة ، والشكوك الظالمة ، والاتهامات المسمومة ماذا يفعل؟

هل يطوف فى دروب ومسالك البلد كلها مثل المسحراتى فى ليالى رمضان يطرق الأبواب ليبلغ القاصى والدانى وفى يده شهادته العليا فى الإعلام بأنه فعلاً من حملة النيكالوريوس لكى يتوقف الحمقى منهم عن تصويب اتهاماتهم الأكثر غباء وحماقة إلى ضميره العلمى؟

كان ناجى شرف الدين من كثرة محاولاته ، وتكرار غزواته وفشلها
جمعاء ، واهتمامه بمظهره المبالغ فيه كل مرة يشد فيها الرجال إلى
القاهرة قد أصيب بغصة فى الحلق ، وفكر هذه المرة أن يكون مختلفاً
عسى أن يتركه شيطان النحس ويفارقه ، فلم يقصر شعره ، تركه طويلاً
متاثراً منسدلاً على جبهته وأذنيه ومؤخرة رأسه ، ولم يحلق لحيته ولم تمس
المكواة ملايسه ، فور وصوله محطة مصر ، وهبوطه من قطار الدرجة
الثالثة اللعين بدا كالمتشرد الذى خرج ثواً من مشاجرة غير متكافئة..
فى هذه الأثناء كانت الحرب على الإرهاب فى أنحاء مصر لم تضع أوزارها
بعد.. تفجيرات هنا.. وإراقة دماء هناك.. والضحايا دائماً من السائحين
الأجانب ، وأحياناً من الساسة المصريين ورجال الحكومة.. وكان جهاز
أمن الدولة بكل عناصره ، وإمكاناته وآلياته فى حالة طوارئ واستنفار ،
ووسائل الإعلام لا تكف عن ترديد نغمة واحدة وتعزف ذات السيمفونية
كأنها ببغاوات حمقى.. الصحف القومية والحزبية والخاصة التى يسمونها
مستقلة ، والإذاعات والقنوات الفضائية والأرضية تطنطن ليل نهار:

مصر مستهدفة.. هناك مؤامرة ضدها!

من كثرة تردده على شارع الصحافة ذلك الشارع الذى اغتال حلمه
بالعمل فى بلاط صاحبة الجلالة صار يحفظ ملامحه ، ويعرف عدد الحفر
والمطبات والنتوءات فى رصيفه وما أكثرها.. بعد أن هبط من القطار مشى
عدة أمتار على قدميه حتى دلف إلى مطعم فول رخيص بجوار مسجد الفتح
العتيق الذى يتصدر ناحية الميدان من ناحية الفجالة ، والتهم طبق فول
بالزيت الحار ، والتوابل الحريفة ، ثم خرج وقد شعر أن فى معدته حجر
هوان.. سار ببطء وعلى أقرب مقهى استرخى كالمخدر يحتسى الشاي
ساخناً ، وبرغم قسماته الهادئة ، ووسامته الطاغية ، وقوامه الممشوق ،
وشعره الناعم المسترسل على جبهته إلا أن هيئته توحى لمن يراه بأنه أحد
المشاغبين المتمردين على كل شئ..

دخل مؤسسة " الأيام " للصحافة يقدم ساقاً ويؤخر الأخرى، قلبه ينتفض بين أضلعه.. لا يدري ماذا يشعر بالتحديد؟

إمتزج خوفه بوجله.. واختلطت مشاعر الإجلال للمكان معنى ومبنى بأحاسيس قد تصيبه لو جاءت النتائج بما لا يشتهى، لا يريد تذوق مرارة الإخفاق من جديد، وما أقساها مرارة، وما أصعبها مذاقاً كالعلقم.. كان يرتدى البنطلون الجينز الباهت اللون الكالڤ الصبغة، والقميص الواسع الفضفاض المشجر، وفى يده حقيبة صغيرة أشبه بدوسيه البلاستيك الرخيص ليس فيها سوى أوراقه الرسمية.. شهادة تخرجه من كليه الإعلام قسم الصحافة والنشر، وشهادة الخدمة العسكرية والتي قضى فى سبيلها ١٢ شهراً بالتمام والكمال فى سلاح المشاة، وفيش وتشبيه، وشهادة ميلاد و٦ صور شخصية ٤ × ٦.. كل هذه المستندات لا تفارقه عسى الحظ يحالفه، والتوفيق لا يخالفه فتطلبها منه مؤسسة صحفية ما فيكون جاهزاً على الفور.. دخل مؤسسة الأيام بعذر مشوب بالأمل.. وبينما هو يتلمس طريقة سمع مجموعة من رجال أمن المؤسسة يتحدثون فى أجهزة اللاسلكى، ويهرولون بملابسهم الرسمية فى اتجاهات مختلفة، وهم على أهبة الاستعداد وكأن حادثاً مروعاً سيقع خلال دقائق معدودات!

إنتابت ناجى شرف الدين حالة من الدهشة، وانتحى جانباً يراقب ما يحدث بعد أن صرخ فيه رجال الأمن الأشداء بنبرة حادة نحاسية أن يبتعد عن المكان.. تراجع خطوات للوراء ليرى المشهد كاملاً.. هاله ما رأى.. مجموعة من السيارات الجيب السوداء من طراز هامر التى يفضلها الرئيس الأمريكى ورجال الحرس الرئاسى.. السيارات مسبوقة ومتبوعة بمجموعة دراجات بخارية، فى البداية ظن ناجى بساذجته المعهودة، وبراءة الرضى الطيب أن أحد الوزراء جاء لزيارة مؤسسة الأيام، ولو قالوا له إن الرئيس هو الذى يزور المؤسسة الصحفية الكبيرة لصديق دون أدنى شك لكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة.. لا هو أحد الوزراء ولا هو فخامة الرئيس

فقد رأى بعينه عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير وهو ينزل من سيارته التي تشبه دبابه فاخرة كملك متوج بصولجانه ومن حوله حاشيته وحرسه، ورجاله.. سار الرجل على مهل بثقة واقتدار.. تحسس رباط عنقه، وصوب نظراته الحادة يميناً ويساراً بكبرياء، وعلى وجهه إرتمت ملامح الملل والتأفف من الجميع، وكأنه جاء من كوكب آخر لإصلاح ما أفسده هؤلاء الشرذمة من البشر في الصحافة والسياسة، والثقافة، وكلمات الإطراء والحفاوة والتفاق والرياء الممجوج تنزل عليه برداً وسلاماً، وهو لا يرد سوى بإيماءات قليلة متعالية من رأسه.. أفسحوا له الطريق واصطف الجميع على جانبيه في خشوع وخضوع، والمصعد ينتظره على أهبة الاستعداد حتى وصل آمناً مطمئناً إلى مكتبه الفخم الفاخر، وجلس على كرسیه المريح في الطابق الرابع بالمبنى العتيق.

بعد ذلك عادت الأمور إلى طبيعتها، وهدأت الحركة.. لأول مرة يراه ناجي وجهاً لوجه، فكثيراً ما رأى صورته بطلته البهية، وصلته الإستوائية تتصدر الصفحة الأولى بجوار مقاله الافتتاحي وأضعاً يده تحت ذقنه، والقلم في يده ليبدو لقرائه، وهو يفكر ويتأمل ويعانى الأمرين في كتابة ملحمته الصحفية التي لا تزيد عن خطبة عصماء في تمجيد الرئيس الواحد الأوحى بطل الحرب والقائد المنتصر المظفر في السلم، وزعيم الأمة المغوار الذي لا يشق له غبار، وواضع أسس السلام، وصاحب القرار الذي أنقذ هذا الجيل وكل الأجيال القادمة من الموت في الحرب الخاسرة ضد عدونا اللدود المتربص بالوطن على الحدود المتاخمة من ناحية الشرق.

لا يكل ولا يمل الكاتب الكبير من المديح والتزلف الرخيص للرئيس، وقد حصد أيضاً عبد العليم طابع مع صديقيه عنتر رجب رئيس مجلس إدارة وتحرير "المصرية" وجلال عمار رئيس تحرير وإدارة مؤسسة "الأحداث لقب" رئيس التحرير المزمّن والطريف أن الرجل الذي أطلق على الثالوث الأشهر في تاريخ الصحافة المصرية هو الدكتور فوزى السيد نقيب الأطباء

وعضو مجلس الشعب المزمّن أيضاً.. وقد أثار هذا اللقب ثائرة جلال عمار فكتب مقالاً نارياً استفزازياً تحت عنوان.. " النقيب المزمّن " .. شُن فيه هجوماً ضارياً واتهمه فيه بأنه شريك لوزير الصحة في مشروعات مشبوهة وظلّت المعركة دائمة في الصحف ، وتحت قبة البرلمان حتى انتهت المعركة بالإطاحة بوزير الصحة ، وظل نقيب الأطباء يطلق صواريخه ، ويصوب قذائفه من تحت القبة ، ويطالب بضرورة إقرار قانون يحد من بقاء رؤساء تحرير الصحف القومية مدى الحياة فوق كراسيهم ، حتى ولو بلغوا من الكبر عتياً ، وماتوا إكلينيكيًا على عروشهم في المؤسسات الصحفية داخل بلاط صاحبة الجلالة!

نهشه القلق والتوتر وهو يسأل موظف الاستقبال في مؤسسة الأيام عن رئيس التحرير..

قال الموظف:

إنه موجود وقد دخل المؤسسة منذ دقائق وأظنك رأيته..ماذا تريد بالضبط؟

_ أريد مقابلته..

_ هل لديك موعداً معه؟

_ لا.. للأسف.

_ هل معك له كارت توصية من أحد معارفه أو أصدقائه أو زملائه؟

_ لا.. والله.

_ هل هناك مكالمة هاتفية جاءت به بشأنك؟

صمت ناجى برهة يفكر ما الذى يقوله ثم تكلم قائلاً: لا.. لا

_ كله.. لا.. لا.. وما الذى جاء بك إلى هنا إذا؟

رفع الملف البلاستيكي الذى يضم أوراقه أمام وجه موظف الاستقبال وقال له بضيق: هذا هو الذى أتى به إلى هنا.

— وماذا تحمل في هذا الملف؟

ضرب ناجى بيده على الملف قائلاً:

— فيه أوراقى الرسمية.. مسوغات تعييني.

تعجب الموظف وقال لناجى بعد أن تفرس ملامحه وتأمل مظهره بريية وشك: أرجوك.. انتظر لحظة.

ثم دخل إلى غرفة صغيرة مجاورة، وأجرى مكالمة هاتفية سريعة ثم عاد إلى مكانة قبالة ناجى مرة أخرى، وبعد عدة لحظات جاء رجلان يافعان يرتديان ملابسهما الرسمية، واصطحبا الفتى إلى الداخل ليجد مفاجأة مذهلة في انتظاره لم تكن لتخطر أبداً على باله أو ترد في خياله!

"إن الله خلقك بدونك.. ولن يساعدك بدونك"

فوجئى ناجى شرف الدين بصدمة جديدة، وتأكد أن ثميمة النحس مازالت تلازمه وتسير فى ركابه، حيث عرف وهو داخل القطار فى طريقه إلى القاهرة أن عباس مبروك قد مات، كلمات النعى والرثاء ومقالات الوداع والتأبين تملأ مساحات كبيرة من صفحات جريدة الأيام.. زملاء الرجل ورفاق رحلته فى بلاط صاحبة الجلالة دبجوا فى مديحه الكثير، وتحدثوا عن صفاته الحميدة، وذكرياته اللطيفة معهم بحرارة إيماناً منهم بمبدأ "اذكروا محاسن موتاكم" .. وهنا أيقن الفتى أن الكارث الذى فى جيبه والذى كان يعتبره صك الفخران، ومفتاح دخوله إلى جنة صاحبة الجلالة أصبح بلا قيمة، أخرجته من مكمنه حيث ينام فى جيب سرواله الخلقى تأمله بحسرة ومرارة وقال فى نفسه:

اللعنة على الحظ.. قاتله الله.. لا أدري لماذا يعاندنى؟ وإلى متى سيبطل يحاربنى، ويقف حجر عثرة فى طريقى؟ تبا للفقراء والضعفاء والبؤساء فى هذا البلد التمس الذى لا يحترم سوى الأقوياء الأغنياء حتى ولو كانوا أغنياء وأصحاب نفوذ! ماذا يفعل الفقراء المستضعفون فى الأرض؟ لمن يلجأون إذا ضاع الحق، وتلاشى العدل فى هذا العالم؟ ولماذا أصبحت صاحبة الجلالة عصبية عليه، والمؤسسات الصحفية القومية الكبرى تحديداً؟ لم يكن هناك مثل هذا الطوفان من المطبوعات الموجودة الآن، والذى يملأ الأرضة مع كل بزوغ شمس يوم جديد.. لم يكن هناك فى ذلك الوقت سوى صحيفة أو صحيفتين للمعارضة ذراً للرماد فى العيون بجانب الصحف القومية، ويرى ناجى أنهما بلا مستقبل.. ولكن ظل السؤال الصعب يحير.. لماذا تمتع عليه صاحبة الجلالة؟ لماذا لم تهيه نفسها من أول محاولة؟ لا يدري ما السر! كان يشعر أنها مثل زوجة ناشز تتمنع على زوجها وتأبى أن تشاركه

فراشه برغم أنه حلالها شرعاً ومؤهلاً لمواقعتها وتلقيحها من ليلة الدخلة! وقعت المفاجأة صادمة على رأسه كالصاعقة، فقد وجد نفسه بين ليلة وضحاها ضحية تهمة خطيرة للغاية يمكن أن تزج به فى غياهب السجن بقية سنوات عمره، وجد ضابطان من جهاز أمن الدولة فى الطابق الأرضى من مبنى مؤسسة الأيام يستجوبانه بطريقة مريبة، ويوجهان له تهمة التخطيط لتنفيذ عمل إرهابى خطير، واغتيال قيادة صحفية كبيرة، وشخصية مرموقة وتحديداً استهداف عبد العليم طابع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير "الأيام" والرجل يحظى بحماية خاصة وحراسة سرية ليل نهار باعتباره الأقرب إلى الرئيس ومستشاره الصحفى، وكاتب خطبه، ومديج كلماته فى المؤتمرات والاجتماعات واللقاءات الجماهيرية المختلفة، وهو الأقرب إلى قلب الرجل الكبير وأذنه دون كل أقرانه من رؤساء التحرير وكبار الصحفيين!

ظل ناجى شرف الدين على مدى ما يقرب من ساعتين فى خندق المدافع عن نفسه لا يكل ولا يمل من نفي تهمة هو منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.. لم يستسلم قط ولم ييأس.. ألقى أمامهما بأوراقه الرسمية وشهادة تخرجه الجامعية، وأطلعهما على الكارت اللعين الذى يثبت أنه جاء بتوصيه من أحد المرشحين لمجلس الشعب، وكان هدفه مقابلة عباس مبروك رئيس القسم العلمى بجريدة الأيام، لكن يد القدر كانت سبابة، وصعدت روح الرجل إلى بارئها قبل أن يحظى ناجى بلقائه وإعطائه كارت التوصية!

قدم لهما أدلة براءته، وأخيراً قالاً له بلهجة حادة أمرة ساخرة:
إذهب إلى حال سيبلك.. وعليك أن تحلق لحيتك، وتهذب مظهرك الرث هذا حتى لا تضع نفسك موضع الشبهات، وأفضل لك أن ترجع إلى بلدتك فى أقرب وقت.. ومن المؤكد أن تذكرة العودة بالقطار لازالت معك.. هيا هيا عد إلى أمك يا عبقرى!

استفزته كلماتهما القاسية ، ولهجتهم الخشنة ، وأقسم فى قرارة نفسه
بغيباء غريب ألا يغادر هذه المدينة القاهرة الكافرة بالغرباء التى تطحن
أحلامهم بلا رحمة ولا هوادة حتى ولو مات من الجوع ، فهذا أفضل وأكرم له
ألف مرة من أن يعود لقريته خائب الرجاء ، محطم الآمال مجهض الأحلام !
ماذا يفعل إزاء كل هذا ؟ سار على غير هدى لا يدرى إلى أى سبيل
يمضى .. وقبل أن يغادر شارع الجلاء أو شارع الصحافة كما يسمونه ، توقف
أمام جريدة " الأيام " قليلاً يتأمل مبنائها العتيق العريق ، وكأنه أمام محراب
مقدس ، لم يكن يدرى أن الحظ الذى لعنه منذ لحظات ، وسبه كثيراً
فى يقظته وفى أحلامه سوف يبتسم له أيضاً بعد لحظات .. فقد لمح سيارة
مرسيدس رمادية اللون تحوم حول المبنى بحثاً عن مكان إنتظار ، وفجأة
رأى وجهها ، عرفها برغم النظارة السوداء العريضة التى تتخفى وراءها ، لم
يصدق أنه يراها الآن ، وأنها شاخصة على بعد خطوات منه بلحمها ودمها ..
نادته .. كررت النداء بصوت أنشوى عذب صافى مثل ماء زمزم .. تسمر فى
مكانه كتمثال من فولاذ أملس صلد ..

هتفت من قلبها :

— يا ناجى .. يا ناجى .. أنا إيناس مندور .. أنسىتى .. أم أن النظارة السوداء
غيرت ملامحى ؟

تبسم بخجل ومد يده بتردد ليصافحها ، وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه ..
أخيراً ألقى بها القدر مجدداً فى طريقه لحكمة فى تدبيره وضميره !
سألته بمكر عن سر زيارته لمؤسسة الأيام ، فقال كاذباً متلعثماً :
— أبداً .. مجرد زيارة صديق قديم كان معى فى الكلية ..

أدركت كذبه بسهولة ولم تشأ أن تخدش ستره أو تكشف إخفاقه
منذ البداية ، لكنها أصرت على أن تصطحبه إلى كافيتريا المؤسسة على
اعتبار أنه ضيفها .. وهى صحفية تعمل فى هذا المكان .. رفض بشدة دخول
المبنى الذى شعر فيه بالإهانة منذ قليل ، فأشارت له أن يجلس بجوارها فى

السيارة، وقد أحسست بحاستها السادسة أن فى نفسه ما يؤلمه، بعد قليل من التردد جلس بجوارها فانطلقت بسيارتها إلى كازينو قريب وعلى النيل.. وهناك بدا المكان أكثر هدوءًا ويبعث على البوح وحديث الذكريات.. استرجعا من ذاكرة الماضى أحلى ما فيه.. استعدا أيام الجامعة، والرفاق والمحاضرات، والمغامرات وعبث القلوب الخضراء.. تذكر كل شئ.. تحدث بحب وشوق عن رفاق دراسته الذين زاملوه أيضًا فى الجيش، وخففوا عنه وطأة تلك الفترة العصبية من حياته، وتحدثت هى باستفاضة عن زملائهما الذين التحقوا بالعمل فى الإذاعة والتليفزيون، وفى وزارة الخارجية، وفى الصحف القومية الكبرى.. بدت إيناس مبتهجة ثرثرة تفضفض بلا حساب، وتطلق صيحات مرح فيها خلاعة ومجون بينما هو قليل الكلام يرسم ابتسامه مستعارة على وجهه عساها تخفى نبرة الحزن والكآبة التى تغلف صوته حتى أعترف لها أخيرًا بأنه مازال عاطلاً عن العمل ولا يعرف له طريقًا ينقذه من شيخ البطالة الرهيب.. قالت له:

— وماذا تفعل لمن تحل مشكلتك، وتضمن لك مكانًا مناسبًا فى صحيفة جديدة وواعدة.. صحيفة مستقلة ولها جمهورها رغم أنها لم تكمل عامها الأول فى دنيا الصحافة.

تساءل مستكبرًا: صحيفة مستقلة.

— نعم يا ناجى.. ستكون خطوة تثقلك بعد ذلك إلى "الأيام" أو "الأحداث" أو "المصرية".. وهى المؤسسات القومية التى تطمح للعمل بها.. ضع قدمك فقط على أول الطريق، والأحلام تتحقق على التوالى.

هز رأسه قائلاً: لا بأس.. أكون ممسًا لك يا إيناس على كل الأحوال.. شئ أفضل من لا شئ.

تبسمت فأشرق وجهها، ومدت يدها الصغيرة وأخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها.. وقالت له قبل أن تطلب الرقم:

— رئيس التحرير صديقى، ولن يرفض لى طلبًا خاصة وأنهم فى حاجة

إلى محررين خريجي إعلام، ومن حين إلى آخر أتعاون معه وأكتب عنده بعض الموضوعات التي تناسب سياسته التحريرية.

وما إسم هذه الجريدة، ومن يكون رئيس تحريرها؟
جريدة "مصر اليوم" ورئيس تحريرها عمر الشهابي.. حالاً أكلمه من أجلك..

ومست بأناملها الرقيقة وجه الهاتف وأرقامه، وبدأت تتكلم وتحكي عن زميل دراستها الموهوب، كثير الكفاءة قليل الحظ الذي لم يجد فرصته المناسبة حتى الآن.

ولم يسمع ناجي بالطبع ما يدور من حديث على الطرف الآخر من الحظ، لكنه فهم من ردودها أن هناك موعداً جرى تحديده ليقابل رئيس التحرير في مقر الجريدة بوسط البلد غداً في الساعة مساءً.. أحس أن الدنيا بدأت تضحك له.. مد يده وأمسك يدها، وأطل في عينيها دون أن يتلق بكلمة.. سحبت يدها كأن النار قد مستها وامتنعت وجهها دون أن تعلق بكلمة!

...

" المرأة لها قلب واحد وعقلان.. الرجل له قلبان وعقل واحد "

تستطيع الأنثى أن تغفر للقدر كل شئ إذا كانت جميلة ، أما لو كان حظها من الجمال ضئيلاً ، ونصيبها من القبح وفيراً فتلك كارثة كبرى تنغص عليها أيامها ، وتحول ربيع عمرها الوردى إلى خريف غضب.. هذا هو عكس حال إيناس مندور ، فتضاريسها وهضابها ووديانها هي سر عذابها ، وهى مثل كل أنثى تدرك مواطن جمالها وقوتها ، ونقاط قبحها وضعفها ، وهى تعلم أنها تملك من أسلحة الإغراء الكثير وتحتكم على ما يكفيها ويزيد من ذخيرة الفواية التى تجعلها قادرة على اقتناص الرجل المناسب لو أرادت أو معاشرة الأنثى التى تبغى.. وبرغم أن أحوالها المادية ميسورة للغاية نظراً لأن والدها قضى ما يزيد عن عشرة سنوات فى الخليج إلا أنها لم تكن تشعر بالسعادة ، فلم يراودها عن نفسها فى يوم من الأيام منذ بلغت مبلغ الإناث أى شاب ، صحيح أنها كانت تلمح نظراتهم المتوحشة ، ورغبتهم فى افتراسها تطل فى عيونهم إلا أن الصحيح أيضاً أن الفتى الريفى الرقيق الحال هو الذى لفت انتباهها لكن مشاعرهما كانت تتجه نحو ناجى شرف الدين.. لا تدرى لماذا ولم تفهم سبباً لذلك؟

هو فتاها وفارس أحلامها ، وصاحب التأشيرة الرسمية لاقتحام قلبها والولوج إلى قلعة أنوثتها الحصينة التى لم يقترب منها أى رجل حتى الآن ، برغم أن هذه القلعة فتحت أبوابها على مصراعيها لبنات جنسها.

فى كثير من الأحيان كانت تصيبها نوبة إكتئاب غير مفهومة الأسباب لدرجة أنها كانت تغلق عليها غرفتها لمدة يومين أو ثلاثة وتقطع للبكاء.

أما عن حظها فى التعليم فقد كان عظيمًا حيث تخرجت فى مدارس اللغات والتحقت بكلية الأعلام قسم الصحافة ، وهى تجيد الفرنسية

والإنجليزية بطلاقة قراءة وكتابة ونطقًا ، كما تتقن العربية تمامًا ، وكذلك كان حظها في العمل ، فلم يكن تعيينها محررة صحفية في مؤسسة الأيام صدفة ، بل لعبت الوساطة الدور الأكبر بجانب مؤهلاتها وثقافتها الأوروبية ، وقد كانت تتمنى أن يكون حظها وفيرًا في عالم الرجال لا الإناث.. لكن الأقدار لا تعطى للإنسان كل شيء في وقت واحد!

ومنذ ما يقرب من ست سنوات ، وتحديداً عندما تعرفت على ناجي شرف الدين لأول مرة ، ومنذ أول لقاء لهما في السنة الأولى بالكلية أحسبت أنه بوسامته ، وقسماته الحلوة ، وزجولته ، ونبرة صوته الشجي الرخيم هو الأقرب إلى سويداء قلبها دون كل الغزاة الواهمين المفترضين ، كان جمالها أسراً ، لكن خشونتها تضعها في كثير من الأحيان في خانة الرجال ولشراستها لم يجزئ أحد من الجنس الخشن أن يغازلها أو يلقي بوردة في طريقها أو يقذفها بكلمة إطراء!

وذات يوم بدت أكثر جرأة وغلظة وتمرداً على كل شيء ، تلبستها حالة من النزق والتهور لدرجة التحرش بناجي.. قالت له بصراحة أقرب إلى الوقاحة:

— لماذا لا تتحرك.. أنا أريدك.. ألا تفهم؟

لزم الصمت وكان يعرف أنها أكثر من شخص في شخص واحد سريعة القلب من النقيض إلى النقيض لدرجة تثير حيرته.. أعادت عليه السؤال الذي تجاهله في المرة الأولى فرد عليها:

— كيف لإنسان مثلي أن يفكر في مثلك ، وأنت أعلم الناس بظروفي.. فلا وظيفة أتكسب منها ، ولا مسكن يأويني.. بصراحة أنا لا أملك من حطام الدنيا شيئاً يا إنياس.. أين أنا.. وأين أنت؟ هل الأرض والسماء يلتقيان؟ بالطبع لا.

— لا بأس يا ناجي.. فكل ما تحتاج إليه ستجده عندي.

— تلك هي المشكلة.. أنا ريفي وفلاح ابن فلاح ، ولا أقبل أن أكون عائلة على أنثى.

إمتنع وجهها ، وبدت غاضبة فتركت يده المقبوض عليها فى راحة يدها بضراوة ، كما لو كانت هى الرجل.. وفى السيارة ظلت صامته للحظات فقال لها مخففاً عنها وقع كلماته الصادمة :

— يا إيناس لا تغضبى منى فلا يعقل أن أدفن رأسى فى الرمال مثل النعام وأترك جسدى للعراء عرضة للمخاطر ، والمهلك على طريقة هذا المخلوق الجبان الأحمق.

فاجأته بجرأة قائلة بهمس :

— اقترب منى يا ناجى.. قبلنى.. إحضنى ولو مرة واحدة فى حياتك.. ألا تشعر بما أنا فيه أيها المغفل ؟

— لكن.. لكن.. يا إيناس الناس..

قاطعت تلثمته وتردده وخوفه بنبرة حاسمة مغلقة بالتهديد قائلة :

— هيا.. هيا.. قبلنى أو أنزل من سيارتى.

— أمرك يا ست هانم..

قالها باستسلام وخضوع العبد المطيع لسيدته الأميرة الأمرة الناهية ثم إقترب منها على استحياء ، وضربات قلبه المضطرب تتزايد مثل دقات طبول الحرب فى زمن الأوس والخزرج ، وبهدوء طبع قبلة باردة منزوعة الإحساس على خدها الأيمن واحتضنها ، فأحس بانتفاضة جسدها الساخن بين ذراعيه كالحمومة ثم ابتعد عنها ببطء فتشبث به قليلاً ، وأغمضت عينيها وبعد ذلك أفاقت من نشوئها على تملصه منها برفق ، وصوت صرخات آلات التنبيه لعشرات السيارات يصك الأذان فى إشارة المرور ، ومئات العيون كانت تلتصص عليهما فى عرض الطريق ، أحس هو بالحرج كما لو كان قد إرتكب فعلاً فاضحاً على مرأى ومسمع من كل الدنيا ، وأحست هى بالضيق والغضب منه وحده ، وليس من العيون المتلصصة المتطفلة)

" إذا أردت أن تعرف قيمة مسقط رأسك إرحل عنه بعيداً "

فى الشقة الصغيرة الحظيرة التى شاء القدر أن يأوى إليها ناجى شرف الدين مع أربعة آخرين، لكل واحد منهم حدوده لا تقل إثارة، ودراماتيكية عن حدوده ناجى.. فى إحدى الليالى المقمرة ظل مسهّداً متوتراً.. حاول أن يقتل وقته ويثدّ سهاده بالقراءة التى وقع فى غرامها منذ سنوات طويلة، كان هناك بائع صحف ومجلات، وبقايا كتب قديمة تستقر على رصيف محطة مترو الأنفاق.. فى طريق عودته للشقة التى كانوا يطلقون عليها " شقة الحرية " انتقى رواية أعجبه عنوانها " متحف البراءة " وهى الرواية الأولى التى أصدرها الروائى التركى الأشهر أورهان باموق بعد فوزه مباشرة بجائزة نوبل للأدب، وهذا الأديب التركى رسخ نجوميته الأدبية بنشره عدة روايات منها " الثلج "، " القلعة البيضاء "، " اسمى هو الأحمر " ويتمتع باموق بموهبة أصيلة ومتوهجة فى الحكى أصقلها بالقراءة الجادة والمنهجية وعمقها بالمعرفة التاريخية والحضارية منذ كان صبياً صغيراً، فهو ينتمى لأسرة موسرة وفرت له إمكانيات التعليم المتميز وفتحت أمامه آفاقاً رحبة للثقافة، وكان جده قد تمكن من جمع ثروة طائلة من عمله فى التجارة، غير أن والده وعمه بددا جانباً كبيراً من تلك الثروة عقب موت الجد ورحيله إلى العالم الآخر، لكن ما تبقى للأسرة من بقايا الثروة وفتاتها يسر لأورهان باموق وأفراد عائلته أسباب الحياة الكريمة المستورة! وقد أفاض أورهان فى كشف تفاصيل موحية من حياته، وتشابكها الوثيق المتداخل بتاريخ مدينة اسطنبول العريقة التى هى مسقط رأسه حيث ولد فيها عام ١٩٥٢، ويطلب له ألا يغادرها ليعيش فى ربوع

مدينة أخرى، ويبدو هذا على نحو رائع وجلى فى كتابه " اسطنبول.. ذكريات مدينة ".

أما فى روايته التى تعد تحفة أدبية " متحف البراءة " والتى عكف ناجى شرف الدين على قراءتها ، وأحيها من أول سطر.. فيبدو أورهان باموق مهمومًا من خلال شخصيات الرواية بالتأرجح بين الأصالة والهوية التركية، وبين الحداثة والتغريب أى محاولة وطنه تركيا تقليد الغرب، والانتساب لحضارته والانطواء تحت لواء الإتحاد الأوروبى منذ شق الزعيم التركى الفذ كمال أتاتورك عصا الطاعة على الخلافة الإسلامية، ومزق عباءتها المزركشة برسوم عمرها يزيد على ١٤٠٠ سنة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى التى اندلعت شرارتها الآتمة فى عام ١٩١٤ ووضعت أوزارها عام ١٩١٨، وحينذاك أفصح أتاتورك عن رغبته العارمة فى تغيير الوجه الحضارى، والوجهة التاريخية لتركيا الوطن والتاريخ والجغرافيا.. الحجر والبشر.

وبرغم أن كمال أتاتورك كان حاسمًا، وصارمًا فى التوجه نحو الغرب، وقطع عرى علاقات تركيا التاريخية والحضارية بالشرق، إلا أن " كمال " بطل رواية " متحف البراءة " لم يحسم خياره، فقد كان مسئولًا عن إدارة ثروة عائلته، وعندما بلغ الثلاثين من عمره نشأت بينه وبين إحدى قريباته علاقة عاطفية ناعمة وساخنة والفتاة تدعى "موسون" وتتطلع لأن تصبح ممثلة شهيرة غير أن مشاعر كمال سرعان ما اعتراها الفتور عندما وقع فى هوى فتاة تركية تلقت تعليمها فى باريس فقد كان أبوها قنصلًا لبلاده فى فرنسا، وحاول كمال إقناعها بقطع علاقتها مع مخرج سينمائى حتى يمكنه الاقتران بها مدى الحياة!

برغم أن الرواية لا تمتح نفسها لقارئها من أول مرة إلا أنها خطفت انتباه وتركيز ناجى شرف الدين بشكل كبير.. الرواية تجرى أحداثها على خلفية سنوات العنف السياسى الدموى الذى شهدته تركيا خلال السبعينيات

والثمانينيات من القرن العشرين، وهو عتف كانت تؤجج نيرانه الصراعات الجامحة بين قوى اليمين واليسار.. وفي غصون التأرجح العاطفى لكمال، راقت له فكرة إقامة متحف للبراءة يجمع فيه أشياء وتذكارات فتاته الأولى "موسون".. ومن هنا يأتى اسم الرواية، لكن الطريف أن فكرة كمال بهرت أيضاً الروائى باموق، ولذلك إنخرط فى تأسيس متحفه الخاص بالبراءة، ومن المنتظر أن يفتحه قريباً بالحي القديم فى أسطنبول.

ويبدى الروائى أورهان باموق سعادة غامرة بمتحفه المدهش.. ويقول:
إن الروائى الروسى العظيم تولسوى أنشأ مدرسة، وأصدر كاتب آخر مجلة، وروائى ثالث راودته الأحلام السينمائية، وإهتم أديب رابع بقضايا وطنية وأسس حزباً سياسياً.. وبالنسبة لى فهذا المتحف هو مدرستى ومجلتى وأفلامى وأحلامى السياسية.. متحف البراءة جزء منى!

إن باموق بدأ رحلته الأدبية فى السبعينيات من القرن العشرين، وكان قد درس الصحافة بالجامعة، كما أمضى نحو عامين فى الدراسة بجامعة كولومبيا بأمريكا أواخر الثمانينيات.. وصار باموق مثيراً للجدل فى وطنه تركيا لدرجة أن كبار المسئولين الأتراك عرضوا عليه أن يكون "قنان الدولة" غير أنه إعتذر عن قبول هذا اللقب، وهو مثل غيره كأى كاتب أصيل وموهوب يهوى أن يغرد فى فضاءات الحرية، وألا يحد من حريته وانطلاقه وسام أو لقب!

تجاوزت عقارب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتسللت غفوة النوم على جفون ناجى شرف الدين، وبسط سلطانته عليه، ولم يعد يسمع فى سكون الليل وعتمته سوى الهسيس الناعم الذى يسرى فى أوصال الهدوء بلا ضجيج مثلما يسرى الدم فى الشريان لا يراه أحد، ولا يشعر به حتى صاحبه.. أغلق ناجى الرواية الممتعة وأغلق معها جفونه المرهقة من طول التحديق فى الحروف والكلمات، واضجع بكامل جسده، وطوى الوسادة التى كانت خلف ظهره، وأصبحت تحت رأسه،

ونام بعد أن أزاح الرواية قليلاً بجوارحه لتشاركه فراشه حتى الصباح..
في تلك اللحظة الحاسمة بدأ الضجيج يدب في المكان.. هاهم زملاؤه
شركاء السكن قد عادوا من سهرة جهنمية لا يعلم ما حدث فيها إلا
الله سبحانه وتعالى!

" ليس مهما أن تزور روما .. المهم أن تقابل البابا ! "

فى الموعد المحدد كان ناجى شرف الدين قريباً من المبنى المقصود
تدثر قليلاً بغطاء رأس أسود ، وانكمش فى ملايسه الصيفية البيضاء فى
يوم ممطر معتم .. ودليل فقر الفتى لبسه الأبيض فى الشتاء .. كما قال
الشاعر العربى القديم .. لوقع قطرات المطر خدر ساحر على جسده ورأسه ..
الشمس تختفى وراء تباشير الضباب والسحب القاتمة تبدو رهينة الموجة
الباردة التى هبت على القاهرة فى ديسمبر ، وكأنها تتحدى ثقب الأوزون
والاحتباس الحرارى !

فى بناية مشيدة من أربعة طوابق فى وسط البلد وعلى الطراز الفرنسى ..
هناك إلتقاء فى مكتبه الوثير المريح الذى تفوح من جوانبه روائح عطور
فرنسية معتقة تشى بأن امرأة ما كانت هنا فى هذا المكان منذ لحظات
أو أنها مازالت موجودة .. لا يدري لماذا ألحت عليه هذه الفكرة الشيطانية ..
المكان معتق يعطر امرأة .. آثارها تبدو جلية .. بقايا سيجارة حريمى ما تزال
تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكأس فيها بقايا شراب راقدة على المنضدة ،
وكأس عمر الشهابى رئيس تحرير جريدة "مصر اليوم" فى يده ، بدا
الرجل خمسينى العمر أصلع قليلاً ، مجعد الشعر على جانبي الرأس ، له
بشرة سمراء مثل الآباء فى جنوب مصر ، ويتميز بزنة صوت هادئة رصينة
واقئة كأنه مذيع فى صوت العرب !

صافحه الرجل بحفاوة ، وقابله بترحاب وبشاشة كما لو كان يعرفه
منذ سنوات طويلة خلت ، أشار إليه الرجل بالجلوس أمامه .. استرخى ناجى
شاكراً وبعيون ذئب ماكر تفحص مسرح المقابلة الذى يبدو مثل وكر
لاصطياد الفريسات أكثر منه مكتباً تدار منه صحيفة فيها عشرات

المحررين و المحررات.. ظنّون السوء دارت في رأس ناجي، وطاردته الشكوك لما لاحظته في المكتب من ٣ أبواب منها باب سرى يتخفى في صورة مكتبة، فوجئ وهو جالس والرجل يتكلم بدخول فتاة ثلاثينية العمر ترتدي جيب قصير أسود اللون وبلوزة زرقاء مفتوحة الصدر.. الفتاة فارعة رشيقة مكتملة الأنوثة خميرية اللون شعرها ذهبي اللون من أثر الصبغة، تحمل شفاهاً أنجلينا جولي، وقوام كاترين زيتا جونز وصدر مازلين مونرو، وسيقان ناعومي كاميل، صدمها وجوده في المكان بصفته غريب في مملكتها ووكر متعتها ونزوات رئيس التحرير.. تملكها ارتباك مفاجئ، وبسرعة بديهة، وذكاء مفرط وبخبرة العمر، وحكمة السنين استطاع عمر الشهابي أن يتدارك الأمر ويتفهم مشاعرها فقدمها لناجي قائلاً:

— ميرفت العطيفي مديرة مكنتي.

ثم قدم ناجي لها قائلاً:

— ناجي شرف الدين محرر صحفي جديد سينضم لأسرة جريدتنا

تبادلا التحيات بحذر وفتور وابتسامة مصطنعة..

بدا الرجل ودوداً عطوفاً أليفاً مثل قط سياحى إلتهم وجبة دسمة، ويرغب في النوم لعدة ساعات.. وبعد عدة تساؤلات عن ناجي ودراسته وحياته وإقامته وأحواله في القاهرة كلفه عمر الشهابي بأن يتولى مهمة "محرر الجمهور" هكذا أطلق عليه، وعندما بدت الدهشة أقرب إلى الاستفهام على وجه الفتى..

قال عمر الشهابي رئيس التحرير:

— هذا المسمى استحدثته بنفسى في أعقاب العاصفة التي أثّرت مؤخراً بعد اكتشاف فضيحة إختلاق أحد المحررين السابقين للعديد من القصص الكاذبة!

وعلى فكرة وظيفة "محرر الجمهور" هو أنه يتعامل فقط مع شكاوى

القراء وينقلها إلى رئيس التحرير جاهزة للنشر، وأنا اخترتك تحديداً لأننى أتوسم فيك المواصفات المطلوبة لهذا العمل الصحفى، وهذه هى فرصة عمرك لتثبت ذاتك وتنتقل إلى مجالات أخرى فى العمل الصحفى.

تساءل ناجى بيجل:

ـ وما تلك المواصفات؟

اعتدل عمر الشهابى فوق كرسيه واحتسى ما تبقى فى كأسه ثم قال:

ـ اسمع يا ناجى أنا أثق فى اختيار إيناس مندور وهى التى رشحتك لى وحدتى عنك بشكل رائع، وثبأت لك بمستقبل باهر فى بلاط صاحبة الجلالة.. على كل الأحوال دعنا نرى.. وعموماً المواصفات المطلوبة لوظيفة "محرر الجمهور" هو أن يكون شخصاً ذكياً وفضولياً، ومتفتح العقل ومستقل التفكير، ويقوم بنقل التقارير إلى إدارة الصحيفة لكى تعمل على اتخاذ القرار المناسب، ولمعلوماتك هذه الوظيفة يتولاها فى كبريات الصحف الأمريكية أكثر المحررين حنكة وخبرة، لكننى اخترتك رغم حداثة عهدك بالصحافة لكى أمنحك فرصة العمر.

تمتم ناجى بكلمات شكر هامة، وهو يفرك يديه قلقاً وتوتراً حيث كانت عيون ميرفت العطفى تراقبه كأفعى متمرة، والسيجارة مشتعلة بين أصابعها، وهى أيضاً مشتعلة كسيجارتها ماركة "ميريت".

قال عمر الشهابى بثقة واعتزاز:

ـ لو نجحت فى هذه المهمة سوف أضعك فى وظيفة جديدة جداً على الصحافة المصرية كلها.. سوف أجعلك تدخل التاريخ لأننى أنوى تطوير الهيكل الصحفى للجريدة مع إضافة وظيفة "المراقب الصحفى"

تساءل ناجى:

ـ وما وظيفة "المراقب الصحفى" هذا؟

تكلم عمر الشهابي وكأنه يلقي محاضرة على طلاب قسم الصحافة في كلية الإعلام ولم يقطع استرساله وثرثرته عن فكرته الأفلاطونية سوى رنين الهاتف المزعج.. قال:

المراقب الصحفي هو محامي القراء وضابط للمحررين.. وبرغم أن عدد المراقبين الصحفيين في الولايات المتحدة الأمريكية يفوق عددهم في أي دولة أخرى في العالم حتى ألمانيا واليابان، إلا أن الفضل يعود إلى السويد لأنها في سنة ١٨٠٩ فتحت أول مكتب في الصحف لمراقبة الحكومة، واستلام شكاوى المواطنين والتحقيق فيها، بينما يعود الفضل إلى اليابان لأنها في عام ١٩٢٢ شهدت ميلاد أول مكتب مراقبة صحفية، وكان ذلك في جريدة "أساهي شيمبون" التي أنشأت لجنة لإستلام شكاوى القراء.. ولم ينتقل "المراقب الصحفي" إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلا في سنة ١٩٦٧ عندما عينوا أول مراقب صحفي في جريدة "لوفيل تايمز" وتم تعيين أول مراقب حكومي في السويد عام ١٨٠٩.. وتبقى صحيفة "الشرق الأوسط" هي الصحيفة العربية الأولى التي عينت مراقباً صحفياً على مستوى العرب من المحيط إلى الخليج، والمراقب الصحفي ليس مسئولا عن آراء القراء وتعليقاتهم أو ما يسمى.. "خطابات إلى رئيس التحرير" ولكنه مسئول عن شكاوى القراء في الجريدة، ونزاهتها وحيادها، والعاملين فيها وعلى رأسهم رئيس التحرير، وبقية المسؤولين ثم ينشر ردودهم في نفس الجريدة.

توقف عمر الشهابي قليلاً يلتقط أنفاسه، ويتأمل رد الفعل على وجه ناجي الذي بادره بالسؤال:

— وكم عدد المراقبين الصحفيين في الولايات المتحدة الأمريكية؟

هذا سؤال في محله يا عزيزي.. وأؤكد لك أن أمريكا وحدها فيها ٤٠ مراقباً صحفياً، ويختلف أسلوب كل واحد عن الآخر.

تساءل ناجي: وما أوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينهم؟

تبسم الرجل قائلاً:

ـ يتفقون على العديد من الأمور.. أقولها لك:

أولاً: رفع مستوى الجريدة بمراقبة الأخطاء والعمل على تلافيها.

ثانياً: إشراك القراء في هذه العملية ضروري للغاية لكسب ثقتهم، ولو نجحت يا ناجي في القيام بدور " محرر جمهوري " ستكون أول شخص في مصر يؤدي مهمة " المراقب الصحفي " وبذلك تدخل التاريخ!

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا أستاذ عمر، وأدعو الله أن أحوز ثقتك.

ثم ضغط الرجل على زر أمامه فدخلت سكرتيرته، وهي نحيلة سمراء ضامرة مثل عود القصب الممصوص.. قال لها بإشارة من يده:

ـ اصطحبي ناجي إلى صالة التحرير ليتعرف على نواب رئيس التحرير ويتسلم منهم المواد الصحفية الخاصة بالصفحة التي سيتولى تحريرها ابتداء من الغد بمشيئة الله.. شكره الفتى وانصرف وهو يرمق ميرفت العطيبي بنظرة لا تخلو من الريبة والتساؤل الصامت الغامض!

...

" يجلس على قمة العالم من لا يشتهي شيئاً ولا يخشى شيئاً! "

بدأ ناجي شرف الدين عمله الصحفي الجديد كمحرر جمهور في مكتب صغير حقير خصصوه له بجوار عطا الهاللي مدير التحرير، وكان عطا الهاللي هو المشرف على تحرير صفحة بريد القراء أو مشاكل الجمهور، وقد استدعاه الأستاذ عطا، وبعد التعارف والترحيب أعطاه الأستاذ عشرات الخطابات المغلقة، وبكلمات طيبة شجعه على العمل والإبداع قائلاً:

— يا نجم صاحبة الجلالة الواعد أؤكد لك أن الجمهور ينتظرك بشغف، ويتربص منك العمل على حل مشاكله غير قلمك.. هيا اكتب وأبدع وانشر ما تراه صالحاً من هذه الرسائل، وما يستدعي السؤال والاستفسار فلا تتردد في اللجوء لي، ويمكن لك أن تعتبرني أخاً أكبر لك، أو صديقاً جديداً قديماً.. ولا تنسى أنني بدأت حياتي المهنية كمحرر لبريد القراء.

شكره ناجي على مشاعره الطيبة، وهز رأسه بامتنان وإعجاب، وحمل خطاباته وخرج متوجهاً إلى مكتبه المجاور، وهناك استوى فوق كرسيه الهزاز الجلدي الأسود، وانهمك في فض بكاره خطابات القراء وتصفحها، كانت تلك الخطابات مثل عالم خفي مملوء بالأسرار والحكايات، فيها الألم والأمل.. الأنين والحنين، هي صووت المحكوم عليهم بالصمت، وعبر هذه الرسائل يتنفسون ويطلقون صرخة المظلومين.. بعد أن استغرق في القراءة ما يقرب من ساعتين أحس برجفة وثقل المهمة وأن المسؤولية كبيرة قد لا يقدر على حملها، لكنه عقد العزم والله المستعان!

في لحظة إسترخاء رشف كويلاً من الشاي بالنعناع الأخضر الذي يهواه، وعاد للقراءة من جديد استوقفه خطاب فضه، وقرأ ما فيه

بتركيز وتمعن شديدين:

"أنا إسمي عبد الباري عطوة صعيدى من محافظة أسيوط وتحديداً من بلدة القوصية.. حكايتى غريبة وحزينة ومؤلمة ، فقد تزوجت منذ حوالى عشرة أعوام تقريباً ، وشاء حظى العثر أن أسافر لدولة الكويت الشقيقة بحثاً عن الرزق مثل آلاف من الصعايدة الآخرين وحتى أتمكن من تدبير نفقات أسرتى ، فأنا العائل الوحيد لأمى وخمسة أخوة قصر لا عائل لهم سوى بعد رحيل أبى عن الدنيا ، وعندما تزوجت وأنجبت زادت أعبائى فسعت للسفر إلى الخليج ، وكانت لؤلؤة الخليج العربى كما يطلقون عليها هى قبلى ووجهتى وباليتهما ما كانت.. هناك طلب منى الكفيل الكويتى أن أشاركه فى محل تجارى ، ووجدتها فرصة طيبة لكى أوسع رزقى ، وأحصل على دخل مناسب ومستقر أدخر منه جزءاً للزمن ، وأرسل لزوجتى وأمى ما يفيض عن حاجتى بعد ذلك ، فوافقت ورحبت بعرض الكفيل الذى ألقى على عاتقى عبء كل شئ يتعلق بالإدارة والجهد والعمل لدرجة أننى لم أكن أحصل على الراحة أو النوم إلا ساعات قليلة جداً ، وأحياناً كنت أواصل الليل بالنهار حتى أثبت كفاءتى وجدارتى بهذه الشراكة وينجح المشروع.. وبعد فترة تحقق النجاح المنشود ، وقيل أن أجنى ثمرة كفاحى ، وعنائى فوجئت بكفىلى يقدم إقرار دين للشرطة ضدى ، وكنت قد وقعت على هذا الإقرار مقابل الشراكة معه ، وبدلاً من أن يمنحنى الكفيل الكويتى حقى المشروع وثمان نجاحى وعرقى طمع فيه ، وقرر إبعادى عن الشراكة ليحظى وحده بالأرباح دون إعطائى أى مقابل ، وللأسف الشديد صدر ضدى حكماً بالسجن لمدة أربع سنوات فى قضية إقرار الدين ، وكانت تهمنى النصب والاحتيال وخيانة الأمانة والذمة المالية ، وضعونى فى سجن رهيب يشبه الحصن وفى الكويت يطلقون عليه معتقل "جوانثانامو الخليج" مرت علىّ حتى اليوم ثلاثة أعوام لم أر فيها النور ، ولم أتمكن حتى من إبلاغ أهلى بما حدث لى إلا منذ شهر واحد فقط حيث استطعت بمعجزة الاتصال بهم فى أسيوط وإخبارهم بمعنتى ، وكانت صدمة كبيرة لهم جميعاً حينما علموا بما حدث لى)

ويضيف عبد البارى فى رسالته المأساوية :

"أما هنا فى هذا السجن المرعب فتحن نتعرض لأبشع معاملة يمكن أن يتعرض لها إنسان ، فهم يعاقبوننا لأننا مصريون ، وكأنها تهمة وسبة يلعنوننا بها ليل نهار.

أرجو أن تصل صرختى إلى الرئيس المصرى ووزير الخارجية وإلى كل المسؤولين الشرفاء فى بلدى العالى مصر.. أقول للجميع.. أنقذونا فأنا لست وحدى فى هذا الجحيم ، بل مئات من المصريين الأبرياء يقبعون خلف أسوار معتقل جوانتانامو المرعب.. فهل تتحرك مصر لإنقاذ فلذة أكبادها؟"

فرغ ناجى من قراءة الرسالة ، وقد تجهمت ملامحه ، طوى الرسالة بعصبية وظل شاردًا صامتًا يفكر ماذا بوسعه أن يفعل إزاء هذه المصيبة التى تطل برأسها من فوق السطور.. ويكاد يسمع أنين وأهات صاحبها.. ماذا يفعل فى أول اختبار له.. اختبار صعب؟

نحى ناجى الرسالة جانبًا ، ومد يده لیسحب رسالة أخرى عساها تكون أقل وطأة وأكثر رحمة وإنسانية عن سابقتها.. مزق مطروفيها وبدأ يقرأ كلماتها.. كانت الرسالة بتوقيع فؤاد عبد العليم من مدينة بورسعيد يقول فيها :

"يا سيدى أغلقت مدينتى الحرة أبواب الرزق فى وجهى ، وضاقبت بى السبل فوليت وجهى شطر دولة البحرين سعياً وراء حياة أفضل عابراً حدود بلدى تاركاً أهلى ، وبالفعل سافرت بعقد عمل ، عملت سائماً لتاكسى بعد أن أجبرنى كفيلى لعنه الله فى كل كتاب على التوقيع على شيك على بياض لكى يمنحنى سيارة أعمل عليها ، وبعد عام من الجهد المضنى والشقاء المؤلم لم أحصل ألا على القليل من المال.. فتات لا يكفى حاجتى وحاجة أسرتى فما كان منى سوى أن طلبت من كفيلى أن ينقل كفالتى إلى غيره.. هنا وقعت الواقعة ، وكأننى ارتكيت أكبر الكبائر فهاج وماج ، ورفض بشدة ، ولم يكن أمامى سوى اللجوء إلى إدارة شئون المغتربين ، ولكننى

فوجئت بنتيجة عكسية تمامًا فقد صدر قرارًا بضبطي وإحضاري، وألقوا القبض على بلا ذنب اقترفته، ووجدت نفسي في السجن غريبًا بين أربعة جدران منذ أكثر من شهرين دون محاكمة ولا اتهام ولا تحقيق عادل، ولا أدري متى يرفع الله عنى هذه الغمة، والأيام والليالي تمر بطيئة ثقيلة كئيبة، وأنا أموت ببطء، ورأيت وسمعت وعرفت هنا حكايات لمظالم أبرياء يندي لها جبين البشرية.. وتحيا الأمة العربية.. وأمجاد يا عرب أمجاد!

بمجرد أن انتهى ناجي من قراءة الرسالة الثانية، وكانت أكثر درامية من الرسالة الأولى.. عكف على قراءة الرسالة الثالثة، وكانت أكثر غرائبية وفضائحية:

يقول صاحبها ويدعى حامد الليودي من الجيزة:

"ماذا تفعل يا سيدى لو وجدت زوجتك عارية تمامًا فى أحضان رجل غريب؟ هذا هو ما حدث معى حيث وجدت زوجتى كما ولدتها أمها تعاشر أكثر من رجل فى وقت واحد على شبكة الانترنت!

الصدفة وحدها جعلتى أكتشف الفضيحة المخجلة.. لم أصدق عيونى فى البداية برغم أنها كانت هى زوجتى بكل تفاصيلها.. الوجه والجسد وكل شئ.. واجهتها أنكرت فى البداية.. ثم بكت واعترفت بأنها لجأت لممارسة الجنس الجماعى مع الغريب بدافع الملل من الحياة الزوجية!

هل هناك زوج عاقل فى الدنيا يصدق هذا.. ولو كنت مكانى يا سيدى ماذا تفعل؟ هل تقتلها؟ هى تستحق الشنق، لكنى طلقها ولم أسترح..

إننى أحذر الأزواج والزوجات من دخول "بوابة الشيطان" التى اسمها غرفة الشات حتى لا تنزلق الأقدام إلى هاوية الفسق، والفجور وعظائم الأمور.. أمور تشيب لها الولدان.. علاقات محرمة.. كلمات معسولة خادعة كاذبة، والوعود البراقة بين عشاق الشات.. لقد اتضح أن حوالى ٨٠٪ من الشباب يدخل الشات لإقامة علاقات مشبوهة مع الجنس الآخر.. ونحو ٢٠٪ يدخلون إلى الشبكة العنكبوتية الانترنت من أجل العلم والمعرفة لا أكثر!

ولكن لم تتوقف المحاولات المشبوهة لتحويل شبكة أنت من خدمة العلم والعلماء والباحثين.. إلى شبكة لتجارة الرقيق الأبيض، والترويج للعلاقات المشبوهة حتى أن ٦٠٪ من المواقع على شبكة أنت تحولت من رسالتها السامية إلى رسالة سوقية حقيرة تروج صراحة للخلاعة والرديلة، والمجون والتخلي عن برفع الحياء، والدعارة المباشرة.. لدرجة أن عدد المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وصل إلى ٧ ملايين موقع.. وتلقى هذه المواقع رواجًا وانتشارًا في مصر والدول العربية على حد سواء لدرجة أن حجم انفاق هواة الشات بلغ ٥٠٠ مليون دولار كل سنة بمتوسط ٣٠ دولارًا شهريًا مقابل التعرف على شريك يمارس معه علاقة محرمة حتى لو كانت رذيلة إلكترونية.. الغرب في الأمريا سيدي أن دراسة عربية حديثة كشفت أن ٩٥٪ يدخلون على الإنترنت للتسلية وإقامة علاقات سريعة أو غير مشروعة والاستمتاع بعلاقات حرة متحررة وبلا مسئوليات أما ال ٥٪ الباقية فيدخلون للترفيه، وقتل وقت الفراغ.. وأشارت الدراسة إلى أن ٧٠٪ من البنات والنساء يدخلن للنت للبحث عن عريس و ٢٠٪ للتسلية، وإقامة صداقة مع الجنس الآخر و ١٠٪ لإضاعة الوقت، وسماع الكلمات المعسولة!

ولأنتى أعمل باحثًا في مركز الدراسات والبحوث الجنائية والاجتماعية أحدثك يا سيدي بالأرقام والإحصائيات ولأنتى رجل من أصول ريفية.. ولأنتى فلاح ابن فلاح طلقته.. هزمت شيطاني ولم أقتلها وأقضى ما تبقى من عمري في السجن على العموم فهناك حالة طلاق كل ٦ دقائق.. كل ٦ دقائق يلقي رجل يمين الطلاق على زوجته أو يرسل لها ورقة الطلاق عبر البريد الإلكتروني، أو يطلقها أمام مأذون شرعي!

لن تكون زوجتي آخر المطلقات.. من يتصور أنه مع كل طلعة نهار تدخل نحو ٢٤٠ امرأة في قائمة المطلقات، وأن حصيلتنا من طابور المطلقات في السنة الواحدة نحو ٩٠ ألف امرأة مطلقة يضمن كل سنة إلى حصيلة مصر الرسمية من المطلقات وهو ٦ ملايين مطلقة!"

أفاق ناجي شرف الدين من دوامة الأرقام المزعجة ، والمؤلمة بجيش المطلقات ووطن أن كل نساء مصر ، وكل رجالها في طريقهم إلى أبغض الحلال عند الله ، وسأل نفسه :

لماذا تخون المرأة؟

لم يجد جواباً حاضراً.. لكن سألت من مقلتيه دمعة ساخنة ، فرت رغماً عنه ، وبدا مشلولاً عاجزاً عن فعل أى شئ ، فهو لا يملك سوى حبر قلمه ، وإن كان يشك في أن مداد حبر قلمه مهما كان دقاً جاريًا يستطيع أن يحرر الأبرياء من سجنهم ، ويفك قيود غريبتهم ويضع حداً للانحرافات الزوجية ، ويوقف قطار المطلقين والمطلقات!

أخذ ناجي شرف الدين الرسائل ، ودلف إلى مكتب مدير التحرير عطا الهاللي يسأله المشورة.. تبسم مدير التحرير قائلاً :

— يمكن أن تنشر الرسالتان الأولى والثانية تحت عنوان.. " إلى وزير خارجية مصر! .. أما الرسالة الثالثة فيمكن أن تنشرها تحت عنوان.. " الشيطان في بيتي! " لكن دعني أحكي لك يا ناجي ما حدث معي أنا شخصياً في الكويت.. عسى أن تعرف لماذا أهل الكويت يكرهوننا؟ ليس كلهم طبعاً.

اضجع عطا الهاللي في كرسيه المريح ، وقال بنبرة ساخرة هادئة :

— " منذ عدة سنوات ذهبت للعمل في الكويت حيث تعاقدت معي إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى هناك بأجر مغزى ، وبالفعل سافرت ، وكان أول ما فعلته أن قمت باستئجار شقة مفروشة من أجل الإقامة ، وتسلمت المفتاح من الشركة المالكة للعقار ، وسارت الأمور في الأيام الأولى على ما يرام.. لاشئ ينغص على حياتي ولا يزعجني ، ولكن بعد أسابيع قليلة بدأ جرس التليفون في الشقة لا يتوقف عن الرنين ، وكانت كل الاتصالات تسأل عن شخص واحد اسمه رؤوف ذهني ، وعرفت من المتصلين أن رؤوف هذا كان الساكن السابق بنفس الشقة التي

أوقعنى حظى السئ فيها كما عرفت أيضاً أن رحيله عن الشقة ، وعن الكويت كلها كان أمراً مفاجئاً لهم جميعاً ، والحقيقة أن الذهول كان هو رد الفعل للجميع بمجرد علمهم بأننى الساكن الجديد ، ولست رؤوف ذهنى!

وجدت نفسى غاضباً مستاء من فكرة أن أكون أنا من ييلفهم الخبر الصادم المفاجئ ، خاصة أن بعضهم كان يستحلفنى بالألا أبخل أو أضن عليهم بأى معلومة أعرفها عن مكانه.. حفلت المكالمات الهاتفية من المتصلين ومعظمهم من الكويتيين بقصص متضاربة عن المدعو رؤوف ذهنى هذا.. فبعضهم وصفه بالشهامة والبرورة والرجولة ، ونبل الأخلاق ، والبعض الآخر تحدث عن خسته ونذالته وحقارته ، وسفالة أخلاقه غير أنه جمع بين أصحاب المكالمات جميعاً أن رؤوف ذهنى خدعهم ، وأخذ فلوسهم وطار إلى غير رجعة وبلا مقار!

رثيت لحالهم بعد أن قصوا على حكايات غريبة ، وعجبية عن الأموال التى لهدفها على سبيل الاقتراض أو المساهمة فى شراكة تجارية ، والطريف أنه كان من بين ضحاياهم بعض النساء ، والفتيات بعضهم من الكويتيات ، وغير الكويتيات مثل الهنديات والفلبينيات والسيرلانكيات اللاتى وعد كلاً منهن بالحب والزواج والفرام وانجاب البنين والبنات ، والسعادة الدائمة والنعيم المقيم فى القفص الذهبى إلى يوم الدين ، وعلى الفور قمن بمنحه المال والمصاغ وتحويشة العمر كلها ليؤسس شركته الخاصة ، ويبنى عش الزوجية ، ويشيد مؤسسة الأحلام ليستقر مع من اختارها قلبه على شاطئ الأمان على حد قولهن لكن المفاجأة المفجعة أن رؤوف ذهنى اختفى فى ظروف غامضة بعد أن اختطف الفلوس وأشياء أخرى!

بدا ناجى شرف الدين ذاهلاً مشدوهاً مستغرياً لحكاية مدير التحرير عطا الهلالى الذى أكمل الحدودة قائلاً:

— لقد أكدت لكل هؤلاء المتصلين أنه رغم تعاطفى الإنسانى الشديد

معهم، إلا أنني لا أعلم شيئاً عن صديقتهم الهارب، وبعد ذلك رجوتهم أن يترفقوا بي، ويكفوا عن إزعاجي بإتصالاتهم الليلية التي تفرغني من أحلامي الوردية، وتحولها إلى كوابيس جهنمية، وسألتهم أن يبحثوا عن أخباره بعيداً عني لكن هذا الرجاء لم يشفع لي عندهم، ولم تتوقف الاتصالات المزعجة فقامت بنزع القابس من الحائط، وقررت أن أستغنى عن خدمات التليفون طوال فترة وجودي في الكويت أو غير الرقم، وأمرى إلى الله.. ظننت أنني بهذه الفكرة الذكية أستطيع النوم ملاء جفوني بهدوء، وأنعم بالطمأنينة والسكينة بعد أن أصبح التليفون جثة هامدة بلا حرارة، ولا رنين لكن هيهات.. بدأ اليائسون من العثور على ضالّتهم يفتدون إلى شقتي، ويترقبون بابي للتأكد من أن الأمر برمته ليس حيلة جديدة مبتكرة من حيل رؤوف ذهني، وقد ذكرني أمرهم بضحايا توظيف الأموال الذين توافدوا على مقار الشركات في مصر بعد أن قامت الحكومة بتضليلهم، وتولّى أصحاب اللحي الطويلة سرقة فلوسهم بإسم الدين، وقد اضطرت لإستقبال عدد منهم، واستمعت إلى حكاياتهم.. كانت هناك الممرضة الرومانية التي بكت، وهي تروي لي كيف منحته عن طيب خاطر عشرة آلاف دولار هي كل ما إدخرته من العمل في الكويت كمساعدة منها لإتمام زواجه بها!

وكان هناك التاجر الكويتي الذي سحب منه رؤوف ذهني أجهزة كهربائية بعدة آلاف من الدولارات، وصاحب مكتب السياحة الذي أعطاه تذاكر سفر على الحساب ومدير البنك الوطني الكويتي الذي أقرضه مبلغاً من المال بضمان صداقتهما الشخصية.. ناهيك عن ضحايا من المهن، والفئات الأخرى.. فهناك البقال والجزار والفاكهى والحلوانى.. الرجل في الحقيقة بارع للغاية فلم يترك أحداً يعرفه لم يقترض منه، أو يسحب أمواله بالحيلة والمكر والدهاء!

كنت مذهولاً مذهوشاً من براعة رجل واحد ، وقدرته على خداع كل هؤلاء ومنهم المتعلم المثقف ، والتاجر المحنك ابن السوق ، والعريى والأجنبى لم يسلم من براثه أحد على الإطلاق!

وإن كان أحد الضحايا قد قدم لى تفسيراً لوقوع كل هؤلاء فى فخ هذا الرجل المحتال بدرجة امتياز.. قال لى بعد أن سمحت له بالدخول ، ودعوته إلى فتجان شاي:

— لقد كان هذا الرجل المدعور رؤوف ذهنى شخصاً استثنائياً فى كل شئ ، ويندر أن تقابل مثله.. كان باسمًا بشوشًا دائمًا ، حلو الحديث يأسرك من أول لقاء ، بل كان كالساحر يجعلك تخرج الفلوس من جيوبك ، وتتوسل إليه راضيًا مرضيًا أن يأخذها!

وأردف الرجل قائلاً لى ونحن نشرب الشاي فى صالون شقتى:

— سأحكى لك حكايتى الشخصية مع رؤوف ذهنى.. كنت قد دفعت له خمسة آلاف دولار كجزء من ثمن سيارته التى عرضها للبيع ثم عرفت بعد ذلك أنه باعها لشخص آخر ، ظلت أطارده عدة أيام عبر الهاتف ، وهو يروغ منى ويزوغ مثل الثعلب الجبلى الماكر اللئيم حتى أطبقت عليه أخيراً بزيارة مفاجئة فى صباح يوم جمعة جميل مشمس ، وكنت فى هذا اليوم الطيب على أتم استعداد لإرتكاب جريمة أو قتله لأشفى غليلى ، وأحصل على فلوسى السلبية.. فتح الباب لى وعلى غير ما توقعت منه رأيت وجهه هاشًا هاشًا متهللاً بمجرد رؤيتى ، وقال لى بكل ترحاب وود وألفة كأنه كان ينتظرنى:

— أنت والله ابن حلال.. لقد كنت أجهز الإفطار لنفسى ، وقد أرسلتك العناية الإلهية لى فى الوقت المناسب حتى لا أفطر وحدى.. الوحدة قاتلة والغربة مؤلمة..

فقلت له بغضب شديد فى نبرة حادة وحازمة:

— لا أريد إفطارك.. أنا هنا من أجل استرداد فلوسى فقط..

ضحك طويلاً ضحكة صافية ملائكية، وهو يخرج الفلوس من جيبه،
ويتناولني إياها بكل بساطة، ويبتسامة عريضة على وجهه مثل الساحر
البارع قائلاً:

— لم أكن أعلم أنك بهذه القسوة، وكنت أحسب أننا أصدقاء، ولن
تفرقنا أبداً حفنة دولارات.. هل ظننتي لصاً أو نصاباً؟ لقد كنت
يا صديقي في أزمة مالية، والحمد لله فرجت من أوسع الأبواب.. لا
تغضب يا عزيزي وهيا نطعم ثم نذهب إلى بيت الله نصلّي الجمعة،
ونكيد الشيطان اللعين..

وأضاف الرجل يواصل سرد الحكاية المثيرة قائلاً:

— في الواقع لقد أعد رؤوف إفطاراً شهياً لذيذاً، وتعامل معي بود
بالغ، وحميمية مفرطة، وسأل عن أفراد أسرتي فرداً فرداً بالأسماء،
وأشهد أن جلست معي ملائتي بالسعادة وغمرتني بالسرور، وانشراح
الصدر لكرمه، ودماثة خلقه، وحديثه الودى المتسامح حتى أنني لعنت
نفسى التي جعلتني أسئ الظن بصديق كريم مثله، وبغضت شيطاني
الذى وسوس في ضميري، وبعد ذلك ذهبنا للصلاة، وفي الطريق إلى
المسجد استأذنتني لدقائق في الوقوف أمام إحدى ماكينات الصرف
الآلى، وأدخل بطاقته في الآله، وفجأة تغير وجهه إلى الحزن والكآبة،
والمأكينة تخبره أن رهيده لا يسمح بسحب المبلغ المطلوب.. لاحظت
أنه يجاهد دموعه ثم سار بجوارى صامتاً منكس الرأس.. سألته من
باب حب الاستطلاع الغريزي:

— ما بك يا رؤوف؟

قال بصوت واهن مخنوق والحروف تتلعثم في حلقه:

أبداً.. الحسابات اختلطت علي، وكنت أعتقد أن رهيدي يكفى لشراء
علاج أمي لهذا الشهر لكن لا بأس سأصرف!

لم أشعر بنفسى إلا وأنا أخرج الفلوس التي أخذتها منه منذ قليل، ورجوته

وتوسلت إليه أن يأخذها مني.. رفض في إباء، وسار مبتعداً عني في كبرياء..
لحقت به، ووضعتها في جيبه رغماً عنه وهو يقاوم يدي!
سكت محدثي عن الكلام فقلت له: وماذا بعد؟
قال: لا شيء.. الملعون جعلني أعيد إليه الفلوس التي لم أهنأ بها سوى
دقائق.. وبعدها بساعات كنت أنت الذي يرد على التليفون في شقته!

" فى كل بقعة من العالم توجد شعلة مضيئة هى المعلم..
ويوجد من يطفئها وهو رجل الدين! "

سرت حالة من الألفة والود بين عطا الهلالى ، وتلميذه فى الجريدة ناجى شرف الدين ، ودائما ما كان عطا الهلالى يعرض على ناجى أن يخرج معه فى أيام العطلات ، أو حتى فى الأيام العادية بعد انتهاء ساعات العمل.. جمع بينهما حب كبير وشعر كل منهما رغم فارق العمر أنه يعرف الآخر منذ سنوات بعيدة.. حالة روحانية وحدث بينهما.. فالأرواح جنود مجندة ما تألف منها إتفق ، وما تتأخر منها اختلف ، وكل شئ بأمر خالق الأرواح ، وصانع الأجساد ، ولأن حياتهما تكاد تكون متشابهة تماما إفتريا ، وصارت بينهما علاقة إنسانية ودية ترقى إلى درجة الصداقة الحقيقية ، أو الأخوة المخلصة إن لم تكن تزيد.. كان عطا الهلالى كريما لأقصى حد مع ناجى.. كان الرجل أكرم معه من الريح المرسلة فى موسم الشتاء فقد كان يتكفل بالإنفاق عليه لأسابيع طويلة!

تعلق ناجى به كثيرا واعتبره أستاذه ومعلمه فى الصحافة ، وشقيقه الأكبر الطيب فى الحياة.. لم يكن يفارقه سوى للنوم فقط ، وكثيرا ما سهر معا حتى منتصف الليل ، وذات يوم أصر عطا الهلالى أن يوصله بسيارته حيث يسكن ، وصعد معه للمكان الذى يأويه فوجد فى الشقة حوالى ٢٠ شابا من مختلف محافظات مصر المحروسة ، يمرحون ويلعبون " الكوتشينة " ويتسامرون بصوت عايب وضحكات عالية مجالجة ، وكأن الدنيا نهار والفجر لم يقترب بعد!

سأله باستكار:

يا ناجى.. من هؤلاء؟

— هؤلاء أقارب، وأصدقاء، وزملاء من يقيمون معي هنا.. إنهم أصحاب أصحابي!

— وكيف تهنا بنوم هادئ؟ وكيف تعيش في ظل هذا الصخب والضجيج؟

أطلق آهة مكتومة ذات مغزى وقال:

— لقد اعتدت على ذلك.. وماذا عساي أن أفعل وليس لي مأوى في هذه المدينة العظيمة سوى هذه الشقة الحظيرة مع هؤلاء الأوباش.

— اسمع يا ناجي هذا المكان لا يليق بك على الإطلاق، فأنت صحنى موهوب وسيكون لك شأن كبير في المستقبل، سوف تصبح كاتباً مرموقاً ذات يوم وأنا لا أرضى لك أن تبقى في هذا الجورغم أنني بدأت حياتي في غرفة ضيقة، وقعة فوق السطوح مع عدد من زملاء الكفاح ورفاق الطريق، لكن الآن الظروف تغيرت تماماً!

من الغد يا عزيزي تأتي لتعيش معي، فأنا أقيم وحدي في شقة لا تقل عن ٣٠٠ متر.. أي أن مساحتها تساعدنا على أن ننظم فيها مسابقة لجرى الخيول.. إجمع أغراضك في الصباح ولا تتأخر سوف أنتظرك.

تلثم ناجي شرف الدين ثم قال بخجل وانكسار: لكن.. لكن..

— يا ناجي هذا أمر عليك أن تنفذه فوراً.. في الجريدة أنا وأنت نتشاور ونتناقش ونتبادل الرأي حول أمور شتى في الصحافة والحياة، لكن هذه المرة سوف أطبق عليك مبدأ.. ديمقراطية الحوار وديكتاتورية القرار.. باعتباري رئيسك المباشر في العمل أعطيك أمراً عليك السمع والطاعة والتنفيذ.

تبسم ناجي قائلاً:

— لكن هذا كثير وكرمك أخجل تواضعي، وإن كنت أخشى أن أكون عبئاً عليك في الجريدة، وأيضاً مصدر إزعاجك في البيت.

— يا ناجي.. لا عيب ولا يحزنون.. أنا وحيد، والوحدة رفقتي وحالك من

حالى فليؤنس كل منا الآخر.

هز الفتى رأسه بارتياح وبتبرة ود ورضا :

_ أمرك مطاع يا أستاذى ، فأنا لا أستطيع أن أشق عليك عصا الطاعة
مهما حدث.. من الغد يمشيئة الله ستجدينى عندك ، وأرجو أن أكون
ضييفا خفيفا.

_ لن تكون ضيفا ، بل ستكون صاحب بيت!

قالها وقد ارتسمت على وجه عطا الهلالى معالم البشاشة والسرور ثم
ربت على كتف ناجى ، واتصرف.. فى تلك الليلة لم ينم ناجى شرف الدين
فقد ظل مسهدا ساهرا ، عيونه شاخصة إلى سقف الغرفة ، وجسده مسجى
فى الفراش ، يحدق فى المجهول ، ولا يدرى كيف ستكون أيامه القادمة ،
وإلى أين تقوده عربة الزمن التى لا ترحم ، خاصة وأن عطا الهلالى برغم
أنه الأقرب إله فى الوقت الحالى ، وبرغم عشرات الساعات ، والأيام التى
قضياها سويا فى أحضان صاحبة الجلالة إلا أنه لم يعرف عنه سوى القليل ،
لا يعرف عنه سوى معارضته لأى شئ وكل شئ وتمرده على التابوهات
الدينية ، والجنسية والسياسية ، فهو صعب المراس عنيد صلب الإرادة لا يعبا
بأى شئ ، كتاباته فيها جرأة وشراسة غير عادية ، يظن نفسه هو المسئول
عن إصلاح الكون وتغيير ما أفسده الناس فى كل المواقع ، وعلى كل
المستويات.. يبدو الهلالى غامضا فى كل الأحوال ، فهو لا يحكى أبدا عن
حياته الخاصة بل دائم الحديث عن كتبه ، ومشروعاته الصحفية والأدبية
التي ينوى إصدارها ، ودائم الحديث باستفاضة عن قراءاته المتعددة فى
شتى أنواع المعرفة ، ويتباهى باستمرار بأن كل ثمار المطابع سواء فى
مصر أو العالم تسقط بين يديه مثلما سقطت التفاحة على إسحق نيوتن ،
وفجرت بركان عبقريته فكان قانون الجاذبية الأرضية الذى غير وجه
الدنيا والإنسانية ، وجعلها تحلق فى فضاءات أرحب!

وكان من شدة حب عطا الهلالى للكتب أنه أصبح يعيش فى مكتبة

أقرب ما تكون إلى البيت، وفي كل أركان الشقة تتناثر الكتب كحبات المطر في ليلة شائبة ممطرة بغزارة، وتضم مكتبته ما يزيد عن ستة ملايين كتاب في مختلف فنون الثقافة، بعض هذه الكتب بلغتها الأم سواء كانت الفرنسية أو الإنجليزية، وكان نجمًا دائمًا، وضيئًا لا يشق له غبار في برامج "التوك شو" التليفزيونية ذائعة الصيت نظرًا لرجاحة عقله وصلابة رأيه، وثقافته الموسوعية، وبراعته في الحديث بالحجة والبرهان، وكانت كتبه ومؤلفاته تثير الجدل وتحرك المياه الراكدة في المجتمع لدرجة أن بعض كتبه تسببت في أزمات دولية، حيث أثار كتابه

"انهيار أمريكا.. ليلة سقوط الإمبراطورية العظمى" أزمة دبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، ولجأت الإدارة الأمريكية إلى وضعه على قائمة ممنوعين من دخول أراضيها، وفي هذا الكتاب قام بتشريح أمريكا من الداخل، ووضع يده على مواطنيها وضعفها وذلها، وأكد بالأدلة على انهيار قيمها الأخلاقية، ومبادئها في العدالة والإنسانية والحرية وحقوق الإنسان.. عراها تمامًا من ورقة التوت، ونزع عن وجهها أقنعة الزيف، والتضليل، وأعلن صراحة أن وطن الأحلام سوف يسقط ويتراجع على يد المتشددین من الجماعات الإسلامية التي تتحاور مع الآخرين بلغة السلاح على أصوات البارود والانفجارات.. وبعد صدوره بأسابيع قليلة جاء الحادث المروع الذي أذل الإمبراطورية العظمى، ومرغ كرامتها وكبرياتها في التراب يوم العاشر من سبتمبر، بتدمير برجى مركز التجارة العالمي، ونال من البنتاجون ووزارة الخارجية الأمريكية، ودفع الرئيس الأمريكى إلى أن يفر كجرو مذعور ليختبئ في قاعدة عسكرية حتى تنتهى الطائرات الملوغمة التي جاءت من السماء بلا موعد ولا عنوان.. كل هذا جعل الأمريكيين يعتبرون عطا الهلالى خطرًا على الأمن القومى الأمريكى نظرًا لتخصصه في تاريخ الجماعات الدينية المتطرفة، وتاريخها الملطخ بالدم بجانب دراسته للتاريخ والحضارة كما كان له أنواع أكثر جرأة من المؤلفات منها كتاب

"عاهرات فى فراش الحكام العرب" وله كتاب آخر أصدره مؤخرًا بعنوان "أميرات منحرفات" تعرض فيه لتمرّد أميرات الخليج العربى على تقاليد أسرهن الحاكمة، وهروب معظمهن مع شباب أجنبي ومصريين بعد قصص حب ساخنة، ومثيرة.. وكانت إحدى الأميرات قد حملت سفايحًا من شاب مصرى، وهربت من بلدها، وجاءت لتتزوج وتعيش معه فى حي شعبي بالقاهرة فى شقة من غرفتين وصالة بعد أن كانت تسكن القصور الفخمة، وتنام على ريش النعام، وتتغطى بالحرير كما لو كانت تقيم فى حى من الجنة!

ذات مساء كان الجو هادئًا، والموسيقى الكلاسيكية التى يهواها عطا الهلالى تصدح فى أرجاء الشقة الواسعة، ومع الوقت أحس عطا بالملل من القراءة والكتابة حيث كان يعكف على إعداد كتاب جديد اختار له عنوان "نهاية إسرائيل" ولم يجد أمامه سوى أن يجلس على البار يحتسى مشروبًا كحوليًا من نوع فاخر معتق، ويتحدث مع ناجى شرف الدين، كانت بداخله رغبة ملحة فى أن يحكى بنفسه عن نفسه، وهى إحدى المرات النادرة التى يسعى فيها إلى الفضيضة..
سأله ناجى:

— لماذا اخترت الوحدة، وأنت كاتب شهير وفى منصب مرموق؟
قال عطا الهلالى بعد لحظة صمت ثقيلة أنهاها بجرعة من مشروبه المثلج:

— الوحدة قدرى، وليس اختياري، وقد سبق لى خوض تجربة الزواج لكنها للأسف الشديد كانت تجربة مؤلمة للغاية، وكما يقول المثل الإنجليزي..

"إذا خانتك زوجتك، وذهبت لتضاجع رجلًا غيرك فاتركها له فهى عقوبة يستحقها!"

هذا هو ما حدث معى بكل صراحة.

بدا ناجى مستغرياً مدهوشاً مستكراً:

— خيانة.. زوجتك خانتك مع غيرك.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله من غضب الله.

— يا صديقى لا تتدهش، فأنت مازلت صغير السن، وفى مطلع حياتك
والأيام حبلى بالأهوال، والعجائب والغرائب التى لا يستوعبها عقل ولا
يصدقها عاقل!

— ما الذى حدث بالتحديد؟

استرخى عطا الهلالى فى مقعده قائلاً:

— أنا أؤمن بأنه لم يعرف المرأة بعد من عرف ألف امرأة وإمراة.. بمعنى
أن الرجل مهما كانت خبرته بجنس النساء فهو أمدى جاهل لم ولن
يفهمهن أبداً!
واسترسل قائلاً:

— أحياناً يعتبرنى البعض مثل الصندوق الأسود للطائرة أبدو غامضاً لا
يعرف أحد ماذا أخبئ بداخلى، وأنا بطبعى أميل للكتمان، ولا أحب
الشهرة، ولا تهزمنى شهوة الكلام إلا فى لحظات نادرة.

وبرغم أننى محاط بريق الأضواء سواء فى الصحافة أو عبر الشاشات
التلفزيونية إلا أن قلة قليلة فقط تعرف أننى عشت قصة حب عظيمة مع
النجمة السينمائية الالامعة ريهام شاهين استمرت على مدى عام كامل
ثم توجناها بحفل زفاف أسطورى تحدث عنه مصر كلها، وقضينا شهر
العسل على شواطئ أسبانيا الساحرة، وبعد ذلك استمرت حياتنا الزوجية
لمدة عامين على خير ما يرام، لم يعكر صفوى خلالهما سوى رفضها أن
تتجب أطفالاً خوفاً على نجوميتها، وابتعاد الأضواء عنها، وكذلك رغبة
منها فى الحفاظ على رشاقتها وجمالها الذى تعتبره رأس مالها و ضمان
استمرار أفلامها، ومسيرتها الفنية الناجحة.. وبرغم غضبى وحزنى إلا
أننى كظمت غيظى وقلت لنفسى.. كل امرأة فى حاجة إلى الأمومة، ولا

يوجد فى الدنيا ما يفتيها عن إنجاب طفل.. وهذه الغريزة هى الأقوى على الإطلاق، وما على سوى الصبر، ومع مرور الزمن سوف تحن حتمًا نجمتى إلى طفل يروى عطشها لإحساس كل أنثى فى حاجة ملحة إليه، وتتألم بدون أن تصل إليه مهما كانت إنجازاتها الأخرى فى الحياة.

ترك هذا الأمر غصة فى حلقى، ومرارة فى وجدانى لكنى تعاملت على نفسى، وفى الوقت الذى كنت أحاول مجددًا أن أقنعها بأن تحمل منى، وتهبنى طفلًا من صلبى يحمل اسمى، فوجئت بها وكانت تصور فيلمها الجديد "عودة الغائب" فى الساحل الشمالى مع النجم الشاب عادل عز تتصل بى وتقول لى: لقد انتهت تصوير الفيلم اليوم.

قلت لها: عرفت بالأمر من المخرج أثناء تصويرك لآخر مشهد، وكنت أحاول الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقًا.. هيا عودى لقد اشتقت إليك كثيرًا

قالت: لكننى لن أستطيع العودة اليوم.

— عودى غدًا يا حبيبتى.

— لا.. لا سابقى عشرة أيام مع زميلى الممثل الشاب عادل عز.

— وأين ستبقين؟

— فى الشاليه الخاص به هنا.. اشتراه حديثًا ويريد الإقامة فيه لبعض الوقت، وسوف أبقى معه.. أرجوك يا عطا طلقنى لأننى مللت الحياة معك، وأنا الآن أحب عادل عز، طلقنى وسوف تبقى أصدقاء!

هكذا بكل بساطة يا ناجى خاتنتى وطلبت الطلاق وقالت تبقى أصدقاء.. هل هناك عاقل يتصور ذلك؟

— وماذا فعلت؟

— أعطيتها ما أرادت طبعًا.. لقد قالت مللت حياتى معك وأحببت غيرك.. فماذا يوسعى أن أفعل بعد ذلك؟ إما أن أقتلها أو أطلقها، وأتركها

تكمل بقية فصول خيانتها وفي النهاية آثرت السلامة، وطلقتها غير
آسف عليها كان جرحى غائراً عميقاً مؤلماً.. لم أبح به لمخلوق،
وبقدر ما كان حبي لها عظيماً بقدر ما عدت قادراً على الاقتراب من
إمرأة أخرى من بنات حواء.. أصبحت فاقداً للثقة في رجولتي، عاجزاً
عن التواصل مع الجنس الآخر!

كنت قد أشرعت قاربي معها ليمضى بنا إلى بر الأمان لكنه غرق بين
الأمواج في مرفأ مجهول!

في اليوم التالي مباشرة سافر عطا الهلالي في مهمة عمل صحفية إلى
اليونان بتكليف من الجريدة لحضور أعمال المؤتمر الأوروبي،
وتفطيته صحفياً، وترك ناجي شرف الدين يغط في نوم عميق حتى الظهيرة،
تسللت الشمس الذهبية عبر النافذة، ووجدتها ترقد في فراشه، وتداعب
جفونه.. كان اليوم هو الجمعه، وفرصة لكي يتفرض عن جسده ونفسه
غيار الإرهاق، والتوتر العصبي والذهني من عمل شاق طوال الأسبوع..
وبينما هو بين النوم واليقظة شعر بحركة غريبة داخل الشقة الفسيحة،
سمع وقع أقدام تتحرك، وتدب على الأرض بخفة ورشاقة، وصوت ارتطام
أطباق ببعضها يصطك بأذنيه قادماً عبر الردهة المؤدية إلى المطبخ القريب
من غرفة نومه، نهض ناجي متثاقلاً متثائباً، وتسلسل بملابس النوم الخفيفة
الشوفاة التي أعطاها إياها عطا الهلالي.. فرك عينيه، ولم يصدق ما يرى..
ألجمته المفاجأة تصور أنه مازال نائماً يحلم.. لم يخبره عطا في أحاديثهما
الطويلة بأمرها.. كانت - هناك - امرأة يافعة بيضاء طويلة ممشوقة
القوام أربعينية العمر، جسدها ملفوف بعناية مثل راقصة في فرقة فنون
شعبية، مؤخرتها مستديرة ومحبوكة في ملابس نصف عارية، ترتدى
جليباً شفافاً هفهاً بريع كم يكشف عن ذراع بض مثل المرمر الأبيض،
والثوب مفتوح الصدر على اتساعه فيظهر النهدين والسرداب الفارق بينهما..
كان النهدان نافرين في حالة انتصاب لا إرادية، وهي منهمكة في غسل

الأطبايق بانسجام تام ، وتغنى بشجن وتهز مؤخرتها فى رقصة أفريقية لذيدة ومثيرة.. أصابته حالة من الدهشة..

فمن تكون تلك المرأة؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

همس فيها بصوت رخيم نائم:

— من أنت يا حلوة..؟ ومن سمح لك أصلاً بالولوج إلى هنا؟

كان يتفرس ملامحها وثيابها ، ويحدق فى مكان أنوثتها ويدقق فى هضابها وسهولها ووديانها بشهوة ذئب مفترس!

آخرسها صوته عن الغناء ، وألزمها الصمت والسكون والتوقف عن الرقص الخليع تلفتت حيث الصوت ، وشهقت وضربت صدرها بيدها وتجدعت خطوط وجهها وتمتمت قائلة برجفة:

— بسم الله الحفيظ.. يا خفى الألفاف نجنا مما نخاف..

— أنت إنس أم جن.. من تكون؟

ضحك فجأة بهسترية كالمجنون وقال بنبرة ناعمة:

— أنا إنس والحمد لله.. واسمى ناجى شرف الدين زميل الأستاذ عطا فى الصحافة وشريكة فى البيت.

— زميلة فى الصحافة وشريكه فى البيت دون أن يخبرنى.. سبحان الله على طبع الأستاذ وتصرفاته.. وأين الأستاذ طالما أنك هنا وحدك؟

— الأستاذ سافر اليوم خارج مصر.

قالت بحيرة وتلعثم:

— سافر.. سافر خارج مصر.. عمومًا يرجع بألف سلامة.. وعلى كل الأحوال أنا معى مفتاح للشقة ، وأتى إليها مرة أو مرتين كل أسبوع لترتيب شئون الأستاذ من غسيل وطبخ وتنظيف وهكذا.

— من أنت إذن يا ست هانم؟

قالها بنبرة ساخرة، فردت عليه قائلة:

— أنا الخادمة.. وكيف سافر الأستاذ دون أن يخبرك بأمرى؟

— لا أدري، لكنه لم يقل لي شيئاً بشأنك.

— المهم ما إسمك يا ست هانم؟

— فوزية.. خادمتك فوزية..

— الله يخرب عقلك يا فوزية.. أنت أكيد ملكة جمال متفكرة في صورة

خادمة.. تابعي عمالك.. الله يساعدك يا سيدتي!

دلف ناجي شرف الدين إلى الحمام أفرغ مثانته التي أزعجته، وقضت مضجعه ثم خرج من الحمام بسرعة، وارتدى على فراشه مجدداً.. وبعد دقائق معدودات، دخلت عليه بجلباب أكثر احتشاماً، وهمست له بدلال قائلة:

— يا أستاذ ناجي.. هل تحب أن أعد لك طعام الإفطار؟

فتح عينيه بصعوبة فراها قد عدلت من هندامها، وبدت أكثر أنوثة.. قال بصوت ناعس متحشرج:

— نعم.. نعم.. جهزي الإفطار يا ست فوزية.

— حالاً.. حالاً يا أستاذ.

بعد لحظات عادت إليه حاملة كوب من اللبن الساخن، وقطعة جبن دانماركي ورغيف أبيض ناصع الوجه.. جلست بجوار جسده المسجى في الفراش.. جلست على حافة الفراش، ووضعت ما تحمله على طاولة صغيرة بجوار السرير.. أحس ناجي بلحمها الطرى ودفء جسدها.. كان ملمسها ناعماً غامضاً مبهماً سرالياً يحرك الحجر الصوان!

مد يده يتحسسها، ضحكت بمجون، وجنون وخلاعة وهما على فراش واحد.. قالت بنبرة ذات مغزى، وهو يعيث بيده وتلهو أصابعه فوق فخذيها ونحو مؤخرتها:

— يا سلام عليك يا أستاذ ناجى.. يبدو أن الشقاوة فى طبعك مثل الأستاذ عطا الهاللى.. لا.. لا.. ليس هذا وقته.. وهريت بعيداً عنه وكأنها تدعوه ليطاردها!

فهم ناجى شرف الدين من مغزى كلماتها أن عطا الهاللى يواقعها بين الحين والحين، وعرف بذكائه ومن نبرة صوتها أنها ستكون فريسته، وطريدته فى هذا اليوم.

نهض من فراشة الدافئ، إلتهم افطاره بشهية، وجلس على الإنترنت لحظات يتابع خلالها آخر أخبار الدنيا على بعض المواقع الإخبارية، ثم عاد إلى الحمام واغتسل ورجع إلى غرفته.. استبدل ملابسه، وتعطر بعطر فرنسى فاخر كان قد اشتراه له عطا الهاللى من باريس بعد عودته من إحدى رحلاته إلى فرنسا.. تلصص ناجى بأذنيه وعينه على فوزية.. سمع صوتها فى دندنة هادئة لذيدة، وصوت الغسالة يتهادى مثل لحن موسيقى شجى لدندنتها الرخيمة الخليفة.. كانت تغسل ملابس الأستاذ عطا بحماس وحب، وكأنها زوجته المخلصة الوفية.. ذهب ناجى إليها واحتضنها من الخلف، فأحس بحرارة جسدها المكتمز.. تسالت أصابعه بخفة ساحر، ورشاقة حاوى تعبث فى صدرها، وقضيبه المنتصب المشوق صار مثل السيف المشهر متجهاً نحو دبرها، وثار دم الشهوة فى عروقه بينما هى تحاول أن تتخلص من قبضته بخفة ودلال وإثارة متعمدة.. وينيرة فيها غواية لإمرأة مجرية خبيرة بنزق الرجال، وغواياتهم الجنونية. وطيش غرائزهم التى لا تعرف الطبقة، والفوارق الاجتماعية والتصنيفات البشرية الغبية.. قالت:

— ليس هذا وقته يا ناجى.. ألا ترانى مشغولة فى غسيل ملابس الأستاذ عطا.. اصبر يا رجل.. أه.. أنت متعجل تماماً مثل الأستاذ.. يبدو أنكم جميعاً هكذا معشر الرجال.. معشر الجورنالجية!

سحبها من يدها ببطء وهو يقبلها ويحتضنها ثم حملها وسار بها حتى

السريير ثم ألقاها فوقه بلا مبالاة.. استسلمت بين أحضانها كالنائمة أو المخدرة، وفي فراشه نزع عنها ملابسها وهو يلهث مثل الكلب الشبق الذي يلعب عورة أنثاه بهستيرية ونهم.. فوجئ ناجي بأنها لا ترتدى ملابس داخلية، فأدرك بأنها أعدت نفسها لهذا اللقاء!

هذه المرة لن يتواصل فيها سرّاً مع جسده كما كان يفعل تلك العادة كثيراً كلما هاجمته الرغبة المتوحشة.. هذه المرة سيتواصل لأول مرة مع جسد آخر غير جسده ألا وهو جسد فوزية.. بدا عصبياً عنيفاً.. كل شيء فيه منتصب منتفض صلب قوي، وأحس أن شخصاً آخر خرج من بين أضلعه، وبدأ يضاجعها بعنفوان وشهوانية لدرجة أنها كانت تتلوى تحته كالمحمومة ثم ارتفعت حدة تأوهاتنا لتصبح صرخات مكتومة مكبوتة مشبوبة باللذة والنشوة حتى وصلت إلى ذروتها وارتعشت كأن زلزالاً ضربها وهز كياناتها، كان كل جسده ملتصق بكل جسدها، وقد قبضت تماماً بيديها على ظهرها، وبين لحظة وأخرى تجذبه إليها بقوة وشراسة، بدا وجهها ساخناً متورداً وابتسامة البهجة والمتعة ترسم على وجهها، وفمها مفتوح وعيونها مغمضة كأنها في حلم تحلق في كوكب آخر غير كوكب الأرض!

وبمجرد أن فرغ منها وفرغت منه، ارتدى بجوارها على السريير، وبشرة هامسة طلبت منه أن يقبلها ويحتضنها.. استجاب لها على الفور، وعاد مجدداً يواصل سبر أغوار جسدها، ويقتحم كهف متعتها، ويفك شفرتها في جولة جديدة من اللذة، وبعد أن إنتهى سوياً من هذه الغزوة ارتاحا بعض الوقت، وذهبت هي إلى المطبخ وعادت يطبق عامر بالتفاح والموز، وبدأت تطعمه في فمه بقطع من التفاح الذي قطعته شرائح صغيرة يسهل إلتهاמהا بينما هو يضع الموز في فمها، ويضحكان سوياً، وهما يتأملان شكل الموز الذي يوحى لهما بأفكار ورموز مثيرة!

سألها في فترة الاستراحة بعد زوال التوترو والإحساس بالانسجام النفسى،

وراحة الأعصاب عن حياتها الخاصة.. وهل هي الآن على ذمة رجل آخر أم لا؟

سادت لحظة صمت ثم قالت:

– تزوجت ثلاثة رجال.. الأول كان سعودى الجنسية عاشرنى على سنة الله ورسوله لمدة عام ثم تركنى عائداً إلى زوجاته فى الرياض، وبرغم أنه كان يحبنى كثيراً ويفدق على بالهدايا والعطايا إلا أنه طلقنى رغماً عنه استجابة لضغوط زوجاته هناك!

سالت دمة حزن على خدّها فمد ناجى يده يمسحها، ويربت عليها ثم احتضنها مواسياً دون أن ينطق بكلمة.. وقالت من بين صوت متهدج ونهنيات بكاء مكتوم:

– أما زوجى الثانى فقد مات فى حادث سيارة مفجع بعد زواج دام خمس سنوات.. الله يرحمه كان طبيب القلب لكنه كان سريع الغضب، ويحبنى كثيراً ويفار على من كل الرجال.. أم.. هذا هو حال الدنيا.. أرحام تقذف، وأرض تيلع!

تلك هى الحياة.. لعبة غريبة كلنا فيها خاسرون مهما ظن الكثيرون أنهم رابحون.

توقفت عن الكلام برهة كأنها تفتح صندوق ذكرياتها مع أزواجها، وتنبش فى دهاليز وأسرار الماضى، واستجمعت شجاعة البوح وقالت:

– أما زوجى الثالث فوا أسفاه عليه إنه يقضى الآن عقوبة السجن المؤبد لاتهامه بقتل رئيسه فى العمل.. على كل حال فقد نجا من الإعدام بأعجوبة.. وبما ليتهم أعدموه فأراحوه وأراحونى حتى لا تكون لقصتى معه بقية.. كان المسكين المأسوف على شبابه يعمل حارساً فى أحد المصانع، وحدثت مشاجرة بينه، وبين رئيسه على ترتيب ورديات العمل ونوبات الحراسة، فثار زوجى وهو بطبعه عصبي ساخن الدم ملتهب الأعصاب، مهتاج المشاعر، وأطلق عليه الرصاص من السلاح

الميرى، فأرداه فتيةً فى الحال.. الحمد لله أن خلقنى الله عاقراً، ولم يرزقنى الذرية من أزواجى الثلاثة، وإلا كنت اليوم فى أزمة لا يعرف مداها سوى رب السموات والأرض..

له فى كل شئ حكمة لا ندركها.. وها أنذا أمامك أعيش أيامى..
صحيح أنتى لست سعيدة بما يكفى لكن يكفينى أنتى أعيش حرة!
تيسم ناجى ابتسامة ذات مغزى دون أن ينبس بكلمة، وهو ينظر إلى
لحمها العارى فى فراشه ويقبض براحه يده على ثديها الأيمن، ويشفتيه
يلعق الأيسر وقال هامساً لنفسه فى سره دون أن تسمعه:
_ فعلاً حرة.. تعيش الحرة.. ولا تأكل بثديها!

" لا يوجد فى هذا العالم أصدقاء وأعداء، ولكن أعداء بدرجات متفاوتة! "

لم تثمر جلسات العلاج النفسى فى شفاء إيناس متدور من مرضها العضال.. لم تبرا من إدمان المثلية، وممارسة العادة السرية مع أجساد الحستوات من بين صديقاتها اللينات.. لم تحصل على صك الخلاص من الإثم، ولم تفلح زيارة الأراضى المقدسة، والبكاء بحرقة وندم أمام الكعبة، ولم تصفو روحها من العويل عند قبر سيد الأنام محمد بن عبد الله، وفى مسجده، لم تنقذها كل محاولاتها للتطهر من خطيئة نفسها وجسدها، كانت تشعر بالذنب العظيم، ولا تقدر على الفكك من درن الرذيلة، وسرطان السحاق!

فكرت فى حل ماثلى ينتشلها من كل ما هى فيه.. ويحميها من عذابها واحتقار المجتمع لها ولأمثالها، أرسلت لها العناية الإلهية بفرصة على طبق من ذهب عيار ٢٤.. فبعد أن برعت فى عملها كمحررة رياضية فى مؤسسة " الأيام "، تم تعيينها فى إتحاد كرة القدم المصرى لتصبح أصغر عضو ضمن أعضاء المجلس.. سعدوا بها لعدة أسباب:

أولاً: لبراعتها الصحفية، وكتاباتها المتميزة فى مجال كرة القدم، وتحليلاتها العقلانية البعيدة عن الأهواء لما يجرى على الساحة الرياضية.

ثانياً: لاتساع دائرة علاقاتها الرياضية فى مصر والعالم.

ثالثاً: لإجادتها عدة لغات حية فى مقدمتها الإنجليزية والفرنسية.

رابعاً: لقدرتها على التواصل مع الإتحاد الدولى لكرة القدم المعروف باسم " الفيفا " للاستفسار عن كثير من القضايا، والمشاكل التى تواجه كرة القدم فى مصر وتتصدى لها فى كتاباتها الصحفية، وفى تلك الأثناء

نجحت القاهرة في استضافة بطولة كأس العالم للشباب، وخلال إقامة هذا المونديال وقع اختيار الإتحاد الدولي على إيناس مندور لتكون المنسق الإعلامي للفيفا في مصر بهدف معاونة الإعلاميين الأجانب المكلفين بتغطية أحداث تلك البطولة التي أقيمت على أرض مصر للمرة الأولى في تاريخها، وبعد أربعة أشهر من انتهاء فعاليات هذه البطولة الكبيرة فوجئت إيناس مندور بمكالمة هاتفية على تليفونها المحمول من مدير الإعلام بالفيفا يخاطبها فيها بترشيحها لتكون المستشار الإعلامي للإتحاد الدولي بمنطقة الشرق الأوسط. وعليها أن تبدي رأيها في خلال أسبوع واحد، وفي حال موافقتها سوف تنتقل للعمل بمقر الإتحاد الدولي في زيوريخ بسويسرا حيث أن مكتبها ينتظرها، وكذلك مسئوليات، وملفات كثيرة تتعلق بكرة القدم في أفريقيا والشرق الأوسط بصفة عامة.

لم تستغرق إيناس مندور سوى لحظات لتبدي فرحتها بهذا الترشيح، وسعادة غامرة لإختيار أكبر منظمة رياضية في العالم لها دون آلاف الصحفيين غيرها لتكون المسئول الإعلامي للفيفا لشئون كرة القدم في أفريقيا وآسيا، ومهمتها التحدث باسم الإتحاد الدولي لوسائل الاعلام في دول القارتين.

جاءها الحل من السماء، وعليها أن تحزم حقائبها، وترحل إلى أجمل دولة في الكون، وهناك لن تعدم الرفيقة، وسوف تعثر على ألف رفيقة ورفيقة تمارس معها الحب والهيام، والسحاق ليل نهار في أي مكان كان.. في المكتب أو المنزل أو الشارع أو حتى في الحدائق العامة.. هناك فوق مرتفعات جبال الألب لن يراها أحد من أهل مصر، ولن يعاتبها أحد من المتمزتين الذين يرون أن الجسد ليس ملكًا لصاحبه، بل هو ملك لخالقه، لذلك لا يجب أن يدنس إنسان جسده بعلاقة سرية مع مخلوق مثله، أو يدنسه بعلاقة سرية مع نفسه.. تلك هي القضية.. وقد خسرتها إيناس في وطنها وبين أهلها بكل المقاييس!

تأهبت للرحيل إلى سويسرا ، وقد لا تعود أبداً إلى وطنها لو أعجبها الحال
فوق جبال الألب ، وشعرت بالسعادة والإرتياح بلا ضغوط ، ولا تابوهات
فى بلاد تؤمن بالحرية ، وتتخذها دستوراً لها ، ولا تعترف بالحلل
والحرام.

حرية الانسان وكرامته فوق كل اعتبار إلا فيما ندر.. شدت الرجال
وسافرت وهى تعرف أنها لن تواجه مشكلة ، فاللغة الرسمية فى هذا البلد
الأوروبى المتقدم جداً هى الألمانية والفرنسية والإيطالية ، فلا أزمة عندها
فى التعامل مع السويسريين بالفرنسية ، وهذا البلد لا تعرف مدنه زحام
القاهرة على الإطلاق ، فعدد سكان سويسرا بكل مدنها لا يزيد عن
عشرة ملايين نسمة وأكبر مدنها زيوريخ وبرن ، ونظام الحكم فيها اتحاد
برلمانى.

وأكثر ما كان يطمئن إيناس مندور هو موقع سويسرا ، فهى جمهورية
فيدرالية فى وسط أوروبا ، وتتكون من ٢٦ كانتوناً ، وتعد مدينة برن مركز
سلطاتها الإدارية ، وعاصمة الاتحاد الفيدرالى السويسرى ، وتعد سويسرا
من ناحية الغرب فرنسا ، ومن الجنوب إيطاليا ، ومن الشرق النمسا.

وكانت إيناس تشعر بالاطمئنان والأمان بعيداً عن مناطق الصراعات
الدولية ، والحروب الأهلية ، والمناطق الملتهبة من العالم لأن سويسرا تتبع
سياسة خارجية محايدة يعود تاريخها إلى عام ١٥١٥ ، وتعد من أغنى دول
العالم ، ويعتبرها الكثيرون وإيناس منهم طبعاً بأنها أجمل دولة على وجه
البسيطة.. والطريف أن مدينة زيوريخ أكبر المدن السويسرية حصلت على
لقب أفضل مدينة يمكن أن يعيش فيها الإنسان معزراً مكرماً سعيداً
لثمانية أعوام متتالية.

وبعد أن غادرت إيناس مندور القاهرة شعرت براحة نفسية ، فقد
كانت فى قرارة نفسها تعرف سمات أبناء بلدها من المصريين.. معظمهم
يتظاهرون بالتيدين ، ويحترمون من يفعل ذلك ، ومعظمهم عكس ذلك

تماماً، معظمهم أفاقيين، ويتمسحون فى عبادة الدين، ومعظمهم من عشاق الكذب الاجتماعى والنفاق الإنسانى، يذمنون ارتداء الأقنعة، والتزلف لأصحاب السلطة حتى ولو كان صاحب السلطة شيخ حارة أو شيخ خفراء، تحمل الشخصية المصرية كل المتناقضات.. الخوف والشجاعة.. الشهامة والندالة.. المروءة والخيانة.. تعلن الحب، وتضمر الكراهية.. الشخصية المصرية لديها قدرة غريبة على المداواة والخداع.. لكن إلى متى يظل الخداع مستمراً ومستتراً؟ لا بد أن تحين اللحظة لإسقاط الأقنعة، وكشف الحقيقة وتعرية الشخصية من زيفها، ونسف ألوانها، وإزالة ما كياحها المضلل للآخرين! كانت إيناس ترى الشخصية المصرية بعيوبها، وتعتبرها الأسوأ على وجه الأرض!

تراها تحمل زيف ٧ آلاف سنة من القهر والرعب والعبودية، وكثيراً ما بررت ذلك للكثيرين، ولنفسها فى مناسبات عديدة عندما تدهشهم آرائها الجريئة المستفزة.. كانت تقول لهم:

المصرى منذ لحظة ميلاده وحتى لحظة مماته، وهو يعيش تحت سطوة القهر والسلطة والخوف والتسلط من الأب والأم إلى العريف فى الكتاب ثم المدرس فى المدرسة، والأستاذ فى الجامعة، والشاويش والضابط فى الجيش، والمدير فى العمل، والحاكم فى الدولة!

كل مراحل حياة الإنسان المصرى البسيط ذل وخضوع وركوع لمن هو أقوى منه نفوذاً ومالاً وسلطاناً وصولجاً، ويتحكم فى مصيره.. تلك هى النتيجة المؤسفة! لكل ذلك تبدو الشخصية المصرية فيها العجب العجاب من غرائب المتناقضات.

ومصر.. الإنسان والمكان والزمان فيها عبقرية التاريخ والجغرافيا، والشخصية المصرية فيها كل تشوهات الجغرافيا والتاريخ.. تلك هى المأساة التى يعيش فيها المواطن المصرى حتى عاصمته تدعى القاهرة.. من قهرت تلك المدينة يا ترى؟ وهل هى تحمل هذا الاسم العدوانى الإستفزازى لأن

المواطن يعيش فيها أسير الزحام والضجيج ، والتلوث وتحت قهر الحكومة والظروف وكل سلطة لا ترحم تلك هي المعضلة الكبرى ١٩

فى أول يوم لها فى سويسرا استقبلتها فتاة بارعة الجمال ، فائقة الحسن ، فاتنة إسمها " جانيت " تعمل فى العلاقات العامة بالإتحاد الدولى لكرة القدم.. اصططحبتها الفتاة السويسرية إلى شقة صغيرة فوق ربوة عالية محاطة بالجبال والأشجار ، وتستقر الشقة على أطراف مدينة زيوريخ ، وفى أول لقاء وتعارف بينهما تفحصتها إيناس مندور ، ودققت فيها النظر بعين خبيرة مدربة على التقاط مواطن الإثارة ، النقاط الحصينة الشهية التى يمكن أن تجعلها ترفع الراية البيضاء وتستسلم.. كانت تفكر بعقل ذئب بشرى قناص ، يحلم بنهش جسد جانيت والتهام فاكهتها بعين أنثى حسودة غيورة شبيقة!

فمن يدري.. قد يجمعهما فراش واحد فى يوم من الأيام أو ليلة من الليالى..
من يدري ١٩

جانيت شقراء بيضاء هيفاء جسدها ناصع البياض مثل الشمع الأبيض ، ونتف الثلج الرابضة فوق جبال الألب فى موسم الشتاء الممطر.. شعرها أصفر ذهبى لامع طويل ينسدل على وجهها وظهرها ، وعيونها الخضراء البراقة مثل قطرة شقية ، تنتظر من يروضها ، كانت ترتدى بلوزة وردية اللون شفافة ، ولا ترتدى تحتها حاملة صدر ، وبنطلون جينز أزرق وحذاء رياضى أبيض.. جانيت تشبه مهرة جامحة ، تبحث عن فارسها الضال! الابتسامة لا تفارق وجهها البشوش ، وهذا أكثر شئ جعل إيناس ترتاح إليها من أول نظرة.. وفى اليوم التالى اصططحبتها جانيت فى جولة داخل سويسرا لإستكشاف معالمها ، وتلمس ملامحها.. كانت جانيت تحكى لإيناس والسيارة الجيب السوداء تطوف بهما الأماكن كما لو كانت مرشدة سياحية خبيرة بدروب سويسرا..

قالت: أرض سويسرا جبلية فى مجملها وحوالى ٧٪ من مساحتها من

مرتفعات جبال الألب، وهذا القطاع يضم ٣٠٪ من السكان، وتصدر بمقدمات نحو الهضبة السويسرية التي تحتوى على عدة بحيرات.

كانت إيناس مندور مبهورة وهي ترى عبر نافذة السيارة سلاسل الجبال الذهبية الأشهر في العالم.. بينما جانبها تحكى بطلاقة باللغة الفرنسية ودون توقف مثل مذيع نشرة إخبارية مخضمة في البرنامج الأوروبي:

تنقسم جبال الألب إلى عدة سلاسل، وأعلى قمة في الألب السويسرية "مونتي روزا" وتشغل سويسرا قسمًا من جبال "جورا" حيث يتبعها القسم الجنوبي الشرقي من هذه الجبال، وتحتوى العديد من الأودية والحافات، وتخترقها بعض الممرات، وتمتد الهضبة السويسرية على شكل دهايز بين جبال الألب وجبال جورا ويختلف ارتفاع الهضبة من مكان إلى آخر، وقد وهبت الطبيعة الجبلية الغنية بالغابات سويسرا قيمة سياحية عظيمة. وتنتشر بسويسرا أيضًا البحيرات العذبة التي تعد بالنسبة لها مصدرًا سياحيًا في غاية الأهمية.

في هذه الأثناء همست إيناس قائلة لجانبها:

— إغلقي النافذة.. لقد بدأت أشعر بلفحة برد تخترق جسدي..

ضحكت جانبها على طريقة نطق إيناس مندور للفرنسية، وبالفعل أغلقت النافذة بلحمة رقيقة من أناملها على زر بجوارها ثم قالت:

— ينتمى المناخ هنا إلى طراز وسط أوروبا، وهو كما يسميه علماء الجغرافيا، والطقس "المناخ الألبى" وهو بارد بصفة عامة حيث تغطي الثلوج معظم أراضي سويسرا في الشتاء وتتحول إلى ثلاجات تستغلها نحن السويسريون في السياحة لمزاولة رياضة التزلج على الجليد، وفي الصيف يسود هنا مناخ دافئ، عمومًا المناخ بصفة عامة مناخ رائع سواء كان باردًا في الشتاء، أو دافئًا في الصيف حيث الطبيعة الخلابة، والمناظر الرائعة تداعب عينيك فلا ترين إلا الجمال والسحر، ولا تشعرين بتقلبات الجو.. وسوف تشعرين بصدق ما أقول

عندما تعيشين هنا لفترة ما ، وتتأقلمين على الجو السويسرى.

قاطعتها إنناس مندور قائلة بنبرة ساخرة:

— فرق كبيرين هنا وهناك.. القاهرة شوارعها مزدحمة بالبشر والسيارات هناك.. بينما هنا الشوارع شبه خاوية.. ما الحكاية؟ هل اليوم عطلة رسمية عندكم؟

هذه المرة أطلقت جانبى ضحكة عالية أشبه بصرخة قائلة:

— لا.. أبداً.. اليوم الثلاثاء ليس أجازة عندنا ، ولكن عدد السكان فى سويسرا منذ عشر سنوات كان لا يتجاوز سبعة ملايين ، واليوم أصبحنا حوالى عشرة ملايين ، ويعيش معظم السكان فى مناطق الهضبة السويسرية حيث تتركز مدن البلاد الرئيسية من بينها مدينتان عالميتان هما جنيف وزيورخ إضافة إلى مدن أخرى مهمة مثل بازل ولوزان ، وتقل الكثافة السكانية تدريجياً فوق المرتفعات ، وينتمى السكان هنا إلى الجماعات الألمانية ويشكلون أغلب سكان سويسرا ، ويتحدث ٧٥٪ منهم اللغة الألمانية ومن بين السكان عناصر فرنسية ، فحوالى ٢٠٪ من إجمالى السكان يتحدثون الفرنسية ، كما توجد عناصر إيطالية وحوالى ٤٪ من السكان يتحدثون الإيطالية ويوجد بين السويسريين عدد كبير من الأجانب يصل إلى حوالى مليون نسمة معظمهم قادمون من دول الاتحاد الأوروبى ، وللأسف الشديد فى السنوات الأخيرة ظهرت العنصرية هنا ضد العرب والمسلمين ، وعندما فاز حزب " الشعب " السويسرى بالانتخابات الفيدرالية أصدر قوانين ضد العرب والمسلمين ، وتفضيل الأوروبين عليهم فى سوق العمل ، وكل الإمتيازات والمميزات الأخرى.

فجأة قالت إنناس مندور معلقة على حديث " جانبى " عن العنصرية:

— ألهذا أصدرتم فرماناً بإلغاء مآذن الجوامع فى كل الأراضى السويسرية حتى لا يرفع اسم الله إلى السماء مع كل آذان لصلاة المسلمين؟

— للأسف الشديد يا إيناس حكومتنا المتعصبة أخرجتنا مع كل الشعوب والحكومات الإسلامية برغم أن عددًا كبيرًا من الشعب السويسري يعرف قصة القديسة "فيرينا" التي جاءت من مصر، وعلمت سويسرا العبادة، والنظافة، وعلمت بنات سويسرا العفة والطهارة.

تساءلت إيناس مندور بدهشة:

— أول مرة أسمع هذه الحكاية.. وهل القديسة "فيرينا" فعلاً مصرية وماذا فعلت بالضبط يا جانيت؟

— قصة الفتاة "فيرينا" القديسة الصعيدية التي جاءت من مصر قبل نحو ١٧٠٠ سنة أذهلت أوروبا كلها، وهذه الفتاة ترجع نشأتها إلى قرية جراجوس بمركز قوص بمحافظة قنا بجنوب مصر حيث كان التعليم الطبى فى ذلك الوقت يشغل من شخص إلى آخر لديه الرغبة والقدرة على تأدية رسالة الطب، والتطبيب.. كانت فيرينا آنذاك ضمن الوفد الطبى من الأطباء والممرضات المصريات اللاتي صبحن الكتبية الطبية التي أرسلت إلى سويسرا بأمر من الإمبراطور "ماكسيميان" إمبراطور الغرب للقيام بالأعمال الطبية، وكان الإمبراطور ماكسيميان قد أباد هذه الكتبية لرفضهم مشاركته فى التبشير مع كهنة المعبد، وتقديم العبادة للآلهة، ثم قام بتسريح الممرضات، لكن "فيرينا" فضلت أن تبقى ومكثت مع مجموعة من الفتيات العذارى فى كهف صغير، وكانت تقوم بأعمال التمريض، وحيابة الملابس سرًا، وفى عام ٣٠٥م انتهى حكم ماكسيميان، وبدأ حكم الامبراطور قسطنطين الذى اعترف بالمسيحية كواحدة من الديانات المسموح بممارستها فى الإمبراطورية، وهنا انطلقت فيرينا المصرية الصعيدية للتبشير بالمسيحية كدين سماوى.

وتمكنت هذه الفتاة التى نشأت فى محافظة قنا أن تغير عادات وتقاليد جاهلية قديمة وبالية فى مجتمعات أوروبا العصور الوسطى التى كانت

تعيش في الظلام حتى رسخت بينهم أسس المبادئ الإنسانية والدينية،
وأعظم القيم الأخلاقية ثم اعتكفت في قلالية صغيرة حقيرة في زهد
وتقشف حتى رحلت عن الدنيا عام ٣٤٤م، وفي مصر تم تكريمها بما يليق
بما قدمت للإنسانية حيث شيدت لها كنيسة بالقاهرة، حملت اسمها "
القديسة فيرينا" ووضع بها رفاتنا التي عاد بها وفد سويسري إلى مصر
عام ١٩٨٦ وتسلمها قداسة البابا شنودة الثالث بعد غياب فيرينا عن تراب
الوطن، وحضن الأهل وعطر الأحباب ١٦ قرناً من الزمان..

قالت إيناس بصوت هامس واهن:

— يا سبحان الله.. فتاة مصرية فعلت كل هذا بسويسرا؟

هتفت جانيت:

— نعم.. ويا ترى هل تكونين أنت فيرينا الجديدة؟

لم تعجبها المقارنة، وتذكرت إيناس مندور سرها الدفين، وتذكرت ما
هى عليه، فشعرت بالخل من نفسها، ولم تعلق سوى بكلمات قصيرة:

— إنها قديسة.. أما أنا فقد أكون غانية.. أين أنا من فيرينا؟

قالت جانيت بمرح:

— على كل الأحوال.. تحية إلى روح فيرينا بنت مصر التي علمت بنات
أوروبا عامة، وبنات سويسرا على وجه الخصوص حب الله والصلاة،
والطهارة والإيمان والخلق القويم والسير على الطريق المستقيم قبل
١٧ قرناً من الزمان.. ليحظى أحفادهم ويصدروا فرماناً غيباً متخلفاً
بمنع إقامة المآذن هنا في كل أنحاء سويسرا.. إنها مأساة عبثية
سوف يسجلها التاريخ بحروف سوداء، وبمداد من الخزي والعار على
صفحاته الخالدة!

أرادت إيناس مندور بذكاء أن تغير مجرى الحديث فتساءلت:

— حدثيني يا جانيت عن أهم شيء في بلادكم.. حدثيني عن العملة..

اليورو.. الفرنك السويسرى.. الدولار.. الإسترليني.. أهم شئ يا صديقتى.. الفلوس!

تيسمت جانيت كعادتها وقالت بارثياح:

— اطمئنى يا عزيزتى.. عقدك مع الفيفا برقم كبير، وأجرك مغرى جداً ويجب أن تعلمى أن سويسرا دولة متقدمة، وتعتبر من أكثر بلدان العالم ثراء حسب دخل الفرد اليومى.. إذ يصل دخل الفرد فى المتوسط فى الاجمالى من الناتج المعلى إلى ٦٨ دولارًا يوميًا، كما أن زيورخ وجنيف احتلتا المركزين الثانى والثالث فى ترتيب أعلى مستوى للحياة المرفهة فى مدن العالم المختلفة.. ويعود إرتفاع دخل الفرد إلى مستوى كبير نتيجة لتنوع الأنشطة الإقتصادية حيث تمارس الزراعة فى الوديان المنخفضة، وفوق الهضبة الوسطى، وتبلغ نسبة العاملين بالزراعة حوالى ٤٪ من القوة العاملة، وتنتج سويسرا ٥٠٪ من حاجتها من المحاصيل والحبوب والفواكه.. وهناك حركة رعى فوق سفوح الجبال فى فصل الصيف، وتشتهر سويسرا بمنتجات الألبان، وتصدر للخارج كميات كبيرة منها سواء كانت مجففة أو معبأة أو فى صورة منتجات أخرى.. كما تشتهر سويسرا أيضًا بالصناعات الإلكترونية الدقيقة مثل الساعات والأدوات الطبية والأجهزة الكهربائية، وتشكل السياحة عصب الاقتصاد السويسرى إلى جانب بنوكها وتداول الأوراق المالية على مستوى العالم.

توقفت جانيت لحظات، فباغتتها إيناس بالسؤال:

— معروف أن سويسرا بلد العلم والعلماء.. فما سر حرصكم على هذه الميزة؟

تهددت جانيت واسترسلت:

— مازلت أذكر قول القائد العظيم نابليون بوناپرت لجنوده فى إحدى معاركه الكبيرة.. إذا كانت جبال الألب الشاهقة تمنعنى من التقدم

وتحقيق طموحاتي فيجب أن تزول من على وجه الأرض ولو بالقوة! وسويسرا تحتل المركز الأول في أوروبا إهتماما بالعلم والعلماء حيث أكبر عدد للطلاب الأجانب في مدارسها وجامعاتها ومعاهدها ، وثاني دولة في العالم بالنسبة لإجمالي عدد الطلاب في البلاد ، والطريف أن بلدنا تضم بين حدودها أكبر عدد من العياقرة والمبدعين الحائزين على جوائز نوبل طبعاً بالنسبة لعدد السكان على مستوى العالم ، وتحتل سويسرا المرتبة الأولى في العالم أيضاً من حيث الأبحاث العلمية المنشورة ، وتصنف جامعة زيورخ ثالث أفضل جامعة في أوروبا كلها ، وجامعة بازل تعد من أقدم جامعات العالم وعمرها اليوم ٥٥٥ سنة.

توقفت السيارة أمام مطعم رابض فوق ريوه صغيرة ساحرة ، كأنه قطعة من جسد الجبل حسب رغبة جانيته ثم قالت:

أظن الآن أنك يا إيتاس عرفت سويسرا أكثر من أهلها ، ولكن علينا ألا ننسى أنفسنا.. إنتى أكاد أموت جوعاً وأظنك في مثل حالتى.. هيا بنا إلى هذا المطعم الذى يقدم وجبات لذيذة جداً ، وشهية للغاية.. هيا هيا يا إيتاس لا تخافى سوف أدفع أنا فلا تقلقى..

ضحكتنا سوياً.. ودخلتا المطعم

وإيتاس ممسكة بيد جانيته.

" حينما خلق الله الروح أعجب بها، ومن شدة إعجابه حبسها
بين ثلاثة جدران.. الزمان والمكان والجسد "

عاد عطا الهاللى من السفر حاملاً معه عدة مفاجآت لناجى شرف الدين
أهمها أنه يحمل له عرضاً مغرياً للانتقال للعمل فى مؤسسة " الأيام " أكبر
وأعرق مؤسسة صحفية قومية فى مصر، فقد كان عبد العليم طابع
رئيس مجلس إدارتها، ورئيس تحرير صحيفتها اليومية التى تصدر بنفس
الاسم معه فى رحلة اليونان لمتابعة أعمال المؤتمر الأورومتوسطى الذى
جاء لتغطيته ضمن رؤساء التحرير وكبار الصحفيين فى مصر، وذلك
نظراً لمشاركته رئيس الجمهورية فيه.. وخلال أعمال المؤتمر الذى استمر
أسبوعاً واحداً طلب عبد العليم طابع من عطا الهاللى أن يبحث له عن محرر
صحفى صغير السن موهوب لكى يساعده فى كتابة مقالاته، ووعده عطا
الهاللى أن يقدم له هدية ألا وهى موهبة صحفية سيكون لها شأن كبير مع
الأيام، وكان حينها قد عزم أمره، وقرر أن يبعث إليه بناجى شرف الدين،
وتلك ستكون فرصة العمر لهذا الفتى الريفى الذى اختار مهنة البحث عن
المتاعب.. وبالفعل رحب ناجى شرف الدين بالعرض، وهما هى تأثيه الفرصة
وتواثيه على طبق من ذهب ليعمل فى المؤسسة التى حلم بها كثيراً ليس
هذا فحسب، بل إنها المؤسسة التى تعمل فيها إيناس مندورة

وهو يعرف أن انتقاله لهذه المؤسسة العظيمة يعد بمثابة حصوله على
تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. أرض الأحلام.. بلا شك
ستكون نقلة كبيرة بالنسبة له على كل الأصعدة، وخاصة الصعيدين
المالى والمعنوى.

دهش ناجى شرف الدين وسأل عطا الهاللى قائلاً:

— ولماذا اخترتني أنا بالذات يا أستاذي؟ لماذا وأنا الفقير البائس..
الصغير المبتدئ الذي لا يملك الخبرة في بلاط صاحبة الجلالة؟
لماذا يا سيدي قررت أن ترسلني لأعمل مع أكبر، وأهم رئيس تحرير
في البلد كلها وأكثر الكتاب شهرة ونفوذاً؟

تكلم عطا الهلالي بصوت رخيم رزين وكأنه يلقي محاضرة أو درساً
في فنون الحياة:

— اسمع يا ناجي.. يجب أن تعرف أنك موهوب، وخريج إعلام وتحب
الصحافة بجنون وهذه كلها مؤهلات للتألق في بلاط صاحبة الجلالة..
ولا أريدك أن تنظر لفقرك وعمرك باعتبارهما من العقبات التي تحد
من طموحك في مهنة الصحافة، لأن الإسكندر المقدوني غزا العالم
وعمره لا يتجاوز الثلاثين عاماً، والملكة فيكتوريا حكمت بريطانيا
العظمى، وعمرها ١٨ عاماً فقط.. هذا بالنسبة لمسألة العمر.. أما
بالنسبة للفقر فلا تحزن فكل العظماء كانوا فقراء.. شكسبير أعظم
المبدعين كان ابناً لبائع صوف!

كما أن الإمبراطور "ديو كلشيان" الروماني كان والده عبداً بائساً
فقيراً.. وإبراهيم لينكولن محرر العبيد هذا الرجل العظيم عمل حملاً في
بداية رحلة كفاحه مع الحياة!

وفي نهاية المطاف بدا ناجي في قمة سعادته بالانتقال إلى عالم آخر..
عالم الصحافة القومية.. بعيداً عن الصحافة المستقلة أو الحزبية.. والفارق
بينهما كالفارق بين السماء والأرض.. لكنه قال لأستاذه عطا الهلالي:

— برغم فرحتي الكبيرة بالانتقال للعمل في "الأيام" إلا أنني حزين للغاية
لأنني سأفارقك..

رد الرجل ضاحكاً:

— لن تفارقني يا عزيزي.. سنظل معاً أخوة وأصدقاء.. بيتي مفتوح لك
وكذلك مكتبي.. ولا تنسى أنني أكتب مقالاً أسبوعياً في "الأيام"

"وعبد العليم طايح صديقي ورفيقي في دروب الصحافة، وزميل دفعتي في الجامعة، ولا يهمني سوى مستقبلك.. أنا حققت ذاتي في الصحافة، وأتمنى لك ألا تواجه الصعوبات التي واجهتها في مطلع حياتي الصحفية، ويجب أن تعرف يا ناجي أن الكتابة بالنسبة لي لذة وعذاب أيضًا.. وأحب أن أقول لك أن المكان المثالي عندي للكتابة والإبداع هو جزيرة مهجورة في الصباح، ومدينة صاخبة بالليل وفي الصباح أحتاج إلى الهدوء، وفي الليل أحتاج إلى قليل من الأصدقاء المقربين لتجاذب أطراف الحديث.

أما المفاجأة الثانية التي أعدها لناجي فكانت مجموعة أعمال ماركيز الذي يعيشه منذ قرأ روايته الأشهر "الحب في زمن الكوليرا" .. كان ناجي مغرمًا بالكولومبي ماركيز مثلما هو مغرم بالتركي أورهان باموق، وقد ازداد حبه لجابريل جارسيا ماركيز المولود في بلدة أركاثاكا بشمال كولومبيا عام ١٩٢٨ والذي درس الحقوق وعمل بالصحافة، حيث بدأ حياته محررًا صغيرًا في بعض الصحف الإقليمية ثم تفرغ للكتابة الروائية والقصصية التي خاض غمارها هدفه في محاولة منه لكي يثبت لأحد أصدقائه أن بإمكان جيله أن يخرج أدباء.. وبعد ذلك وقع في فخ عشق الكتابة، والاستمرار فيها عن حب وإيمان لدرجة أنه لم يعد هناك شيء أحب إليه في الدنيا كلها من الكتابة والإبداع.

ناجي يرى مثله الأعلى في ماركيز، ويتمنى أن يسير على دربه خاصة أنه كتب مجموعة من القصص القصيرة التي لم يقرأها أحد غيره.. وكتب إرهابيات رواية، ويعرف ناجي أن ماركيز عانى كثيرًا في حياته حتى حقق النجاح والشهرة، ووصل إلى القمة بكده وعرقه وموهبته حيث تنقل بين المكسيك وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وكولومبيا.. وظهرت أولى مجموعاته القصصية عام ١٩٥٥، ولكن شهرته لم تبدأ إلا مع صدور روايته التي تعد تحفة فنية في مجال الكتابة الأدبية "مائة عام من العزلة" عام

١٩٦٧ وهى من أعظم الروايات الإنسانية والتي تمنى ناجى قراءتها ، وأهداه إياها مؤخراً أستاذه عطا الهلالى بالإضافة إلى أعماله الأخرى " جنازة الأم العظيمة " ، " خريف البطريق " ، " قصة موت معلن " ، " الخطاب المنتظر " ، " فى ساعة نحس " وكان سعيداً جداً بذلك لأنه لا يعرف قدر مراكزه الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢ إلا من قرأ رواياته ، واستمتع بكتابات الساحرة.

فى هذه الأثناء كانت الهواجس المخيفة تطارد ناجى شرف الدين.. لا يخاف الفتى على نفسه.. بل يخاف على أستاذه ، وصاحب الفضل عليه يعد الله.. الرجل الذى احتضنه ، وأواه فى بيته وعلمه أصول الكتابة الصحفية.. كان يدرك بالحاسمة السادسة أن عطا الهلالى فى خطر.. أسر لأستاذه بذلك الأمر.. ضحك عطا كثيراً وعلق بجملة واحدة:

العمر واحد والرب واحد ، والحذر لن يمنع أبداً الخطر.. كان خوف ناجى مصدره المقالات الجنونية الجريئة التى يكتبها عطا الهلالى فى الفترة الأخيرة.. فقد نشر تقريراً سرياً حصل عليه بطريقته الخاصة.. وكان عنوان ما كتبه:

" تقرير خطير يكشف قضية فساد كل دقيقتين فى مصر! "

وجاء فيه:

أشار التقرير الخطير الذى أعدته هيئة الرقابة الإدارية سرّاً حول جرائم الفساد المالى والإدارى داخل الأجهزة الحكومية فى مصر الكثير من القلق داخل الأجهزة الرقابية التى تخوض حرباً ضد الفساد بكل أشكاله وألوانه وصوره دون النظر إلى المناصب التى يشغلها الأفساد والمفسدون ، أو مراكزهم الاجتماعية المرموقة أو حتى قوة وسطوة ويطش من يساندونهم فى غيهم!

وأكد التقرير أن هناك ٣٠ قضية فساد وإهدار مال عام فى الساعة.. وهذا يعنى أن هناك قضية فساد كل دقيقتين تقريباً ، وهو ما يكشف عن

صور مخيفة للانحراف والفساد تثير الخوف والقلق على مصير المال العام بين أيدي العاملين عليه ، والمسؤولين عن إدارته والتصرف فيه باسم الشعب وللصالح العام والمعنيين بحراسته والسهر على حمايته!

وأشار عطا الهلالي فيما كتبه معلقاً على البيانات، والأرقام الواردة في هذا التقرير قائلاً:

من أبرز نماذج وصور الانحراف المالي والإداري داخل الأجهزة الحكومية والتي أدت إلى إهدار المال العام ، والسطو عليه ونهبه.. تلك القضية المعروفة بقضية الجمارك الكبرى ، والمتهم فيها ٢٩ موظفاً من قيادات مصلحة الجمارك من بينهم رئيس المصلحة ، وهؤلاء حرموا خزانة الدولة من ٣٥ مليون جنيه من خلال مساعدتهم لرجال الأعمال على التريح دون وجه حق على حساب المال العام.

وكذلك قضية " القمح الفاسد " الذي تم استيراده من الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة ٢٢ مليون جنيه تكبدتها خزانة الدولة بسبب فساد ضباط المسؤولين عن توريد غذاء آمن وصحى للمواطنين!

كان ناجي شرف الدين يشعر بأن الكبار لن يتركوا عطا الهلالي في حاله ، وقد يفتالونه لو استدعى الأمر ذلك.. لأن اللعب مع الكبار دائماً محفوف بالأشواك والمخاطر.

تابع الفتى الريفى كتابات أستاذه فى الصحف العربية المعارضة التى تصدر فى عواصم أوروبية ، وتكشف المستور، وتخوض فى المحظور، وتقضح أمراء وأميرات ورؤساء ووزراء ومشاهير فى الدول العربية.

فقد كتب فى صحيفة " عرب تايمز " سلسلة من الموضوعات الصحفية عن الأميرات الخليجيات.. بدأها بحلقة تحت عنوان:

" أميرة خليجية تطلب اللجوء السرى لبريطانيا خوفاً من عقوبة الموت فى بلدها لارتكابها جريمة الزنا!"

وتحت هذا العنوان كتب القصة المثيرة واللافتة للانتباه يقول فيها:

حملت الأميرة الخليجية الشابة سفايحًا بطفل غير شرعى من رجل بريطانى، ومنحت سرًا حق اللجوء إلى بريطانيا بعد أن أخبرتهم بأنها ستواجه عقوبة الموت إن هى أُجبرت على العودة إلى بلادها حيث تقطع الرؤوس من غير حساب، ولا محاكمة ولا عدالة.. ريعت الأميرة العربية التى مُنحت أيضًا حق السرية فى البوح بقضيتها للقاضى وأخبرته بأن ممارسة الحب دون زواج يعتبره الأوروبيون حرية بينما بلادها تعتبره زنا، وهى الآن فى نظر أهلها وأبناء وطنها زانية والموت ينتظرها بفارغ الصبر على شاطئ الخليج! ويروى عطا الهالى قصتها كاملة بقلمه الفصيح قائلًا:

إن الأميرة سليلة عائلة ملكية ثرية جدًا، وقابلت الشاب الإنجليزي وهو غير مسلم أثناء زيارة لها إلى لندن، وعاشت معه قصة حب عنيفة تورطت خلالها بالحمل من الفتى الإنجليزي، ويرغم أنها زوجة لملياردير عجوز مسن عقيم عضو العائلة الملكية الحاكمة إلا أنها أصبحت حاملًا وفى أحشائها تتحرك نطف الأجنبى، وسرعان ما صارت النطفة علقة ثم أصبحت ثمرة حبها جنينًا يتحرك بداخلها، حاولت بشتى الطرق إقناع زوجها المزواج بأن يتركها تسافر إلى لندن لكى تلد سرًا بعيدًا عن عيون البصاصين والمتلصصين والمتربصين، وبعد جهد جهيد وافق زوجها على مضيض خوفًا من أن يلحقه العار، وتلوثة الفضيحة، وعلى أمل أن تعود فارغة البطن، نظيفة الرحم لينتقم منها لشرفه الجريح على طريقته الخاصة فيشفى غليله، وبدهاء الأنثى نجحت فى الهروب من الفخ الذى نصبه لها، واستطاعت اقتناع المحكمة بأنها إذا عادت إلى مملكتها هى وطفلها ستكون خاضعة للرجم حتى الموت!

وبالفعل مُنحت الأميرة الجميلة الشابة إقامة دائمة فى عاصمة الضياع بعد أن تعاطف القاضى الإنجليزي مع قصة غرامها، وأعطتها المحكمة حق اللجوء الإنسانى، ومن وقتها توقفت عائلتها وعائلة زوجها عن الاتصال

بها ، ومحاولة استرجاعها حتى ولو كانت جثة هامدة بعد أن عرفوا بتفاهيل
الفضيحة.

شعر ناجي شرف الدين بأن مجرد نشر كواليس وأسرار هذه القصة التي
يعتبرونها في المملكة تمس قدس الأقداس كفيل بأن يجعل أصحابها ،
وهم يملكون المال والسلطان والوصول والجاه والنفوذ يسعون للتأثر من
الشخص الذي تجرأ وأتاح فضيحتهم للجميع وجعلها على كل لسان ، وهو
بالطبع الكاتب الصعفى عطا الهلالى ، ولكن ها هي الأيام تمر ، ولا
يحدث أى شئ ، وعطا الهلالى يضحك بثقة ، ويقهقه بسخرية من كل شئ ،
ويأكل ويحيا ويكتب ويعتبر الحروف التي يكتبها هي الرثة التي يتنفس
بها ، لا يهاب المجهول ولا يخاف أحداً على الإطلاق ، يبدو كما لو كان
محصناً من الخوف والإيذاء.. وما زال يواصل كتابة سلسلة فضائح المشاهير
في العالم ، والتي أعلن أنه سوف ينشرها فيما بعد كلها في كتاب.. وكتب
في الحلقة الثانية في صحيفة " عرب تايمز " قضية أكثر خطورة.. كتب
يقول تحت عنوان مثير من كلمتين فقط.. " فسوق الأميرات "

لأشئ على الإطلاق يأتي من فراغ حتى الأساطير ، وحواديت السحرو
الجان والخيال العلمي ، لا بد أن يكون لها أساس واقعى لينطق منه العقلاء ،
ويواصلوا بناء الأسطورة التي تنمو في خباياها ، وتندesh من أسرارها..
الناس لا تخلق الحواديت من العدم ، قد تبالغ في سردها وتهول من أحداثها
وتفاهيلها ، وقد تعيد ترتيب الأحداث والكلمات والروايات لتأخذ وقعاً
أفضل على الأذن وتترك بصمات على الوجدان ، وقد تضع واقعة هنا ، وتسحب
أخرى من هناك لتصبح الحكاية أكثر سحراً واثارة وابهاراً ، ولكن الناس
لا تأتى أبداً بالحكايات من باطن الأرض.. الناس ببساطة شديدة قادرة على
نسج الملابس ، ولم تكن يوماً ما مصدر الخيوط.. وحينما تتكون صورة
جماعية لدى المصريين ، فلا بد أن تعرف أن هناك تراكماً ، ولا بد للدخان
الذى يتطاير في الهواء ، وتذروه الرياح من نار.. كل ذلك أجبر المصريين

على صناعة تلك الصورة، والإيمان بها.. فهناك أسماء ومصطلحات يكفى ذكرها حتى تطبع أذهانهم صورة واحدة وكأنها كريون تمامًا مثلما تكون نسخ الصحف متشابهة، بغض النظر عن كل الفوارق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. انزل إلى الشارع، واسأل أحدهم.. ماذا تعنى لك كلمة أميرة خليجية؟ مع العلم بأن عدد الأميرات الخليجيات يصل إلى ٨ آلاف أميرة جميعهن يحملن اللقب السامى.. دعنا نتفق أولاً قبل أى شئ على أن الكثير من الأميرات خارج كادر تلك الصورة المخجلة تمامًا بعلمهن وتعليمهن وأخلاقهن وثقافتهن واندماجهن مع العالم الخارجى!

على كل الأحوال سوف تأتلك الإجابة واحدة أينما طرحت السؤال.. فى شوارع الزمالك مثل حوارى بولاق الدكرور وإمبابية، وفى قرى الصعيد مثل قرى الساحل الشمالى، وفى العمارات الشاهقة الفاخرة مثل عشش الصفيح والبور العشوائية.. صورة كريونية واحدة رسمتها أفعال جامعة، وتصرفات جنوبية لأميرات خليجيات داخل العقل المصرى، وقد حولها مؤشر البذخ والسفه والجبروت المادى إلى صورة أسطورية يكرها المصريون جميعًا مثل كراهية الأطفال للنداهة، وأبورجل مسلوخة وأمنا الغولة والبعبع الأزرق فى الليل الأسود، ويرفضونها مثلما رفضت آيات الذكر الحكيم فى القرآن الكريم أفعال وأقوال قارون.. سوف تسمع كلمات متشابهات إذا فتحت مع أى مواطن مصرى حوارًا حول الأميرات الخليجيات وقصصهن المثيرة، ومغامراتهن المشينة على ضفاف نيل القاهرة وداخل أفخم فنادقها العامرة بكل ما لذ وطاب وتشتيه الأنفس والأجساد.. قد تختلف الحكايات، وتدور رحاها، وتتنوع بين ما هو جنسى فاضح وما دى سافر وقهرى نادر، ولكنها فى النهاية سوف تستقر على تلك الصورة: أولئك النسوة اللاتى كن مقبضات بديئات قبل أن تتقذهن عمليات التجميل وشفط الدهون.. تلك الكتل السمراء اللاتى حرمهن حكامهن من الخروج للنور وقيادة السيارات، وتحجبهن الجلابيب السوداء والتقاب القاتم الذى يشبه الخيمة المتحركة عن أجواء الحرية والشهرة التى تبحر فيها

السيدات الأول ووريثات العرش في بقية البلدان العربية والأجنبية، هؤلاء المتناقضات الثلاثي يخلعن ملابسهن، ويتزعن عن وجوههن وأجسادهن برقع الحياء، ويغصن في بحار أوروبا، ويسبحن بين شواطئ مصر المترامية الأطراف بالبكينى، ويرمحن بسياراتهن الفارحة بأقصى سرعة في الشوارع والطرق كالخيول الجامحة، وكأنهن يتقمن من حكامهن، وأولياء أمورهن وبلادهن التي ترفض منحهن حق الحياة الطبيعية العادية وقيادة السيارات، والسير في الشوارع والطرق.. هؤلاء الثلاثي يعوضن حرمان الظهور والخروج لشمس النهار، وقمر الليل، والتجول في الشوارع بوجود تلامس الهواء بالحفلات الصاخبة والمجون والبدخ، والتبجح والتبذير في الانفاق مثلما يبذر الشياطين.. هن أصحاب الحفلات الساهرة حتى الصباح التي يأتيها زمرة من الفنانين والمطربين صاغرين أذلاء طمعاً في الهدايا والملايين وعطايا الأميرات من السيارات والمجوهرات، تلك الحفلات التي تأتيتها الوجبات ساخنة دسمة شهية من العواصم الأوروبية، بينما الغلبة يموتون جوعاً في شوارع العرب، ودروب فلسطين المحتلة، وتحت أنقاض الصومال والعراق ودارفور وفي طوابير الخبز أمام الأقران بحثاً عن رغيف يسد رمق المساكين من فقراء ويؤساء العروبة.

الأميرات الخليجيات يتفاخرن في شوارع القاهرة، وفنادقها الخمس نجوم بأموالهن ومجوهراتهن ودولارات أبار وبراميل النفط التي لا تنضب أبداً.. هن الثلاثي لا تملك ألسنتهن أدنى فكرة عن الذوق، واللباقة حينما يخاطبن الباعة والعمال والخدم.. هن الثلاثي تظهر أسماءهن المفخمة وصورهن المبجلة في الصحف الأوروبية عازية من كل احترام مقتربة بفضائح أخلاقية، ودهشة من اسرافهن وعيثن الجنونى.. هن الثلاثي أصبحن مؤخراً طرفاً أصيلاً في قضايا نصب وبلطجة، وابتزاز ورشوة سواء في مصر أو في عواصم أوروبا!

تلك هي الصورة الرائجة في خيال المصريين عن الأميرات الخليجيات

أو فكرة الثرى العربى القادم من بلاد البترول والصحراء والجلباب سواء كان رجلاً أو امرأة، هى صورة لم يتم تمييزها بعد فى أذهان الناس، بل الأحداث والوقائع وعدد الحوادث والمحاضر والقضايا المتداولة فى المحاكم المصرية والتي دائماً ما يكون أحد أطرافها أميرة عربية واسعة الثراء تقيم فى فندق فاخر على النيل، وترفل فى النعيم، وتحجز لنفسها، ولذويها أكثر من جناح تعريد فيه معهم كما تشاء وحسيماً يحلو لها بلا حسيب ولا رقيب ولا ضمير!

وأخطر هذه القضايا قضية خلود العيسى مع رجل الأعمال الشهير المليونير حمدى الكومى وهناك حكايات أخرى، وفضائح ساخنة على النيل، وأكثرها سخونة وإثارة حكاية الأميرة هند العباسى وزوجها الأمير طایل وابنتها جواهر.. عن هذه العائلة الملكية الكريمة حدث ولا حرج!

ويجب ألا ننسى أن القاهرة بالنسبة لأصحاب الدماء الملكية من الأمراء والأميرات من أبناء الخليج العربى ليست هى العاصمة الأثرية أو البلد ذو الأجواء الدافئة الذى يأتيه الأوروبيون للإستمتاع بشمسها، والإطلاع على جزء مهم من حضارة العالم.. هى بالنسبة لهم ولهن قبلة السهر، والعريضة وكعبة الحرية والعبث والهروب من قسوة تقاليد البادية وجفاء الصحراء فى بلاد الخليج.. هى بالنسبة لهم ولهن تلك العاصمة التى يمكنهم أن يفعلوا فيها ما شاءوا، وقتما شاءوا بأموالهم التى لا تنفذ، وسلطانهم الممتد من الخليج إلى النيل.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن شارع الهرم وليست الأهرامات.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن كبازيهات وبارات، وليست مقتنيات حضارية ومعالم تاريخية.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن.. مواطنون غلبة يخضعون لجيروت الجنيه وذل الدولار والدينار والريال.. ليسوا أشقاء فى العروبة بل أولاد حرام، وبؤساء فقراء تعساء لا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة فى الشهر.

الأميرات القادمات إلى عاصمة الأزهر والحسين.. مدينة الألف منذنة

حلوا عليها ليس طلباً للبركة ، ولا بحثاً عن نفحات أولياء الله الصالحين وآل البيت ، بل جاءوها من أجل الحفلات والسهرات ، والتفاخر أمام خلق الله والإنفاق ببذخ على أشباه المطربين أمثال تامر شوقي وسيد الصغير ، وأبو شعيشع الذى عمل كمكوجى قبل أن يحترف الغناء ويحرص على ارتداء ثياب الأنثريه فى حفلاته الغنائية الشعبية ، وغيرهم الكثير من رواد الأغنية الشيبابية الذين هبطوا على الساحة الفنية بالباراشوت حيث الغناء للحمير والفاكهة ، وهز الأرداف ورجرجة المؤخرات والعبث بالتهود !

وإذا ذكر اسم الأميرة جواهر فى مصر ذكرت الحفلات الليلية الأسطورية والدولارات التى تلقى تحت أقدام المطربين والسيارات الهامر ، والكثير من الشائعات ، وأحاديث النميمة الجنسية وغير الجنسية !

وإذا ذكرت أمها الأميرة هند العباسى ذكر الكثير من القضايا والحوادث والجرائم الإشعة التى يندى لها الجبين.. فتلك الأسرة سائلة الملوك سيئة السمعة ، وسجلها فى القاهرة حافل بالشغب والأفعال المشينة والفضائح والجرائم التى لا تمت لأخلاق الأمراء والملوك بصلة.. هل تذكرون حادثة فندق مدينة الإنتاج الاعلامى حينما اصططحت الأميرة هند العباسى وابنتها جواهر ١٣ كلب حراسة فى غاية الشراسة ، والوحشية للإقامة داخل الفندق بشكل نشر الذعر والهلع بين رواد الفندق بأكمله ، وجعل النزلاء يفرون منه فرار السليم من الأجرى !

وهل تذكرون ما حدث منذ عامين فقط عندما كان الطبيب المصرى مسعود حسان يقضى أجازته الأسبوعية مع زوجته وأطفاله الثلاثة نورهان وحببيه وأحمد وذهيت حبيبة الصغرى تلهو ، وتلعب ببراءة فى حديقة الفندق فهاجمتها ثلاثة كلاب مفترسة أشبه بالأسود الجائعة ، ونهشوا وجوها الطفولى الطازج وجسدها النحيل الصغير بلا رحمة حتى فقدت الوعى !

وقتها لم يرتجف رمش ، ولم تهتز شعرة واحدة فى رأس الأمير طایل وزوجته الأميرة هند العباسى ، وابنته جواهر وتم اجبار الطبيب المسكين

على الصلح مقابل ١٠٠ ألف جنيه ثمن علاج ابنته سيئة الحظ
وماذا كان يستطيع أن يفعل طبيب صغير بسيط الحال لاحول له ولا قوة
أمام نفوذ، وجبروت فرع رئيسى من فروع العائلة المالكة؟

وهل تذكرون عندما احتجزت الأميرة هند العباسى وأفراد حراستها
الغلاظ القساة عمالاً مصريين وقلبيين، وعذبوه داخل فندق الهيلتون
بسبب شكاوى عادية تقدم بها العمال الغلبة، اتهموا فيها الأميرة بعدم
سداد رواتبهم واساءة معاملتهم؟

أما الأميرة المدللة جواهرية الصون والعفاف، وملكة حفلات منتصف
الليل وصاحبة الهامرات التى تملأ سوق المطربين، فلم ينج مغنى مصرى
ركب سيارة هامر من ثروة عن وجود علاقة غرامية سرية تربطه بالأميرة
الصفيرة التى يتمنى المطربون جميعاً بلا استثناء الحصول على دعوتها
لإحياء حفلة أو تقبيل اليد هناك؟

هذه هى أميرة الليل والسهرة، وشباب المطربين، والمراهقين من نجوم
برامج "ستار أكاديمى" وهى ذاتها الأميرة التى لا تجد مانعاً فى عدم
سداد ٥٠٠ ألف جنيه بعد الدعوى القضائية التى رفعها ضدها مورد اللحوم
لها ولأسرتها وحاشيتها وكلابها المفترسة؟

اتهموا اللحم مثل الأسود الجائعة فى البرارى، ورفضوا دفع الفاتورة
هل هناك عاقل يفعل ذلك؟ هل هذه أخلاق الأمراء والأميرات والنبل
والنبيلات؟

كما أن الأميرة جواهر سبقت الأميرة خلود فى مسألة النصب والإحتيال
واغتصاب مجوهرات ليست ملكاً لها، وذلك مثبت فى أوراق رسمية، وفى
حيثيات حكم صادر عن محكمة "جنايات أبو العلا" غيابياً بسجن الأميرة
هند العباسى ٤ سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة سرقة مجوهرات قيمتها
٦ ملايين جنيه، ولم تجد الأميرة مفرّاً من حكم المحكمة إلا بالتصالح
مع الجواهرجى، وإعادة المجوهرات إليه، ويبدو أن الأميرة خلود قررت

استكمال مسيرة الأميرة هند وابنتها جواهر في القاهرة عبر حدوده نصب
كشفتها قضية غريبة مع رجل الأعمال حمدي الكومي والتي اتهمها فيها
بأنها أبداً لم تسرقه ، وأنه تزوجها عرفياً ١٩ يوماً فقط ، وأعطاه كل شئ
عن طيب خاطر ، والعصمة كانت في يدها وعندما دبت الخلافات بينهما
طلقته ، فاستشاط غضباً واتهمها بالسرقة!

وبينما حمدي الكومي ينكر زواجه منها كانت هي تؤكد للجميع وفي
تحقيقات النيابة أنها مزقت بيدها ورقة زواجهما العرضي في لحظة غضب
أثناء شجارها معه ، وقالت اسألوا الشهود على زواجي منه ومعاشرتي إياه
وأكدت أنها نامت في فراشه عشرة أيام فقط ذاقته خلالها عسيلته ، وذاق
عسيلتها!

وسواء كانت خلود العيسى أميرة حقاً وزوجة سابقة لابن جلالة الملك أو
كانت مجرد متمسكة ثرية في الأسرة الملكية بعد انفصالها عن ابن الملك
تبقى في نهاية الأمر هي نموذج جديد لثراء الأنثى الخليجية التي تستغل
الخيال المصري عن الأسرة الحاكمة ، ولعاب رجال الأعمال الذي يسيل
على مغامرة نسائية مشبوبة قد تقره من كرسى العرش الخليجي الذي
يفيخ بالمال والذهب ، والنفوذ والوجاهة ، وهنا تنصب الأميرة شياكها
وتضرب ضربتها ، وتذهب فريستها حتى ولو كان في الأمر فضيحة أخلاقية
أو ورقة عرفية تتنافى تماماً مع الأجواء السائدة في بلدها الخليجي.

الناس في بلاد يتساءلون:

أين الحجاب.. أين النقاب؟

أين ذهب هيئة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر؟

أين ذهب تطبيق الشريعة الاسلامية التي تعمل بمبدأ الثواب والعقاب؟

لماذا تركت الأسرة المالكة سمعتها تتلطح في الوحل على أيدي

أميرات الهامر؟

هذا السؤال سيبقى مطروحا في مصر مادامت حفلات الأميرة جواهر
الجهنمية مجلجلة في سماء القاهرة مهد الأزهر وحصن الاسلام.. وسيبقى
السؤال مطروحا مادامت الأميرات الخليجيات مثل هند وخلود وغيرهما
مقتنعات بأن أموالهن تمنعهن حق استعباد البشر، واستغلالهم للمتعة
الشخصية، وتعذيبهم وقتلهم إذا لزم الأمر!
اختتم عطا الهلالي مقاله الناري قائلا:

لم أتحدث عن حوريات من عالم ألف ليلة وليلة، بل أتحدث عن أميرات
من لحم ودم وأحاسيس وخطايا.. ولست أنا أول من يخوض في هذا العالم
الشائك بالأفغان الحافل بالأسرار والخفايا، وما لا يصدق عاقل أو مجنون..
ولست أنا صاحب الفضل الأوحى في الجرأة والشجاعة، وكشف المستور
من عظام الأمور فهناك الكاتب المشهور "روبرت ليسى" الذى وضع
كتابه الأشهر "المملكة" عن فضائح الأميرات الخليجيات، ونزقهن
وعريدتهن بصورة تفوق الخيال الجامح!

لكل هذا كان ناجى شرف الدين خائفا على أستاذه، متوجسا من أن
يصيبه مكروه لا يعلم من أين يأتيه لكنه قادم لا محالة برغم عدم وجود
دلائل تؤكد هواجسه اللهم إلا حاسته السادسة التى تنذره بأن عطا الهلالي
على شفا حفرة من الهلاك!

"القلوب تحيا بالحب وتموت بالحق!"

مضت الأيام الأولى لإيناس مندور في سويسرا هادئة لذيدة، وبسرعة بدأت تتكيف على الأجواء، والناس والبنات.. أحبت الهدوء، وبعين خبيرة كانت تبحث لها عن رفيقة، أو أنثى تواصل معها علاقتها الحميمة الأثيرة، وجاءت جانبها بالطبع في المرتبة الأولى، ولكن الصدفة جاءت سريعا عندما عرفت أن جانبها تركت منزل عائلتها منذ أكثر من عام، وتعيش بصحبة صديق لها في شقة صغيرة بشمال مدينة زيورخ اختارت أن تنتقل للحياة مع صديقها بعد قصة حب عابرة سريعة وقصيرة، وبرغم عدم رغبتها في الإنجاب منه إلا أنها تحبه، وتفضل أن توجل الحمل منه حتى تحقق طموحاتها أولاً حيث تعد دراسة في الجامعة لنيل درجة الماجستير في "علم المصريات" .. حزن إيناس مندور كثيراً بعد أن عرفت تفاصيل حياة جانبها، فقد خيبت آمالها فيها، حيث كانت تراها رفيقة نموذجية لها بامتياز تشاركها خصوصياتها وعملها، وفي آخر الليل وأيام الأجازات تشاركها أحضانها وفراشها!

أول شيء فعلته بعد أن استقرت بها الأحوال في سويسرا بعثت برسالة قصيرة إلى ناجي شرف الدين على بريده الإلكتروني تقول فيها:

" ناجي .. كيف حالك يا جورنالجي .. هيا يا فلاح صاحبة
الجلالة أخبرني عن عملك وحياتك وأحوالك .. أريد أن
أطمئن عليك يا صديقي العزيز! "

مع تمنياتي لك بالتوفيق.

إيناس مندور / سويسرا.

تلقي رسالتها بسعادة غامرة برغم ما فيها من روح دعابة ساخرة لكنّها

لطيفة ومقبولة ، وهو يتقبل من إيناس أى شئ وكل شئ ، فهو معجب بشهامتها ، وشجاعتها ، وخروجها على المألوف فى كثير من الأحيان ، ولا يعجبه فيها أشياء كثيرة أيضاً يفضل ألا يتحدث عنها لأنه يؤمن بالحكمة القائلة :

" لا تتحدث إلا عن الخير الذى تعرفه فى كل الناس ،
وتغاضى عن عيوبهم وصغائرهم " .

وهو فى نفس الوقت لا ينسى ما فعلته من أجله ، فهى التى فتحت أمامه أبواب صاحبة الجلالة الصحافة بعد أن غُلقت كل الأبواب فى وجهه ولم تشفع له شهادته العليا فى الإعلام والصحافة من جامعة القاهرة أعرق الجامعات العربية والأفريقية برغم التصنيف العالمى الذى استبعداها من بين أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم .

رد ناجى شرف الدين على رسالة إيناس الموجزة برسالة أبدى فيها سعادته لإحساسها بالراحة والسعادة فى سويسرا ، وتسلمها لعملها الجديد فى أجمل بلاد الدنيا وجنة الله على الأرض ، وتمنى لها التوفيق فى حياتها الجديدة ، ثم حكى لها عن المفاجأة التى لم تتوقعها ألا وهى انتقاله للعمل فى مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر .

لقد أصبح الآن زميلاً لها فى ذات المؤسسة العريقة وقال لها :

يبدو يا عزيزتى أن القدر يابى ألا يفرقنا وألا يجمعنا أبداً ..
ها أنذا أنتقل بمعجزة لم أكن أتوقعها على الإطلاق إلى
نفس المكان الذى تعملين فيه ، لكن وآسفاه حدث ذلك
بعد مغادرتك للمؤسسة ومصر كلها .. على كل الأحوال
نحن متفقان فى أشياء كثيرة .. واليوم أنت يا إيناس
حققت حلمك الجميل بالعمل فى إمبراطورية كرة القدم
العظمى المسماء بالفيضا ، وأنا يا صديقتى حققت حلمى

أيضاً بالعمل في مؤسسة " الأيام " العظمى للصحافة.
نحن متعادلان في كل شئ.. تمنياتي لك بالتوفيق والنجاح
في مهمتك الجديدة، وفي انتظار رسائلك يا إيناس.

ناجى شرف الدين

القاهرة

لم تفرح إيناس بانتقاله للعمل في مؤسسة " الأيام " التي تعتبر حكراً على
أبناء الكبار من المسؤولين والكتاب، وقدامى الصحفيين والوزراء، بل
أحست في صدرها بشئ من الغيرة والحقد، وبرغم أنها تعرف أنه غير لائق
لهذا المكان إجتماعياً!

ولم تتوقف كثيراً أمام رسالته وهمست لنفسها:

الحياة في مصر مثل الأرجوحة.. يوم في السماء ويوم في الأرض.. هي
فوضى.. والنجاح فيها حين ميسرة.. الصدفة والمحسوبية هما الأساس
وهناك هامش ضئيل للنظام.. وقد يأتي الصعود للقمة بطريقة عشوائية،
وقد لا يأتي لمن يستحقونه..

ومضت لحال سبيلها تواصل عملها بين زملائها في " الفيفا " وكان لها
زميلاً فرنسياً في الأصل لكنه سويسري الجنسية يدعى " إيمانويل " بدأ الفتى
معجباً بها، ويحاول قدر طاقته أن يستدرجها إلى علاقة عاطفية.. صداقة
حميمة أو لقاءات غرامية ملتبة، فلا وقت هناك للعواطف والرومانسية،
والحب العذري، فالحب لديهم هو طريقة مهذبة للجنس.. الحب لديهم أسرع
طريقة لمواقعة الجميلات!

أحست من نظراته وإيماءاته بما يدور في ذهنه، أغلقت في وجهه كل
الأبواب، أعادت شيطان نزواته إلى القمقم، وعاملته بفلظة وبطريقة جافة
فضة، فأدرك على الفور أنه غير مرغوب فيه وأنه أبداً لن يكون فارسها.
وقال لجانيت:

— ما بال صديقتك المصرية عنيدة مشاكسة ومتخلفة مثل الكثير من
الذين يفدون علينا من الشرق الأوسط.. ماذا تظن نفسها؟ هل تعتبر
نفسها نفرتيتي أو كليوباترا؟

لكن أود أن أسألك يا جانيت.. لماذا تتمنع على؟ هل لديها صديق في
سويسرا أو زوج في مصر؟
ضحكت وقالت متسائلة:

— ماذا أصابك يا إيمانويل؟ هل سحرتك الفتاة المصرية؟ أم أصابتك لعنة
فرعونية من بنت قادمة من أرض الهرم وأبو الهول ومسلات الأقصر؟
قال بغيظ:

— نعم.. أريدها.. أريدها يا جانيت.

— ولكنها لا تريدك يا عزيزي.. وهذا يكفي لكي تكون رجلاً متحضرًا ،
وتتعامل معها بلباقة في ضوء ذلك وعليك أن تحترم مشاعرها ، وهذا
هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يحدث بالقوة ، بل بالتفاهم والود ،
وانسجام القلوب والعقول والأرواح قبل اندماج الأجساد وتلاقيها.. هز
رأسه مستنكرًا وتركها وانصرف غاضبًا نائمًا!

...

" لا تصدق هؤلاء: التاجر عندما يحلف.. والسكير عندما
يصلى.. واللعب عندما تبكى! "

" عندما تفجّر المخابرات الأمريكية عن فهم ما يدور حولها في أنحاء
العالم وبالتبعية المخابرات الإسرائيلية ، فإنها تسعى إلى اختراقه وتغييره
بكل الوسائل.

" كانت هذه العبارة التي استخدمها الصحفي الأمريكي " تيم فينر "
الحائز على جائزة بوليتزر أهم وأعظم الجوائز في الصحافة العالمية ، وهو
الرجل الذي قرأ ٥٠ ألف وثيقة سرية من قلب أرشيف المخابرات الأمريكية ،
وهو ذاته صاحب كتاب " التاريخ السري للمخابرات الأمريكية " والذي
يجسد فيه فشل المخابرات الأمريكية في معاركها منذ الحرب الباردة
مع السوفييت وحتى أحداث أيلول الأسود في الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١
التي مثلت قمة الفشل والإخفاق في حماية أمريكا والحفاظ على سمعة
المخابرات الأقوى والأعظم في العالم.

كان عطا الهلالى من أشد المعجبين بهذا الصحفي المغامر المغوار ،
وكتاباتة الجريئة ، لذلك لم يتوقف عن كتابة مقالاته وموضوعاته الصحفية
الهجومية _ اقتداء بالصحفى الأمريكى التى تخترق المناطق المحظورة ،
وتتجاوز الخطوط الحمراء ، وتكشف المحرمات وتنتهك التابوهات المقدسة
بالنسبة للمجتمعات العربية ، وتقاليدها البالية ، وتناقضاتها المضحكة!

كان حريصاً كل الحرص على أن يمزق بقلمه المسموم كل القيم
الشائكة ، وكأنه يكتب بحبر إلهى قادر على تطهير جسد أمته العربية
من المحيط إلى الخليج من كل الخطايا والآثام ، لا يخاف من لومة لائم ،
ولا يخشى فى الحق من بطش حاكم ظالم.. يكتب ما يقتنع به ، ورزقه

على الله.. والكثيرون يظنون أنه مسنود من مسئول كبير، بينما الحكاية تتلخص في أنه ليس لديه ما يخشاه أو يخشى عليه، فلا زوجة، ولا مال، ولا عيال.. والحديث الشريف يؤكد أن العيال مخافة مجبنة.. بمعنى أن الأب دائما يخاف على نفسه حرصًا على أولاده الصغار.

وهذه المرة كتب عطا الهلالى يقول تحت عنوان:

"طبيب اسرائيلى يعالج العجز الجنسى لملك العرب!"

كشف الطبيب الاسرائيلى "موشيه مانى" المختص فى علاج العجز الجنسى والمسالك البولية فى مقابلة صحفية أجرتها معه صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية عن أسرار العجز الجنسى لدى ملك أكبر دولة خليجية، وعدد من الأمراء فى الأسرة الحاكمة الذين خضعوا للعلاج سرًا تحت يد الخبير الإسرائيلى فى قصورهم الفخمة على شاطئ الخليج العربى.. لكن الأمر لم يتوقف عند العلاج فقط، ومعرفة الأسرار الجنسية لدى هؤلاء القادة، بل تعداه إلى قضايا أخرى أهم من ذلك بكثير لدرجة أن رئيس المخابرات الاسرائيلى "الموساد" ديب كيمحى "قال فى هذا الخصوص:

"إن ما قام به الطبيب الإسرائيلى "موشيه مانى" لصالح وطنه إسرائيل يعد عملاً رائعًا وخدمة جليلة لإسرائيل فى صراعها مع العرب.. لقد عانى كثيرًا وعرض حياته للخطر من أجل بلده، وهو يستحق التكريم."

هكذا إذا لم تكن المهمة طبية فقط، بل كانت مهمة مخابراتية من الدرجة الأولى!

البداية كانت من ضابط المخابرات فى "الموساد" يومها المدعو يعقوب نمرودى، وشريكه العربى رجل الأعمال المعروف الملياردير حسان خاشوقجى فى ربيع العام الماضى حيث عقدا لقاءً مشتركًا فى جنيف عرف خلاله خاشوقجى تخصص اليروفيسير موشيه مانى، وعرف أيضًا أنه على درجة عالية من المهارة والكفاءة بحيث يستطيع تحسين النشاط

الجنسى لمن يعانى من العجز بواسطة أدوية خاصة ، وتركيبات كيميائية يحضرها فى معمله الخاص ، وذلك بالإضافة إلى إجراء عملية زرع جهاز طبي إذا لزم الأمر..

خاشوقجى على حد تعبير موشيه مانى فى المقابلة المذكورة طار فرحاً ، وقال: إن لديه مهمة خاصة ، وسيعود ويتصل به بعد فترة وجيزة.. من هنا بدأ مشوار موشيه مانى إلى رحاب القصور العربية لزعماء العالم العربى من العجزة فى التعامل مع تضاريس النساء! وعندما وصل موشيه إلى المملكة بجواز سفر بريطانى ثم استصداره أو تزيفه ، ونقل فى سيارة فاخرة إلى القصر الملكى الكبير برفقه خاشوقجى وحاشيته.. ومن ثم قام بالإنفراد بالملك الذى يعانى من العجز الجنسى برغم أن عدد حريمه ، والقائمات منهن على متعته لا يحصى!

وبعد ساعات حدثت المعجزة حيث قدم الطبيب الإسرائيلى العلاج اللازم بعد أن كشف الملك أسرارهِ الجنسية ، وباح بها للطبيب ، وخرج بعدها الملك المفدى منفرج الأسارير ، منبعج الأوداج لأن عقدة حياته انتهت ، وشعر بتحسن فورى فى قدرته الذكورية على حد وصف موشيه مانى ، ومرافقه حسان خاشوقجى مما أدى إلى فتح أبواب القصور الملكية الأخرى أمامه سواء كانت تلك القصور على شاطئ الخليج أو فى عواصم عربية أخرى.

وأحس الملك إحساس الزوج الذى تعاطى حبة فياجرا قوية جداً وصار جاهزاً لمصارعة أنثاه فى معركة الفراش الحاسمة ليلة الجمعة ، وهو الموعد المحب لدى الأزواج العرب للتوقيع بالعضور والانصراف فى كهف المتعة!

وأكد البروفيسور موشيه مانى أنه شعر بالارتياح التام عقب نجاحه فى هذا الامتحان العسير لدرجة أن مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية أصدر أمراً لإدارة مستشفى "تل هشومير" فى العاصمة تل أبيب بعدم توجيه أى سؤال له بشأن اختفائه عن عمله بالمستشفى الحكومى ، وأن تدفع الإدارة

راتيه كاملاً مع كل المكافآت، والحوافز والبدلات، وأطلق عليه لقب "طبيب بلا حدود" لأنه تمكن من التجول في عدد من العواصم العربية وزرع أجهزة تنصت في قصور الملوك والرؤساء والأمراء العرب لتتغل المعلومات والمحادثات والأسرار مباشرة لحظة بلحظة إلى من يهمه الأمر في تل أبيب. هذا ما كان بالفعل.. وعندما وجه أحد زملائه الأطباء سؤالاً له قائلاً:

— أين كنت يا موشيه طيلة مدة غيابك عن المستشفى؟ كان جوابه..

في مشوار علاجي لمرضى إيرانيين في العاصمة طهران!

وهكذا تطورت العلاقات مع حسان خاشوقجي على حد تعبير موشيه مانى لدرجة أنه أصبح المسئول عن الاستقبال والضيافة للوفود العربية التي تصل إلى قصوره ومكاتبه، وتم منحه حق الإنفاق غير المحدود على ضيوفه، وعلاجهم جنسياً، بما في ذلك توفير فتيات لهم لمعرفة حقيقة تحسن وضعهم الجنسي.. والسؤال:

من كان يدفع هذه الأموال الباهظة يا ترى؟

هل هو حسان خاشوقجي أم شركاؤه مثل تمرودي، وغيره من ضباط

الموساد الاسرائيلي؟

وتواصلت العلاقات مع الملك، وامتدت تلك العلاقات إلى بقية الأمراء في القصر الملكي، وعندما تعذر على البروفيسور "موشيه مانى" الوصول إلى المملكة لسبب ما قام الملك، وغيره من الأمراء بالسفر إلى أسبانيا، وتحديدًا إلى منطقة ماربيا السياحية حيث يملكون القصور هناك أو إلى الريفييرا الفرنسية، ويكون بانتظارهم هناك "موشيه مانى" وغيره من الأطباء لتقديم العلاج الجنسي، وتحسين مستواهم في الفراش.. وأكد موشيه في المقابلة مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" أن حسان خاشوقجي كان ينفق الأموال لهذا العلاج.. وانتشر صيت الخبير الإسرائيلي بين الزعماء العرب، واستدعاه ملوك ورؤساء آخرون في العديد من العواصم العربية لنفس الغرض.

وممن يذكرهم موشيه ماني هو الزعيم السوداني السابق حيث تم استغلال هذه العلاقة لضمان هجرة اليهود الفلاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل عبر الأراضي السودانية.

ويقول موشيه ماني: أنه نجح في اقناع الزعيم السوداني السابق بتقديم المساعدة وفتح الحدود لإقامة المخيمات، ودخول الطائرات أيضًا لنقل المهاجرين إلى إسرائيل أثناء جلسات العمل، بالإضافة إلى الثمن الذي قبضه الزعيم السوداني السابق - ٦ مليون دولار ودخل حسابه السري في بنوك سويسرا.

" كلمة الحب عند الفنانين مثل كلمة الديمقراطية عند السياسيين لا معنى لها ! "

قبل أن ينتقل ناجى شرف الدين للعمل فى مؤسسة " الأيام " للصحافة حدثت حكاية غريبة فى جريدة " مصر اليوم " كانت بطله هذه الحكاية نهير السياجى المحررة فى قسم الفن بالجريدة.. تلك الفتاة السمراء مكنتزة الشفاه ذات الشعر الأسود الناعم والجسد الفاتر ، والعيون العسليه.. كان جمالها فيه مزيج من الشرق والغرب من أوروبا وأفريقيا ، وبين الحين والآخر كان ناجى شرف الدين يشعر بأن قلبه ينبض لها و من أجلها ، وأنه معجب بها ، وأن نظراتها له تبادل له الإعجاب ، وبين الحين والآخر كان يفتعل الأسباب ليجلس معها فى صالة التحرير ، ويحكى معها عن شئون الحياة و شجون الصحافة ، ورسائل القراء وأخبار الفن والفنانين فى مصر والعالم.. كانت بوارد الحب فى أولها ، وبذرة الشوق تنمو فى قلبيهما ، ولأنهما يلتقيان دائماً بحكم العادة والعمل اليومي ، ولأن العادة أقوى من الحب.. كان لا يطيق أن يمر يوم دون أن يراها ويحادثها ، وذات يوم وقعت الواقعة ، فقد كفها عمر الشهابى رئيس التحرير بإجراء حوار صحفى مع المطرب الشهير عمرو الدقاق فى فندق الميريديان الذى يفضل الإقامة فيه معظم شهور العام ، وخاصة حينما يكون فى فترة راحة واسترخاء بعيداً عن الوسط الفنائى والحفلات والمهرجانات ، ولم تتأخر نهير السياجى.. وعلى الفور أجرت اتصالاً هاتفياً بالمطرب الشهير ، ولم يرد عليها كعادته ، وأرسلت له رسالة على هاتفه المحمول ، وبعد يومين جاءها الرد ، وبالفعل عاودت الاتصال به ، وحدد معها موعداً لإجراء الحوار ، وعندما ذهبت إليه فى الفندق حاولت انتظاره فى قاعة الاستقبال على أن ينزل إليها لإجراء الحوار لكنه رفض ، وطلب منها أن تصعد إليه فى غرفته ، فكرت فى التراجع ، وتذكرت أنها

على وشك التعيين وتريد ألا تفقد ثقة رئيس التحرير فيها ، لو أخفقت في إجراء هذا الحوار مع المطرب الشهير المغرور ، والأهم بين مطربي جيله في مصر والوطن العربي.

تحاملت على نفسها ، وصعدت إلى غرفته مضطرة مكرهة ، وفجأة وجدت أنها بين أنياب الأسد ، فلم يكن أبداً المطرب الرومانسي الناعم الهامس الذي تتهاقت عليه الفتيات المعجبات في الحفلات ، وتلقى عليه الدباديب والورود وتقابله بالقبلات والأحضان في كل مكان يذهب إليه.. هاجمها مطرب الرومانسية كوحش كاسر جائع شره ، مزق ملابسها ، شرع في اغتصابها لكنها كانت أكثر منه شراسة في صمودها ومقاومتها ، دافعت عن شرفها ببسالة بكل ما أوتيت من قوة ، وصرخاتها تدوى في جناحه الخاص بالفندق الكبير المطل على النيل ، ولم يتقذها سوى عاملة خدمة الغرف التي طرقت الباب عندما سمعت الصرخات!

لعنها المطرب عمرو الدقاق ، واتهمها بالغباء والجنون والحماقة ، وأن هناك بنات أجمل منها مليون مرة يحلمن بأن يقضى معهن ليلة واحدة لنيل شرف النوم في فراشه والتقلب بين أحضانه !

خرجت باكية حزينة مذهولة مفزوعة ، مهوشة الشعر ، دموعها تيلل وجهها وثيابها مهلهلة كأنها كانت في معركة ، وعلى شريط التسجيل الذي أدارته لإجراء الحوار قيل أن يفكر المطرب في افتراسها سجل كل ما دار بينها وبين ملك الأغاني العاطفية ، ومطرب الحب والرومانسية.

لم تكن تعلم أن الشريط دار ليرصد تفاصيل تلك المهزلة ، وذهبت إلى رئيس التحرير ، وأبدت أسفها وندمها وحسرتها على عدم قدرتها على إجراء الحوار الصحفي لأنها تعرضت لفعل فاضح ، وتحرش جنسى سافر من ذنب بشرى يتكرر في رداء فنان ، وعندليب الأغاني لعصرنا الحالي.

وعندما شكت لرئيس التحرير كل ما حدث من المطرب المجرم الذي يظنه ملايين من عشاق أغانيه أنه ملاك هبط من السماء!

بعد لحظات من الصمت والتفكير العميق قال عمر الشهابي:
اسمعى يا نهير.. أكتبى الواقعة كاملة فى موضوع صحفى، وأعطينى
هذا الموضوع، وسوف أنشره إذا لزم الأمر..

فعلت نهير ذلك بأسى ومرارة، وكأنها كانت تكتب شهادة وفاتها،
لكنها كتبت الموضوع التى اعتبرته أفضل ثأر لكرامتها الجريئة،
وأحسن رد اعتبار لكبريائها المهزوم، وبمجرد أن حصل رئيس التحرير
على الموضوع بخط يدها، والشريط المسجل عليه كل الحوار والصراخ
والآهات، والشدة والجذب بين نهير السياجى وعمرو الدقاق، وهو يساومها
ويفازلها فى البداية ثم يحاول افتراسها فى النهاية بعد يأسه من استباحة
جسدها بالحنسى.

اتصل رئيس التحرير بالمطرب الأشهر، وأخبره بما بين يديه من أوراق
ومعلومات وأدله تدينه وتشويه صورته فى عيون جمهوره، وأنه بإمكانه نشر
الموضوع فى الجريدة، وتكون فضيحة مدوية، أو يأمر نهير السياجى
بتقديم بلاغ رسمى للنائب العام، وتكون الفضيحة أكثر دويًا.. كانت
تبرة صوته فيها ابتزازًا صريحًا لا مواربًا، وفهم المطرب الرسالة، وفى
نهاية الأمر أعطى رئيس التحرير مليون جنيه، وحصل منه على الموضوع
الصحفى الذى كتبه نهير بيدها، واسترد الشريط الدليل المادى على
محاولة الاغتصاب المخجلة، وطلب المطرب من رئيس التحرير أن يطرد
تلك الصحفية من الجريدة خاصة وأنها مازالت تحت التمرين.. لكن عمر
الشهابى استنكر هذه الفكرة، وأقنعه بأن وجودها فى الجريدة أمام عينه
وتحت رقابته يضمن له ألا تفتح فمها، وألا تثير الموضوع مجددًا.. أما لو
طردها فمن يدرى فقد تتهور وتنتشر ما حدث فى جريدة أخرى..

افتتح المطرب عمرو الدقاق بهذه الحثثيات، ورضى بالصفقة الوقحة..
وانتهى الأمر عند هذا الحد!

لاحظت نهير صمت رئيس التحرير المريب وتخاذله المعيب، وأحسست

بشبهة تواطؤ بينه وبين المطرب إياه، فكرهت كل المطربين ونقمت على
الفن والفنانين الأخيار منهم والأشرار، وطلبت نقلها من قسم الفن إلى قسم
التحقيقات عساها تهدأ نفساً، وتتخلص رويداً رويداً من ذكرياتها المؤلمة
وكان لها ما أرادت!

" منذ متى كانت الذئاب معنية بحراسة الحملان بدلاً من
التهامها؟ "

أحس عمر الشهابي بما يدور في نفس نهير السياجي ، واستشعر خيبة
أملها فيه ، لذلك طلبها لمقابلته في مكتبه ، وكان لطيفاً ودوداً معها إلى
أقصى درجة ، وإن كان يتعاشى النظر مباشرة إلى عينيها لأنه لمح فيهما
الغضب المكتوم ، واللوم المكنون وقال لها :

ـ لقد وافقت على انتقالك إلى قسم التحقيقات مراعاة لظروفك
النفسية ، وأتمنى أن تكوني أكثر جدارة بالعمل في هذا القسم خاصة وأن
قسم الفن يحتاج لمحتررين لا محررات حيث السهر لما بعد منتصف الليل ،
ومتابعة أخبار الفنانين والفنانات في البلاتوهات والكباريهات والسهرات
في الفنادق والكازينوهات والحفلات.
قالت نهير بتحد وعناد :

ـ أرجو أن توافق على أن يكون أول تحقيق صحفي أجريه عن التحرش..
وسوف يكون عنوانه.. " كلاب الشوارع "
ـ فكرة عبقرية ورائعة يا نهير.. وأنا موافق من حيث المبدأ على تنفيذها
لكن بشرط.

ـ شرط.. ما هذا الشرط؟

ـ أن يكون هذا التحقيق مدعماً بالدراسات والأرقام والإحصائيات ، ولا
تحدثين فيه عن أسماء أو حالات فردية طبعاً مفهوم يا نهير وأفضل
أن يكون عن التحرش في الوطن العربي بصفة عامة ، ومصر بصفة
خاصة.

أريد أن يكون هذا التحقيق على مكتبى على وجه السرعة يا نهير.
— أمرك يا أفندم.

انصرفت من مكتبه، وحالة الإحباط التى تسيطر عليها قد خفت حدثها وخفت وتيرتها، وإن كانت ترى أن تعرية المتحرشين وفضحهم أمام المجتمع هو الحل، والمطالبة بتشديد العقوبات على هذه الفئة الضالة لتصل إلى الإعدام.. هذه هى قضيتها التى ستدافع عنها وسوف تكسبها من خلال عملها فى قسم التحقيقات، ولحسن حظها كانت القاهرة فى تلك الأثناء تشهد أعمال مؤتمر "التحرش الجنسى والعنف الاجتماعى ضد النساء" الذى تشارك فيه ٢٢ دولة عربية بالتعاون مع المركز المصرى لحقوق المرأة العربية، وبرنامج الأمم المتحدة للسكان والأسرة لحماية حقوق النساء..

وبعد أيام معدودات عادت نهير السياجى لرئيس التحرير، وفى يدها التحقيق الجريئ المثير الذى كتبت فيه:

"المرأة العربية مهانة فى بلادها، جسدها مستباح، وكرامتها مهددة، وأنوثتها سر عذابها.. الرجال اعتبروها مثل لوحة نيشان يفرغون فيها طلاقات غرائزهم وكتبهم وضعفهم.. الذكور يعتبرونها لعبتهم المفضلة، ومن خلال التحرش بها يحاولون إثبات رجولتهم وفحولتهم المهذرة تحت أقدام حكامهم.. إختلف العرب فى كل شئ، واتفقوا على التحرش بنسائهم من المحيط إلى الخليج وبنفس الأساليب الوقحة".

وطالب المؤتمر بقانون موحد لتجريم التحرش، وتغليظ العقوبة لتصل للإعدام شنفًا على اعتبار أنه جريمة العصر فى بلاد العرب، والتى أعلنت أكثر من ٨٠٪ من نساء العرب من معاناتهن من هذه الظاهرة المخجلة! ورغم انتشار التحرش فى معظم الدول العربية فإن بلادًا قليلة فقط هى التى تبيحت لخطورته، وسنت القوانين لحماية نسايتها من الذئاب البشرية الجائعة بشراة اللحم أبيض،

وكان على رأس تلك الدول الجزائر التي أكد وفدها في دراسة علمية قدمها للمؤتمر أن ٢٧٪ من بنات الجزائر في الجامعات والمعاهد والمدارس تعرضن لمضايقات من الأساتذة والمدرسين وزملاء الدراسة، كما شكّا ٤٤٫٦٪ منهن من المضايقات اللفظية والإشارات الإباحية الصريحة.. بينما أفصحت ١٣٫٨٪ عن تعرضهن للمضايقات الجسدية.

وفي قطر نجد أن ٢١٫١٪ من الفتيات قد أفصحن عن تعرضهن لذات الأزيمة، وكذلك هناك ٣٠٪ من النساء العاملات قد تعرضن للتحرش في مكان عملهن من جانب الزملاء والرؤساء..

وفي السعودية يتعرض ٢٢٪ من الأطفال للتحرش من الكبار.. وتلك جريمة أخلاقية بشعة يجب بترها من جسد المجتمع العربي، وأشارت الدراسات والإحصاءات الرسمية في المملكة أنه في عام واحد وقعت ٩٨٠٠ جريمة أخلاقية كان منها ١٥٠٠ جريمة تحرش..

أما في اليمن فتجد أن ٩٠٪ من نساء هذا البلد الأفقر في العالم العربي والذي يطلقون عليه اليمن السعيد قد اشتكين من تعرضهن للتحرش سواء في أماكن العمل ودواوين الحكومة أو في الأماكن العامة..

وفي دراسة مهمة وخطيرة أجراها المركز المصري لحقوق النساء كشفت أن ٨٣٪ من النساء المصريات تعرضن بالفعل للتحرش بأنواعه المختلفة سواء التحرش الجسدي أو اللفظي أو بالإشارات والإيماءات والحركات والنظرات.

ومن خلال دراسة أجراها المركز المصري لحقوق النساء تحت عنوان: "غيوم في سماء مصر" أثبتت الدراسة أن ٥٩٫٤٪ من ضحايا التحرش شعرن بالغضب الشديد، كما أكدت أن ١٩٫٥٪ من النساء شعرن بالخوف والألم، وأنهن مهددات بالتحرش مجدداً في أي وقت بينما ١٢٫٩٪ شعرن بالإحراج والخجل، بينما أشارت الدراسة أن ٩٫٢٪ شعرن بالإكتئاب، في حين أن ٥٫٦٪ شعرن بالاضطراب والصداع والأرق والكوابيس المفزعة، كما نجد

أن ٣٪ عاتين أنفسهن على تعرضهن للتحرش، لأنهن يتحملن جزءاً كبيراً من المسؤولية كما أكدت الدراسة أن ٤١٪ من الأجنيبيات شعرن بأنهن تحت تهديد المتحرشين في كل مكان يذهبن إليه في مصر، وأشارت الدراسة إلى أن ٣٥٪ من الأجنيبيات قد شعرن بالارتياك، وعدم القدرة على التصرف ومواجهة المتحرشين!

وكشفت نتائج دراسة " غيوم في سماء مصر " أن ٤٣٫٧٪ من النساء أكدن أن تعرضهن للتحرش أثر بالفعل على حياتهن بشكل سلبي، وترى ٥٠٪ أن التحرش أثر بالسلب على ثقتهن في الآخرين، كما أكدت ٤٢٪ من عينة الدراسة أن التحرش انعكس على طريقة التعامل مع الآخرين..

وحول مدى إحساس النساء بصفة عامة بالأمان في الأماكن العامة، والخاصة كشفت الدراسة أن ٨٣٫٩٪ من النساء لا يشعرن بالأمان في الشارع، ووسائل المواصلات العامة، بينما ٢٧٪ من العاملات إعترفن بأنهن لا يشعرن بالأمان على أنفسهن في أماكن عملهن، ومازالت مصر كلها تتذكر الوزير الشهير الذي كان يتعاطى القياجرا يومياً كما يأكل ويتنفس، ويدخل مكتبه غرفة نوم كاملة مجهزة لممارسة الحب فيها مع موظفات وزارته، وقد ضاجعهن بالدور وعلى مدى خدمته في الوزارة التي تصل إلى ربيع قرن في تلك الوزارة السبادية المهمة المطلة على النيل واقع هذا الوزير الذئب عشرة آلاف موظفة، ولم يفرق بين محببة أو متبرجة.. مسلمة أو مسيحية، ولم يكن ينقصه سوى أن ينضم إلى موسوعة جينس للأرقام القياسية، وهو يستحق دخولها بجدارة!

وعندما تطايرت تقارير إلى الرئاسة تفيد إصابته بمرض الإيدز صدرت إليه الأوامر بالبقاء في بيته تحت الحراسة المشددة.

ومن مصر إلى سلطنة عمان التي أكد وفدها النسائي المشارك في المؤتمر بدراسة علمية أن التحرش منتشر في معظم المجتمعات الخليجية بصورة رهيبية ومن بينها السلطنة، وقسمت الدراسة هذه

الظاهرة إلى نوعين:

الأول: تحرش داخل الأسرة، وينتشر عن طريق زنا المحارم، كذلك التحرش من الخدم والسائقين والعمال داخل المنزل.

الثاني: التحرش خارج الأسرة وهو ينتشر أكثر في أماكن العمل والأسواق والمحلات التجارية والنوادي الترفيهية.

أما في اليمن وبالرغم من عدم وجود إحصائية دقيقة بعدد المتعرضات للتحرش فإنه لا يمكن تجاهل أو إنكار انتشار هذه الظاهرة المخجلة في مجتمعات كانت مشهورة في غابر الأزمان بالشهامة والمروءة والشرف وحماية النساء.. وترصد بعض الباحثات هذه الظاهرة في البلد الأفقر المكتظ بالسكان، والمنتشرة فيه الأمية بصورة تفوق الوصف أنها تحدث في الأماكن العامة حيث يقوم الذكور في وسائل النقل العامة، وفي الطرقات المزدهمة بالتعري، وكشف العورة لخدش حياة الإناث، وملامسة أجسادهن بالأيدي، والتصريح لهن بالصوت بالفاظ خادشة للحياء، والدعوة لممارسة الحب معهن جهازاً نهاراً، وبصورة علنية فجة جارحة، وكذلك ملاحقة النساء والفتيات، وتتبعهن في السيارات والشوارع والمحلات والنوادي ومحاولة النيل من أجسادهن، وهناك أيضاً تحرش رؤساء العمل وأصحابه بالموظفات والعاملات، واستغلال حاجتهن للمال وابتزازهن نفسياً وجسدياً!

ولا تتوقف هذه الظاهرة الشيعة في اليمن السعيد عند هذا الحد، بل تنتشر أيضاً في الحرم الجامعي بين الطلاب والطالبات، وكذلك ممارسة أعضاء هيئة التدريس في بعض الكليات ضغوطاً ضد الطالبات لإجبارهن على الرضوخ لهن، والانتقال من القاعات والمدرجات إلى غرف النوم، وتقديم أجسادهن رشوة كشرط لحصولهن على درجات كافية للنجاح في المواد والمناهج الدراسية.

بينما في المغرب، وحسب ما جاء في تقرير الوفد المغربي المشارك في

مؤتمر مناهضة التحرش بالقاهرة.. أن المغرب أصبح من البلدان المتورطة بالإتجار فى النساء لحساب متعة السائحين الأجانب، وقد شبهت السلطات المغربية للدعارة واستغلال الأجانب للأجساد الوطنية، وأدركت السلطات أن هذا عار على البلاد يجب مكافحته بشتى الوسائل ورفضوا شعار (فلنسقط ظاهرة السياحة الجسدية) وبالفعل فككت الحكومة المغربية ٢٨٠٠ شبكة دعارة أجنبية تستهدف الفتيات والنساء المغربيات، وبصفة خاصة القادمات من الساحل الصحراوى "

كان هذا هو الجزء الأول والأساسى من تحقيق نهر السياجى عن التحرش، أما الجزء الثانى، والمهم أيضاً فكان عبارة عن اعترافات مجموعة من الفتيات والسيدات تعرضن بالفعل لحالات متنوعة من التحرش، وسجلت اعترافاتهن بكل صراحة ووقاحة حيث كتبت فى تحقيقها الصحفى:

" خرجت إيمان طالبة كلية الآثار فى جامعة القاهرة من محاضراتها بمدرج الكلية لتفاجأ بما لم تتوقعه ولا يخطر لها على بال أبداً.. إذا بزميل لها يعزى نصفه الأسفل مع سبق الإجماع والتربص، وبدا عضوه منتفضاً منتصباً كمسمار صلب طويل مستقيم، وهو يضحك أمامها بجنون وهستيرية، فأصابها الذهول، ولم تنطق أو تحرك ساكناً، وبعد لحظات من الصدمة المروعة أخفت وجهها بيديها، وجرت فى الاتجاه الآخر حيث أطلقت ساقها للريح.. وروت حكايتها تلك على استحياء رغم مرور بعض الوقت على ما حدث لها قائلة:

" تعرضت لمعاكسات ومضايقات كثيرة لكننى لم أتوقع أن يحدث ذلك، وفى حرم الجامعة.. فقد شعرت بالامتناع والمر والذهول المثلث! "

أما منى فتروى حكايتها المثيرة للاشمئزاز والشفقة قائلة:

" كنت أسير فى أحد الشوارع المزدهمة بوسط البلد وفجأة اقترب منى شاب أصغر منى بكثير، وهو تقريباً فى الخامسة عشرة من عمره، وأخذ

يتلفظ بكلمات إباحية بذئنة، وعندما لم أجبه ولم أعره إهتماماً هجم على
فى لحظة خاطفة ثم احتضنى وقبلنى بعنفوان وحرارة ثم جرى فى الاتجاه
المعاكس بسرعة رهيبة وهو يصبح كالمجنوب.. قبلتها.. قبلتها.. قبلتها!
وتعترف سماح وهى طالبة جامعية يأخذى كليات جامعة عين شمس بما
حدث لها قائلة:

"كنت أسير فى شارع جامعة الدول العربية قبل غروب الشمس بقليل
وإذا بولد يركب دراجة يضربنى بكف يده من الخلف على مؤخرتى
بمنتهى الوقاحة والبجاجة، وقلة الأدب، ويفر من الشارع مسرعاً عائداً فى
الاتجاه الآخر وشعرت وقتها بلسعة الألم على مؤخرتى، وأحسست أيضاً
بالإهانة والاشمئزاز خاصة وأن بعض المارة شاهدوا ما حدث لى.. والحقيقة
أن بعضهم تعاطف معى، والبعض الآخر ضحك من الموقف الغريب الذى
تعرضت له أو بالأحرى الذى تعرضت له مؤخرتى على مرأى من الناس فى
الشارع!"

وتقول صفاء بغيظ ونقمة على جنس الرجال:

"كنت قد صعدت الميكروباص ذات يوم صيفى حار، وفى المكان
الخالى جئت أجلس فإذا بالرجل الجالس بجوارى يضع يده تحتى لأجلس
فوق أصابعه، وبمجرد أن لمست مقعدتى يده انتفضت وافقة وصرخت فى
وجهه!"

أما غادة وهى موظفة بوزارة الزراعة فتذكر تجربتها المريرة قائلة:

"فى أحد الأيام من خريف العام الماضى ركبت الأتوبيس المكيف
من مقر سكنى حتى مقر عملى، وبعد فترة قصيرة من تحرك الأتوبيس
وجدت يداً تمتد من الكرسي الخلفى لتتجسس منطقة حساسة من
جسدى، فتعركت بسرعة من مكانى، وتلفت خلفى مصوبة نظرائى
القاسية لصاحب اليد الأثمة فوجدته رجلاً فى السبعين من عمره أشيب
الرأس، لم تردعه شيخوخته ولا نهار رمضان فى ذلك اليوم المبارك من

الشهر الكريم، وأنا من المحتشمات في ملابسى ومظهري!"
فرغ عمر الشهابي رئيس التحرير من قراءة التحقيق المدهش، وبدأ
مسروراً مبهوراً لما يحتويه من تفاصيل مثيرة مؤثقة بالمعلومات والأرقام
والإحصائيات وأشر عليه بقلمه الحبر الأسود بكلمات موجزة حاسمة:
ينشر فوراً على صفحة كاملة.

وأثنى الرجل على نهير السياجى بحرارة قائلاً:
_ التحقيقات هي الأنسب لك يا نهير.. وعلى فكرة سوف أصرف لك
مكافأة كبيرة عن هذا الموضوع.. قرب ضارة نافعة.. أنت الآن المحررة
المناسبة في القسم المناسب.
شكرته بابتسامة باهتة وانصرفت راضية.

" عش في الدنيا .. ولا تجعل الدنيا تعيش فيك! "

كان آخر ما كتب عطا الهلالى فى الصحافة قبل اختفائه الغريب المريب ..
والذى لم يستطع الكثيرون أن يفسروه سوى بأنه حادث اختطاف مع
سبق الإصرار والترصد .. هذا المقال وكتبه تحت عنوان مصر المفروسة!
كتب يقول:

" الفقير والمريض فى بلدنا أفضل له ألف مرة أن يموت ، ويلقى بنفسه
فى أقرب مقبرة أو حتى خرابة " .. مقولة سمعتها كثيرًا وتؤكد صحتها
المبالغ الضخمة التى تتقاضاها وتطالب بها المستشفيات الخاصة فى
مصر المفروسة من أجل العلاج أو إجراء عملية جراحية ، وتؤكدها أيضًا
مستشفى مثل المستشفى الميرى الحكومية فى القاهرة ، التى لا يكاد
يمر يوم إلا ويدفعك حظك العثر أن تمر أمام بوابتها ، وتسمع الصرخات
والولولات من أهالى المرضى الذين يدخلونها أحياء ويخرجون منها فى
صناديق وعلى نقالات .. طبعًا أموات .. أموات طبعًا .. فكلما مررت من أمام
بوابة هذه المستشفى انقيض قلبى من هول ما أسمع ومن يشاعة ما أرى ،
ولمن لا يعرف المستشفى الميرى هى تلك التى تقع داخل مجمع الكليات
الطبية وهى الطب والصيدلية وطب الأسنان والعلاج الطبيعى التابعة لجامعة
القاهرة .. تلك مستشفيات الناس الغلبة التى تعج بهم مصرنا المفروسة ،
ويتدرب فى هذه المستشفى طلاب الامتياز بكلية الطب .. والآن عندي ثلاث
حكايات واقعية حدثت داخل هذه المستشفى الحكومى ..

الحكاية الأولى:

قالت لى صديقة عزيزة أنها كانت طيبة امتياز منذ ما يقرب من عامين
رأت بعينها ولو سمعت من أحد ما صدقت .. رأت كيف كانت الممرضات

يقمن بعملية التوليد للنساء الحوامل ، وفي البداية كانت هي وزميلاتها
وزملاؤها من طلبة الامتياز يقفون مذعورين في ركن هادئ داخل حجرة
قدرة سداح مداح تمر بها كل المخلوقات من البشر وحتى القطط التائهة
والكلاب الضالة ، وفيها أكثر من عشرة أسرة على كل سرير سيدة
تستغيث من الألم حيث تقوم الممرضة بعملية توليدها بطريقة بدائية
همجية ، وكأننا نعيش في العصر الحجري ولم تفارق زمن الكهوف بعد ،
وكانت هناك سيدة تصرخ من أوجاع الطلق.. بينما الممرضة تمطرها بوابل
من الصفعات على وجهها واللكمات في جسدها الواهن حتى تصمت
وتكف عن الصراخ ، وكأنها في حلبة مصارعة حريمى.. هل يمكن لعاقل
أن يسمى هذه عملية ولادة؟ إنها عملية إهانة ليس إلا.. وتخيلوا معي أيها
السادة أن طفلاً يولد في هذه الظروف وأمه تتألم وتتأوه من جعيم الولادة ،
وتتلقى الصفعات والركلات واللكمات في أنحاء متفرقة من جسدها..
كيف يكون حال الأم مع طفلها بعد ذلك؟

الحكاية الثانية:

سمعتها من رجل بسيط على باب الله ، فقد قال لى الرجل أن صديقاً
له من الناس ذهب بوالده إلى المستشفى الميرى الملعون ، وعندما وضعه
على السرير أشار له أحد المرضى هامساً.. فلما ذهب إليه قال له المريض:
لا تتركه هنا سوف يعطونه حقنه هواء في كعب قدمه لكي يموت في
الحال ، ويتخلصون منه لأن المكان كما ترى مزدحمًا للغاية فقرّر الرجل
أن يظل بجوار والده في المستشفى ليل نهار ليس هذا فحسب ، بل طلب من
أحد أصدقائه ، وهو ضخّم الجثة قوى البنيان أن يرافقه ليحميه هو ووالده
من القطة ملائكة الرحمة!

يا سبحان الله لم أكن أعرف أن حقنة من الهواء الذى نتفسه ، ولا
نستطيع الحياة بدونه إذا دخلت جسد الإنسان تقتله على الفور!
الحكاية الثالثة:

هي حكاية قديمة جديدة ، وأعتقد أنكم جميعاً تعرفونها ، وهي حكاية الممرضة عايدة التي اتهمت بأنها كانت تحقن المرضى بمادة سامة قاتلة في غرفة الإنعاش ، وربما كانت هي أيضاً ضحية ، وتنفذ تعليمات الكبار لأسباب مجهولة.. ولكن الغريب في الأمر أن الممرضة عايدة أثناء استجوابها ، والتحقيق معها قالوا إنها قفزت من أحد أدوار قسم الشرطة ، وأصيبت بكسور لكن الحقيقة هي أن عايدة لم تقفز بمزاجها ولا بإرادتها واختيارها فقد كان من وسائل استجوابها البشعة إلقتها من أعلى قسم الشرطة حتى تعترف على نفسها فقط ، ولا تجرؤ على ذكر أسماء أسياها الآخرين الذين خططوا بطريقة شيطانية لتلك الجرائم الجهنمية!

الطريف أن هذا المقال نشر بعد عدة أيام من اختفاء عطا الهلالي ، وبمجرد أن قرأه ناجي شرف الدين مزق الجريدة بجنون وهستيرية قائلاً:

— حرام عليك.. والله حرام عليك! هل هذا مقالاً تكتبه! هل تظن نفسك قادراً على إصلاح الكون والعباد والبلاد!

كل الدنيا تعرف ما يدور في هذا البلد.. وكل من يخاف على نفسه ، وعلى أولاده وأهله يلوذ بالصمت ، ولا يتكلم إلا الأغبياء.. فلماذا تكون أنت بالذات بين الأغبياء مع أنني أعرفك جيداً وأشهد لك أنك في منتهى الذكاء.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. من المؤكد أنهم لن يتركوك في حالك.. لابد أن أعداءك الآن أكثر من قرائك.. يارب سترك.. يارب أعداءه إلنا سالمًا آمناً.. يارب احفظه من كيدهم ونجه من تدبيرهم.. ثم بكى بحرقه وبصوت مسموع.

" الحياة كوميديا هزلية لمن يفكر.. وتراجيديا محزنة لمن يحس "

لا يدري لماذا تذكر هذا القول الحكيم للكاتب الرومانى القديم أوفيدىوس! صحيح أن لكل مجرم بصمة لكن بصمات المجرم لا تقتصر على الآثار التى تتركها أصابعه فى مكان الجريمة ، وإنما تشمل أيضًا الأسلوب الذى ارتكبت به الجريمة وطريقة التنفيذ ، وسلاح الجريمة وما يحيط بها من تأويلات.. فلا يوجد جريمة تظل غامضة للأبد... هذا هو العالم المثير المشوق الذى أبدعت فى تجسيده الكاتبة البوليسية العبقريّة أجاثا كريستى ، ونجحت باقتدار فى رسم ملامح دنيا الإجرام والمجرمين!

لقد اختفى الكاتب الصحفي عطا الهاللى بالقرب من منزله قبل أسبوعين بشكل مفاجئ ومثير للحيرة ، ولم يترك خلفه أى أثر يمكن تعقبه لحل لغز الاختفاء المريب لكاتب صحفي مرموق يشغل منصب مدير تحرير جريدة "مصر اليوم" واهتمت الحكومة المصرية بكشف لغز الاختفاء لدرجة أن وزير الداخلية ترأس بنفسه مجموعة من أكفأ ضباط الوزارة للبحث عن الصحفي المختفى.. هذا اللغز إن لم تجد له الشرطة تفسيراً سيتحول إلى كابوس يطارد كل الكاتب والصحفيين المصريين الذين قد يتعرضون للمصير نفسه ، من هنا لم تترك الشرطة احتمالاً إلا ودرسته ، وحققت فيه ومحضت ، وشمل هذا دراسة تفصيلية لحياة عطا الهاللى الخاصة ، وعلاقاته السوية وغير السوية ، السرية والعنيفة على كل المستويات ، حتى أن الشرطة بحثت عن إمكانية وجود علاقة سرية بينه وبين سيدة تدعى سامية نجأتى قد تكون هذه العلاقة هى سبب اختفائه المريب.. الأمر الذى لا جدال فيه هو أن الشرطة تؤمن بأن الشك يودى إلى اليقين.. ولها باع طويل فى كشف الجرائم الغامضة ، وفك ألغازها وحل

طلاسمها، ومن المؤكد سيتم إزاحة الستار إن أجلاً أم عاجلاً عن حقيقة غياب عطا الهاللى.

الكثيرون فى الوسط الصحفى، وخاصة رفاق القلم فى بلاط صاحبة الجلالة يخشون أن تنتهى التحقيقات إلى طريق مسدود، وأن يكون مصير عطا الهاللى مثل مصير "منصور الكيخيا" وزير الخارجية الليبى الأسبق الذى اختطف من أحد فنادق القاهرة، وتلاشت آثاره بصورة تدعو للحيرة، أو مثل مصير "موسى الصدر" الذى طار فى زيارة رسمية إلى ليبيا بدعوة من الزعيم الليبى معمر القذافى، ولم يخرج منها ولم يعرف أحد كيف كانت نهايته.. وأين اختفى؟ هل اغتالوه أم ساقوه إلى السجن المؤبد؟ هل غدروا به ثم ألقى به فى البحر.. أم دفنوه حياً فى الصحراء؟ العلم عند عالم الأسرار والمطلع على السرائر.. العلم عند رب العالمين..

الاحتمالات الشخصية واردة، وحاضرة بقوة فى هذه القضية بما فى ذلك احتمال أن يكون الأستاذ قد لقى مصرعه فى جريمة ساذجة من جرائم القتل التى تقع كل يوم.. لكن أين الجثة؟ هذا هو السؤال الصعب.. وإن كانت الاحتمالات الأخرى ذات البعد السياسى مازالت قائمة، وإلا ما معنى أن تطلب الحكومة المصرية رسمياً من "الانتربول" الدولى مساعدتها فى فك لغز اختفاء الكاتب الصحفى عطا الهاللى؟

إن خبراء البحث الجنائى لا يكتفون فى عملهم بالأدلة المادية لكشف الجرائم، وحل الألغاز، وإنما يلجأون أيضاً إلى الأدلة المعنوية بما فى ذلك دراسة بصمات المجرم التى تركها فى مسرح الجريمة، وأعى بها طريقة تنفيذ لجريمته، والتوقيت والهدف المحتمل من اختيار هذا الأسلوب ثم البحث عن الدوافع لاختيار الضحية من بين ملايين البشر، وها هم خبراء البحث الجنائى فى مصر يحاولون فى ظل غيبة الأدلة المادية، والشواهد الدامغة فك لغز وغموض الغياب السريالى غير المفهوم لكاتب صحفى كبير يشغل منصباً مهماً وحساساً فى جريدته.

بدأت الجهات الأمنية تراجع كل المقالات، والموضوعات الصحفية التي نشرها عطا الهلالى سواء داخل مصر أو خارجها قبل اختفائه بعدة أسابيع لعلها تصل إلى طرف خيط يقودها إلى جماعة أو جهة أو دولة قد يكون لها مصلحة فى اختطافه أو قتله، وهذا احتمال وارد خاصة فى ظل مجتمعاتنا العربية التي لا تحتتمل الرأى والرأى الآخر، ولا تطبيق الخلاف أو الاختلاف فى وجهات النظر، وترتفع النسبة إلى أقصاها فى بعض الدول التي تحكم رعاياها بالحديد والنار.. مثل تونس والمغرب واليمن وليبيا والأردن وسوريا.. لكنها ثقل وقد تتلاشى فى دول تتمتع بخطأ أوفر من حرية التعبير مثل مصر التي تكاد تكون الدولة الوحيدة بعد لبنان التي تنتشر فيها مقالات صحفية ضد رئيس الجمهورية شخصياً دون أن يعاقب كاتب المقال أو تجازى الصحيفة بالإغلاق أو يتعرض الصحفي للسجن خلافاً لما هو موجود فى البلدان العربية الأخرى حيث يسود قانون يسمى "التطاول على الذات الملكية" وهو القانون الذي تم بموجبه الزج بالعم، وأشهر شخصيه سياسيه فى الأردن إلى السجن مرتين إنه "ليث شبيلات" لا لشيء إلا لأنه تطاول على اسم الملكة نور والملك عبد الله فى محاضرة ألقاها بإحدى الجامعات الأوروبية!

التاريخ يثبت أنه حتى فى زمن الملك فؤاد والملك فاروق، وبل وزمن عبد الناصر لم نسمع أن صحفياً مصرياً اختفى، أو تلاشى هكذا بدون سبب.. صحيح إن هناك اعتقالات وقعت فى صفوف الصحفيين والكتاب، لكنها كانت اعتقالات مبررة بالنسبة للنظام حيث وجهت للمعتقلين اتهامات بالانتماء لأحزاب أو منظمات سياسية، وتنظيمات معطوبة بعضها كان يسعى لقلب نظام الحكم.. لكن لم يحدث أبداً أن اختطف صحفياً أو اختفت آثاره حتى فى أحلك الأوقات، وأكثرها حرجاً فى تاريخ مصر، فكيف يمكن أن يحدث ذلك فى وقتنا الحالى؟

هذا يقودنا إلى العامل الخارجى الذى حاول إدخال هذا الأسلوب

فى التعاطى مع الخصوم إلى حياة المصريين سواء كانوا صحفيين أو سياسيين.. إن ما حدث للكاتب الصحفي عطا الهاللى يقودنا إلى ما حدث فى رواية بوليسية شهيرة لأجاثا كريستى اسمها " الرسالة الغامضة " تحمل ملامح متشابهة مع عملية اختفاء عطا الهاللى.

وذات الأمر يقودنا أيضًا إلى مثل مصرى شائع يقول:

" اضرب الطويل.. يخاف القصير "

وعطا الهاللى هو الطويل فى الصحافة المصرية فهو صحفي كبير تملأ كتبه المكتبات، ومقالاته الصحفية تحرك الصخر، وتثير الجدل فى الأوساط السياسية، والإعلامية، وهو نجم مفوه فى القنوات الفضائية لا يخاف فى الحق لومة لائم!

مرت الشهور وأجهزة الأمن تنقب وتفتش، وتبحث وتمحص دون أن تصل إلى شئ.. ولم تعلن أن المخابرات الأجنبية أو العربية هى التى اختطفته، ولم تثبت أنه راح ضحية خصومة شخصية أو نزوة نسائية.. ظل الأمر غامضًا مجهولًا مريبًا، ولا يتعدى مجرد ملف مهم على مكتب وزير الداخلية، ومجموعة صور ومعلومات لا تقدم ولا تؤخر على الإطلاق، وتحول صاحب اللغز إلى رقم فى أرشيف وزارة الداخلية وأجهزتها الأمنية، يحمل الملف العديد من المعلومات من بينها أنه تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك، وخلال دراسته هناك تغيرت قناعاته الفكرية من التأثر بالفكر الماركسى لتقترب من الليبرالية ذات التوجه العلمانى، لكن توجهاته الليبرالية لم تمنعه من توجيه سهام النقد لليمين الأمريكى المسيحى، والمحافظين الجدد.. وبرغم انتقاد عطا الهاللى للعلاقة الوثيقة بين واشنطن، وتل أبيب إلا أنه كان من المؤيدين للسلام بين العرب وإسرائيل، وهو الموقف الذى أثار حفيظة معارضى التطبيع ضده، وخاصة من التيارين القومى العربى والإسلامى، وبعد مرور خمس سنوات على إسدال الستار عن اختفائه وإغلاق أجهزة

الأمن ملفه نهائياً ، فجر شقيقه مفاجأة مدوية نشرتها كل الصحف آنذاك حيث أعلن أنه تلقى معلومات من أحد ضباط سجن برج العرب بالقرب من مدينة الإسكندرية تفيد بأن عملا الهلالي محتجز بالسجن!

أما المفاجأة الأكبر فهي أن وزارة الداخلية نفت هذا الأمر جملة وتفصيلاً. وأكد مدير الإعلام بالوزارة أن هذه المعلومات عارية تماماً عن الصحة!

مرت سنوات على غيابه ، ومازال ناجي شرف الدين ينتظر عودة أستاذه ، ويتوق لرؤيته والسهر معه ، والاستمتاع بحلو حديثه ، والنيل من فيض ثقافته الموسوعية!

" حتى الوحوش الضارية فى البرارى تتألم لفراق صغارها! "

فى الوقت الذى كان ينتظر فيه الجميع مفاجأة تفك طلاسم اختفاء الكاتب الصحفي عطا الهلالى ، فوجئ أفراد أسرته بوصول خطاب من مجهول يؤكد أن الهلالى لا يزال على قيد الحياة ، وأنه بخير وأقسم كاتب الخطاب أنه شاهده فى منطقة " أرض اللواء " قرب حى المهندسين بالقاهرة..

وسلمت الأسرة المكلومة الخطاب إلى أجهزة الأمن التى قامت بفحصه ، ومحضه وتتبع مساره للوصول إلى الشخص الذى قام بإرسال الخطاب ، وحقيقة ما جاء فى هذا المكتوب من معلومات ، وقال مصطفى الهلالى الشقيق الأصغر لعطا والذى يعمل مدرسًا للمواد الاجتماعية بإدارة ميت غمر التعليمية :

الأمّل فى عودة عطا إلى أهله ومحبيه وعمله وزملائه لا يزال كبيراً ، وجميع التكهنات مفتوحة ، وقائمة.. لكننا كأُسرة لنا عتاب على بعض زملائه من الصحفيين الذين راحوا يخوضوا فى سيرته عن جهل ، وينهشون لحمه وسمعته دون إلمام بحياته الشخصية وظروفه الإنسانية ، وتحدثوا عنه بما يحمل إساءة كبيرة إليه رابطين بشكل عجيب ، ومريب غيابه بحياته الخاصة وزواجه الفاشل من نجمة سينمائية شهيرة ، وخيانتها له مفضلة عليه ممثل شاب ، وأشاعوا أنه شهريار الصحافة وله علاقات غرامية سرية متعددة ، وأضاف شقيقه قائلاً :

ما أغضبنا أكثر هو الربط بين اختفاء عطا الهلالى ، وبعض قصص الاختفاء الأخرى التى كان أبطالها شخصيات كانت موافقها تثير عداوات لجهات ودول ومؤسسات مختلفة ، وهو ما لا ينطبق أبداً على شقيقى عطا الذى كان حريصاً على الدعوة للحرية والديمقراطية ، وحقوق الإنسان

ومحاربة الفساد بشتى صورته، وأشكاله دون تعمد الإساءة لأحد، ولم يكن يستخدم أى سلاح فى كل معاركه سوى قلمه الشريف وحبره الطاهر النقى.

وأكد مصطفى الهاللى بما لا يقبل مجالاً للشك عدم صحة ما قاله بعض زملاء شقيقه من الصحفيين، والإعلاميين من أن حالته المزاجية كانت على غير ما يرام قبل اختفائه بأيام، وأشار إلى أنه زار شقيقه، وقضى معه يوماً كاملاً قبل يومين فقط من غيابه، ووجد حالته النفسية والمعنوية طيبة، ولم يكن هناك ما يعكر صفوه! عطا الهاللى لم يختف فى صحراء مصرية مترامية الأطراف.. عطا الهاللى اختفى فى قلب القاهرة أكثر مدن العالم ازدحاماً، وآخر مكان شوهد فيه هو شارع القصر العينى، فى وسط الزحام وفى عز النهار.. إن مرور كل هذه الشهور دون العثور عليه تعد مؤشراً خطيراً.. والسؤال الذى يتردد الآن بين الجميع، وبصفه خاصة فى الأوساط الصحفية والثقافية، وكل التجمعات الإنسانية ومنظمات وجمعيات حقوق الإنسان هو.. أين اختفى عطا الهاللى؟ وهل ما زال على قيد الحياة أم أن الأرض فتحت فمها وابتلعتها فى بطنها؟ إن اختفاء إنسان فى مصر ظاهرة غريبة وجديدة لأن أم الدنيا ليست قرغيزستان.. إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق فى وسط آسيا، وقد عانى سكانها كثيراً من الحكم الشمولى القمعى، وتنفسوا الصعداء بعد انهيار الشيوعية، وانفصال بلدهم كدولة مستقلة تسعى للحرية والديمقراطية، وكانت المفاجأة أن الأنظمة التى تولت السلطة فى قرغيزستان عقب الاستقلال لم تكن تختلف كثيراً فى سياساتها المعادية للحرية، وميلها لقمع المعارضين، والتكيل بمخالفاتها فى رأى بوحشية ربما تتجاوز حتى ما كانت تفعله المخابرات السوفيتية السابقة "KGB".. وتحدث وسائل الإعلام العالمية هذه الأيام عن جريمة بشعة ارتكبتها أجهزة الأمن فى قرغيزستان، وراح ضحيتها الصحفى البارز "جينادى بافلوف" الذى توجه زوار الفجر إلى غرفته بأحد فنادق المائات العاصمة التجارية لدولة كازاخستان المجاورة حيث كان فى رحلة عمل، ورافقه إلى الخارج، وبعد ساعتين تم إلقاؤه

من الطابق السادس بأحد المباني المرتفعة، وعثر على جثته مقيدة اليدين والقدمين.. كان جينادي بافلوف يبلغ من العمر ٤٠ عامًا، وهو أب لطفلين ويعمل رئيس تحرير الطبعة المحلية التي تصدر في قرغيزستان لصحيفة "براذا" الروسية، وقد عرف بتأييده لرئيس البرلمان السابق عمر ثيكاييف الذي يقود المعارضة في بلاده، وكان بافلوف من أشرس المناهضين للفساد والفسدة، ومن أقوى المطالبين بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ورغم أن حكومة قرغيزستان نفت تمامًا مسؤوليتها عن اغتيال الصحفي الشهير إلا أن المعارضين لنظام الرئيس كرمان بكاييف يؤكدون أن هذه الجريمة تأتي في إطار حملة قمع، وتصفية جسدية شملت الكثير من رموز المعارضة في البلاد، وخلال الأسابيع الأخيرة تعرض أستاذ جامعي، وصحفي كبير وأحد المسؤولين السابقين الذين انضموا إلى المعارضة لإعتداءات بالضرب الوحشي من مجهولين قساه غلاظ يرجح أنهم من أفراد الأمن، وقيدت جرائم الاعتداء هذه ضد مجهول تمامًا مثل اغتيال الصحفي اللاحق جينادي أفليوف) وتتهم المعارضة في قرغيزستان نظام كرمان بكاييف الذي تدعمه الولايات المتحدة الأمريكية بتوجيه ضربات متلاحقة للديمقراطية، وقمع الحريات منذ توليه السلطة قبل عدة سنوات، وهو ما عرضه لانتقادات مريرة من جانب المنظمات المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان خاصة في أعقاب اغتيال الصحفي الشهير اليشر سايبوف بإطلاق الرصاص عليه أثناء انتظاره لسيارته أمام مقر جريدته في وسط النهار، وفي ميدان مزدحم بالمارة والسيارات.. وقد وجهت الولايات المتحدة الأمريكية أصابع الاتهام في ذلك الوقت إلى حكومة قرغيزستان، ووصمتها بتهمة انتهاك حقوق الإنسان، فما كان من الرئيس كرمان بكاييف إلا أن هدد باغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية في بلاده..

لكن ظل السؤال يتردد صداه المدوي، وألف علامة استفهام واستفهام.. أين اخفى عطا الهلالي؟ هل مات غدراً واغتيلاً؟ وإذا كان هذا مصيره.. فأين الجثة؟

"قد يبدو للناس أنهم مسحوبون من الأمام، والواقع أنهم مدفوعون من الخلف"

فى هذا اليوم بالذات أدرك ناجى شرف الدين بما لا يقبل الشك أن الأتم شرط أساسى من شروط العبقرية ، بمجرد أن وصل صالة التحرير بمؤسسة " الأيام " شعر بأن هناك جلبة غير عادية ثم دق جرس الهاتف فى الصالة ، فإذا بمدير مكتب رئيس التحرير يسأل عنه ليبلغه بأن الأستاذ عبد العليم طابع رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير يطلب منه أن يعد موضوعاً صحفياً للنشر غداً فى صفحة الأدب والثقافة عن الكاتب والروائي الإنجليزي الشهير " إيريك سيغال " الذى رحل عن عالمنا اليوم.. وعلى الفور هرول ناجى شرف الدين إلى الأرشيف ، وكانت تديره امرأة خمسينية العمر هادئة طيبة تدعى " هنية " وتعامله بود وترحاب غير عادى وحنان كأم رؤوم ، ساعدته قدر استطاعتها وجاءته بملف فيه بعض قصاصات الصحف ، والمجلات التى تتحدث عن الكاتب والأديب العملاق باقتضاب.. خرج من الأرشيف ، وقد كتب سطوراً قليلة عن " سيغال " لكنها لا تكفى على الإطلاق لكتابة موضوع صحفى يرضى تطلع رئيس التحرير، وجاءته فكرة عبقرية.. فكرة يضرب من خلالها ثلاثة عصافير شاردة بحجر واحد.. وعلى الفور نفذها.. قام بزيارة سريعة لأستاذه جلال الفيطانى وزوجته شادية فى منزلهما ، وفى غرفة الفيطانى المسجى بسلام على فراشه بلا حراك سوى رموش عينية ، بلا كلام ولا سلام.. تبسم بود صامت فى وجه ناجى الذى همس له قائلاً: يا أستاذى أريد عونك ومساعدتك.. طلبوا منى فى المؤسسة أن أكتب موضوعاً على وجه السرعة عن " إيريك سيغال " الذى وافته المنية اليوم إثر أزمة قلبيه بعد صراع طويل مع المرض.. انفجرت أسارير الأستاذ ، ولمعت عيناه ، واستعاد من ذاكرته كل تاريخ هذا الأديب العالمى ، وأشار جلال

الفيطاني لناجى بأن يعطيه الورقة والقلم ، وعلى الفور بدأ الرجل المسجى فى فراشه بين الحياة والموت.. ويبد مرتجفة مرتعشة ، وبحروف متناثرة متباعدة مهتزة ، ويسطور مائلة متراقصة كتب:

" إريك سيجال هو الروائى ، وكاتب السيناريو الشهير ، ومؤلف الرواية الخالدة " قصة حب " التى حققت أعلى نسبة مبيعات فى العالم قبل تحويلها لفيلم سينمائى بطولة رايان أونيل.. الفيلم حقق نجاحاً مذهلاً ، وحصل على الأوسكار ، وشاهده الملايين فى أرجاء المعمورة ، وخرجوا من دور العرض وقد بللت الدموع وجوههم حزناً على موت البطلة ، واعجاباً بقصة الحب التى ربطت بين قلبى البطل والبطلة.. ولد سيجال لأب حاخام يهودى فى ١٦ يونيه عام ١٩٣٧ فى مدينة نيويورك ، درس الأدب والشعر فى جامعة هارفارد ، ونال الدكتوراه عام ١٩٦٥ فى الأدب المقارن.. عمل سيجال أستاذاً للأدب الكلاسيكى فى جامعتى بيل وهارفارد وعمل كأستاذ زائر فى جامعات ميونيخ وبرينستون ، وله مقالات عديدة فى الأدب اليونانى القديم ، والأدب اللاتينى.

وفى عام ١٩٦٨ شارك سيجال فى كتابة سيناريو فيلم " الفواهة الصفراء " لفريق البيتلز ، وفى عام ١٩٧٠ كتب سيجال واحدة من أروع قصص الحب فى العالم ورشح الفيلم المستوحى من الرواية لسبع جوائز أوسكار من ضمنها جائزة أفضل سيناريو... لكنه فاز بجائزة أفضل موسيقى تصويرية والتى ألفها الموسيقار الفرنسى المتألق فرانسيس ليا.

جسد سيجال من خلال تلك الرواية قصة شاب ، وفتاة يتصفان بالبساطة وحب الحياة ، والبعد عن العقد النفسية ، ويمألاً قلبيهما أحاسيس الغرام الجياشة.. هاتان الشخصيتان هما أوليفر طالب الحقوق الوسيم الثرى ، وجنيث الفتاة الرقيقة الجميلة الفقيرة ، وسرعان ما تتوطد علاقتهما وتتوحد مشاعرهما ، ويقرر أوليفر الزواج من حبيبته بغض النظر عن الفارق الاجتماعى ، فيذهب بجنيث إلى قصر أبيه فلثاً منه أن والده سيبارك هذه

الزيجة ، لكن يخيب أمه ، ويرفض والده الارتباط بعائلة متواضعة ، وتدور مشاحنات ومناقشات حامية الوطيس بين الأب والابن ، ويصر أوليفر على المضى فى طريق الحب منصتاً إلى صوت القلب ساعياً للزواج من جنيثر ، وفى المقابل يبدو الأب صلياً عنيقاً لا يلين ، ولا يتزعزع عن موقفه بل يهدده بحرمانه من ثروته!

استطاع سيجال أن يجسد لنا من خلال رائعته الأدبية " قصة حب " مشاعر إنسانية راقية من الحب والرومانسية بين العاشقين ، ولكن ذلك الحب الفياض جاء ما يعكر صفوه حيث فوجئ أوليفر ذات يوم بأن شريكة عمره ، وحبيبته التى ضحى بكل شئ من أجلها مصابة بالسرطان اللعين ، فيقرر الذهاب ليستجد بوالده الذى أعطاه شيكاً بالمبلغ الذى طلبه دون أن يوضح له أن زوجته مريضة بالداء القاتل ، وتهرول الأيام وتموت جنيثر بين أحضان حبيبها الذى تملكه الحزن وكسره الأسى ، فيذهب إليه والده معرباً عن ندمه وأسفه وآسائه ، ويواصل أوليفر حياته ويصبح محامياً ناجحاً لكنه لم يعثر على الحب الذى افتقده مع فقد محبوبته ، ويظل محطماً القلب دافع العين وفيماً لحبه الضائع!

وفى عام ١٩٧٧ كتب سيجال الجزء الثانى من روايته " قصة حب " بعنوان دال ومؤثر " قصة أوليفر " تابع فيها مسيرة بطله بعد رحيل حبيبته ومعاناته من جراح الوحدة ، ووحشة الفراق.. وفى خلال عام واحد سارعت هوليوود إلى تحويل الرواية لفيلم سينمائى.. لكنه للأسف الشديد لم يلق النجاح المأمول الذى حصده الجزء الأول.. وفى عام ١٩٨٥ كان على موعد مع الحظ من جديد حيث حققت روايته " الفصل " إيرادات عالية وغير متوقعة ، وأحداث هذه الرواية مستقاة من حكايات وقعت بالفعل فى أحد الفصول بجامعة هارفارد ، وقد حازت على العديد من الجوائز من فرنسا وإيطاليا ، وقد حققت روايته " الأطباء " نسبة مبيعات تفوق الخيال وهذه الرواية تعد بحق تحفة فنية وأدبية.

أصيب سيجال على مدى ثلاثين عامًا بمرض الشلل الرعاش الذي جعله يفقد نشاطه وحيويته، وقدرته على الكتابة والإبداع، ولكنه ظل يقوم بالتدريس في الجامعات المختلفة.

وقالت ابنته فرانشيسكا الصحفية، والناقدة الأدبية أنه ظل يناضل بإصرار شديد وعزم أكيد من أجل أن يتنفس الحياة، ويعيش كل ثانية من عمره خلال الثلاثين عامًا التي رُضخ فيها لمشئنة السماء رهن المرض، وتحت رحمته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وصعدت روحه الطيبة إلى ربها عن عمر يناهز ٧٣ عامًا.

عاش سيجال ومات في لندن وسط زوجته كارديني وابنتيه فرانشيسكا وميراثدا.. تاركًا للعالم قصة حب لا تنسى ولا تتكرر!

كان ناجي شرف الدين مذهولاً مذهوشاً من قدرة جلال الفيطاني الذهنية، وعقله الذي يعمل كما لو كان "كمبيوتر" بشري.. الجسد عاجز تمامًا عن الحركة بينما العقل في قمة النشاط والتألق والتوهج.

طبع ناجي قبلة دافئة على جبين الأستاذ الفيطاني، وقبلة أخرى على يده اليمنى التي كتب بها، وطار بالموضوع إلى مؤسسة "الأيام" وهو في غاية الدهشة الممزوجة بالإعجاب والفخر والامتنان للرجل، والتقدير لذاكرة أستاذه وألمعيته، وعبقريته رغم إرادة الجسد العاجز عن مجازاة العقل الهائج اليقظ المتأجج العاشق للحياة!

...

" الصحافة الآن لا تقود الشعب، بل تجرى وراءه! "

تسلم ناجي شرف الدين عمله الجديد في مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر حلمه الكبير الذي استعصى عليه في البداية.. وبعد محاولات يائسة كثيرة سلم بالقضاء والقدر واستسلم للمكتوب في صحيفته العليا عند رب الدنيا، ولكن الفرصة جاءت تسعى هذه المرة على طبق من ذهب، ودون أن يسعى إليها، جاءت من حيث لا يحتسب على الإطلاق.. هكذا هي الدنيا يظل المرء يجري وراءها فلا تأتبه بل تتمنع عليه، وفجأة تقبل عليه بحماس، وتأتبه هرولاً في الوقت الذي يكون قد نسبها وطلقها طالقة بائنة.. تلك هي الدنيا.. غانية لعبوب مثل أنتى متمردة عنيدة تهوى العبث وتحطيم القيم، والتقاليد ومبارزة الأخلاق والمبادئ!

وبمجرد أن علم عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة، ورئيس التحرير بأن الفتى سلم عمله بالمؤسسة أعطى على الفور أوامره للسكرتاريه بمكتبه أن يرسلوه إلى الكاتب الصحفي جلال الغيطاني وزوجته شادية الجندی، وهما المسئولان عن القسم الأدبي بجريدة " الأيام " لكي يكون تحت التمرين، والاختبار قبل أن يستعين به في كتابه مقالاته الافتتاحية في الجريدة اليومية، والاصدارات الأخرى المتعددة التي تقدمها المؤسسة لقرائها من جرائد، ومجلات متخصصة في الفن والرياضة والسياسة والأدب والسينما والانترنت سواء كانت اصدارات أسبوعية أو شهرية أو دورية.

استقبله جلال الغيطاني بحب وترحاب وود وحيور كأنه يعرفه منذ عشرات السنوات.. بدا له الرجل من النوع المألوف الحبوب فهو أسمر الملامح لهجته صعيدية محببة للقلب والأذن.. قصير القامة.. نحيل الجسد.. ضيق العينين، أصلع الرأس يتجاوز العقد الخامس من عمره بقليل، ويرتدى

ملابس بسيطة للغاية عبارة عن قميص أبيض فيه خطوط زرقاء ، وينطلون
أسود وحذاء أبيض ناصع ، ويدخن طوال الوقت بشراهة كما لو كان ينتقم
من نفسه.

وأثناء اللقاء بينهما دخلت امرأة بيضاء ملفوفة القوام عسلية العينين في
الخمسين من عمرها وعلى وجهها طيبة وبشاشة ، وابتسامة عريضة..قدمها
الغيطاني لناجى قائلاً:

— الأستاذة شادية الجندي الكاتبة الصحفية المرموقة في مؤسسة الأيام
وفي نفس الوقت زوجتي ، وأم بناتي في البيت طبعاً..
ثم أشار ناحية ناجى قائلاً:

— ناجى شرف الدين موهبة صحفية واعدة.

لقد كنت دائماً تتمنى يا جلال أن يكون لنا ابنًا.. ها هو جاءك ناجى.
تبسم الرجل قائلاً بعد تهيدة عميقة:

أحمد لله على ما رزقنا.. لقد وهبنا رب العالمين أربع زهرات يانعات
جميلات..هن الآن آيات في التدين والخلق الرفيع والتفوق ، وهن الأوائل
دائماً في دراستهن.

وبالفعول مضت الأيام والأسابيع مهرولة مثل تسابق الخيول في صحراء
شاسعة وناجى شرف الدين في غاية الارتياح ، تغمره السعادة بعمله الجديد
في القسم الأدبي بجريدة الأيام تحت رعاية جلال الغيطاني وزوجته شادية
الجندي ، وكثيراً ما وجها إله الدعوة لزيارتهم في البيت لتناول الغداء
أو العشاء معهما ، وكان جلال الغيطاني يحب أن يقول عنه إنه ابنه الذي
لم ينجيه من صلبه.. وصار الغيطاني وزوجته وبناتهما وناجى كأنهم أسرة
واحدة.. وكثيراً ما تمنى شادية أن يكون ناجى من نصيب ابنتها الكبرى
رقية التي تدرس في السنة النهائية بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وتحدثت
مع زوجها في هذا الأمر فرحب الرجل بالفكرة قائلاً بغفوية:

— أتمنى ذلك.. لكن كل شئ قسمة ونصيب، ولا أحد يدري ماذا تخبي
الأيام.

قالت:

— يا رجل.. اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك! كما يقول المثل القديم.

— هل تريدني متى أن أفاتحه في الموضوع يا شادية؟

— ولم لا يا جلال؟ أنا أشعر أنه يميل نحو البنت، وهى كذلك.. وقد
يكون يحبها فعلاً، ولا يجرؤ على البوح بسر قلبه لأنه فى بداية حياته
الصعفية، وظروفه المادية ليست على ما يرام.

وبعد هذا الحديث العائلى الحميم عن زواج البنات، وناجى والمستقبل،
وقبل أن يشرع جلال فى فتح هذا الموضوع مع ناجى شرف الدين حدثت
المفاجأة التى لم تكن أبداً فى الحسيان.. صدمة كبيرة قلبت حياة
هذه العائلة رأساً على عقب.. كانوا جميعاً قبل حدوث المفاجأة المروعة
يعيشون حياة هادئة هائلة مستقرة دافئة يملؤها الإيمان والحب فى الله،
ولله والإقتداء بنبيه، والسعى فى خدمة المحتاجين والفقراء والمساكين..
جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى لهما من زينة الحياة الدنيا أربع
زهرات رائعات يانعات يا فعات.. الزوجة مثلاً يحتذى به فى الإخلاص والوفاء
والزهد.. وتحرص على الحضور بانتظام فى أحد المراكز الدينية لتعلم
أصول الفقه والتجويد وتفسير وحفظ القرآن الكريم، ومن شدة تدينها
وإخلاصها لربها ولزوجها سألتها ذات مرة قائلاً:

ماذا تفعلين لو تزوجت عليك يا شادية؟

تبسمت ببشاشة وقالت ببساطة:

— إن من هو خير منك ومن الرجال جميعاً تزوج على من هى أفضل منى
ومن النساء جميعاً.. حبيبى رسول الله وهو القدوة للناس أجمعين.

كانت شادية الجندى صوامة قوامه تراعى ربها فى كل شئون حياتها

حتى جاء ابتلاؤها على قدر عزيمتها ، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وكانت تردّد دائماً.. إن أكثر الناس ابتلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل كما قال النبي الحبيب ، وما سمعت عن مثله ابتلاء بين البشر في زماننا هذا.. وقع الزوج ولم يسقط.. غاب جلال الشيطاني الكاتب الصحفي والأديب المرموق ولم يمت!

نامت جوارحه ، ولم تغفل نفسه أو روحه.. هذا الجسد ولم تسترح الروح ولم ينم العقل ، كان متوهجاً والجوارح متيقظة وثابة.. بدا الشيطاني الإنسان كما لو كان أيوب هذا الزمان.. عاش جلال الشيطاني على هذا الحال خمس سنوات.. ظل خلالها راقداً لا يفارق فراشه.. هذا الزوج الطيب والأب الحنون الصحفي والأديب الصادق الوفي لقلمه وأهل بلده يفتح عينيه حيناً ويفمضهما أحياناً.. لا ينطق ولا يتقلب ولا يحرك ساكناً ، ولا يدرى الأطباء أيشعر بما يدور حوله أم لا بعد أن أتلفت الجلطة مخه ، ولم تتلف روحه أو تهلك نفسه فكانوا يرجعون أنه لا يشعر على الإطلاق.

خمس سنوات مرت ، وهذه الزوجة الصابرة الصامدة تقلبه في الفراش كل ساعة تقريباً حتى لا تصيبه قرحة الفراش فتزداد آلامه.. مما أثار عجب الأطباء فقد كانوا لا يصدقون أن هذه حالة الجسد الساكن خمس سنوات من فرط نظافته وطهارته وسلامته.. خمس سنوات وهي تذهب به للاستحمام والإغتسال.. خمس سنوات وهذه الزوجة تعمل ليل نهار بدأب وتفاني في البيت ، وفي المؤسسة ثم تعود منهكة ومع ذلك تحكي لزوجها بحب كل ليلة قبل أن ينام أحداث اليوم كله ، تسرد عليه مشكلات البنات ، وأعباء الحياة ، وتقسم بأنه يشعر بها برغم أن الطب لا يعترف بذلك ، لكنها متأكدة من أنه يسمع ويحس ويفكر.. اعتبرته يؤدي طوال خمس سنوات صلاة التأمل ، ودموع عين الزوج الغليل تنساب على خده في كبرياء رجل مهزوم كسره سيف المرض ، وتشهد دموعه النسخة الساخنة التي تنساب على وجهه ، وهي تحكي له مثل شهرزاد ، وهو بين يديها أنه

ما زال ينبض بالحياة بكل ما فيها وما لها وما بها.. ورغم كل هذا كانت تمارس شادية الجندي مهنتها كصحفية على خير وجه وتؤدي مهامها كام على أفضل ما يكون، ولم تتوقف يدها البيضاء عن تقديم مساعداتها، ومشاركاتها للمحتاجين والغلبة، والفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، وكانت تجمع أموال الزكاة، والصدقات لتعيد توزيعها على المساكين.

خمس سنوات بلا كلل ولا ملل ولا شكوى.. لم تئأس من شفائه، وما قصرت أبداً ولا تهاونت على الإطلاق في حق الزوج الغائب الحاضر.. الميت الحي.. ودائماً كانت تقول لكل زملائها وزميلاتها في مؤسسة الأيام للصحافة حينما يسألونها عن الزوج والزميل العزيز:

سيعود يوماً إلى الحياة.. سيعود يوماً إلى عالمنا.. أنا واثقة ومتأكدة من ذلك بقدر ثقتي في وجوده على قيد الحياة بينكم.

خمس سنوات من الصبر والمثابرة، والأمل والألم والدموع والابتسامات حتى رحل عن الدنيا.. سعدت روحه إلى بارئها منذ أيام، وتوقف الجسد الطيب الناهر عن الحركة.. تلك مشيئة السماء، ومصير محتوم لكل حي يدب على الأرض.

ذهبت شادية إلى أمها المريضة لتواسيها في زوج ابنتها، وتصلي لله تدعوه وتستجديه برجاء حار أن يغفر لها ويتغمد زوجها برحمته، ويكون مثواه جنة الفردوس ويسامحها إن كانت قد قصرت في رعايته، والاهتمام به والترويح عنه والسهر على راحته، والقيام على علاجه مما ابتلاه به رب الأرباب سبحانه في علام.

و ذات يوم كان ناجي شرف الدين يحكي عنها مع زملائه في المؤسسة وتحديداً في صالة التحرير.. قال عنها بإعجاب وحب:

لا أعرف إن كانت هذه السيدة من البشر.. أم نحن الذين لسنا بشراً..؟ إنها زوجة مؤمنة محبة مخلصه إلى أبعد درجات الاخلاص، ووفية وفاء

القديسات.. لم تضعف أو هكذا خيل لى ، ولم تتنصل فى لحظة من لحظات محنتها الزوجية لشريك حياتها ، ووالد بناتها ، وما سمعت أنها شكت أو تلملت فى لحظة من اللحظات ، بل دائماً رأيتها هادئة مستبشرة حتى وقتنا هذا.. بدت كأنها السيدة ناعسة الصابرة على مرض أيوب ، وحتى بعد رحيل الزوج الرحيل الأبدى ، ما زالت تتمسك بحبل الصبر وتتعلق بالأمل.

وقال أيضًا والدموع تطل من عينيه:

من منا الذى لا يبكى على نفسه التى تفويها الدنيا الملعونة فتحرضه على الفسق والعصيان والانحراف عن طريق الهداية ، والحيد عن الصراط القويم المستقيم؟ وهذه المرأة الفاضلة هى النموذج المثالى الذى لم أر له مثيلاً فى بلاط صاحبة الجلالة ، وفى حياتى كلها ، فهى القدوة للأُنثى التى تراعى ربه فى رجلها ، ومن المؤكد أنها غرست ذلك فى بناتها.. ومن منا فى هذه الدنيا الذى لا يتمنى كل هذا الصفاء والعطاء والحب ، والايمان بتعاليم السماء وأحكام القضاء والقدر ، والصبر على البلاء ، والرضا بكل شئ فى السراء والضراء؟

...

" عندما خلق الله المرأة لم يخلقها من رأس الرجل فتسوده،
ولم يخلقها من عظام قدمه حتى لا يدوسها، وإنما خلقها
من ضلوع صدره لتكون قريبة من قلبه "

صباح كل يوم جمعة من كل أسبوع كان مجلس تحرير صحيفة " الأيام
" يعقد اجتماعاً مع المحررين من مختلف الأقسام، وكان هذا الاجتماع
المقدس أسبوعياً بمثابة جامعة حقيقية تربي فيها العديد من نجوم صاحبة
الجلالة الذين تلقوا مبادئ، وأسس فنون الكتابة الصحفية بين جدرانها
وعلى صفحاتها.

وهذا الاجتماع الذي يعد أخطر، وأهم اجتماع في تاريخ الصحافة
المصرية.. لم يكن أبداً اجتماعاً عادياً، بل كان على مدار سنوات شاهداً
على طرح، ومناقشة أهم أحداث مصر السياسية والاقتصادية والثقافية
والاجتماعية والإنسانية.

في اجتماع الجمعة الأول بالنسبة لنا جى شرف الدين رأى بعينه مجموعة
من فرسان، ونجوم الكلمة المكتوبة التي كان يطالع صورهم في جريدة
الأيام بانبهار مقرونة بمقالاتهم.. ها هو يراهم شخصياً، ويقف أمامهم وجهاً
لوجه!

تجمهر الجميع في صالة التحرير التي تتسع لأكثر من ٥٠٠ محرر،
وجلسوا في همت وسكون كأن على رؤوسهم الطير حتى جاء عبد العليم
طايح رئيس مجلس الإدارة، ورئيس التحرير الرجل القوي المهيب الجانب..
هل الرجل بطلته البرونزية وصلته الفسيحة المميزة، وسيجارته الكوبية
المستوردة، وبعد أن جلس في مكانه المعروف وبجواره مبرقت العطيفى،
والجميع يتعلقون حوله في شكل دائرى.. حياهم بثقة في كلمات موجزة

ثم سحب نفساً عميقاً من سيجارته الغليظة ، وبسرعة البرق كان الساعى التحيل الغارق فى زيه الرسمى الواسع عليه قد أحضر له فنجان القهوة السادة التى يفضلها.. التقط الرجل فنجانه واحتسى منه رشفة واحدة ثم إستهل حديثه قائلاً:

سوف تلعب المرأة دوراً فى غاية الأهمية لتطوير مهنة الصحافة، وتجديد شبابها بجانب الرجل بالطبع أقصد هنا الشباب من الجنسين فيجب الاعتماد على بصيرة الرجل، وعلى بديهة المرأة فى إلتقاط الخير الصحفى.. الرجل قادر على تحصيل أخبار كثيرة، وتفاصيل قليلة عكس المرأة التى حباها الله بالقدرة على التقاط تفاصيل أكثر وأخبار أقل.. وكلاهما يكملان بعضهما، ويصنعان الخبر الجذاب، والموضوع الصحفى المتميز.. وفيما يتعلق بكشوف الإنتاج هناك بعض المحررين حاولوا زيادة إنتاجهم فقسّموا الخبر إلى خبرين، وهذا لا يليق بهم ولا بإسم المؤسسة، وبعضهم قدم أخباراً قديمة، وتلك خطيئة لا تغتفر فى عالم الصحافة الحديثة النزيهة، وفى ظل انفجار المعلومات الحالى فى الفضائيات، وعبر الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت العنكبوتية، وغيرها من وسائل ضخ وتبادل المعلومات.. وأرجو أن يعلم المحررون جميعاً صغاراً وكباراً مبتدئين أو محترفين مخضرمين أن أول مهمة للمحرر الصحفى هى تحرى الدقة والأمانة والشفافية، والمحرر الذى يزور خيراً أو يزور كشف إنتاج مثل المحرر الذى يزور كشف حساب.. وأنا أفضل أن يقول المحرر ويعترف بأنه لم يعمل شيئاً على أن يكتب خبراً غير حقيقى وينسبه لنفسه!

وابتداء من هذا الأسبوع سنخصص صندوقاً لكى يضع فيه المحررون أخبارهم لأنه فى بعض الأحيان توضع الأخبار ولا يلتفت إليها أحد، وفى أحيان أخرى يسطو المحرر على أخبار غيره، ويدعى أنها ملكه! وفى كثير من الأحيان يطلع بعض المحررين على الأخبار قبل نشرها، ويحكونها فى جلساتهم خارج المؤسسة فتكون النتيجة أن تتسرب الأخبار إلى أماكن

أخرى ، وتتشرف في جهات إعلامية ، وصحفية أخرى قبل نشرها في جريدتنا ، وهذا عبث لا بد من التصدي له لأننا في زمن المنافسة ، وعصر الصراع الصحفي والاعلامى !

وأرى أن نظام الصندوق هذا وضع لحماية المحررين أنفسهم لأنه من غير المعقول أن يتساوى المحرر المنتج مع المحرر الكسول الخامل الغافل الذى يعتبر نفسه موظفًا فى ديوان الصحافة !
الفرق شاسع يا حضرات بين الموظف والصحفى أى بين المبدع والتقليدى.

وواجبكم أنتم جميعًا حماية هذا النظام لأنكم تجمون أنفسكم ، وأحب أقول لكم أيضًا.. إن إنتاج الأسبوع بلغ ٨٢٠ خبرًا صحفيًا ، وهو رقم قياسى ، ويوجد ٩ محررين قدموا أكثر من ٥٠ خبرًا ، ويوجد محررون قدموا أقل من ٥ أخبار لكل محرر ، وذكر عبد العليم طابع أسماء المحررين الذى زاد إنتاجهم الصحفى عن ٥٠ خبرًا.. واستطرد فى حديثه قائلاً كأنه أستاذ للصحافة فى كليه الإعلام ، وألمحه مجموعة من التلاميذ لا كوكبة من الصحفيين:

على كل الأحوال موضوع حديثنا اليوم يا سادة هو.. كيف ينجح المحرر الصحفى؟! وما الذى يصنع الصحفى الموهوب؟! لكى تعرفوا الإجابة على هذا السؤال أنظروا لأنفسكم فى جريدتكم " الأيام " أكثر الصحف انتشارا وأعرقها فى مصر.. بينكم عدد لمع وثوّهج ، وبينكم أيضا عدد أخفق وتهاوى ، وإن كنت أظن أن فرهصة النجاح والسطوع والنجومية متاحة أمامكم جميعًا بنفس القدر ، صحيح أن الفروق الفردية تؤثر لكن يبقى التفانى فى العمل هو الذى يصنع المجد ، وأؤمن أن هذه الصالة سيخرج منها عدد لا بأس به من نجوم الصحافة ، وفرسان القلم.

وعلكم لاحظتم يا حضرات عندما زادت مؤسسة " الأيام " فى عدد محرريها والضجة التى أثارت فى الوسط الصحفى بزيادة عدد المحررات..

وكيف أن بعض المحررين جاءوا واعترضوا على سياسة الإكثار من المحررات، والبعض الآخر لم يكن لديه الشجاعة ليقول لى، ويعبر عن رأيه، وكان يكتفى بالإعلان عن ثورته المكبوتة على هذا النظام فى صمت.

لقد سبق لى أن قلت إن " الأيام " يجب أن تسبق الجميع بانتصاراتها الصحفية، وريادتها الإعلامية لا أن تجرى وراءهم!

من مبادئ مؤسسة الأيام أيها السادة وتقاليدها العريقة أن تأخذ بزمام المبادرة وتطلق، وتترك الصحف الأخرى تلهث وراءها.. وأنا أؤمن بأن المرأة ستلعب دورًا كبيرًا وخطيرًا وحاسمًا فى المعارك الصحفية.. دور المرأة فى الصحافة لا يختلف إطلاقًا يا حضرات عن دورها الوطنى فى المخابرات وأعمال الجاسوسية.. وأرجوكم لا تفهمونى خطأ!

ضجعت القاعة بالضحك.. بدا له أنه ضحك غير مبرر، ثم يهتم وواصل كلامه كأن شيئًا لم يحدث، وناجى شرف الدين يراقبه عن كثب، وينصت إليه بإمعان بالغ، واصغاء فائق..

نحن نرى أن فى هذا وسيلة للتفوق الصحفى فى المستقبل القريب.. فيجب أن نبدأ نحن بهذا الأمر، وليتبعنا الآخرون، أو يسبقوا عكس اتجاهنا لا يهم.. لقد كان الدليل على تفوق المرأة فى بلاط صاحبة الجلالة بدون شك هو عدد الجمعة الأسبوعى من الجريدة، وتحديدًا عدد الأسبوع الماضى.. فقد كان من أفضل الأعداد التى أصدرتها "الأيام" فى السنوات العشر الأخيرة، وقد يدهشكم أن ذلك حدث بفضل عدد من المحررات الموهوبات!

إن موضوع الأمير وليام وقصة غرامه بفتاة مصرية فى المرحلة الإعدادية، وتقدمه رسميًا للزواج منها، ورفض والدها هذا العرض وهذا العريس الملكى ساهم فى زيادة توزيع الجريدة، والفضل يرجع إلى ذكاء وقطنة وموهبة المحررة الصحفية سميرة حلمى التى كانت فى حفلة ومعها العشرات

من الصحفيين ولكنها فكرت، واستطاعت أن تحصل على انفراد لنفسها وسبق صحفي لجريدتها ومؤسستها من خلال قصة ممتازة إنسانياً واجتماعياً ويكفى أن تعرفوا أن عشر صحف من أكبر صحف العالم نشرت هذا الموضوع في صفحتها الأولى بعد نشرها في صحيفتنا.. نشرها في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا، وطلب مراسلوا الصحف الأجنبية الكبرى في القاهرة السماح لهم بالحصول على الصور التي نشرتها الأيام لنشرها مع الموضوع في صحفهم!

لأد عبد العليم طابع بالصمت قليلاً ثم عاود الإسترسال قائلاً:

يجب على كل محرر ومحررة في هذه المؤسسة أن، يدرك تماماً أن الأخبار هي أسرار مقدسة، لا يجوز أن يعطيها أو يحكيها لأحد.. وحتى أنا عندما أعرف خبراً مهماً أو خطيراً لا أحكيه لأى مخلوق، ولا حتى لزوجتي وقد تفاجأ هي به منشوراً في الجريدة صباح اليوم التالي.. ومن عادة المرأة أنها ثائرة كثيرة الكلام لا تكتم السر أبداً، وتصاب بمغص كلوى إذا احتفظت بسر داخلها، وإن كان هناك عدد من محررات الأيام أثبتن أنهن على مستوى الرجال في مسألة الكتمان.

شرد ناجى شرف الدين، ودارت في رأسه عدة تساؤلات.. ما الذى أتى بميرفت العطيفى هنا؟! ولماذا تجلس مثل ملكة متوجة على عرشها بجوار عبد العليم طابع الرجل صاحب السطوة في أعرق مؤسسة صحفية رئيساً لتحريرها ولمجلس إدارتها سنوات طويلة حتى وصفه ذات يوم نقيب الأطباء بأنه الصحفي المزمّن!

جاء رد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير على تساؤلاته عاجلاً فوراً كأنه سمعه، وعرف ما فى نواياه.. قال:

أحب أقول لكم يا حضرات أنكم أصحاب سلطة.. نعم سلطة القلم وقوة الحق.. أنتم أصحاب السلطة الرابعة.. وأود أن أقول لكم أيضاً إن أسرة مؤسسة الأيام تسعد ويسرها انضمام العديد من المواهب والكفاءات سواء

الجديدة، أو الوافدة إلينا من إصدارات صحفية أخرى تبسم في وجهها وهو يشير ناحيتها وأخص بالذكر هنا الزميلة العزيزة ميرفت العطيفي التي كانت تعمل في صحيفة "مصر اليوم".

ولا يفوتني هنا أن أقول لكم إن الطريقة الحديثة في الصحافة العالمية اليوم هي الاعتماد على نوعين من الفوتوغرافيا.. فوتوغرافيا الرجل الصحفي وهي تستطيع أن تلتقط عدداً كبيراً من الصور.. فالعدسات في رأس الرجل الصحفي أكثر منها في رأس المرأة الصحفية! ويجب الاعتماد أيضاً على الكاميرا العقلية للمرأة الصحفية، لأن العدسات التي في رأسها تلتقط تفاصيل أكثر بكثير مما تلتقطه عدسة عقل الرجل الصحفي.. بمعنى أنه إذا ذهب صحفي وصحفية إلى حفلة، وحضرا أحداثها ووقائعها ومراسمها، سوف نلاحظ أن الصحفي الذكر يستطيع أن يعرف أسماء جميع من حضروا الحفلة بينما الصحفية الأنثى تستطيع أن تعرف بحاستها وغريزتها تفاصيل أدق، ووقائع صغيرة وكثيرة لعدد قليل منهم!

الصحفي قادر بلا شك على معرفة مائة اسم من المدعوين.. والصحفية قادرة على تقديم معلومات دقيقة ووافية عن عشرة أسماء من الموجودين في الحفلة مثل لون ملابسهم.. مَنْ منهم حليق الذقن، ومن منهم كان أنيقاً في ملبسه.. ومن منهم تعطر بعطر فرنسي فاخر ومن منهم كان شارباً أو مهموماً في هذه الحفلة!

وأذكر أنني عندما بدأت حياتي الصحفية كنت مندوباً في إحدى الوزارات لا داعي لذكر اسمها الآن.. لكن على كل الأحوال كنت ألتقي الوزير يومياً، ولم أكتشف أن هناك ثقباً صغيراً في أذنه إلا عندما ذهبت إليه إحدى زميلاتي وقابلته! اكتشفت الثقب من أول لقاء بينما لم أكتشفه أنا على مدى سنوات.

وكان لهذا الثقب الصغير قصة طريفة حكاها لي الوزير فيما بعد، وهي أن أمه أنجبت خمسة من الذكور، وكان هو آخرهم، وأشار عليها

البعض أن تثقب أذنه مثل البنات حتى يرزقها الله فى المرة السادسة بطفلة تكون مسك الختام فى رحلة الإتياب.

وقد تبدو ملاحظة ثقب أذن الوزير تافهة وبلا قيمة ، لا تقدم ولا تؤخر.. لكنها فى نهاية الأمر تثبت أن الصحفية الأنثى تستطيع رصد وتحليل ، وتسجيل تفاصيل أكثر من الصحفى الرجل.. وهذه حقيقة علمية لا شك فيها ، ولا جدال ، وأثبتتها نتائج التجارب العلمية ، والمعملية والبحوث الميدانية!

سحب عبد العليم طابع نفساً عميقاً هادئاً من سيجارته الكوبية الفاخرة المتورمة واحتسى معها آخر ما تبقى فى فتجانه من القهوة ثم قال :

يا أعزائى.. سوف أذكر لكم الآن واقعة تاريخية حدثت بالفعل عام ١٩٣٤ عندما كان عبود باشا فى إنجلترا يخطب فى حفلات " هايد بارك " الشهيرة فى قلب العاصمة لندن ، ويتكلم بكل فخر عن مشروع خزان أسوان وفى ذلك الوقت كان هناك العديد من الصحفيين والصحفيات ، واهتموا جميعاً بتفاصيل المشروع العظيم بينما محررة صحيفة واحدة فقط اهتمت بشئ آخر مختلف تماماً عما اهتم به الآخرون من زملائها.. فقد اكتشفت تلك الصحفية أن بنطلون عبود باشا ممزق ومن منطقة حساسة للغاية!

واهتمت بهذه اللقطة وكتبت هذه الحدوته فى مقدمة موضوعها الصحفى تقول إن المليونير ، ولو أن بنطلونه ممزق إلا أنه تكلم فى كل شئ عن مشروع خزان أسوان ببراعة يحسد عليها!

سردت التفاصيل والهناك التى سردها زملاؤها.. إنما قصة البنطلون الممزق كانت حديث عاصمة الضباب!

هذا يعنى أن على الصحفى أن يحرص على التقاط التفاصيل ، ولا يتجاهل الصفات بجانب القفشات الذكية ، واللقطات الخفية الطريفة التى تعجب القراء مهما كانت جنسياتهم ، وثقافتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقائدية.. يوجد فى هذا العالم صحفيون يخطفون الأخبار خطفاً مثل القراصنة

الصوماليين الذين يتربصون على امتداد سواحل المحيط لاختطاف سفينة عابرة للمياه الإقليمية ، واقتناص بضاعة متحركة فوق الأمواج!

وفى رأى.. إن عملية الخطف لا تقيد كثيرًا ، بل بجانب التقاطك للخبر يجب أن تحصل على تفاصيل أكثر لكي تستطيع التفوق فى ماراثون السباق ، والمنافسة اليومية الشرسة مع الصحف ، والإصدارات الأخرى ، كما يمكنك بالتفاصيل الصغيرة التى تبدو تافهة أن تلعب فى الخبر ، وتحوله من خبر روتينى عادى إلى سبق خبرى متفرد!

ومن شروط الصحفى الناجح أيضًا تفانيه فى عمله ، وحبه وإخلاصه لمهنة البحث عن العذاب والمتعة.. يوجد صحفيون يذهبون إلى الجرائد والمجلات المنافسة ليبيعوا الأخبار والموضوعات الصحفية مثل مندوبى المبيعات ، وتجار الشنطة هذا يحدث للأسف.. فليس كل الصحفيين ملائكة.. وليس أيضًا كلهم أبالسة! وبعض الصحفيين يعرضون أنفسهم وبضاعتهم للبيع لدى صحف منافسة لصحفهم لأنها تدفع أكثر.. مثل هؤلاء لا نفاتحهم فى هذا الشأن ، إنما ننقلهم من قائمة المحررين الدائمين إلى قائمة المحررين المؤقتين أو المحررين الترانزيت!

وإذا كانت هذه قوانين التجارة ، فليست الصحافة وكالة أو سوپر ماركت! إنما مهنة قيم ومبادئ وأخلاق ، ورسالة سامية قبل أن تكون مصدرًا للتكسب والارتزاق ، ونحن نشعر أن الصحفى الذى يبيع ذاته ، ويتاجر بقلمه وبضاعته الصحفية مكانه الطبيعى على سلالم المؤسسة ، وليس فى داخلها ، ولا نستطيع أن نساعد له أعمالاً مهمة على الإطلاق لأنه أصبح فى نظرنا مثل الخائن الذى يبيع أسرار وطنه للأعداء مقابل حفنة دولارات ، وقد يلجأ هذا الصحفى العميل غير الوفى لمؤسسته إلى الجرائد المنافسة ليبيعهم انفراداته الصحفية مقابل ما يحصل عليه هناك من أجور مجزية ومكافآت سخية!

وهذا أمر طبيعى جدًا بالنسبة للنفس البشرية التى تطمح ، وتطمع فى

المزيد دائماً ولا تمل ولا تكل ولا تشبع من التحصيل حتى ولو امتلكت ثروة قارون!

إننا يا حضرات نترك لهؤلاء المحررين الصحفيين حرية الاختيار والتقل، وليس مطالباً منا أن نعاملهم معاملة المحررين الدائمين على الإطلاق فهم ليسوا أصحاب البيت، بل نعتبرهم من الضيوف!

وأقول لكم بكل صراحة أنه لا يمكن لفريق أن يعتمد على لاعب لن يستمر في فريقه مهما كانت قدراته، وطالما أنه سينتقل ليلعب مع الفريق المنافس ولصالحه، فلا بد من الحرص والحذر، ومثل هؤلاء اللاعبين ولو أننا لا نشجعهم على ترك الفريق، إلا أنه يجب أن نتصورهم خارج الفريق تماماً ولا نعتد عليهم، ولا نعول عليهم كثيراً!

إن الإخلاص والوفاء والولاء يا سادة للجريدة أو المجلة ليس سلعة تباع وتشتري، بل هو قيمة عظيمة، وهو أول شرط للنجاح والتميز..

قد يحدث أن نسمع أن محرراً يلعن صحيفته أو يسب مجلته هذا أمر وارد.. ولكنى لا أثق في هذا المحرر، ولا أعتمد عليه أبداً.. أنا شخصياً أحب الصحفي المخلص لجريدته أو مجلته لآخر لحظة.. أنا أفضل أن يعمل المحررون غير المخلصين في الجرائد والمجلات الأخرى المنافسة لأنهم في رأيي المتواضع طابور خامس!

إن أهم صفة في المحرر الصحفي هي الإخلاص.. فإذا غاب الإخلاص فقل على الصحفي السلام.

وأضرب لكم مثلاً يهكم جميعاً.. عند تعيين الدكتور سعد أبو المجد مديراً عاماً بمؤسسة "الأيام" همس في أذني عدد من الناس بأن سعد أبو المجد كان يهاجم "الأيام" أثناء وجوده في صحيفة "مصر اليوم"، وكان يقول أنها سوف تعلن إفلاسها، وتغلق أبوابها، ويصرح بأرائه تلك أثناء الليل، وأطراف النهار، ويقولها على الملأ وفي وسائل الإعلام المختلفة.. وقد قلت لهم.. هل أنتم متأكدون من هذا؟! الحقيقة كنت أخشى من أن تكون

وشاية خبيثة.. لكنهم قالوا نعم.. نحن واثقون ومتأكدون.. وعلى الفور وقعت عقدًا مع الدكتور سعد أبو المجد ليعمل معنا لأن الرجل الذى يخلص لمؤسسته ، وعمله سوف يخلص بنفس الطريقة فى أى عمل آخر فى مؤسسة أخرى، إنما لو قالوا لى أنه كان يعطى أخبار جريدته لصحيفة أخرى غير الصحيفة التى ينتمى إليها حتى لو كان يعطيها لصحيفتنا لكنا رفضنا تعيينه عندنا لأنه سيعمل فى هذه الحالة بمبدأ الخيانة المهنية ذاتها!

وأذكر أنه أثناء عملى فى مؤسسة "الهلال" خلال مرحلة من مراحل حياتى الصحفية، كنت عند مرورى على حجرة مضاعة أطفئ النور.. هذه كانت عادتى التى أحرص دائمًا عليها، برغم أننى لا أدفع فاتورة الكهرباء من جيبى ولا يعيننى الأمر من قريب أو بعيد!

لم يكن يهمنى أن يخسروا جنيهاً واحداً أو جنيهين، ولن يؤثر هذا على ما أنقاضاه من راتب، ولكنى كنت أشعر أننى مالك لهذه الجريدة، ومستول عن كل شئ فيها، وعندما أجد أى خطأ، أذهب لأصححه على الفور حتى ولو لم يكن من صميم عملى، لأن المحرر يجب أن يشعر أنه مالك كل شئ فى المؤسسة الصحفية التى ينتمى إليها، لا أن يستخدمها كورقة ضغط، وقوة نفوذ لتحقيق مأرب شخصية، ومنافع ذاتية.. تلك هى القضية يا حضرات المحررين والمحررات!

توقف لحظات.. التقط فيها أنفاسه، وتجرع شربة ماء ثم قال:

لا يفوتنى هنا إلا أن أشيد بدور بنات حواء فى الصحافة وأسجل فخرى واعجابى، واعتزازى بانتصاراتهن فى بلاط صاحبة الجلالة، ولا يفوتنى أيضاً أن أذكر أن إحدى المحررات حاولت ذات مرة بمكر ودهاء خداع رئيس قسم الأخبار، فقدمت له ٤٠ خبراً صحفياً، وبعد ذلك إتضح أنها نقلتها من النشرات التى تصدرها الوزارات، وترسلها بالفاكس للجميع من خلال إدارة الاعلام والعلاقات العامة بكل وزارة، وهذه النشرات تصل مكتوبة، لكن المحررة المخادعة فكرت أن تقدم شيئاً جديداً فقالت

لمسؤولي الإعلام والصحافة بالوزارة التي تغطي أخبارها.. لا ترسلوا النشرة لرئيس التحرير وارسلوها لي، واكتشف رئيس التحرير لعبتها الوقحة، ولم تطل عليه خدعتها الساذجة!

هذه المحررة أخطأت في حق نفسها، وفي حق جريدتها، وعلى فكرة خط نشره الوزارة أحسن من خطها!

ضجت القاعة بالضحك.. وانفجر الجميع في نشوة القهقهات بصوت مرتفع، وتناثرت الهمسات بين الجميع يتساءلون بهمهمات مكتومة عن صاحبة هذه التهمة الطريفة.. اختتم الكاتب الصحفي عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير كلامه بالشكر لهم جميعاً متمنياً التوفيق والنجاح لكل أبناء مؤسسة الأيام واصداراتها المختلفة في مهنة البحث عن المتاعب..

ابتسم الرجل بهدوء، ونهض من مكانه، وتحرك في اتجاه الباب لمغادرة صالة التحرير أو قاعة الاجتماعات كما يطلق هو عليها، وإتجه إلى مكتبه، وسارت بجواره ميرفت العظيفي التي لا تفارقه كظله، بل تكاد تمسك بيده، وهو ينظر إليها بابتسامة مأكرة خبيثة مراوغة مثل ابتسامة ثعلب جبلي شرس هي وحدها تقطن مغزاها ومعناها!

بينما وقف ناجي شرف الدين شاخصاً يرقب المشهد في ذهول ودهشة!

" ما من بستان إلا وبه أكثر من أفعى ! "

سرى الهمس والغمز واللمز فى المؤسسة مسرى النار فى الهشيم، وتبادل المحررون، والمحررات تفاصيل الخبر المثير الذى يدور كائنحلة فى مكاتب وردهات المبنى العريق.. هو الحدث الأبرز والأهم، والشائعة الجذابة التى تدعو للبحث والفحص فى مدى مصداقيتها، والخبر الذى يجب معرفة عناصره، وخبائمه وأصله وفصل مصدره!

تفاصيل الخبر الذى تلوكه الأفواه، ويطوف على الأذان بسرعة اليرق والرعد مفاده أن مؤسسة " الأيام " أكبر وأعرق المؤسسات الصحفية فى مصر المحروسة، وقرار أشبه بالفرمان من رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الكاتب الصحفى المرموق عبد العليم طابع ستصدر مجلة فنية أسبوعية بعنوان " نجوم الفنون "، وتتولى رئاسة تحريرها ميرفت العطيفى.. دارت مناقشات كثيرة، وجدل لا ينتهى بين المحررين والمحررات، وكل شخص يدلى بدلوه، ويهمس بالسروراء هذا القرار ويحكى الكواليس غير المعلنة لزميله كما لو كان يذيع سرًا حرييًا خطيرًا ويوصيه ألا يفشى الخبر، ولا يقول لمخلوق أنه سمع منه شيئًا.. بدا الأمر أشبه بمسرحية سخيفة ممله برغم أن فيها الجانب البوليسى المشوق أحيانًا مثل روايات أجاثا كريستى!

تساءلوا جميعًا.. ولماذا ميرفت العطيفى؟! ومن تكون هى أساسًا؟! وما تاريخها فى بلاط صاحبة الجلالة حتى تقتنص لقب " رئيس تحرير " وهو اللقب الأعلى والأعلى لكل من يمتحن ويحترف الكتابة الصحفية؟! وعلى الفور بدأت حفلات التهمة.. وشرع المحررون والمحررات فى جمع المعلومات عنها على طريقة شيرلوك هولمز، وبأسلوب المخبرين

المحترفين، وتكشفت أمامهم الحقيقة المروعة عارية كأنثى لعوب
ترغب معاشرة زوجها المنشغل عنها، فتباغته ليلة الجمعة، وهو مضجع
فى فراشة بعد منتصف الليل يشاهد التليفزيون، لا وقت عندها للمقدمات
ولا المشهيات فقد استبدت بها النشوة الحارقة، فنزعت كل ملابسها،
وألقت بنفسها بين أحضانه، كل شئ فوري وعاجل.. ضبط وإحضار.. مثلما
يفعل رجال المباحث، وعناصر التعريات، حصل المعررون على صحيفة
أحوالها التى ترصد سيرتها الذاتية، واكتشفوا العجب.. فهى حاصلة على
مؤهل دراسى متوسط، وتم تعيينها سكرتيرة فى جريدة "مصر اليوم"
وكانت تعد الشاي والقهوة بنفسها لرئيس تحريرها، وتتقرب إليه بكل
الطرق والوسائل حتى تحقق مأربها!

ونظرًا لطموحها الجامح، وقدرتها الهائلة على إثارة الرجال، وتحريك
قواهم الكامنة ساعدها عمر الشهابى رئيس التحرير فى الحصول على
منحة دراسية بالمعهد العالى للدراسات التعاونية، ومن هذا المعهد حصلت
على البكالوريوس بعد أربع سنوات دراسية، كما ساعدها أيضًا فى تغيير
تصنيفها الوظيفى من سكرتيرة عادية فى مكتبه إلى صحفية، ومن ثم
نالت عضوية نقابة الصحفيين، وكان هذا حلم حياتها الكبير، ورغم
ذلك لم تشبع نهمها ولا طموحها، فقد كانت تفضل بدء حياتها فى مؤسسة
صحفية كبيرة مثل مؤسسة "الأيام"، ووجودها لسنوات طويلة فى جريدة
"مصر اليوم" جعلها تشعر بالنقمة، وظلت بجوار عمر الشهابى تدللّه،
وترافقه فى كل رحلاته الصحفية داخل مصر، وخارجها حتى صارت تلعب
دور عشيقته فى الظل وزوجته السرية، وامراته الخصوصية من وراء ستار!
كان لدى الرجل زوجته الشرعية أم أولاده، ولا يفكر فى الزواج للمرة
الثانية على الإطلاق.. كما أن ميرفت العيطى تدرك جيدًا أن عمر الشهابى
ليس هو رجلها المناسب الذى يرضى طموحها، وإنما مجرد قارب نجاة
ينقلها من نهر الفقر إلى محيط الغنى والثراء، مع أنها كانت تحصل على

مكافآت وحوافز، وبدلات تفوق عشرات المرات ما يحصل عليه أى محرر أو محررة فى صحيفة "مصر اليوم" .. وحينما حانت اللحظة الحاسمة، ورآها عبد العليم طابع الصحفى العجوز المخضرم الخبير بالنساء المتعدد العلاقات وصاحب النزوات والغزوات فى مملكة حواء.. القريب إلى عقل وقلب القيادة السياسية القابعة فى القصر الجمهورى.. ألقت ميرفت العطيفى بشياكها عليه، اصطادته هى، وظن أنه الصياد الماهر الذى لا يرد له رمح ولا يكسر له سيف، وللوهلة الأولى فهم العجوز مغزى الرسالة، وسأل عنها بدهاء، وعلى الفور كان على مكتبه تقرير مفصل عن حياتها منذ ولدتها أمها بمستشفى الجلاء للولادة بقلب القاهرة وحتى الآن.. هى تعيش مع أمها التى كانت تعمل فى صدر شبابها راقصة فى الفرقة المصرية للفنون الشعبية ثم اعتزلت بفعل الزمن الذى لا يرحم، وعندما انزوى جمالها، وتوارى وراء تجاعيد الستين تقاعدت فى البيت، واعتمدت على المعاش الذى تركه لها زوجها محمود العطيفى والد ابنتها الوحيدة ميرفت والذى كان يكفيهما بالكاد..

وذات يوم شتوى مشرق الشمس كان عبد العليم طابع فى رحلة عمل صحفية إلى إيطاليا مرافقاً لرئيس الجمهورية ضمن الوفد الإعلامى على طائرة الرئاسة وبالطبع كان بين أعضاء الوفد عمر الشهاوى، وبصحبه ميرفت العطيفى فى هذا اليوم التاريخى لمحها عبد العليم طابع بعين الخبير الواعر المحنك فى شئون النساء مثل جواهرجى يستطيع فى لمح البصر أن يقدر قيمة أحجاره الكريمة من أول نظرة.. ظل يراقبها بعينه، ويتفحص ملامحها بشراهة ذئب مفترس يتريص بفريسته الشهية.. فأحست بغريزة الأنثى الماكرة ما يصبو إليه الرجل عاشق المغامرات فى بحور النساء.. تطلعت بطرف عينيها إلى شعره الأبيض القليل المتناثر على حواف صلعتة الرحية.. وقالت لنفسها:

هاهى الفرصة قد حانت وتدلّت، وحن وقت قطافها، ويجب أن ألقى

القبض عليها.. راهنت على أنوثتها المتفجرة، ولهفة الرجل المتهالك الضعيف جسدياً القوى التنفوذ في بلاط صاحبة الجلالة، وكذلك في مملكة السياسة أملاً في أن تغير وجه حياتها للأفضل، وبالفعل نفذ سهم كيوييد، وأصاب القلب، وقبل أن تنتهي الرحلة على الطائرة الرئاسية التي تشبه من الداخل الفندق سيع نجوم كان قد طلبها عبد العليم طابع من عمر الشهابي الذي تردد في البداية، وتلثم وحاول التملص من هذا الفخ دون جدوى.. فقد صدر إليه أمر عبد العليم طابع مغلماً في صورة رجاء براق يخفى بين طياته نبرة تهديد ووعيد.. قال له طابع:

— أريدها في مكنتي.. غداً.

وبمجرد تفرق أعضاء الوفد الصحفي في مطار القاهرة، تنحى عمر الشهابي بميرفت العطيني جانباً وقال لها هامساً بنبرة قهر:

هناك موضوع مهم أريد أن أقوله لك، سوف أعرضه عليك ولك حرية الاختيار.. يا عزيزتي: أنت حرة في حياتك ومستقبلك ومصيرك.. أما أنا فلست حراً على الإطلاق في الرفض أو القبول..

لأن عبد العليم طابع رجل ذو جيروت، وقادر على أن يطيح بي إلى ما وراء الشمس، ويستطيع أن يزج بي في غياهب السجن، أو يهدف بي في ظلمات المجهول، وقد يتمادى في انتقامه فيغلق الجريدة التي رأس تحريرها بكلمة واحدة منه كما يغلق مندوب رئاسة الحى أى محل مخالف للقوانين، ولا يدفع الضرائب المستحقة عليه، فهو الأمر الناهى في شئون الصحافة المصرية، وهو قراقوش الإعلام في المحروسة، وقد يشى بي في أذن الرئيس أو وزير الداخلية، فيكون مصيرى السجن مدى الحياة وبئس القرار.. والتهم جاهزة ومعلبة، والقائمة طويلة لا تنتهى.. خيانة الوطن.. التجسس لحساب إسرائيل.. الإساءة للعلاقات العربية العربية.. التناول على دولة صديقة.. إهانة رئيس دولة أجنبية، كتابة ما من شأنه تكدير الأمن العام والسلم الاجتماعى.. وغيرها من التهم المطاطة التي تستوعب أى

شخص وتكون على مقاسه تمامًا حسب تفصيل مقص ومازورة السلطة!
كانت الفرحة تقفز من عينيها، والسعادة تكاد تطل من مقلتيها، ولأنها
تدرك مشاعر عمر الشهابي وأنانيته، ورغبته في امتلاكها مدى الحياة
تملك السيد لجاريته، تظاهرت بالضيق والحزن لفراقه، جاهدت قدر
طاقتها للمدابة وإخفاء حقيقة ما تشعر به.. وقالت بمكر ساذج:

— وماذا يريد منى هذا الرجل؟

قال بنبرة مكتومة نحاسية:

— يريدك أنتِ نفسك يا عزيزتى.. يريد جسدك وروحك وأيامك ولياليك..
تلك هي القضية!

ردت باستهجان:

— يريدنى.. ماذا تقصد بهذا الكلام؟

يريدك فى مكتبه بمؤسسة الأيام.. وأنا لا مانع عندى إذا كانت لديك
رغبة فى ذلك.. وعلى كل الأحوال أنا أنصحك بقبول العرض والموافقة
على النقل إلى مؤسسة الأيام فهى مؤسسة قومية كبرى، وستجدين فيها
مستقبلك

قالت بنبرة فيها سخرية واستخفاف:

— وأنت ماذا ستفعل بدونى؟

باغته السؤال فتلعثم الرجل وقال:

— لن تكونى بعيدة عنى، ولن أكون بعيداً عنك.. المهم مستقبلك يا
حبيبتى، وفى الحقيقة أنا لا أريد أن أثير غضب عبد العليم طابع.. فهو
رجل جبار ولدغته والقبر.

هزت رأسها بإستكثار، وهمست لنفسها والسعادة الممتزجة بالحسرة
تسرى فى شرايينها:

— يا جبان.. يا خسيس.. يهملك مستقبلى.. أم أنك خائف على نفسك

ومنصبك ياسافل وتريدنى أن أمضى أبد الدهر إلى أسفل سافلين
وأسقط مع الساقطين والساقطات قلها.. تكلم ١٩

ثم قالت بصوت مسموع:

— أنا موافقة على الانتقال إلى مؤسسة الأيام.. وليكن ما يكون!

لم يتوقف الهمس بين المحررين جميعاً حتى صدر قرار عبد العليم طابع بالفعل بتعيين ميرفت العطيفى رئيساً لتحرير مجلة "نجوم الفنون" أسبوعية متخصصة فى السينما والمسرح والتلفزيون والفن التشكيلى، وخصص لها ميزانية ضخمة ووفر لها كل الإمكانيات التكنولوجية والبشرية والمادية لتخرج إلى دنيا الصحافة بأبهى صورة، وتكون على غرار المجلات الأجنبية الراسخة والناجحة فى بلاط صاحبة الجلالة على المستوى العالمى مثل "ستوديو"، "بيبول"، "التايمز" وغيرها..

أصبحت ميرفت العطيفى بقدرة قادر الأمرة النهائية فى المؤسسة، والمسيطرة على كل كبيرة وصغيرة فى دروبها ودهاليزها وصلات تحريرها.. والمحررون يتغامزون ويتهامسون بأنها صانعة كل القرارات، وأن رئيس مجلس الإدارة مجرد واجهة أو صورة ليس إلا..

بدأت ميرفت العطيفى فى اختيار فريق عمل المجلة من المحررين، والمحررات من الإصدارات المختلفة بالمؤسسة للعمل معها، كما نشرت إعلانات فى صحيفة الأيام تطلب فيه مواهب صحفية وخريجي إعلام، وكان من بين من اختارهم ناجى شرف الدين الذى سمعت عن دماثة خلقه، وموهبته الفذة منذ كان يعمل معها فى جريدة "مصر اليوم".. وقد نجحت فى انتزاعه من عبد العليم طابع الذى حاول الاستئثار به ليكون مساعداً له، لكنها أصرت على رأيها فرفض الرجل صاغراً لرغبتها.. كانت تتعامل مع الجميع من الصحفيين، والصحفيات بالمؤسسة وكأنها ملكة تربعت على عرش الكون، والكل يحسب لها ألف حساب، بعد أن أدركوا عن يقين بأن عبد العليم طابع صار دمية أو عروسة ماريونيت فى يدها تحركها

كيفما تشاء، وضد من تشاء، ولصالح من تشاء.

شرعت في مهمتها بالإعداد لإصدار المجلة على ورق فاخر مصقول بأربعة ألوان لامعة براقعة، كانت تقضى بين المحررين والموضوعات الصحفية والبروفات ساعات طويلة، ولا تنهى عملها الدؤب إلا بعد منتصف الليل يومياً، ومن حين لآخر يلاحظ ناجي شرف الدين أن هاتفها يرن بلحن مميز ناعم، وتحدث بهمس خفيف وتبتسم بغرور وخبث، وذات مرة سمعها تقول بصوت خفيض مثير.. يا عبد العليم ثم كررتها بصيغة أخرى أكثر تدللاً وعذوبة قائلة: ياعبد.

هكذا نطقته بدون ألقاب.. أو مناصب أو مقدمات..

وبعد أربعة أسابيع فقط من إعداد الماكينات والبروفات، وتجهيز العدد التجريبي صدرت مجلة "تجوم الفنون" وأقامت ميرفت العطيفي حفلة لطيفة جداً داخل مقر المجلة، وأضاءت شمعة واحدة في وسط تورتة كبيرة مكونة من تسع طوابق إشارة إلى طوابق مؤسسة الأيام، وحضر الحفل كل المحررين ومديري التحرير بالمؤسسة وكذلك رؤساء تحرير الإصدارات الأخرى يتقدمهم عبد العليم طابع الرجل الكبير الوقور المهاب الركن..

بدا مبتهجاً كطفل صغير يلهو، وهو يضع يده فوق يد ميرفت العطيفي، ويقطع التورتة.. والكاميرات بأضوائها المبهرة من حوله تلتقط الصور الفوتوغرافية وفي صباح اليوم التالي كانت الصور تسطع مع خبر صدور العدد الأول من المجلة.

كانت الإعلانات تتوالى يومياً في الصفحة الأولى بجريدة الأيام عن مجلة "تجوم الفنون" حتى يترقبها القراء بشغف، وكذلك الإعلانات المتكررة بمعدل مرة كل ساعة تقريباً على شاشة التلفزيون، وبصفة خاصة على القناة الرئيسية، ونجحت الحملة الإعلانية والدعائية للمولود الجديد في دنيا الصحافة، وتردد اسم ميرفت العطيفي كرئيس للتحرير مئات المرات

مقروناً بإسم عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة، وبالفعل إكتسحت المجلة الأسواق، ونفذت أعدادها الأولى فور توزيعها، وتخطاها القراء بلهفة وحرص على اقتنائها.

فى تلك الأثناء كانت ميرفت العطفى قد استعانت بخادمة فلبينية تسمى أمها وتقوم على خدمتها، وتسهر على راحتها بينما استأجرت هى شقة جديدة لنفسها فى منطقة راقية بحى المهندسين بناء على رغبة عبد العليم طابع، وكانت كثيراً ما تواعده وتلقاه فى تلك الشقة سراً.. تداعبه ويداعبها.. تطارحه الغرام ويطارحها.. تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها.. كانت تحركاتها تبدو للآخرين من المحيطين بها، والمقربين منها مريبة غامضة، كانت حريصة أشد الحرص على ألا يهتك أحد سترها، ولا يعرف سرها حتى لا يفتضح أمرها، ودائماً كان يساورها الشك بأن هناك من يراقبها، وأن عيوناً مجهولة تترصدها وتترصد بها لدرجة أنها كانت تمنع فى التكر والتخفى بكل الوسائل وهى فى طريقها إلى شقة المتعة، وكانت تطلب دائماً من سائق السيارة المخصصة لها من المؤسسة أن يتوقف بها فى ميدان "سفنكس" لتستقل هى سيارة أجرة أخرى حتى لا يعرف السائق وجهتها.. ولأن فئة السائقين فى مصر المحروسة لا تختلف كثيراً عن فئة الحلاقين الذين يتميزون عن الفئات الأخرى بالثروة، وتقصى الأخبار والتقيب عن الأسرار، والنش بين طيات النيات والضمائر، كان سائقها يحكى هذه الأمور الصغيرة، والتفاصيل الدقيقة المثيرة لسكرتها الخاص حسام التونى، وفى أغلب الأحيان كان يروىها أيضاً لزملائه السائقين أثناء أوقات الفراغ والراحة، وهم جميعاً معاً فى غرفة السائقين يدخلون بلذة، ويحتسون الشاي بمزاج، ويلعبون الطاولة بفوضى وغوغائية.. ومن خلال مجموعة من الخيوط الرفيعة أدرك حسام التونى بحسه البوليسى أن هناك علاقة مشبوهة سرية وخفية تجمعها بالرجل الكبير فى المؤسسة، وأنها تغيب عن المجلة ساعات طويلة، ولا تذهب إلى بيتها وتغلق هاتفها المحمول.. كل أسبوع تلقاه سراً مرة أو مرتين فى الشقة التى استأجرتها فى البداية ثم قالت

له وهى بين أحضانها ذات مرة:

أنها أحبت هذه الشقة، وأحبت ذكرياتهما فيها، وتريد ألا تفادرها أبداً! وعلى الفور اشتراها عبد العليم طابع وكتبها بإسمها.. دفع فيها مليون جنيه تقداً وعداً.. صحيح مليون جنيه بالكمال والتمام.. ولم يكن سكرتيرها حسام التوتى يشك لحظة واحدة فى أن عبد العليم طابع هو الذى دفع ثمن هذه الشقة، ومن أموال المؤسسة التى يتربع على عرشها منذ أكثر من عشرين عاماً، ويتصرف فى ملايئتها كما يحلو له، ومثلما يتصرف السفهه فى الثروة التى هبطت عليه من السماء، وورثها فجأة دون عناء أو جهد يذكر.. وتشير الأرقام السرية فى حسابات المؤسسة أنه يتقاضى ٢٠٠ ألف جنيه مع سطوع شمس كل نهار جديد، حصته من إيرادات الإعلانات حسب نسبة العشرة بالمائة المقررة لرؤساء التحرير، ورؤساء مجلس الإدارة من سيل الإعلانات المنهمر على المؤسسة وإصداراتها المختلفة، ويحكى المحررون فى المؤسسة حوادث تفوق حوادث ألف ليلة وليلة فى شططها وهوسها، وجنون أبطالها عن الإمبراطور عبد العليم طابع، وكأنه رجل أسطورى خارق، يذكرون قصره المنيف فى مدينة السادس من أكتوبر، والذى أنفق على تشييده ٧٥ مليون جنيه، واشترى كل أثاثه وتجهيزاته قطعة قطعة من إيطاليا، ويضم بين جدرانها لوحات لأشهر الفنانين العالميين من بينها لوحات أصلية بريشة فان جوخ وبيكاسو ودانتى بجانب أشهر، وأعلى لوحة رسمها فاروق حسنى وزير ثقافة مصر على مدى ربع قرن، وفنانها التشكيلي الخالد على مر العصور، وقدرت اللوحة بمليون دولار.. لكنه اتصل بالوزير، وأبدى إعجابه الشديد بها وأثنى على عبقرية الفنان الذى يتخفى فى ثوب الوزير، وأكد له أنه مستعد لاقتناء هذه اللوحة بأى ثمن، ومهما كان الثمن، وبذكاء الوزير الفنان ودهائه وكرم أخلاقه الحاثمي المعروف رفض أن يبيعها وأهداه إياها!

وهناك أيضاً إستراحته الفارهة التى تشبه قطعة رائعة من الجنة، ولا

يقل ثمنها عن عشرة ملايين جنيه، وتقع في مكان مميز للغاية على شاطئ الساحل الشمالي.. هذا بخلاف الأموال السائلة، والودائع الذهبية المجمدة في بنوك مصر وسويسرا وباريس وروما وأرصدته التي تضخمت وتجاوزت أموال قارون، بالإضافة إلى الأراضي والشقق في المدن الجديدة والشاليهات في شرم الشيخ والغردقة والتي سجلها بأسماء أولاده وأحفاده وأقاربه حتى يظل بعيداً عن قبضة المسائلة، وحتى لا يكون ضحية قانون الكسب غير المشروع أو تشريع من أين لك هذا؟

حواديت وحكايات وأساطير تحكى عن هذا الرجل الذى يعد بحق أسطورة في الصحافة والثراء، والأقرب إلى قلب ووجدان وأذن الرئيس.. هذا الصحفي العبقري في التسلق والوصولية مثل شجرة اللبلاب.. بدأ حياته مندوباً صغيراً في وزارة النقل ثم تدرج بدهاء الثعالب حتى إرتقى الكرسي الأكبر في مؤسسة الأيام للصحافة والنشر.. كان الحظ حليفه والدأب والصبر سلاحه حتى صعد القمة، وثريع فوقها سنوات وسنوات.. وظلت المرأة كمخلوق أنثوى متميز مهما كان شكلها ووصفها هي غرامه الذى لا يفتر، وشغفه الذى لا يهدأ ونقطة ضعفه الوحيدة!

" جسد الأنثى معبدها .. تمتحه لمن تشاء من الدراويش
العاشقين العابدين .. فالمعبد لا يدخله إلا التائبون! "

تواصلت اللقاءات الودية بين حمد الغامدى وإيناس مندور .. دبت بينهما
الصداقة والألفة .. كان حمد يظنها حالة حب أو هكذا إعتبرها بالفعل
بينما هو بالنسبة لها مجرد صديق .. أو طبيب نفسى ترتاح للثثرة معه ، وهما
يعيشان كغريمين غريبين عن وطنهما العربى الكبير ، وبينهما صفات
كثيرة مشتركة ، ويتقاسمان الحنين للوطن.

ولما ألح فى رغبته بالزواج منها مرارًا وتكرارًا .. سألته سؤالاً ذكياً
خبثاً .. قالت :

_ ولماذا لا تتزوج فتاة أوروبية .. إنهن جميلات فارعات قويات أجسادهن
مثل نتف الثلج الأبيض ، وشعرهن كأسلاك الذهب الخالص ،
وأنوثتهن طاغية غامرة فياضة تروى ظمأ العطشى من أبناء الصحارى
مثلك يا حمد !

ضحكا سوياً ضحكة ذات مغزى مفهوم.

قال وكأنه يحكى فصولاً من رسالته الأكاديمية للدكتورة أمام لجنة
التحكيم :

_ لم يعد خافياً يا إيناس أن المرأة العربية لا تطولها الدراسات ،
والاختبارات المتعلقة بالأداء الجنسى ، والكفاءة ومكوناتها
النفسية ، وبدون خوض فى الأسباب التى أصبح أغلبها معروفاً للعامة
والمتخصصين .. تبقى المرأة العربية جنسياً عسيرة ، وغير مدركة مع
أن التكوين البيولوجى هو الصحة الجسدية التى تتمتع بها ، وجيناتها
الوراثية ، وكذلك وقوع أغلب النساء العربيات فى المنطقة الدافئة ،

أو الحارة مما يفرض ميولاً متكررة للتعبير عن الدافع العاطفى أو رغبة الجماع، لكن الرائج هو غياب هذه المرأة عن وضع المواصفات الجنسية للرجل، وعادة ما تكون هى ذاتها مادة لهذه المواصفات! تيسمت قائلة:

— يا دكتور حمد.. أقسم لك بشرف الأمة العربية أننى لم أفهم منك شيئاً.. ماذا تقصد؟!

اعتدل فى جلسته، ووضع كوب العصير من يده ثم قال:

— يا عزيزتى كتب التاريخ والسيرة تحدث عن نوعيات مختلفة من النساء الراغبات بمعاشرة من نوع خاص، وكذلك ذكرت نوعية من الرجال ومن أشهر الرجال المذكورين فى هذا المجال هو "ابن الغز" الشخصية التاريخية المعروفة الذى انتصر بذكورته، وفحولته على امرأة عربية كان الرجال يخافون مضاجعتها، وعندما عرفت بأن هناك رجالاً قوياً قادرًا على إروائها جسدياً بدأ التحدى، ووافقت تلك المرأة على معاشرة هذا الرجل، وبعد انتهائها من مضاجعته قالت للناس:

هل بالركب تجامعون النساء؟ والإشارة إلى الركية هنا مفهومة وواضحة الدلالة.. لكن الطريف أن العرب عرفوا نساء يتباهين بعدم وجود رجل قادر على إروائهن، واشباع احتياجاتهن النفسية والجسدية.. أى أن هناك إشارات معينة تثبت أن المرأة العربية حارة فى المضاجعة، وليس هناك أى رجل يقدر على إشباعها تمامًا!

قالت ايناس وقد شد الحديث المثير إبتهاها تمامًا:

— أظن أن ما تقصده بحديثك هو عن المرأة الأفريقية السمراء، وليست المرأة العربية البرونزية اللون.. أليس كذلك؟!

قال: هذه ليست مغالطة.. وأؤكد لك أن للمرأة السمراء خصوصية بالغة

فهى تعكس جسداً مشدوداً ممشوقاً مزنناً بالغموض ، والرائحة الغابية الحادة.. جسد ممسوك من شهوة بالغة العودة إلى التاريخ ، وإلى الحياة الأولى الشهوانية الهمجية.. كل امرأة أفريقية سمراء هى دافعة ضرائب وضحية ديون تاريخية وعرقية بغيضة.. بينما الأخريات يتمتعن بحماية لونية كثيفة لا يستلطن فى أغلب الأحيان مجازاة السمراء فى اكتساب الحب والرغبة.. المرأة الأفريقية السمراء فكرة حب ، ولذة لا نهائية بين أصناف البشر.

قاطعته إيناس بحلق وضيق وغيره:

— وبماذا تتميز المرأة السمراء عن غيرها من النساء فى الشرق والغرب

والشمال الأوروبى؟

أقول لك يا إيناس:

يمتاز جسد المرأة السمراء بصفرة حزن تتغلغل بين دهاليز اللون الأسود المسيطر.. هى أنثى لا تشبع من خلق المتعة ، كما تعد وجبات الطعام.. كما تقدم ناستازيا كأس الفودكا للأمير ميشكين حتى تتفحص مواطن رجولته لترضى اعجابها به.. تقول إحدى بطلات الأفريقى بول سونيك: جسدى لحظة غرام دائمة ، ولا وقت عندى إلا للمس ، ومباركة الشهوة.. الأجساد النسوية الأفريقية تولد فى عين الشهوة ولا تشبع من الفراش!

— أعتقد يا دكتور حمد أن هذا كلام غير واقعى على الإطلاق ، ولا

يصلح إلا فى كتب الأساطير والروايات!

— لا تنسى أن الروايات الأدبية تؤرخ للواقع الاجتماعى والانسانى بشكل

كبير

— بمعنى؟

— أقول لك.. فى روايات ماركيز يأتى الرجل المشتاق ، ويدهن المرأة

بمربى المشمش ثم يبدأ بتناوله من فوق جسد امرأته.. يلحق المشمش

بلسانه عن اليدين والعنق والسرة، ويواصل لعق المشمش عن البقعة
التي لن تأتي إلا مصحوبة بالنيران.. كل امرأة أفريقية تمارس الحب
بحجم امرأتين في أي مكان آخر في العالم.. إذا كان السرير هو
الذي سيطفئ الحب في الرواية فإن الجسد هو الذي يشعل تلك النار
من جديد.. الجسد الأسمر النسوي المتوحش القادم من أدغال أفريقيا
القارة السمراء الحنون!

— وكيف ترى الخلاف بين اللونين الأبيض والأسمر في المرأة؟
— يا عزيزتي.. يختلفون بين الأبيض والأسمر في الجسد.. هذا السر
العظيم لا يخرج من أفواه المتمتعين في العواصم بسهولة.. سر الجسد
الأسمر النسوي الممتلئ بأعذب الفاكهة الإستوائية.. تجيد المرأة
السمراء إمتاع نفسها بنفس القدر، فهي تدرك أن لذة الرجل طريق
يمضي باتجاه جسدها المعبد بانتظار اللحظة.. كلما استيقظت امرأة
أفريقية من نومها، وأبعدت غطاء السرير عن جسمها تتألاً أضاء
على الفخذين العاريتين، والخصر المشدود المتوتر.. إشباع المرأة
الأفريقية ليس أصعب من حل أزمت الفقر في تلك القارة العذراء
البكر!

وعندما تشبع المرأة الأفريقية من الرجل سينتهي الفقر في أفريقيا.. كل
امرأة في تلك الغابة عناق بين الجسد ونفسه.. على نحو يجعل من طالبى
الحب والمتعة طلاب علم ورهبان معرفة وثقافة!

— دعنا من المرأة الأفريقية.. خبرنى عن معلوماتك عن المرأة العربية يا
خبير شئون النساء؟

قال حمد الغامدى بثقة الحكماء وهدوء العلماء:

— تميل المرأة العربية إلى الضخامة في تكوين الجسد.. كالوركين
والفخذين والثديين، وإذا أضيف لهما طول في الجذع تكون المرأة قد
اكتسبت مواصفات قياسية للفعل العاطفى.. لكن أخطاء في الولادة

أو عملية التوليد يزيد من حجم عضوها التناسلي، ويجعله أكثر سرعة من ذي قبل، وهي مسألة معروفة علمياً وعملياً، إلا أن النقطة المهمة هنا أن المرأة العربية لا تليث أن تستجمع جمال وتناسق جسدها، وعودة أعضائها إلى حجمها الطبيعي إلا وتكون قد دخلت في حمل جديد، وولادة جديدة مما يبعدها عن أي إحساس سريع بالمتعة في ممارسة الحب، وذلك بعد التوسع الكبير الذي أصابها في كهف متعتها، وهنا تستقيل المرأة من ممارسة الرغبة، ويكون إرضائها لزوجها أمراً متعذراً.

قالت إيناس متسائلة بدهشة من غزارة معلوماته وثقافته النسوية الواسعة:

— وهل يعنى ذلك أن المرأة العربية أقل إثارة بالنسبة للرجل من المرأة الأفريقية والأوروبية؟
تبسم قائلاً:

— هذا سؤال في غاية الذكاء... على العموم المرأة العربية معشوقة بالنسبة للآخر، وهي مطلوبة في وطنها، ومرغوبة تماماً لكن احتجاب معايير المرأة عن اختيار المواصفات الجسدية للرجل، يجعل من حياتها العاطفية غامضة وصعبة، وإن كان هذا لا يعنى أن الحال مأساوية على طول الخط، وبظل البحث في منطقة معايير المرأة التي تحدد هي فيها مواصفات رجلها.. أسرع مكان يستدل به على المواصفات الذكورية التي تتطلبها النساء في الرجال نراها في الصحف، والقنوات التلفزيونية العربية التي تهتم بعرض رسائل الرغبة ما بين الرجل والمرأة.. وفي قراءة رسائل النساء اللواتي يرغبن في الزواج، تلمح أهم الصفات التي تتمناها في شريك حياتها!

تساءلت إيناس:

— وما أهم تلك الصفات التي تحلم بها المرأة في رجلها وشريك

— أقول لك.. الصفات الأساسية التي تركز عليها أغلب النساء العربيات الراغبات في الإقتران برجل ما ، هي طول القامة.. أغلب الرسائل إن لم يكن كلها تذكر العبارة التالية في المواصفات التي تريدها في الرجل: " أن يكون طويل القامة " ومن المعروف أن طلب المرأة للقامة الطويلة في الرجل هو بالأساس إحساس غريزي صرف، فالقامة الطويلة تعكس في نفس المرأة فحولة الرجل وخصوبته وسيطرته.. وبالتالي قدرته على الإرواء والإشباع.. طلب المرأة طول قامة الرجل هو طلب ينعكس لديها على بقية أعضائه.. ومن هنا فإن طلب المرأة العربية لطول القامة يعطى شيئاً ما عن دافعها الجنسي القوي الذي لا شك فيه على كل الأحوال وفي كل الظروف.

— وماذا أيضاً لديك يا عالم بيواطن أمور النساء ١٩ أكاد أجزم يا حمد أن رسالتك للدكتوراة في أسرار المرأة وليست في فنون الإدارة.. أليس كذلك ١٩

ضحك حمد وقهقهه عالياً ثم قال متجاهلاً تعليقيها :

— الصفة الروحية الأساسية التي ترد في رسائل الرغبات بالاقتران هي "اللطيف" في الرجل ، فأغلب الرسائل توجد فيها هذه العبارة " أن يقدر المرأة ويحترمها " أو " أن يكون لطيف العشرة " أو يحسن معاملة المرأة.. والإكثار من صفة اللطيف تشي برغبة المداعبة والاقتراب السلس من الشريك لا الاقتراب الخشن ومن طرف واحد.. الإصرار على صفة اللطيف عند الرجل هو طلب مسبق لنوعية من الممارسة التي يبدو أنها يجب أن تأتي مسبقة بمداعبات معينة!

وإذا انتبه القارئ إلى أن أغلب صاحبات الرسائل هن من المطلقات والأرامل فلا بد أنه سيتأكد من أن طلبهن لصفة اللطيف في الرجل جاء عن خبرة سابقة إما بحرمانهن من هذا اللطيف من الزوج السابق أو اعتيادهن

عليه قبل فقدانه ، وإن كنت أرجح حرمانهن منه في معظم الأحوال.

وأعرف امرأة مصرية مطلقة قالت لي ذات مرة: " أنا أكره حتى الرجل الجيد الطيب.. أنا أكره الرجل كرجل! " وقد وصلت هذه المرأة المسكينة إلى هذا الإحساس بسبب تعامل زوجها القاسي ، والمتوحش معها في الفراش وبسبب طبيعته الأنانية المستبدة الكسولة والمرضية.

— وما علاقة الجمع بين صفتي طول القامة واللفظ وحرص المرأة على تواضعهما في الرجل الذي تختاره؟

قال حمد بخبرة الحكيم الواعر المتعمق:

— إذا جمعنا صفة طول القامة جسدياً.. بصفة اللطاف روحياً.. وهما الصفتان اللتان تركز عليهما المرأة العربية ، فتكون النتيجة الواضحة أن للمرأة العربية ميلاً للرغبة الطويلة الأمد لا الرغبة القصيرة الوقت.. بالإضافة إلى أن لديها ميلاً للإشباع الكامل.. كما أن المعاشرة طويلة الأمد لا تتأتى إلا مع رجل يمتاز ببطء وصبر في الفراش ، لأن سرعة الرجل تحول لحظة المتعة عند المرأة إلى جحيم لا يحتمل.. وعندما تركز المرأة العربية على طول قامته الرجل فذلك لاحتمال قوى بأن طول قامته سيمنحه نوعاً من الرضا عن الذات يمكنه من السيطرة على دافعه الجسدي ، والتحكم في شهوته أطول فترة ممكنة ، وبالتالي السيطرة على اللحظة الحميمية الحاسمة ، خاصة وأن كثيراً من الرجال المغمورين الذين يعانون مشاكل في التعبير عن الذات يكون رد فعلهم العاطفي سريعاً ومحبطاً وسوداوياً.

قالت ايناس بجراًة:

— أعتقد أن طول القامة لا يضمن للرجل عنصر الفحولة ، والقوة في الفراش

قال بإعجاب:

— هذه ملاحظة في منتهى الذكاء.. وأؤكد لك أن اختيار المرأة العربية لطول القامة هو لضمان الحد الأدنى على الأقل من ثقة الرجل بنفسه، وبالتالي ميله لإشباع شريكته، وبسبب الطبيعة البيولوجية القوية، والخصبة للمرأة العربية التي تجعلها متأخرة في الوصول إلى لحظة السعادة الكاملة "الأورجيزم" مع شريك حياتها فإنها تصر على صفة اللطف.. اللطف يمكن ترجمته في شكل مداعبات وقبالات وحب وهمسات ساخنة مثيرة حتى تصل إلى لحظة الإرواء التي تشهدها مع الرجل.

— لكن يا حمد.. المرأة العربية مقهورة نفسياً وجسدياً تكبلها الثقافة المنغلقة، وتحريم التعرض للجسد والحديث عن شئونه وشجونته، لذلك هي دائماً متهمه بالتخلف العاطفي، وأنها لا تعرف إمتاع نفسها وإمتاع زوجها.. ألا تتفق معي؟

قال: برغم كل ميراث الثقافة المؤلم والمقيد لحريتها، وتحرر جسدها فإن المرأة العربية تحسن التعامل مع الرجل في اللحظات الحميمة، وهي تعرف كيف تساعده على إمتاعها وإمتاعه في الوقت ذاته..

لكن دعني أحكي لك تجربة شخصية.. من خلال متابعاتي لبعض الصديقات المتزوجات لهذا الشأن النسوي: أخبرتني امرأة أنها تحتاج لكاتم صوت وهي تمارس الحب بسبب قوة الصوت الذي تصدره تمتعاً وبهجة، وأن زوجها كان يتضايق من صرخاتها، وآهاتها خوفاً من أن يتسلل صوتهما إلى خارج غرفة النوم!

وهذه القصة تشي بقوة الإحساس لدى المرأة العربية، وأنها بحق من أفضل نساء العالم للزواج والمعايشة والحياة العاطفية المستقرة!

" لا أحد يمكنه التسلل إلى جحور الأفاعى سوى النمل! "

إرتاحت إيناس مندور لتقاليد السويسريين، وعقليتهم الحرة، وأجسادهم المتحررة وأحسّت أنها كان يجب أن تولد في الغرب الأوروبي المستير، وليس في الشرق العربي المكبل بأفكار ظلامية رجعية، هذا العالم المأخوذ رهينة للجهل والتخلف.. كانت تعرف في مصر عاهرات داعرات ساقطات يرتدين الحجاب، وتعرف أيضًا مومسات شاذات يحرصن على النقاب، يغطين الرأس والوجه والكفين، ويعرين العورتين!

تلك هي المأساة في بلادنا الشرقية.. كل المتناقضات حاضرة..

في الغرب الأوروبي حلمت إيناس بالحرية المطلقة، ووجدتها أكثر مما تتصور، وذات مساء كانت تتمشى في حديقة عامة كبيرة تعج باللون الأخضر والورود، وتبدو خالية تمامًا من الناس إلا قليلًا، وفوق العشائش هالها ما رأت.. كان المشهد مثيرًا للغاية.. شاب يمتطي فتاة بارعة الجمال، ونصفه الأسفل عارى تمامًا، والفتاة كذلك ومفتوحة الساقين أيضًا، والفتى يدخل ويخرج فيها بطريقة ميكانيكية، يلجها بعنف وعصية، والفتاة تتأوه تحته وتكاد تصرخ من متعة الألم، وألم المتعة، وكلاهما في قمة النشوة والشهوة.. وقفت إيناس مبهورة مبهوتة على بعد أمتار معدودة.. إنكأت على جذع شجرة، وظلت ترقب المنظر كما لو كانت تشاهد فيلم بورنو كامل الأوصاف، ومكتمل الإثارة، وفجأة لمحها الفتى وهو يبدل موقعه ليكون مضجعًا أسفل الفتاة بعد أن كان فوقها، وبسرعة إنقلب هاتفه النقال الملقى بجواره على العشب الأخضر، وأجرى اتصالاً والفتاة منهمكة في ممارسة الحب معه بشراهة.. تحدث الفتى من تحتها بأنفاس لاهثة وبكلمات سريعة بالفرنسية.. لم تسمع إيناس منها شيئًا يذكر، وما

هى إلا لحظات وجاءت عربة الشرطة تدوى بأبواقها الكلاسيكية ، ونزل منها ثلاثة رجال بملابسهم الرسمية الأنيقة ، وألقوا القبض على إيناس مندور ، لم تصدق إيناس أنهم كيدوا أنفسهم عناء المجئ للإمساك بها ، كانت تظن أنهم جاءوا للقبض على من يمارسون الحب جهاراً نهاراً فى حديقة عامة ، وعلى المأوى فى مكان مكشوف ومفتوح لكل العيون ، لكن الصفعة التى تلقتها ، والصدمة التى لطمتها أنهم جاءوا للقبض عليها ، وببلاغ من الفتى الجريء الذى يمارس الرذيلة فى الحديقة ، والتهمة التى وجهها لها رجال الشرطة السويسرية هى التلصص على الآخرين دون استئذان ، وحرمانهم من حقهم فى التمتع بالحرية ، والخصوصية التى كفلها الدستور والقانون السويسرى لجميع المواطنين بلا استثناء.. وفى قسم الشرطة ظلت تدافع عن نفسها دون جدوى حتى استأذنت فى إجراء مكالمة هاتفية لصديقتها جانيت التى جاءتها على الفور ، وتدخلت ودفعت غرامة قيمتها ألف يورو نظير إرتكاب مخالفة التعدى على خصوصية الآخرين ، ليس هذا فحسب بل وقعت إيناس مندور على إقرار بعدم تكرار هذه المخالفة وإلا عرضت نفسها للسجن.. خرجت إيناس مع جانيت ، وهى فى غاية الذهول لا تصدق ما حدث ، وبرغم ضيقها وغضبها من الموقف الصعب والطريقة المهينة التى تعرضت لها أثناء القبض عليها ، وسخافة استجواب رجال الشرطة لها ، ومعاملتها على أنها غبية جاهلة حمقاء جاءت من بلاد الشرق المتخلفة لتتكبد على أهل الغرب حياتهم ، وتدس أنفها فى شئونهم الحميمة والخاصة جداً ، إلا أنها وبرغم كل ذلك كانت فى أعماقها فى منتهى السعادة لأن هؤلاء الناس يحترمون حرية الإنسان وحقوقه إلى درجة التقديس ، ويحافظون على خصوصية المرء حتى ولو كانت تلك الخصوصية فجوراً ، وشذوذاً فى ميدان عام أو حديقة مفتوحة ، ولكل فرد حرية التصرف فى روحه وجسده.. كل شئ مباح ومتاح لا محرمات.. لا ممنوعات.. بوثيك السعادة والتحرر مفتوح الأبواب دائماً.

أوصلتها جانيت بسيارتها الفاخرة ، وأطمأنت عليها ، وقبّلتها واحتضنتها

وهي تودعها على وعد باللقاء في الغد ، وتحسست إيناس تضاريس
جسد صديقتها ، مست بقوة نتوآته وبروزاته.. لامست دهاليزه ومرتفعاته
وتجويفاته ، وهي تتحسر من أعماقها على هذا الجسد الذي لا يستمتع به
أحد ، وقالت جانباً وهي تخلص نفسها من بين يديها : يا إيناس هناك مفاجأة
كبيرة تنتظرك في ليلة الغد ، وسوف ترين مالا عين رأت ، وتسمعين مالا
أذن سمعت يا عزيزتى.. وتركتها وانصرفت ، بينما نظرات إيناس تتفحص
ملامحها من الخلف ، وتحقق في مؤخرتها بإمعان بنظرات رجالية شرهة ،
تعرف مواطن الجمال والاثارة أين تنام ، وكيف يتم إيقاظها في الوقت
المناسب وفي المكان المناسب.

...

" شئ عجيب.. المرأة تخاف وتفزع ثورات فأراً، ولا تخاف ولا
تقلق إذا ذهبت إلى دُئب في فراشه! "

في كواليس مؤسسة " الأيام " شهد ناجي شرف الدين العجب العجائب،
ومرت أمام عينيه أحداث عبثية لم تكن تخطر له يوماً على بال، وطافت
بمسامعه حكايات أغرب من الخيال الجامح، وتفوق تصور المجنون
والعقل معاً.. في الفترة التي انخرط فيها بمجلة " نجوم الفنون " مع ميرفت
العطيفي عرف الكثير عن حياة المشاهير الخاصة وهتك أسرارهم،
وانتهك فضائهم القذرة، عرف منهم الشاذ والخائن والداعروالعاهر
والأفاق، وعرف منهم أيضاً الفنانة الطاغية الحسن والجمال التي عرضت
جسدها على المخرج الكبير وجدى الشامى ليعبر عليه في الفراش ثم
تعبير هي يعد ذلك من خلاله إلى دور البطولة، عرف أيضاً من تدعى أنها
ملاك هبط من السماء وتبنى طفلاً من ملجأ الأيتام وترعاه لوجه الله، بينما
الحقيقة أنه ابنها الذي أنجبته في الحرام في لحظة حب جنونية طائشة،
وهجرها من غرس بذرتة في أحشائها!

نجوم براقعة تلمع، وتتلألأ أمام الناس بينما هم في الواقع شياطين تسعى
إلى الرذيلة والفاحشة، وارثكاب الكبائر واقتراف الموبقات، لكن
استوقفه في هذا الوسط.. الوسط الفني.. الذي أحبه في البداية، وانتهر به..
وكرهه ومقته إلى درجة البغض في النهاية!

شاب أربعيني العمر بدين أبيض وردي، متورد الخدين ناعم الشعر
كستنائي اللون، عيونه عسلية براقعة.. يعمل كمصور فوتوغرافي
بالمؤسسة، ونظراً لعلاقاته الواسعة بالفنانين والنجوم، وارتباطه معهم
بعلاقات غامضة ومشبوهة أطلقوا عليه.. " مصور النجوم "، وهو يمتلك
استوديو تصوير خاص به على أحدث طراز.. هذا الشاب ميسور الحال جداً..

إذا تكلم تلعثم، وإذا سكنت تملكه الخجل مثل عذراء فى خدرها ليلة زفافها!

فى الاستوديو الخاص به كانت تبرم الصفقات، وفى جوف الليل المعتم والسهرات الحمراء والحفلات الصاخبة فى مجتمع النجوم، والمشاهير كان يعثر دائماً على ضالته.. الطريف فى الأمر أن هذا الشاب الأعزب كان يقيم معظم الأيام والليالى فى الفنادق الكبيرة فئة الخمس نجوم، والمطلة على نهر النيل بصفة خاصة لتيسير عملياته السرية! كان ماهراً بارعاً فى تصوير النجوم والجميلات والأميرات الخليجيات، كما كان بارعاً أيضاً فى اصطلياد الحسنات، وتوريدهن إلى الأمراء العرب ورجال الأعمال من أصحاب المليارات هواة الإقامة فى الفنادق الفاخرة.

وكانت ليالى العهر والدعارة تقام فى كثير من الأحيان تحت إشرافه وبرعايته، ودوره رئيسى ومحورى فى عمليات تسهيل لقاءات الفراش، والاتفاق بين الأطراف منذ البداية وحتى النهاية.. بداية من السعر حتى ممارسة الحب مدفوع الأجر، وطبعاً نسبته فى كل عملية لا تقل عن ٥٠% من قيمة ما تتقاضاه الفنانة أو الحسناء التى يقودها إلى صاحب الحظ والتصيب لتمارس معه المتعة فى أحد الفنادق الفخمة، وأحياناً تزيد النسبة لتصل إلى ٦٠% لو كانت الأنثى نجمة كبيرة.. وذات مرة وفى إحدى الليالى كان يصور حفلة خاصة أقامها الأمير الثرى الوليد بن سلال بمناسبة شرائه سلسلة فتوات فضائية متخصصة فى الفن والرياضة والمنوعات، وكانت النجمة الجميلة ليلي عزمى متألئة فى الحفل المبهر، ومتوهجة بفسطان أحمر قانى نصف عارى يكشف عن صدرها النافر الناهض، وظهرها النحاسى الأملس المثير.. سال لعاب الأمير، وزاغت عينه على جسدها البيض الشهى، وعلى الفور استدعى الأمير مصور النجوم الفوتوغرافى الشاب البدين خالد طلعت وطلب منه أن يدعوها لقضاء ليلة حمراء مع الأمير فى أحد قصوره المتناثرة فى طول البلاد العربية وعرضها، تلعثم خالد كعادته، وتاهت منه

الحروف كالعادة وما عاد قادراً على النطق ثم قال:

— يا سيدى الأمير.. إن ليلى عزمى تختلف عن الأخريات فهى ترفض هذا الأمر نهائياً، وقد تبلغ عنى الشرطة لو فاتحتها فى الأمر، وتكون فضيحة لا أول لها ولا آخر!

قال الأمير محفزاً إياه:

يا خالد.. لقد سبق وقدمت لى من هن أكثر منها جمالاً.. هل نسيت أنك كنت همزة الوصل لى مع النجمة ميرفت حسين والنجمة دلال عبد العظيم، وسمية الخطاب وغادة عبد الراشد.. وكلهن فائحات شهيرات باهرات الحسن. هل نسيت يا خالد؟ عموماً اطمئن أنا أعرف أن الموضوع يحتاج منك للكثير من الجهد، ويحتاج منى إلى المزيد من المال والصبر حتى أتالها، وإن كنت غير قادر على الصبر دقيقة واحدة بعد الآن.. أريدها الآن.. الآن.

تلعثم المصور خالد طلعت مجدداً، وبدأ يتشاغل بالكاميرا ويعبث فيها استعداداً للتصوير.

قال الأمير بحزم جنرال عسكري صارم:

— إسمع يا خالد.. لك مليون جنيه لو نجحت فى إقناعها بقضاء ليلة واحدة معى.. وهى لها منى خمسة ملايين جنيه.. مبلغ مناسب أليس كذلك؟

لم يصدق خالد الأرقام التى يسمعها ورد بسرعة وحماس:

— أمرك.. أمرك.. يا سمو الأمير سأحاول والله.. مليون لى وخمسة لها.. هذا ظلم والله.. ليتنى كنت أنثى!

ضحك الأمير وقهقهه من قلبه قائلاً:

— مليونان لك لو نجحت فى مهمتك، ولاحظ أن الوقت كالسيف

تبسم خالد طلعت بإبتسامة عريضة وقال:

— الفلوس يا سمو الأمير تحرك الحجر وتحوله إلى ملين.. إن شاء الله

سوف أنجح، وقبل أن يمر أسبوع واحد ستكون الجميلة ليلى عزمى
فى مخدعك وبين أحضانك.. هى سوف تحظى بهذا الشرف يا سمو
الأمير!

وخلال ٤٨ ساعة قد كان.. خضعت فائقة الشاشة للملايين، وفتحت
فرجها للأمير الذى يشبه الصعلوك فى ليلة من ليالى ألف ليلة، وفتحت
خزائنها للملايين التى حصدها فى ليلة واحدة، ولكنها قررت ألا
تنتهى بنهاية تلك الليلة.. لقد صارت رفيقة خاصة وصاحبة دائمة للأمير،
والجميع فى الوسط الفنى والسياسى والصحفى، ومجتمع الليل والسهرات
والحفلات والأضواء والسينما والنجوم يعرف تمام المعرفة أنها أصبحت
النجمة الأكثر نفوذاً بملايين الأمير الخليجى بعد أن تحولت إلى محظيته
التي تتحكم فى كل قنواته ومحطاته الفضائية والأرضية، الإذاعية منها
والتلفزيونية.. ولها كلمة مسموعة فى تحريك ثروته، واقتطاع جزء كبير
منها إلى رصيدها فى البنوك.. ثروة المليونيير الاميراطور تفوق ثروة قارون
مئات المرات.. صارت تتحكم فى أمواله ومشروعاته وقنواته تمامًا مثلما
تتحكم فى جسده وعقله وقلبه!

" ليس هناك من يولد ضعيفاً بالوراثة.. ولكن الضعيف من
يجهل أسرار القوة بداخله! "

لم يكن خالد طلعت المصوراتى الفوتوغرافى الأشهر فى أوساط
الكبار، ونجوم مجتمع الليل يتوقف عند تصويرهم، بل كانت الكاميرا
ستاراً يتخفى خلفه ليروج بضاعته، ألا وهى توريد الحسناوات المصريات
للسياح العرب، وتصدير الفنانات الناشئات الصاعدات إلى مخرجى السينما،
ورجال الأعمال الكبار العتاة ذوى الثراء الفاحش والنفوذ الطاغى، حتى
وقعت الواقعة، وحلت الكارثة التى لم يكن يحسب لها أى حساب فى
يوم من الأيام، حدث ما حدث نتيجة صداقته الوطيدة مع رجل الأعمال
الشهير الملياردير همام مصطفى صاحب الشركات العقارية العملاقة،
والمشروعات الاستثمارية الضخمة وعضو مجلس الشورى عن الحزب
الحاكم، وهو رجل طموح جموح، عاشق للنساء بشتى ألوانهن وصورهن
وتضاريسهن.. تلك نقطة ضعفه الوحيدة والخطيرة.. هذا الديناصور المالى
صاحب إمبراطورية الثروة والسلطة والتجارة فى رحلة صعوده إلى عرش
الملايين خمس نساء جميلات شكلن معالم حياته فى مشوار كفاحه..
إحداهن تعرف عليها فى إحدى السهرات الصاخبة عن طريق المصور
الفوتوغرافى خالد طلعت.. وهى مطربة لبنانية مغمورة ومجنونة بالشهرة
والفن والمجد تدعى سوزان عبيد.. وقد تمكنت هذه المغمورة المجهولة
من حرمان صاحب الجاه والسلطان والصولجان والحصانة البرلمانية من
نور الحياة، ونسمات الحرية، أطلاحت بالملياردير خلف أسوار السجن..
وظلت روحه مهددة بالإعدام بسببها ما يقرب من ثلاثة أعوام!

أما المرأة الأولى فى حياة همام مصطفى فهى سيدة من الوسط الفنى
حيث إرتبطت بالنجمة المعتزلة "لورا" ورغم رفض والده مصطفى ميروك

بشدة إلا أنه تمسك بإختياره، وأصر على الزواج منها.. كان الأب فلاحاً عصامياً يعارض تلك الزيجة غير المتكافئة اجتماعياً وإنسانياً، ورأى أنها ستدمر حياة ابنه، وتبديد ثروته وتعرقل مسيرته ومع ذلك لم يقف أمام رغبة ابنه الجامحة فى "لورا".. هذه المرأة المطلقة من زوجها الممثل الشهير عاصم ذو الفقار بعد تورطه فى قضية مخدرات.. طلقت لورا نفسها من زوجها المدمن، وطلقت نفسها من الفن أيضاً.. اعتزلت التمثيل وارتدت الحجاب..

جاء زواج همام مصطفى من لورا قبل عقد من الزمان، كان عمره وقتها ٣٥ عاماً فيما تكبره هى بخمسة سنوات، ولم تستمر الحياة الزوجية بشكل طبيعي بينهما طويلاً لأن همام مصطفى رجل متقلب المزاج، متطرف الرغبات، جامع الأهواء، فنشبت بينهما خلافات ومشاكل كثيرة، وكانت النتيجة أن ألقى عليها يمين الطلاق مرتين، وعادت إليه مرة ثالثة، ثم تجددت الخلافات بينهما فعادا للانفصال والمشاحنات والشجار مجدداً، وفى هذه الأثناء تدخل والده وضغط عليه لكي يطلقها بصفة نهائية ويلا رجعة للمرة الثالثة!

أراد همام أن يعيد "لورا" إليه مرة أخرى بعد أن أحس أنه يشعر بالحنين إليها ويشتاق فعلاً لوجودها فى حياته، وأن حبها ملك عليه قلبه وتمكن من وجدانه.. وهنا علم أنه لايد من فتوى شرعية من دار الإفتاء المصرية، لأن الطلاق وقع ثلاث مرات، والمرة الثالثة مثبتة فى أوراق رسمية، وعلى الفور توجه همام مصطفى إلى دار الإفتاء، وادعى أنه رفض فى البداية أمام المأذون واسمه الشيخ عبد الفتاح الدويب مأذون منطقة الزمالك.. لكن والده أجبره على التوقيع على أوراق الطلاق رغماً عنه، ودون رضاه إلا أن دار الإفتاء خيبت ظن همام مصطفى، وأكدت له أن إثبات بطلان الطلاق إذا تم أمام مأذون لايد له من اللجوء إلى المحاكم الشرعية، ولكن همام تراجع عن هذه الخطوة أمام ضغوط أسرته، وخاصة والده ولم يكمل رغبته فى

العودة إلى زوجته السابقة ، وحبيبته النجمة المعتزلة لورا حتى لا يصطدم
بوالده من جديد ، وقد تكون العواقب وخيمة لا يقدر على احتمالها !

أما المرأة الثانية فى حياة رجل الأعمال الملياردير همام مصطفى فهى
هويدا التى اختارها له والده لتكون سنده فى مشوار الثروة والسلطة ،
وبالفعل استقر همام معها رديًا من الزمن ، وأصبح صاحب أقوى إمبراطورية
عقارية فى مصر والوطن العربى ودخل مجلس الشورى ، وحظى بعضوية
لجنة السياسات بالحزب الحاكم إضافة إلى أنه أنجب منها أولاده ، كل
ذلك ولم تظهر هويدا فى الصورة على الإطلاق ، ولم تسلم عليها الأضواء ،
ولم تحظ بالشهرة التى حظيت بها سوزان عبيد المطرية التى كانت مغمورة
قبل أن تدمر حياته ، وتهدم مستقبله وتقوض أركان إمبراطوريته !

المرأة الثالثة فى حياة همام مصطفى هى سوزان عبيد صاحبة القضية
الأشهر والأبشع فى الصحافة خلال السنوات العشر الأخيرة ، ارتبطت معه
بقصه حب مثيرة وجريئة وغريبة منذ قدومها إلى مصر هاربة من زوجها
اللبنانى عادل مسعود ، واستأجرت شقة فى شارع مصدق بحى الدقى
بالقاهرة ، وتعرفت على همام آنذاك من خلال صداقتها لمصور النجوم
خالد طلعت الذى رأى أمه وهو طفل صغير تخون والده مع عمه ، فبدت كل
الأمور بعد ذلك مختلطة فى ذهنه ولا مانع عنده من أن تكون كل النساء
لكل الرجال.. شعاره المرأة للجميع والحرية للجميع.. المهم ألا يكون
هناك أى ضغط أو إكراه.. فلا إكراه فى المعاشرة !

ومنذ البداية إنجذبت سوزان عبيد إلى همام مصطفى ، وبنفس القدر
كان هو أكثر إنجذابا إليها.. أحبها بجنون ، ووطد علاقته معها قرابة
الثلاث سنوات.. هى أكدت أنه حب عذرى رومانسى طاهر برئى لكن كل
الشواهد والأدلة وطبيعة الرجل الذئب الذى يعيش الحياة بطريقة عملية
ثبتت عكس ذلك تمامًا !

عائلة همام رفضت زواجه منها ، ووضعوا كل العراقيل والمطبات أمام هذا

المشروع وقيل أنه تزوجها عرفيًا ، ونظرًا لأن جواز سفرها الأصلي مثبت فيه أنها سيدة متزوجة من رجل الأعمال اللبناني عادل مسعود ، استخرج لها همام مصطفى جواز سفر جديدًا بعلاقاته وماله ونفوذه ، أثبت فيه أنها سيدة مطلقة ، ووطن همام أنه تمكن من إزاحة العقبة القانونية التى تحول بينه وبين الزواج من فتاة لبنان سوزان عبيد ، لكن والدته ظهرت فى الصورة ، ورفضت إتمام هذه الزيجة بإصرار وعناد لا يلين ، فما كان من همام إلا أن نظم رحلة عمرة إلى الأراضى الحجازية المقدسة ، وهناك كان اللقاء المرتقب بين سوزان وغريمها أم همام ، ودارت بينهما حوارات وأحداث ومواقف وتفاصيل قريت بينهما ، لكن ظلت أم همام على موقفها الصلب المتشدد الراض لزوج ابنها من هذه المطرية المغمورة ، أو نصف المشهورة التى لم تصدر سوى ألبوم غنائى واحد يتيم!

استغلت سوزان ثراء همام ، وتجولت معه فى بلدان كثيرة من العالم بطائرته الخاصة ، وعاشت كأميرة فى القاهرة وشرم الشيخ والغردقة ومارينا ، وكان الرجل كريمًا معها إلى أقصى درجات الكرم ، فأغلق عليها بالأموال الطائلة ، وحقق لها ما كانت متمسكة به لأقصى حد ألا وهو تطليق زوجته أم أولاده ، فكان دائمًا يتهرب من رغبتها تلك بإغراقها بالأموال والهدايا والمجوهرات ، وأنتج لها بعض الأغنيات فى سويسرا ، وللأسف الشديد لم تذع هذه الأغاني حتى الآن لأسباب غامضة ومجهولة.. وقيل إن سوزان عبيد كانت شاهدة على معظم الاتفاقات المتعلقة بأراضى مشروعه الأضخم "بلدى" لبناء وتشبيد العقارات والفيلات والشقق السكنية ، وكان همام يستقبل فى كثير من الأحيان فى بيتها عددًا من ضيوفه المهمين والكبار فى مجال المال والاستثمار فى الأراضى والعقارات ، كما كانت شقتها أيضًا ملتقى لعدد من أكابر السياسة ورموز البرلمان والحزب.

فجأة وبلا مقدمات دبت الخلافات بين سوزان وهمام بسبب الغيرة..

جن جنونه وقرر الانتقام منها ، ودبر لقتلها فى دى مدينة الثراء والعقارات وسوق المال ، وذلك من خلال استخدام ضابط أمن دولة سابق أعطاه مليونى دولار لينفذ جريمته خارج الحدود ، وأوصلته تلك الخطة الجهنمية إلى حبل المشنقة!

لكن من تكون المرأة الرابعة فى حياة همام مصطفى العاطفية ، وكيف ارتبط بها هذا العاشق الولهان للمال والسلطة والجوارى الحسان؟
المرأة الرابعة فى أجندته الحمراء هى المذبةقة اللامعة ياسمين حسان ، وقد ربطته بها علاقة عاطفية غرامية سريعة ، وعابرة ثم تزوجها فوراً حتى تعلم سوزان عبيد أنها بالنسبة له مرحلة وانتهت للأبد من حياته بدليل زواجه من صديقتها المذبةقة!

وكانه أراد أن يؤكد لها ، ويثير حنقها ويغيرتها ليس إلا!
وبالفعل تزوج ياسمين حسان ، واليوم التالى مباشرة لنشر خبر زواجه فى الصحف والمجلات ثم القبض عليه ، وخضع للتحقيقات فى مكتب النائب العام بتهمة التحريض على قتل المطربة اللبنانية سوزان عبيد ، وبرغم ساعات العسل القليلة التى عاشتها ياسمين حسان مع همام إلا أنها نصبت نفسها مدافعة قوياً عنه أمام الناس ووسائل الإعلام والرأى العام ، وأشادت كثيراً بخلقه الرفيع ، وكرم أخلاقه وحسن سلوكه ، وبرأئه من دم سوزان ، لكنها سرعان ما توارت عن الأضواء واختفت عن العيون ، ولم تعد تحضر جلسات محاكمته ، وصدرت أوامر عليا من وزير الإعلام بمنعها من الظهور على شاشة التلفزيون المصرى ، وعدم تقديمها لأى برنامج لحين حسم قضية همام مصطفى فى ساحات القضاء ، والتى إعتبرها الوزير قضية رأى عام بامتياز!

" الحب سيناريو تقوم المرأة بتمثيله، ويقوم الرجل بتمويله! "

أظهرت جلسات محاكمة الملياردير همام مصطفى في قضية ذبح المطربة سوزان عبيد امرأة خامسة في حياته ألا وهي سمر شقيقته التي لعبت دوراً مهماً ، ولقبت بالدينامو.. إنها امرأة بمليون رجل ، فقد وقفت بجوار شقيقها في محنته بكل شجاعة وإصرار على براءته ، ولم تتغيب جلسة واحدة من جلسات محاكمته الطويلة والمتعددة ، وكانت طوال شهور المحاكمة هي المحرك الرئيسى للعائلة كلها ، وكانت هي الوحيدة من نساء العائلة التي تحضر إلى قاعة المحكمة من البداية إلى النهاية ، وظهرت سمر قوية صلبه متماسكة.. لذلك كان همام يلجأ إليها ، ويهمس في أذنها يبلغها بما يريد ، فتذهب مباشرة إلى المحامى الذى كان وزيراً سابقاً للعدل أثناء وجوده فى الصف الأول وأمام منصة المحكمة مباشرة ، وتتحدث معه وتأمره أن ينفذ رغبة شقيقها القابع فى القفص الحديدى!

حتى آخر جلسة حضرت المرأة القوية سمر مصطفى برغم تأكدها من أن الحكم سيكون بالإعدام ، ومع هذا جاءت لتوازى شقيقها وتقوى عزمه ، وتطمئنه بأنها لن تتخلى عنه ، ولن تيأس من دعمه ومساندته والوقوف إلى جواره طالما أن هناك فرصة للدفاع عنه ، وإنقاذ رقبتة من حبل المشنقة!

وقد كذب القاضى إيمانها بالإعدام ، وحكمت محكمة النقض بإلغاء حكم الإعدام الصادر بحق شقيقها همام مصطفى.. خيب القاضى ظنّها فكانت فى قمة السعادة ، ورقصت وقفزت فى الهواء من الفرحة بهستيرية وجنون!

فى هذه اللحظة أحست أن الله لن يتركها تحزن على شقيقها.

دخل مصور النجوم خالد طلعت فى استجوابات وتحقيقات لا أول لها ولا

آخر ضمن هذه القضية ، بصفته كان شاهداً على كل الأحداث والوقائع من البداية إلى النهاية ، منذ جاءت سوزان عبيد من بيروت واستقرت في القاهرة ٣ سنوات حتى هربت إلى عاصمة الضباب لتعيش مع رجل آخر في لندن ثم تعود لكي تستقر في مدينة دبي بعد مطاردة مستمرة من زوجها رجل الأعمال ومنظم الحفلات اللبناني عادل مسعود لتكون المدينة الإماراتية مستقرها الأخير الذي شهد نهايتها المأساوية ، ونحراها في ساعة نحس!

قدم خالد طلعت للنياحة والمحكمة كل ما يملك من صور ، ومعلومات تتعلق بسوزان وعلاقاتها المتعددة مع الرجال ، وبصفة خاصة الفترة التي قضتها مع همام مصطفى ، وكيف استضافها في أحد فنادقه الشهيرة المطلة على النيل على مدى أكثر من عامين ، وأنفق عليها حوالي خمسين مليون جنيه غير المجوهرات والماس والهدايا الثمينة الأخرى.

لكن من تكون سوزان عبيد تلك التي مزقت قلوب الرجال ، وفي النهاية مزقوها إرباً بسكين حاد شفرته قاتلة؟ ما تاريخها وماذا أنجزت؟

درست سوزان عبيد في كلية الصيدلة حتى السنة الثالثة ، ولم تكمل دراستها بعد أن تقدمت إلى برنامج "ستوديو الفن" وفازت بجدارة بالمركز الأول ، ونالت الميدالية الذهبية.. وسبق لها الزواج مرتين.. الأولى من مخرج تليفزيوني لبناني ، ولم تستمر حياتها الزوجية سوى ستة أشهر والثانية من عادل مسعود منظم حفلات ، وبعد عشرة أشهر طلبت الطلاق منه ، لكنه رفض تطليقها ، وتمسك بالحياة معها فأصرت على موقفها وانفصلت عنه ، وتركته وانتقلت إلى القاهرة وكان زوجها يملك حقوقاً فنية عليها من خلال عقود احتكار لشركته لإنتاج الألبومات الغنائية ، لذلك رفع ضدها دعوى قضائية في لبنان ، وطالب نقابة الموسيقيين في مصر بمنعها من ممارسة أي نشاط فني في هوليوود الشرق ، بل ونجح في منع القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية من عرض أغانيها وكليباتها على الشاشة وأمام الميكروفون.

عاشت حياة قصيرة لا تتجاوز الثلاثين عامًا، ورحلت بطريقة دراماتيكية جهنمية، حيث لقيت مصرعها في دبي عندما عُثر عليها مذبوحة في شقتها بعد أن عاجلها القاتل بمجرد دخوله الشقة بسكين على رقبتها في البرج السكنى الذى تقيم فيه، وذكرت شرطة دبي أن القاتل تم تصويره بكاميرات أمن البرج السكنى، وأنه غادر عائدًا إلى مصر بعد ساعة واحدة من إرتكابه الجريمة، وبالتعاون مع السلطات المصرية تم إلقاء القبض عليه، وهو ضابط أمن دولة سابق، ويعمل مديرًا لأمن أحد الفنادق المملوكة للملياردير همام مصطفى، والذي اعترف بتقاضيه مليوني دولار ثمن قتلها وإزهاق روحها..

ولأن القضية كبيرة، وتهم الرأي العام نظرًا لاستثمارات الملايين في البورصة وارتباط آلاف المواطنين بشركات وعقارات همام مصطفى، ولها جانب سياسى وفنى، واقتصادى كلفت ميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " بمؤسسة الأيام المحرر الصحفى ناجى شرف الدين بمتابعة القضية بالتفصيل مع إجراء حوارات مع أفراد أسرة سوزان عبيد وكذلك نساء همام مصطفى.. الناس تحب قراءة هذه الحوارات الإنسانية.. وبالتعاون مع زملائه المحررين أعد ملفًا متميزًا، وعرضه على رئيسة التحرير بعد أن أصبح بروفات جاهزة للطبع فأعجبت به وأثنت على الجهد الصحفى المبدول تحريريًا وإخراجيًا.

ولإعجابها بما فعله ناجى شرف الدين حاولت أن تعرب له عن تقديرها لجهوده كلفتة بكتابة عمود صحفى أو مقال ينشر مع ملف القضية التى اختار لها ناجى عنوان " الدم والعشق " .. وشعر بالسعادة والإمتنان لميرفت العطيفى وكتب مقالاً بعد أن زار همام مصطفى فى سجنه كتب يقول:

" إن قضية سوزان عبيد وحمام مصطفى أعادت إلى أذهان الناس مسلسل الجري والجماليات، وإن كان الواقع أن هذا المسلسل فى نسخته العربية يمكن أن يطلق عليه " المليونير والجماليات " .. لكن ما الذى يجعل رجل

أعمال ناجح وسياسى بارز من طراز فريد له مكانة عظيمة ، ومستقبل واعد فى حزب السلطة الحاكم ليصرف ملايينه بهذا البذخ على سوزان وحدها؟ إنها بكل تأكيد ليست ملكة جمال الكون ، وليست آخر اللبانيات الفاتحات كما أن أمواله الطائلة المتدفقة من كل صوب وحذب تستطيع أن تؤمن له أجمل جميلات الكون لو أراد وحتى نهاية العمر.. فماذا كان لدى سوزان عبيد أكثر مما لدى غيرها من مئات الجميلات اللواتى لا يكافن الرجل ربع ما أنفقه عليها همام مصطفى فى يوم واحد؟

ما الذى يجعل رجل أعمال له مشروعات عملاقة ، وشركات هائلة من الممكن أن تنهار من مجرد شائعة لأن يغامر باسمه وسمعته ، ومكانته ونفوذه وشركائه من أجل إقامة علاقة غرامية مشبوهة مع مطربة نصف مشهورة وعلى ذمة رجل آخر؟

أستبعد أن تكون لدى همام مصطفى شهوة التملك.. فماذا كانت سوزان عبيد ستضيف إليه؟ فالرجل لديه من الشهوة والمال والنفوذ ما يكفيه مدى الحياة ، وإذا لم تكن علاقته بها مثل غيرها من نوع تزواج المال والشهرة.. كما رأينا فى زيجات الفنانات من رجال أعمال لتكتمل دائرة الضوء والنجومية.

لقد كانت تلك الدائرة مكتملة تماماً حول همام مصطفى.. لكن السؤال الآن.. هل هو فعلاً وقع فى حبها ، وغامر بكل شئ من أجلها؟ ربما يعتبره الكثيرون سؤالاً ساذجاً ، ولكن ما الذى يجعل أولاد الملوك يتزوجون من عامة الشعب ، ويتنازل الرجال عن عروشهم ، وألقابهم من أجل نساء قد لا تبدو فيهن مسحة من الجمال؟

ولكن تحت سلطان وهم اسمه الغرام يفعل بعض الرجال ما نعتبره نحن العقلاء درباً من الجنون.. ألم يتنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش ليتزوج من المطلقة الأمريكية السيدة واليس سميبسون؟ ألم يتحدى الأمير تشارلز القوانين الملكية التى تحتم الزواج من عذراء ليتزوج من حبيبته المطلقة

كاميلا باركر التي عرفها في عام ١٩٧٠.. وبعد أكثر من عشرين عامًا تخللها زواج لها وآخر له وأولاد ينجح الأمير تشارلز في أن يتزوج حبيبته ليجمع بين الحب والعرش معًا!

أنا على يقين أن سوزان عبيد كانت تتمتع بذكاء أنشوى خارق لتجعل كل رجل ارتبط اسمها به يشعر أنه شمشون الجبار أو طرزان أو سوبرمان، وهو المخلص الذي على يديه وحده دون سواه يكون خلاصها من المعاناة التي برعت في نسجها حتى توهم كل رجل أنها أنثاه التي لا تشد غير الحب والحنان والحماية والأمان في كنفه، وحفنه من الدولارات يوميًا، ولذلك أغدقوا جميعًا عليها العطايا والهدايا والخدمات!

وزاد همام مصطفى عن الجميع، وفاضت هداياه وعطاياه داخل مصر وخارجها.. ومن أجل عيونها الساحرة أنقذ والدها وشقيقتها من تهمة وقضايا خطيرة..

لم يتخيل أنها من الممكن أن تتمرد عليه في يوم من الأيام، فقد أعطته الشعور بأنه هو الفارس الوحيد الذي نجح في اقتناء الحسناء الفاتنة التي تهوى الزواج وتعدد الرجال في حياتها على طريقة أفلام الويسترن.. أو كما يسمونها أهل الشام.. الخطيفة.. زواج الخطيفة!

الشيء المثير.. هو لماذا تلجأ سوزان عبيد لهذا السلوك في اقتناص المليونيرات من رجال الأعمال ونجوم المجتمع والمشاهير؟ ولماذا كلما أغدق عليها أحدهم أدارت إليه ظهرها لتبحث عن آخر يخلصها من سابقه؟ ولماذا تحرص دائمًا أبدًا على أن توحى لرجلها الجديد أنها شهيدة الحب والاخلاص، وضحية الرجل السابق الخائن؟ ألم يكفها رجال يتسابقون لإرضاء نزواتها وتطلعاتها، وشهوتها للحب والمال والشهرة؟ وبرغم أن قائمة غرامياتها والرجال في حياتها طويلة وممتدة إلا أنها محظوظة.. فما زال الذكور يتكالبون عليها مثل ملكة النحل.. وهمام مصطفى أيضًا لا يشبع، هو مثله تمامًا.. ألم يكفه ما عرف من النساء؟ هل تريد الأنثى أن

تكون محاطة بالحب والرعاية والحنان والمال من أكثر من رجل؟ هل ترغب المرأة في تعدد الأزواج؟ ماذا كان ينقصها في علاقتها مع همام مصطفى؟ وماذا كان ينقصه ليقیم معها علاقة.. فلهذه المال الذي لا ينتهی، والجاه والمركز والسلطان والصولجان والنساء أيضا؟

لماذا كل هذا.. وما سر حرصها على أن تتمادی في محاولة إستمالة والدته من أجل مباركة زواجهما؟

هناك خلل بالتأكيد في تركيبتها النفسية يجعلها تفتقد الشعور بالأمان والحماية ويدفعها للفرار هنا وهناك.. من حصن إلى حصن.. ومن حصن إلى حصن.. ومن بنك إلى بنك بحثاً عن الرجل المدجج بالمال، والحنان ليكون بمثابة الدرع الذي يحميها من غدر الزمن أو من غدر رجل آخر!

وربما كان لديها هاجس يربعها ألا وهو أن رأس مالها هو جمالها الذي سيذبل لا محالة مع الأيام، حتى وإن توافرت عمليات التجميل، وضمنها لها أحد عشاقها المغرمين.. كما ذكرت هي ذلك بنفسها!

كانت سوزان عبيد تشعر ببعض الراحة في بداية كل علاقة غرامية حتى تكتشف بعد ذلك أن كلمة الحب عند الفنانين والمشاهير مثل كلمة الديمقراطية عند السياسيين لا معنى لها في نهاية المطاف، وبعد فترة من الغرام الملهب تشعر بالفتور والملل، وتشتك في إمكانية دوام هذا الغرام، فتفضل أن تكون هي التي تبادر بهجر رجلها، وتركه عندما يستنفذ وطره منها، وتستنفذ وطرها منه.. ربما نظلمها لو قلنا أنها المرأة اللعوب، ولكنها كانت فتاة الحواديت التي آمنت تمام الإيمان أنها الجميلة التي يطاردها الوحوش المفترسة، آكلة لحوم الحسناوات، ونهش أجسادهن بلا رحمة!

ولكى تنصبر عليهم، وتهزمهم عليها أن تجعلهم دائماً في اشتباك، وصراع لا ينتهي من أجلها.. فالفنائم في كل الأحوال من نصيبها، والجروح والدماء، ووجع القلب من نصيبهم، سواء أكانوا قد وقعوا في حبها أم طمعوا في التلذذ بأنوثتها.. فهي مع كل واحد من رجالها قبل همام مصطفى كانت مشروع

فتانة ثرية تسير على الطريق الصحيح.. وتبقى الحقيقة الكاملة هي أن همام مصطفى لم يكسب من وراثتها دولارًا واحدًا بل خسر الملايين، فالرجل ليست لديه شركة إنتاج فني، ولا إعلانات ولا ألبومات غنائية ليستغل صوته وجمالها مثلما فعل سابقوه من الرجال، وخاصة زوجها اللبناني الأصل الفرنسي الجنسية عادل مسعود، بل قام همام بدور الرجل النبيل المنقذ الذي تطوع للدفاع عنها وحمايتها، وتعويضها عما مرت به في حياتها من أهوال وحرمان وقسوة.. وسواء إشتريك بالتحريض، والتمويل في جريمة قتلها أم لا إلا أنه كان يعاني مثلما يعاني أي رجل تخلت عنه امرأته التي أغدق عليها بلا حساب، وفوق كل ذلك كان الرجل مستعداً لأن يتحدى الدنيا كلها في سبيل الزواج منها مانحاً إياها اسمه الذي هو بكل تأكيد أهم من جسدها، واسمها.. من المرجح أنه كان يعاني، ويشعربهاانة رجولته، ويشعربالصدمة من أن يتمرد عليه تمثال جميل ساهم في صنعه بيده وماله!

إن همام مصطفى كان هو "بجماليون" الذي وقع في غرام تمثال العاج الذي صنعه بانامله، وزينه بالأزياء الملونة المبهرة، وجمله باللؤلؤ، وتوسل لفينوس أن تيث فيه الروح، وتهبه الحياة الأبدية، وفي مقابل ذلك أعطاه كل شيء وقدم لها الغالي والرخيص!

لكل ذلك لم يكن من المعقول أو المقبول في نظره أن يتمرد التمثال على صانعه المليونير همام مصطفى، والحسنة سوزان عبيد مجرد إخراج عصري برؤية عبقريّة جديدة قديمة لكوكبيل يمزج بين الجميلة والوحش، والجرئ والجماليات وأسطورة "بجماليون" الخالدة.. تلك هي فتاة الحواديت مع المليونير التي شغلت الرأي العام، والجورنالجية بصفة عامة في مؤسسة "الأيام" ومجلة "نجوم الفن" بصفة خاصة، والتي تورط فيها مصور النجوم المخنث خالد طلعت بشكل غير مباشر، ورصد تفاصيلها الجورنالجي الشاب ناجي شرف الدين بقلمه على مدار عدة أسابيع!

" إن العقول كالقلوب تذهب إلى حيث تقدر حق قدرها! "

فى ليلة رأس السنة أقامت جانبى حفلة فى منزلها ، ودعت مجموعة من زملائها وزميلاتها وأصدقائها فى العمل ، ومن بينهم بالطبع أعضاء الجالية العربية ، والمصريين المقيمين فى سويسرا سواء لدواعى العمل ، أو الهجرة الدائمة أو الدراسة.. فى الحفلة أكلوا وشربوا ، ورقصوا وغنوا ، وتناقشوا وأثناء الحفلة همست جانبى فى أذن إيناس مندور قائلة :

— هناك مفاجأة كبيرة فى انتظارك قبل نهاية الحفل.. مفاجأة ليس لها مثيل فى بلدك مصر ، وكل بلاد الشرق على الإطلاق.. نوع مختلف من المفاجآت مثير ومدهش لم تعرفوه أنتم يا أبناء الضاد الناطقون بالعربية.

ثم ضحكت بقهقهة عالية ، ولم تضيف كلمة أخرى ، بل تركتها وانصرفت والشروود يسيطر على إيناس.. سألت نفسها.. يا ترى ماذا تخبئ لى جانبى الملعونة؟

وبعد لحظات نسيت الأمر كله ، وجلست مع شاب فى العقد الرابع من عمره أسمر البشرة أسود الشعر.. خصالته ناعمة مسترسلة بإهمال فوق جبهته ، فى يده مسبحة لا تفارقه أبداً ، يرتدى بدلة رمادية اللون أنيقة ، هو إماراتى الجنسية ، ويدعى حمد الغامدى جاء إلى سويسرا للحصول على درجة الدكتوراه فى فنون الإدارة الحديثة ، وتطوير المجتمعات النامية.. وبسرعة حدثت ألفة بينهما.. قدم لها شراباً مثلاًجاً ، وأشعل لها سيجارة وتعارفا وتألفا!

تحدثا فى أمور شتى من بينها الغربة عن الوطن حتى جاء الحديث عن العرب ، وأحوالهم فى أوروبا بصفة عامة ، وسويسرا بصفة خاصة ، وشردت

إنّاس قليلاً بعد أن تذكرت كلمات جانبيت عن المفاجأة المذهلة التي
تنتظرها ، ولا مثيل لها في بلاد العرب وأوطان العروبة .

في تلك الأثناء كان حمد الغامدى يتحدث بفلسفة مشوية بالحزن عن
أحوال بنى جلدته من العرب.. قال لا فض قوم ولا انصرف عنه سامعوه بعد
أن فرغ من تجرع شرابه ، وألقى بقايا سيجارته :

لم يدرك العرب كعادتهم إلا بعد فوات الأوان ما ضاع منهم ، ونزيف
عقولهم المستمر بالهجرة إلى الشمال..

تساءلت إنّاس مندور: ماذا تقصد يا حمد؟

ثم عادت لشرودها وترقبها لمفاجأة جانبيت الفريدة من نوعها.. أحست
بشئ من التوتر ، ورجفة في جسدها خشية أن تكون المفاجأة صادمة
وكارثية.. غابت عن شرودها ، وعادت تتابع كلماته بنصف وعى ونصف
انتباه ، بينما واصل هو كلامه قائلاً :

_ لقد خسر العرب أكثر من ٨٠٠ ألف من أبنائهم العلماء أصحاب
العقول الفذة المبدعة ، والتخصصات الدقيقة النادرة المتفردة في
الهجرة إلى الدول الغنية المتقدمة.. هؤلاء العلماء هاجروا لأوروبا بعد
أن ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم العربية ، وخاضوا معارك ،
وصراعات ضارية مع القوى المعوقة للإبداع ، القاتلة للكفاءات ،
واستشرى الفساد والروتين ، بجانب فقر الإمكانيات ، وغياب نظام
تعليمى ، وعلمى قادر على إنتاج علماء جدد في دولهم التي لا تقدرهم
حق قدرهم ولا تتركهم في حالهم بل تشن عليهم الحرب ، وتتواطأ
ضدهم كل الظروف حتى أصبحت الأوطان العربية طاردة لعقولها
العبقرية ، وقاسية عليهم قسوة زوجة الأب على ابن زوجها !

وعلى العكس من ذلك تمامًا اتبعت الدول المتقدمة خاصة الولايات
المتحدة الأمريكية وكندا وبريطانيا تجاه هؤلاء العلماء سياسة " اصطيد
العقول " فحققت منها ٢٠٠ مليار دولار عائد سنوياً وذلك باستقبال ٥٠ ألف

عالم كل عام من ثمانى دول عربية هي مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وتونس والمغرب، والجزائر، وتوفير كل عوامل النجاح لهم حتى نبغ وذاع صيت معظمهم.

ونتيجة لنبوغ عدد كبير من العلماء العرب في التخصصات الدقيقة ورفضهم البقاء في الدول المبتعثين إليها، وذلك على عكس ما يفعله ٧٠٪ من المبعوثين العرب احتدم الصراع بين أجهزة المخابرات، ونشأت ظاهرة الاغتيالات العلمية الشهيرة لحوالى ٤٠ عالمًا عربيًا نوويًا من بينهم الدكتور مصطفى مشرفة صاحب نظرية النسبية الصغرى، وسميرة موسى التي توصلت إلى تفتيت ذرات رخيصة جدًا من المعادن، ومتاحة أيضًا لاستخدامها في إنتاج قنبلة ذرية قليلة التكاليف، وكذلك الحال مع الدكتور يحيى المشد عالم المفاعلات النووية.

ولأن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تستأثر وحدها بأكبر عدد من العلماء العرب، والرابع الأكبر منهم، فقد أطلق عدد من الدول الأوروبية واليابان والصين على الولايات المتحدة "صائد العقول" خاصة بعد أن أصدر الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٠ تشريعًا لمساعدة شركات صناعة التكنولوجيا والمعلومات على اصطيد العلماء حتى أصبح ثلث العلماء العاملين بوادى السيليكون الأمريكي للصناعات الإلكترونية من الذين ولدوا وتربوا وتعلموا في الدول العربية النامية واصطادتهم أمريكا وغيرها من القوى العظمى!

استفاقت ايناس على خطورة القضية، والأرقام والمعلومات التي يطرحها حمد الغامدي فتساءلت بإستكار:

وما المطلوب من العرب في رأيك لمواجهة هذه القرصنة الأمريكية؟
تيسم حمد قائلًا:

— سؤال في منتهى الذكاء.. المطلوب من العرب يا سيدتى كي يحدوا من اصطيد العقول العربية أن يتبنوا سياسات جديدة جاذبة للعلماء العرب

داخل وخارج الوطن العربي، تركز على الترفيه والجذب لا التضيق والطرد واستدراك هجرة العلماء إلى الداخل كتلك التي حدثت للعالم الجليل الدكتور جمال حمدان، وأودت بحياته بعد احساسه القاتل بغربته في وطنه.. وكانت النتيجة نهاية مأساوية!

احتسوا جميعاً كئوس الويسكى والشمبانيا، وأنواع أخرى فاخرة معتقة من الخمر اللذيذ، ورقصوا وغنوا.. كان عددهم لا يتجاوز الثلاثين.. وأصداء الموسيقى الكلاسيكية تصدح في المكان، وسط غلال من أضواء خافتة تسبغ الرومانسية على أجواء الحفلة، أوقفت جانباً فجأة مصدر الموسيقى، فالتفتوا جميعاً إليها.. بدت على ملامحها الجدية كما لو كانت ستلقى بياناً عسكرياً حاسماً أو ستعلن إنقلاباً ثورياً على نظام الحياة، وطبيعة الكون.. ثم قالت:

— الآن حانت اللحظة الحاسمة الفارقة التي لا مثيل لها في كل بلاد الشرق، ونظرت نحو إيناس نظرة ذات مغزى (وكثير من بلاد الغرب أيضاً.. الآن سنختتم الحفل الذي أقمنه على شرف " دافيد وساندرا " .. ثم أشارت إليهما.. هما كما تريان شابان رائعان في منتهى الجمال والحب والإنسجام.. جمعتهما قصة عاطفية خلابة منذ عام، وحتى اليوم لم يمارسا الحب سوياً بالمعنى الكامل.. هل تصدقون ذلك؟ عام كامل من الحب بلا ممارسة للحب.. يبدو أمراً غريباً هنا في أوروبا.. لقد قررا أن يقيما هذا الحفل هنا في هذا المكان، وفي هذه الليلة ووجها الدعوة لكم جميعاً لتشاركوهما فرحتهما بفض بكارة ساندرا.. الآن أمام عيونكم.. دافيد سيقوم بالمهمة وأنتم جميعاً سوف تشاهدونها حالاً، وسيتم تصوير هذا الحدث المثير بالفديو والموبايل، ولكم الحق في الاستمتاع بمشاهدة قص الشريط وإزالة الشمع الأحمر، وتسجيل هذه اللحظة النادرة.. لم تصدق إيناس الواقع، وشعرت أنها في حلم كئيب أو كابوس مفزع مزعج، وبعد أن انتهت جانباً من حديثها.. وعزفت الموسيقى من جديد، وكلهم يراقبون

المشهد ، وكان على رؤوسهم الطير الجارح ، بدأ دافيد ينزع عن ساندرا ملايسها قطعة قطعة حتى حانت اللحظة الحاسمة.. ونزع الفتى عن نفسه ملايسه هو أيضا ، وسط تصفيق الجميع وصيحاتهم.. صرخت ساندرا بمتعة مؤلمة وألم ممتع ، وسالت قطرات دم حمراء قانية على فخذيهما.. وإيناس تصرخ من أثر ما ترى ، ولا تغمض عينيها ، بل تبخلق فى ساندرا ، وما يجرى لها ، وكأنها هى التى فضت بكارثتها فى تلك اللحظة وليست ساندرا.. الباقون يهللون ويقفز بعضهم فى الهواء فرحاً ومرحاً والبعض الآخر يصور ، ويلتقط بالكاميرا والموبايل تفاصيل اللحظة المثيرة المدهشة الجريئة.. انفضت الحفلة الغربية ، وانتهت الليلة المريبة التى لم تشهد إيناس مثيلاً لها فى حياتها ، ولم تسمع عنها فى العوادي والأساطير ، وحكاوى ألف ليلة وليلة ، ولم تقرأ عن مثل هذا فى الكتب ، أو تشاهد ذلك فى الأفلام العربية ، ولا الأجنبية التى تفضلها منذ طفولتها.

وعندما همت بالخروج ، وهى شاردة تفكر فيما حدث ، وفيما رأت بعينيها منذ قليل جاءها صوت حمد الغامدى طالباً منها أن تسمح له بتوصيلها بسيارته ، هزت رأسها بابتسامة ساذجة دون أن تتطرق بكلمة واحدة ، ففهم الرجل ما يجول بخاطرهما ، وأدرك بسرعة ما تحس به وما تعانيه.. كانت تتخيل نفسها لو كانت مكان ساندرا.. كيف ستقابل هؤلاء الناس مرة أخرى؟ وبأى وجه تلقاهم؟

أدرك حمد الغامدى بذكائه وسرعة بديهته وقع الصدمة الفاضحة الجارحة عليها.. كانت فى قرارة نفسها تتساءل دون أن يسمعها.. لماذا يصبر بعض الناس على فضح أنفسهم طالما أن الله أتاح لهم نعمة الستر والكتمان ، وارتكاب كل المحرمات المبوقات فى السر؟

وكان حمد الغامدى كان يسمعها ، فقال الرجل المثقف واسع الإطلاع بلباقته وفطنته:

— هل تعرفين يا إيناس أن هناك بعض الرجال فى الصحراء الغربية ،

وتحديداً في بلاد المغرب العربي يمتنون فض البكارة بالنهاية عن العريس في ليلة الدخلة!٩

بدا عليها الاستغراب، وكسرت حاجز الصمت متسائلة:

— كيف يحدث ذلك يا حمد في جزء من الوطن العربي!٩
قال الرجل بثقة وهدوء:

— تحتقى بعض القبائل المتواجدة في منطقة الصحراء الغربية بليلة الدخلة وفق عادة غريبة جداً على مجتمعاتنا الشرقية العربية حيث ينوب رجل معروف يكون محل ثقة القبيلة عن العريس في فض بكارة العروس، ونسب عذريتها.. إذ يتسلل هذا الرجل إلى غرفة مطبقة بالظلام حيث تتمدد فيها العروس مستورة الوجه والجسد، لينعنى هذا الرجل صوبها متحسباً منطقة فرجها، ويدس يده بين فخذيها داخلاً إلى كهف المتعة فيطأ بكارتها بإصبعه، ثم ينسحب بهدوء عقب إنهاء هذه المهمة!
إن هذه الظاهرة يا إنياس طقس إرادي، ويرتبط في أحيان كثيرة بطقوس السحر.

وأحياناً أخرى يستعين العريس بامرأة لفض بكارة عروسه، خاصة حين يواجه صعوبة في الانتصاب أثناء مراسم الدخلة، وهو ما يعرف بالربيط حيث يظل العريس عاجزاً عن اختراق أسوار عروسه، وفك شفرة أنوثتها وإسقاط حاجز عذريتها حيث يكون مربوطاً، وعاجزاً بفعل فاعل ساحر كان أو ساحرة، وفي تلك الحالة يتم الاستعانة بالشياطين، والقوى الخفية لإصابة منطقة المركز المهيمن على أعضاء التناسل في المخ فلا يحدث الانتصاب في هذه الليلة الموعودة، ويصبح العريس مثل طفل صغير لم يبلغ الحلم، ويفشل اللقاء الحميم بين العروسين!

وهذه العملية السحرية تعتمد بالأساس على الفتح والإغلاق من خلال مجموعة الأدوات التي تفتح، وتغلق مثل القفل والمقص، والباب والشباك والصندوق!

كما أن ليلة الدخلة التى يطلق عليها المغاربة "الصباح" تشكل لحظة انتظار وترقب، ولهفة لدى جميع أفراد عائلة العريس والعروس لرؤية "الإزار" وهو ثوب أبيض ترتديه العروس فى تلك الليلة ليخضب بقطرات دم قليلة ترسم عنوان شرفها، وتجسد عفة وطهارة جسدها.

قالت إيناس مندور:

— أهذا صحيح.. أم أنه من صنع خيالك الجامح؟

ضحك حمد الغامدى قائلاً:

— فى هذه المناطق العربية تعود تلك الممارسات الغربية، واللامعقولة إلى تمسك القبائل هناك بمفهوم الشرف المقترن بالبركارة، وغشاء العذرية وللتأكد من الخبر اليقين لا بد أن يأتى من رجل غريب يكون محل ثقة القبيلة!

وفى معظم الأحيان يتفاخر هؤلاء الرجال فيما بينهم بعدد النساء اللواتى فضوا بكارتهن بأيديهم نيابة عن الأزواج فى ليلة العرس.. وبذلك يحظى هؤلاء الرجال الذين يمتنون أغرب مهنة فى التاريخ باحترام وتقدير القبيلة، واحتقار الأزواج الذين تركوا زوجاتهم للغرباء لكى يفضوا بدلاً منهم الشمع الأحمر، ويقصوا شريط افتتاح دخول الدنيا الجديدة!

" عيون الرجال التي لا تعشق الجمال في النساء .. عمياء ! "

دارت الأيام ومعها طالت المحادثات الهاتفية اليومية بين حمد الغامدي وإيناس مندور.. سرت حالة من الألفة والود بينهما ، شعر الشاب الإماراتي ببزوغ فجر الحب في قلبه ، وأدرك أن إيناس مندور المصرية سحرته بجمالها ، وأنوثتها ، ورشاقتها ، وكان يتصل بها يوميًا مرتين.. في الصباح وقبل النوم.. يتحدثان ويتجاذبان أطراف الحوار في كثير من الشئون الصغيرة ، ويتناقشان في الأمور الكبيرة.. لم يكن بينهما حواجز ولا خطوط حمراء.. هو يحمل عقلًا مستديرًا وهي تحمل عقلًا حرًا وجسدًا حرًا.. لا تكيلهما قيود الشرق وعاداته.. رفعها راية الحرية ، وتناقشا في كل شئ بداية من قضية فلسطين ، والصراع الأبدي بين العرب وإسرائيل ، وهيمنة أمريكا على العالم ، وحتى آلام الدورة الشهرية.. رفعها حاجب الحرج ، ونزعا برقع الخوف من المجتمع.. بل كانت حبال الود موصولة بينهما لأنهما عاشقان للحياة ، وينتميان لعالم واحد ، وجذور راسخة في الشرق ، وعقول طائفة تحلق في سماء الغرب.. وذات يوم ، وهما في ساعة صفاء ، وقد عزمها على العشاء في مطعم لبناني يقدم الوجبات الشرقية ، وعلى نغمات موسيقى موتسارت ، وضوء الشموع الخافت قدم لها هدية عبارة عن خاتم من الماس.. وقال لها :

— كل سنة وأنت طيبة.. اليوم عيد ميلادك.. أليس كذلك؟

ذهلت إيناس مندور من المفاجأة السارة.. وسألته :

— كيف عرفت يوم ميلادى ، وقد نسيته أنا شخصيًا؟

— من يسأل لا يتوهم.. كما تقولون أنتم في مصر.

— سألت من عن يوم ميلادى يا حمد؟

— سألت أوراقك وبياناتك في جهة عملك.

— لا.. لا أظن.. لا بد أنها المجنونة جانيث هي التي أخبرتك..

تلعثم حمد الغامدى، وضحك سعيداً بذكائها المتوقد وقال:

— لقد عرفت وإنتهى الأمر.. هل ضايقتك ذلك؟

— أبداً.. أبداً على العكس تماماً.. يسرني اهتمامك بدون شك ولكن..

— ولكن ماذا يا إيناس؟

لم تنطق.. لاذت بالصمت، فقد مد يده يتحسس يدها، ويمس بيطن يده
ظهر يدها الساكنة أمامه على الطاولة.. سحبتها بيضاء، وقد إحمر وجهها
خجلاً، وتوردت أوداجها..

قال:

— إيناس.. أريد أن أتزوجك.. ما رأيك؟

— تتزوجنى.. هكذا مرة واحدة؟

— نعم.. أتزوجك مرة واحدة.. وهل يمكن أن أتزوجك على مراحل؟

ضحكت وقالت:

— لا.. لا.. ليس قصدى ولكن أنت تعرف أننى مصرية، وفى مصر أهلى
وناسى، ولا بد فى مثل هذه الحالات من التحديث مع الأسرة، وإجراءات
كثيرة يجب مراعاتها والالتزام بها.

— لو وافقت يا إيناس فأنا مستعد لأن أسافر إلى مصر، وأفعل أى شئ
من أجلك.. ويشرفنى طبعاً أن ألتقى مع أفراد أسرتك وأطلب يدك منهم
قالت إيناس:

— وماذا عن أهلك وأسرتك أنت يا حمد فى الإمارات؟ مع العلم بأننى لا
أعرف عنك إلا أقل القليل!

— وماذا تريد أن تعرفنى عني يا إيناس؟

— أريد أن أعرف رأى عائلتك يا حمد فى فكرة الزواج من فتاة مصرية

مثلاً.. وهل يرحبون بهذا الزواج أم لا.. وأشياء أخرى كثيرة.. أظن أنك تعجلت فى هذا الطلب يا حمد؟

— لا.. لا والله يا إيناس لم أتعجل على الإطلاق، بل العكس تماماً.. لقد تأخرت وتجاوز عمري الأربعين!

— إذن دعنى أسألك سؤالين يا حمد..

— إسألى يا سيدتى كما تشائين..

السؤال الأول هو: ألا تخشى الزواج من فتاة غير إماراتية؟

تبسم حمد قائلاً:

— أقولها لك يا إيناس بكل ثقة.. أنا أفضلها مصرية.. صحيح إن أحدث دراسة علمية صدرت تؤكد أن المرأة المصرية صاحبة الرقم الأعلى فى ضرب زوجها بنسبة وصلت إلى ٢٨% متفوقة بذلك على المرأة الأمريكية التى جاءت فى المرتبة الثانية من حيث ضربها لزوجها بنسبة بلغت ٢٣% بينما جاءت المرأة الإنجليزية فى المرتبة الثالثة بنسبة ١٧% ثم المرأة الهندية التى جاءت فى المرتبة الرابعة بنسبة ١١%.

ضحكت إيناس مندور من قلبها قائلة:

— ألا تنسى أبداً أنك باحث، وتعد رسالة دكتوراة؟ دائماً تتحدث بشكل رسمى وعلمى موثق بالمعلومات والأرقام!

— عموماً يا إيناس أنا أفضل المرأة المصرية على غيرها من بنات حواء فى شتى بلاد العالم برغم ما يقال من ضربها للزوج أو التخلص منه، وتعدد وسائلها فى ذلك الأمر من السكين والسم والأسلحة النارية وماء النار.. وأحياناً المقشّة، وهى أخف أسلحتها فى معركتها المنزلية ليصبح الرجال دمعتهم على خدهم! وبدلاً من أن يصرخ الزوج سى السيد بأعلى صوته فى الست أمينة فوجئ بها تصرخ فيه، ولو عاش تجيب محفوظ حتى يومنا هذا لأمعن النظر من جديد فى رؤيته للعلاقة بين الرجل

والمرأة، وتفض يديه من رائحته الثلاثية " السكرية ، قصر الشوق ،
بين القصرين " بعد أن أصبح الرجال بفعل تحولات الزمن هم الجنس
اللطيف ، والضعيف!

واليوم أصبح من المألوف أن نرى ونسمع زوجًا يستغيث من بطش زوجته
التي تضربه ، وتشكل به كلما حانت لها الفرصة ، وسمحت لها الظروف..
ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تيسمت إيناس متدور وقالت بنبرة فيها ود وعتاب رقيق:

— كل هذا فى قلبك وتكتمه؟ عمومًا لا تصدق كل ما يقال عن المرأة
المصرية.. فهى الأم المناضلة الرعوم ، والزوجة الوفية المخلصة ،
والحبيبة العاشقة المتيمة.. المرأة المصرية يا سيدى صنعت الرجال
وأهدت الدنيا العلماء والحكماء والميدعين فى كل المجالات..
شيدت أركان الحضارات عبر حقب التاريخ!

— لقد أجبت عن سؤالى الأول يا حمد.. أما السؤال الثانى فهو:

لماذا تأخرت فى الزواج حتى وصلت سن الأربعين أو تجاوزتها؟
تتهدد بعمق ، ويدت الجدية على ملامحه كأنه يفكر فى أمر جليل ثم
قال:

— تأخرت فى الزواج لأننى أحب النساء!

ضحكت بصوت مرتفع:

— كيف هذا؟ المفروض أن يحدث العكس.. بمعنى أنه طالما أنك
تحب النساء كان يجب الاقتران بواحدة متهن قبل الآن بعشرين عامًا.
— سوف أعترف لك وأمرى إلى الله:

— ليس من هواياتى حرق أكباد النساء.. وليس من هواياتى التحرش
بالجميلات أو حتى لعب الورق ، وتصفح الجرائد الصفراء ، ولم أعتد
يومًا على النوم بين ذراعى أميرة حسناء سمراء سواء كانت بأعين

سوداء ، أو شقراء بأعين زرقاء.. أنا لم أجد يوماً امرأة أحيها ، وكان سيف الحجاج خلف ظهرى لأننى ببساطة أكره الاستبداد ، ولست حفيد شهريار حتى أغتال كل ليلة على الفراش واحدة ، ولا أنا سليل آل فرعون حتى أبني أهراماً من رؤوس الإماء ، وحلمات البنات ، ولم أكن فى حياتى زير نساء حتى أمضى ساعات الليل بأكملها ، وأنا أسمع فى شوارع المدن المخملية.. عساي أحظى بامرأة طاغية الأنوثة تحجب بنهديها قرص الشمس ، وتجعل الشمس تشرق فى المساء ، أنا لست مهتماً بالتلقيح فى أوساط الحسنات عن سراويل الجينز الضيقة ، وعن الصدور العارية ونادراً ما أدع عيني تسافر عبر جسد امرأة..

سألته ايناس متدور بدهشة:

— وهل أنت بائع الحب؟

رد عليها بتلقائية:

— لا.. لا لست أنا الذى يبيع كلام الحب بالدراهم ، ولست من الذين لا يرون الوردة جميلة إلا عندما يقطفونها ، وكل من يظن أننى لا أرى فى المرأة سوى الجسد والفزل والإغراء إما مخدوع فى شخصى أو واهم..

لمعت عينا ايناس بانبهار ، وسألته وحمرة الخجل تضح فى وجنتيها:

— ولماذا تحب النساء يا دنجوان؟

قال بثقة وأريحية:

— أنا أحب النساء ولا أنكر ذلك.. أنا أحب حتى أتمكن من الحياة وحتى لا أرى كوابيس الأحلام ، ولست مهتماً بتعداد النساء اللواتي أعرفهن ، لأننى ببساطة أكره الأرقام ، وآخر شئ أفكر فيه بعد كل تجربة حب هى الاحتفاظ بالأسماء!

— وهل أنت ضعيف أمام جمال النساء يا حمد؟

— أحب النساء ، ولا أنكر ذلك ، والعين حين ترى الجمال ولا تبالى به إما أنها باردة أو مخمورة أو عمياء!

— أحب النساء... نعم.. أحب النساء ، فهن حديقة ورد لا تعرف الإنهاء ، أحب النساء ولا أنكر ذلك ، ولولا هن لكان مذاق الحياة علقماً ، ولكانت كلمات العشق والكراهية سواء بسواء!

— وما الذى يغريك يا حمد فى بنات حواء؟!

— أحب النساء ولا أنكر ، وتغرينى المرأة الجميلة ، ويذبحنى ذلك الشعر الأسود الملقى على ظهرها ، ويفتننى ذلك الكحل الدامس فى رموشها ، لكن بعد دقائق من زيارتى عقلها ، إما أن تظل فى عيني جميلة ومثيرة وفاتنة ، وإما تلحق بالأخريات ، وتذوب كالمح فى كوب ماء!

أنا يا إيناس الذى لا يئأس من البحث عن الحب فى كل مكان.. أبحث عنه فى أعشاش العصافير ، وفى رحيق أزهار الرمان.. أبحث عن حب يعترف بأننى إنسان ، حب يدفعنى للإحساس بأننى مالك هذا العالم ، وشاعر هذا العصر والزمان.. إن الحب يا سيدتى هو عصارة كل الثقافات ، وكل من لم يحس به إما بارد أو جاف ، أو تمثال مجهول الهوية معرض فى أى لحظة للنسيان ، أو طائر خرافى لم يستطع التحليق يوماً فى السماء!

— ومن أنت يا حمد هل أنت روميو العصر والأوان؟ أم مجنون ليلى هارب من أسوار التاريخ ورمال الصحارى ، وقلاع الزمن؟!

— أنا يا إيناس ويكل بساطة أحب أن تكون لى حبيبة تفهم الحب الذى يستوطن عيني وتحتضنه وتهدهده.. أحب أن تكون لى حبيبة تهوى الشعر العربى المنقوش فوق جسدى ولا تكرهه ، أبحث عن امرأة تعلم جيداً أننى جبل بركان من المشاعر تكسوه ثلوج الكبرياء ، وأن تعلم جيداً أننى فخور جداً بذاتى وعروبتى وجنسيتى ، ولست مستعداً أن أغير جلدى من أجل عيون امرأة فائقة الذكاء ، لذلك ومنذ بدأت التقهيب والبحث ، وأنا أفتش فى داخل الأنثى العربية عن المرأة الإستثناء.. أبحث عن امرأة لها

القدرة على كتابة تاريخي من جديد ، ولها القدرة على إعادة الدفء لروحي
من جديد.. امرأة بدون قبلة منها كل صباح لا أستطيع المضي قدمًا في
يومي والبقاء على قيد الحب والحياة!

بحثت وبحثت ، ومازلت أبحث عن المرأة التي أتعلم منها كل ليلة آلاف
الأشياء.. امرأة توقف الأرض حين تغضب مني ، وحين تبتسم في وجهي
تشرق دون أوانها شمسي ، ويصل نورها إلى كل البسطاء ، فتشتطويًا
في أعين النساء من حولي عن ولادة ، وعن ليلي العامرية وعن الخنساء ، ولم
أجد حتى اللحظة سوى أجساد متعبة من اليقاء.. لم أجد سوى قلوب رمي
بها القدر من شاطئ المعاناة ، لم أجد سوى نساء يخجلن من اكتشاف
أجسادهن في لحظة تأمل وإصغاء.. لم أجد سوى نساء لا يتعبن من الوقوف
طويلاً أمام المرأة في محاولة يائسة لتجميل أنوثته تعانين من زمن الكبت
والقمع والإقصاء ، أنا وبكل بساطة أبحث عن امرأة تعلم جيداً ماذا تريد
منى ، ولا تتركني واقفاً أمامها لساعات لربما أستطيع التحدث مع كائن
لا يميز بين الأرض والسماء!

أنا وبكل بساطة أبحث عن امرأة لها القدرة على استيعاب مخيلتي التي لا
حدود لها.. وعلى السباحة في محيطاتي التي لا شواطئ لها.. امرأة تملك ما
يكفي من الذكاء حتى تجعلني في كل موعد أنوثه في أنوثتها.. أبحث عن
امرأة شريرة تجعلني بعد كل قبلة أنا المقتول الوحيد ، والشهيد الوحيد ،
والخاسر الوحيد.. أبحث عن امرأة تكسر بجسمها كل أسلحتي ، وتجعلني
أنا وذكورتى أقزاماً تلهو بنا كما تشاء.. أبحث عن امرأة برقبتها وحنانها
تجعل أوراقى تمزق نفسها ، فهي مهما كتبت عنها ، وسأكتب لن أوفيها
حقها لأنها قادرة بسحرها أن تمزق الكون إلى أشلاء..!

تفرست إناس ملامحه ، وحذقت في عينيه قائلة:

— وماذا أيضاً؟

— أبحث عن امرأة تغفر لي إذا فاض نهر جنوني ، وإذا ما التهمت في لحظة

طيش منى شفاهها المتحضرة الملساء.. أبحث عن امرأة تستطيع إعادة شحن بطارية الحياة فى روحى وجسدى كلما شحت أمطارى، وتنعش قلبى الذى نال منه الإجهاد، وهزمته الهموم والنوائب هزيمة نكراء..

— وماذا فى جعبتك أيضاً يا عاشق النساء؟

— أبحث عن أنثى أحس بين ذراعها أننى الرجل الوحيد الناضج فى هذا العالم وأن باقى الرجال من حولى مجرد أطفال تغساء بؤساء.. أبحث عن امرأة تكون لى وحدى، وأكون لها العالم بأسره.. امرأة تطرد من فصولى الخريف والشتاء..

— وماذا تريد أن تكون بالنسبة لك؟

— أنا أبحث عن امرأة تفهمنى من نظرة عيني.. امرأة تضيق كل لحظة شيئاً جديداً لشخصيتى.. امرأة تبنى لى قصيراً صغيراً فى أعماق قلبها.. امرأة تحببني أكثر من نفسها حتى أحبها أكثر من نفسى.. أبحث عن امرأة لا تسألنى عن ماضى الغامض، ولا عن النساء اللواتي أحبيت، ولا عن الجرائم التي إقترفت.. امرأة لها القدرة على التعايش مع جنونى، ومع صور جميلات السينما العالمية المتاثرة فى غرفة نومى وعلى جدران ذاكرتى!

— هل تبحث عن امرأة للفراش؟ أم تبحث عن امرأة تمنحك الحب؟ وهل تأسى على الحب؟

— إنما يأسى على الحب النساء.. أنا يا ايناس أبحث عن امرأة تعطينى الحب وأمنحها الأمان.. امرأة تكون حقاً حبيبتى، ويكون الحب فى عروقه أهم من البلاطين والكرات الحمراء، أبحث عن حب يعيد لأيامى نكهتها المفقودة، ويعيد لقلبي ثوراته المخمودة.. حب يتحمل طيشى وعفويتى ومجونى!

— هذا عن المرأة.. لكن لو عاد بك الزمان إلى العشرين من عمرك.. ماذا تطلب من الزمان يا حمد؟

— أنا لا أطلب منه الكثير، أريده فقط أن يكون منصفاً بحقي، ويهديني
حبيبة بحركة من شفيتها تشئى لى ولها جاذبية فى الفضاء.. امرأة
حين تضحك توقع القمر فى خجله، وتجعل الأرض تشئى الدوران!
وأقول للزمان.. أنت خير من يعلم تكوينى.. أنت خير من يعلم أننى بدون
الحب رفات إنسان.. أنا أريد أن أحب.. لا قيمة لحياتى بدون امرأة.. العمر بلا
جدوى بدون النساء.. الأيام بلا أننى تشاركنى رغيغ الحلم جافة جداً، وأنا
بطبعى أحب المطر وأكره الجفاف.. الزمان أكثر من يعلم أن الحب الذى
لا يدمى القلب، ويجعله أشلاء متناثرة هو حب واهن ومشوه.. وأنا أحب أن
يصبح قلبى أشلاء!

" ممكن جداً أن تعطى دون أن تحب.. مستحيل أن تحب دون
أن تعطى! "

منذ سنوات يدق فتى غامض ، وغريب الأطوار وعجيب الصفات بلا ملل أو كلل على طيلة صفيح فى ملهى ليلي رخيص بقيو فى المدينة الواسعة المتلائة ، ويروى وقائع مدهشة ، يكشفها وكأنه يتوضأ ويتطهر من الآثام والذنوب والأدران.. ذلك الفتى هو " أوسكار " الذى توقف عن النمو فجأة ، ورفض الانتماء إلى عالم الكبار (وكان قد نجا من حرائق وجرائم ، وكوارث الحرب العالمية الثانية التى أشعلها النازى الألمانى أدولف هتلر ، وتجاسر على مواجهة أشباح النازية بدلاً من الهروب منها ، والانكفاء فى عقدة الذنب الجماعى.

هذه هى رواية " الطيلة الصفيح " رائعة الكاتب الألمانى الكبير " جونتير جراس " التى عكف ناجى شرف الدين فى تلك الليلة الباردة من أيام الشتاء الممطرة على قرائتها فى فراشه الدافئ.. هذه الرواية التى نشرها مبدع ألمانيا الفذ عام ١٩٥٩ وحملته على جناح إبداعها ، وتجليات دلالتها إلى آفاق الشهرة والفوز بجائزة نوبل للأدب ، وكان من أعلام الاشتراكية الديمقراطية ، وأقطابها لكنه أثر الابتعاد عن السياسة الحزبية منذ عام ١٩٩٤.

وإذا كان " جونتير جراس " قد ولى مدبراً من عنفوان المشهد السياسى ، فإن شاباً ألمانيا اسمه " أوسكار لافتتين " ظهر على الساحة ، وكان اشتراكياً ديمقراطياً.. وهب لنجدة الاشتراكيين من عثراتهم ، وتمكن عام ١٩٨٩ من إحياء الحزب ، وتولى زعامته ، وخاض الانتخابات التاريخية عام ١٩٩٨ ، وأطاح بالمستشار هيلموت كول رجل ألمانيا القوى ، وحزبه المسيحى الديمقراطى بعد ستة عشر عاماً قضاها فى السلطة ، وصار

جبرهارد شرودر مستشاراً لألمانيا ، وتولى أوسكار وزارة المالية.

ومعنى هذا التحول أن جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية قد تولى الحكم ، وكان نضرمته من الشباب الغاضبين إبان ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ وفى هذا السياق أصبح " أوسكار لافونتين " أقوى رجل فى ألمانيا ، وأخطر رجل فى أوروبا ، وكانت الصحف اليمينية تطلق عليه " أوسكار الأحمر " نظراً لأنه يمثل الجناح اليسارى التقليدى المناهض للرأسمالية المتوحشة التى أطلقتها أمريكا فى زمن العولمة)

وكما وصفت الصحف الأمر فإن الاشتراكية الديمقراطية ، بكل ما تتطوى عليه من فضائل العدل ، وقيم الديمقراطية تمثل أساساً راسخاً لنظام الحكم فى ألمانيا منذ بنى الآباء المؤسسون لألمانيا الغربية مفهوم " السوق الحرة الاجتماعية " وأكدوا نيذهم لنمط الرأسمالية الأمريكية ، وهو مفهوم يلتزم به اليمين ، ولا يحيد عنه اليسار .

وعندما تعرضت هذه التجربة الألمانية ، ونموذجها الاجتماعى الرائع لعاصفة العولمة الأمريكية ، واستهدفت تفكيك دولة الرفاه الاجتماعى ، حاول " أوسكار " التصدى لها . لكن رياحها كانت شرسة ، وجنحت بالمستشار شرودر إلا قليلاً نحو يمين الوسط ، لذلك استقال " أوسكار " من رئاسة الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم ، ومن منصبه كوزير للمالية ، واختفى عن الأنظار دون أن يثير ضجة غير أنه أثار جدلاً واسعاً عندما فاجأ الجميع ، وأصدر كتابه المهم " القلب يدق يساراً .

وسكن الفتى الجامح فى بيانه الشتوى الطويل ، ولم يخرج إلا بعد عشر سنوات ، فقد أسس حزباً يسارياً جديداً من السخاططين فى شرق ألمانيا ، والغاضبين فى غربها ، وحقق فوزاً باهراً فى الانتخابات الأخيرة ، لكن يد القدر الباطشة كانت له بالمرصاد فقد أصابه مرض عضال ، وعلى الفور إستقال من زعامة الحزب ، وأعلن إعتزاله العمل السياسى بصفة نهائية !

وعندما دوى النبأ فى المدينة ، وانتشر فى دروبها وأرجائها ، وخرج عازف

"الطيلة الصفيح" من الملهى الليلي إلى الشارع، وأخذ يدق على طيلته بعنف ويتمتع بحماس:

نعم القلب يدق يسار.. نعم القلب يدق يساراً!

وعندما تأكد الروائي "جونتر جراس" أن بطله الوديع المسالم ثمرد عليه، وخرج على النص، أدرك بما لا يدع مجالاً للشك أنه انحاز إلى أهل اليسار، ووقف في خندق العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان.

بعد فترة طويلة من القراءة بمتعة، ونشوة فرغ منها.. فقد كانت أحداث الرواية تجذبه وتشوقه، ولا يستطيع الفكاك منها، لكنه شعر بثقل في مثانته بما يؤلمه، ولم يعد قادراً على احتماله، نهض مهرولاً ثم دلف إلى الحمام أفرغ ما في مثانته على عجل، خرج الماء منه دافئاً ساخناً، فأحس بالارتياح.. تهدهد بعنق وعاد إلى فراشه الدافئ، وقبل أن يعاود القراءة مجدداً خطرت له فكرة أن يجلس قليلاً أمام الكمبيوتر، ويفتح بريده الإلكتروني الذي لم يتصفح منذ أكثر من أسبوع عساه يحمل إليه شيئاً جديداً له قيمة..

بمجرد أن فتح صفحة الرسائل الواردة فوجئ برسالة من إيناس مندور.. أسرع بفتحها بطريقة إلكترونية بلمسة سحرية من أنامله، وبدأ يقرأ ما جاء فيها بكل عناية وتركيز..

قالت إيناس مندور:

ناجى شرف الدين.. أنت أيها الصديق الرائع.. إنتى ألجأ إليك لأتحرر من الخوف الذى يعترينى.. ألجأ إليك لتحمينى من المجهول، وتقوينى وتستمع بقلبك الأخضر الطيب إلى أسرارى الصغيرة، وشئونى اليومية وهمومى وشجونى الكبيرة!

أحس أنك ثوأم روحى، وعقلى الذى أستطيع أن أفضض له وأبوح إليه بما يعنى لى، وبما ينغص على حياتى دون أن يخوننى أو يكتب عنى تقريراً إلى أمن الدولة!

أنت الشخص الوحيد الذى أفرإله..وإليك ملاذى مهما اتسع عالمى.. أنت وحدك أشعر معك بالأمان ، وأحكى لك بلا خجل ولا وجل.. أبوح بذنبى كأننى أحدث نفسى.. فلا لوم ولا عتاب ، وإنما قلب كبير ينصت إلى صغى وثورتى ، ويهدئ من جموحى وزروعتى!

إن الأشخاص والأمكنة فى عالمنا العربى كلها تحت المراقبة والتتصت.. والنساء بصفة خاصة يا عزيزى هن الأكثر تعرضاً للرقابة ، والتجسس والتلصص!

ها آنذا ألجأ إليك رغم آلاف الكيلومترات وبشاعة المسافات الفارقة بيننا لأقول لك ما لا أستطيع أن أقوله أمام مجتمع لا يعترف بسلطة غير سلطة الذكور أو بأراء وأفكار غير أراء وأفكار الذكور.. فأننا أنشى تقف فى الخمل الأول للمواجهة.. تقاتل بشجاعة ، وبمسالة فدائى ، وتصر فى أحلك الظروف على التفوق والنصر ، وتؤمن بأن زمن الينفسج قادم.. قادم لامحالة.

صحيح إن واقعنا العربى فى منتهى البشاعة والقمامة ، ولكن هل هذه الصورة نهائية ، وغير قابلة للتعديل أو التجميل؟

أعتقد يا ناجى يا صديقى الغالى أن حركة التاريخ تعلمنا أن للحضارة مداراً ولالانحطاط مداراً.. النقطة التى كانت فى القمة قد تصير سفحاً.. والنقطة التى كانت فى السفح قد تغدو فوق القمة ذات يوم.

ومن المؤكد أن عصور الانحطاط ليست نهائية ، ولن تكون كذلك إلا إذا ضرب الانحطاط إرادة الأمة بكاملها ، وأنا يا صديقى أظن وليس كل الظن إثم أن ارادة الأمة ما تزال قوية عفية. وها هى القوى الشعبية مازالت تتحرك.

وليسست المقاومة اللبنانية لجيش الاحتلال الاسرائيلى فى الجنوب اللبنانى ، ومزارع شيعا ومقاومة الفلسطينيين فى الأرض المحتلة سوى ارهاصات الغضب الشعبى الذى يتشكل مثل الأنهار تحت سطح التاريخ.

ولا تنسى يا صديقى أنتى مثلك أحب أن أقرأ المستقبل بعيون البسطاء
والطيبين والأطفال..

وليكن واضعًا جليًا فى ذهنك يا ناجى.. يا أيها الجورنالى العاشق
للمصاحفة وحبرها أن هذا الشعب العربى العظيم الساكن فى القصور أو
الخيام أو القبور سيخرج الشمس الذهبية من جيب معطفه..
وهو أيضًا الذى سيفجر الماء فى صحارى العطش، وهو الذى سيضرم
النار فى الكتب الصفراء، ويحكم بالاعدام شنقًا على عصور الانحطاط،
ليولد فجر العرب الموعود، ويعود مجد العرب من جديد.. أراه أمام عيني
هاهو قادم من بعيد.. قادم لا ريب فيه!

" أربعة لا تثبت على حال: الصحافة والجو والحب والمرأة "

فى الاجتماع الصباحى الأسبوعى بدأ عبد العليم طابع رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام الصحفية مرهقاً منهكاً.. شعره القليل المهوش يلمع قليلاً من أثر الشامبو، وكريم الشعر اللاصق الذى يشبه الصمغ العربى.. عيون الرجل متورمة جاحظة من سهرة حمراء قضائها الليلة الفائتة.. ليلة الجمعة شرب وسكر وعريد مع فتاتين روسيتين كل واحدة منهما قارعة الطول هيفاء تملك جسداً ناصعاً كالشمع.. وظل يعبت معهما حتى مطلع الفجر فى فندق شهير مملوك لصديقه القديم همام مصطفى رجل الأعمال المعروف، وصاحب أشهر قضية فى تاريخ المحروسة، وصاحب السطوة والنفوذ فى الحزب الحاكم، النائب الذى لا يشق له غبار فى البرلمان!

إلتف حوله المحررون ورؤساء الأقسام ومديرو التحرير، ونواب رئيس التحرير وبالطبع تصدرت المشهد مرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون ".. بدأ الرجل يتقمص شخصية أستاذ الإعلام المخضرم، وعميد الصحافة المصرية المحنك وقال:

اليوم لن أناقش معكم مستوى الأخبار والتقارير والتحقيقات، بل سأحكى لكم عن واقعة فى غاية الأهمية والخطورة.. هناك حادث مهم جداً فى تاريخ الصحافة يعرفه الجيل الأول من فرسان القلم فى بلاط صاحبة الجلالة.. هذا الحادث العجيب وقع فى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٦ بمدينة نيويورك قلعة المال والأعمال الأمريكية حيث كانت تعرض هناك مسرحية سنوية اسمها "مدماوزيل شمبانيا" ويقبل عليها الجمهور كل ليلة لمشاهدة العرض على خشبة مسرح "ماديسون" وأرسلت كبرى الصحف الأمريكية محرريها المسرحى ليشاهد تلك المسرحية المثيرة للجدل لكى يكتب عنها تقارير

فنية ، ويفسر سر إعجاب الناس بها وإقبالهم عليها ، وهذا المحرر اسمه "شال والتون" .. وفى هذا اليوم كان المحرر غائبا عن مقر جريدته لأنه يقضى شهر العسل مع عروسه فى جزيرة بالى الأندونيسية.

اضطر رئيس التحرير إلى أن يستدعى محرراً آخر يدعى "ألبرت" وقال له أمراً:

عليك أن تذهب إلى المسرح وتتابع العرض ، وتكتب وصفاً تفصيلياً للمسرحية وأجواء عرضها.. وبالفعل ذهب المحرر بحماس إلى المسرح، وجلس على كرسى فى الجهة اليسرى القريبة من خشبة المسرح يرقب الممثلين أبطال العرض ، ويتابع المشاهد بامعان شديد ، لكن المسرحية خيبت أمله ، وخذلت ظنه فقد وجدها تافهة لا شئ فيها يسر العين أو يبهج القلب أو يتعش الوجدان.. مسرحية بلا نجوم كبار ، ولا موضوع يستحق المشاهدة والإثارة والكتابة ، ووجد نفسه كمحرر فى مهمة فاشلة.. ولا يستطيع أن يصف الفشل أو يكتب عنه لجريدته وقرائها.. فماذا يفعل إذن؟ هل يعود خالى الوفاض إلى رئيس التحرير؟ أم يكتب كلاماً فارغاً لذر الرماد فى العيون؟

فكر المحرر طويلاً حتى مل من التفكير ، وفجأة ثبته إلى وجود شخص معروف كان يقف على مقربة من الكواليس ، وهو "استامبورج هوايت" أهم وأشهر مهندس معمارى فى أمريكا ، هذا المهندس المرموق كان يسير فى شوارع مدينته نيويورك كما لو كان مالكها وحده ، وكان محققاً فى إحساسه لأنه هو الذى صمم أجمل مبانيها! وقد كان استامبورج معروفاً عنه غرامه بالنساء وأنه "دون جوان" العصر والأوان ومفتون بالجماليات ، ورغم أنه يعد من أنبغ عابرة العماراة فى زمانه إلا أنه كان يردد دائماً: إن الجمال هو الذى يغذى العبقرية!

وكان يقول أيضاً: إن جمال البنات الثلاثى يهواهن هو الذى يلهمه عبقرية الإبداع ، وتصميم الملامح المعمارية ، ويدلل على ذلك بأن صدر فتاة جميلة

كان يعرفها ألهمه مدخل عمارة.. وساق فتاة أخرى ألهمه بناء ناطحة
سحاب.. وعشق فتاة أخرى فائقة الحسن كان نموذجاً للسلم في دار بلدية
نيويورك!

وعندما وجد المحرر الصحفي أن المسرحية من وجهة نظره فاشلة نقل
اهتمامه من المسرح إلى مراقبة هذا المهندس، وما يدور على ملامح وجهه
من تعابير وانفعالات، وقرر أن يصنع قصته الصحفية من هذا المهندس
المعماري النابغ عاشق النساء متعدد العلاقات، وليس من المسرحية التي
يتابعها ولم تعجبه، وكان يمكن أن يحصل على نصير صحفي ممتاز،
ولكن حدث ما لا يتوقعه أحد، فقد لاحظ أن هناك شاباً يقف أمام
المهندس ثم يذهب، ويعود عدة مرات دون أن يلتفت المهندس إليه أو يلحظ
وجوده، بل كان الشاب ينظر إليه بحق و غضب!

وبينما كانت الراقصات يغنين أغنية "أتحدك للمبارزة" ثم يصطففن
ويهجمن، ويضربن بالسيوف، وجد هذا الشاب يخرج مسدسه، ويطلق ٣
رصاصات صوب المهندس، وظن الجمهور أن هذا جزء من المسرحية،
بينما المحرر الصحفي هو الوحيد الذي عرف أن هذه هي الجريمة الكاملة
التي وقعت على المسرح!

واستمرت الموسيقى تصدح، وسقط المهندس على الأرض، وإذا بفتاة
تهجم على القاتل وتصرخ فيه: لماذا فعلت ذلك؟! لماذا؟! والناس يصفقون
بينما المحرر الصحفي يهرول كالمجنون نحو الهاتف للإبلاغ بسرعة عن
جريمة حقيقية وقعت أمام عينيه، ولكي يرسل الخبر إلى جريدته يحكي
فيه قصة مصرع أعظم وأشهر مهندس في الولايات المتحدة الأمريكية
أمام عينيه!

ذهب إلى الهاتف فوجد شخصاً يهمس في سماعة الهاتف بكلمات غرامية
ساخنة، ضبطه في حالة تلبس بالحب، وتأجج المشاعر.. طلب المحرر من
هذا العاشق الولهان أن يتحى جانباً، ويترك له الهاتف لأن الأمر جد خطير

ولا يحتمل التأجيل.. لكنه لم يترك له الهاتف فاضطر المحرر الصحفي لأن يخطف منه السماعة عنوة ثم أغلق على نفسه غرفة التليفون الزجاجية ، وطلب جريدته ليملئها خبره العاجل ، وبعد قليل عاد الرجل ومعه عدد من زملائه ، وهاجموا " ألبرت ستون " بعنف وغطرسة ، فكان يمسك الهاتف بيد ، ويملى الخبر لجريدته ، ويدافع عن نفسه بيده الأخرى ، والجريدة تأخذ منه التفاصيل أثناء المعركة !

ثم طلب " ألبرت ستون " من جريدته أن ترسل إليه بمحررين آخرين.. جزء منهم أنهى المشاجرة العامة ، وجزء دخل المسرح وأكمل كتابة القصة الخيرية ، ووصف التفاصيل ، وظهرت الصور بالجريدة فى اليوم التالى ، والمحرر يملئ الخبر بيد ، ويصد اللكمات باليد الأخرى ، والموضوع يروى بالكلمة والصورة تلك القصة الرائعة المدهشة التى لم تكن متوقعة أبداً ! هذه الحدودية الدراماتيكية دخلت تاريخ الصحافة العالمية من أوسع الأبواب باعتبارها حادثة فى غاية الأهمية عاش مشاهدها المحرر الصحفي " ألبرت ستون " الذى وجد أن الموضوع الذى تم تكليفه بإنجازه ، وتغطيته صحفياً فى المسرح غير صالح للنشر ، فنقل عدسة عينيه ، وأفكاره إلى مكان آخر يتابع فيه انفعالات أخرى ، وشاء حظه أن وقعت جريمة قتل فى ذلك المكان ، وظنها الجمهور جزءاً من العرض التمثيلى لأبطال المسرحية ! وقد وصف الصحفي للقارئ هذا الحادث الذى يشبه المسلسلات البوليسية المكونة من عدة حلقات.. الحلقة الأولى ، والحلقة الثانية ، والحلقة الثالثة من كابينة الهاتف العمومى !

وقد نجح هذا المحرر الصحفي أن يطور مهمته ، ولا يتقيد بها.. فالصحفى ليس صحفياً بالحادثة ، ولا بالقطعة ولا بالحدث ، بل هو صحفى على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم.

سادت لحظة صمت احتسى خلالها الكاتب الصحفي الكبير عبد العليم طابع رشفة من فتجان قهوته السادة ثم أشعل سيجارته الفخمة ،

والتفت بإيماءة ناحية ميرفت العظيفى قائلاً بصوت رخيم هادئ:
أنا لا أطلب منكم أن تضربوا أحداً، ولا تكونوا عرضة للضرب والأذى،
بل عليكم أن تشركوا القارئ معكم دائماً حتى يتعايش مع الأحداث
التي تكتبون عنها وخاصة عندما تكون بحجم هذه القصة الخبرية المثيرة
المدهشة!

" لا تخشى العقبات الكبيرة لأن خلفها تقع الفرص العظيمة! "

لم يشكو عبد العليم طايح في يوم من الأيام من أى ألم، برغم أنه شيخ هرم بلغ السادسة والسبعين من عمره، وفي أحد الأيام زاره طبيب على صلة قرابة بزوجته فلم يكن من الزوجة إلا أن طلبت من الطبيب أن يفحصه كنوع من الاطمئنان عليه ليس إلا.. وبعد أن استسلم له عبد العليم طايح قال لها الطبيب: أقسم بالله العظيم أنتى لو لم أكن أعرف جيداً صاحب الشخصية التى أفحصها، وأعرف عمره وكل تفاصيل حياته، ووضعونى معه فى غرفة واحدة مظلمة لأكدت بكل البراهين الممكنة، والقاطعة بأن الجسد المستلقى أمامى فى العتمة، ما هو إلا جسد شاب لم يبلغ الأربعين بعد!

عبد العليم طايح كاتب خطب الرئيس ومستشاره الصحفى ورئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير أكبر مؤسسة صحفية قومية فى البلد رفض فى يوم من الأيام أن يكون وزيراً للإعلام مفضلاً موقعه الإستراتيجى فى توجيه دفة السياسة، والتحكم فى مصير البلد من خلال خندقه الحصين فى شارع الصحافة العامر بالأحداث والمفاجآت والانقلابات المروعة!

يرى عبد العليم طايح أن يوماً واحداً فقط من السعادة أفضل من حياة مأساوية طويلة عريضة! كان لجبروته يطوى درجات أربعة طوابق دفعة واحدة دون لهاث أو شكوى، وفى المرة الوحيدة التى شعر فيها بنقر ألم فى خصره وقف متعجباً ينظر إلى المرأة قائلاً لنفسه ولمن حوله: هذا الملعون الذى فى قمى أشعر بالبعث العظيم تجاهه. وبرغم كل السنوات والخبرات التى يحملها فوق كاهله، كان عرييداً عتياً فى الخفاء، يفضل البنات الحسنات تحت العشرين، ولا مانع من هن فوق العشرين.. هو أخضر

القلب برغم المظهر الوقور والإطلاقة المهيبة، والشبية المجيدة، والصوت
الأجش والتيرة الهادئة والقول الحكمة، والخطوة الوثيدة، والتعليق الموجز
المتقضب، والحياد المفتعل والشفافية المزعومة، والتحية بإمالة الرأس،
وليس بحضن اليد.

لقد كتبت فنانة شهيرة فصلاً كاملاً في مذكراتها عن هذا الجورناجي
العتيد قالت فيه: "إن من تجعل هذا الرجل سعيداً ولو للحظات ذنبها مغفور،
وأن اللقاء معه يمثل مجداً قومياً!"

كانت زوجته تعاني كثيراً من نظراته المصوبة إلى كل امرأة عابرة
حتى ولو كانت خادمة تمسح البلاط... فهي تدرك أنهن حوله مثل الفراشات
يجذبهن الضوء بلا مقاومة، وذات مرة وصفت نساء زوجها في العمل،
والتأدي وكل مكان يذهب إليه بأنهن مثل الدجاجات ذات الريش الملون،
عليه التخلص منهن في أسرع وقت ممكن... فلا فرق بين الجميلة والقبیحة
كلهن سواء عندما تنطفئ الأنوار!

كان الرجل صاحب قلم وموهبة لا ينكرها إلا غيور أو حاقد، لكنه
كتب مقالاً نارياً ذات مرة لإحدى الصحف العربية الكبرى الصادرة في
لندن وخانته عبقريته في هذا المقال الذي كتبه تحت عنوان...

"سيادة الرئيس... مصر ليست للورثة!"

وهاجم في هذا المقال الفكرة التي يرددها أقطاب المعارضة بأن الرئيس
سوف يورث البلد لابنه على غرار ما حدث في معظم البلدان العربية، وأن
الأب الرئيس الذي ظل قابلاً على صدر شعبه أكثر من ربع قرن يحكمه
بالحديد والنار لن يتورع إذا أحس باقتراب أجله عن أن يسلم مقاليد الأمور،
ومفتاح البلد إلى ولده!

أحد الوشاة تطوع بإرسال هذه النسخة من الجريدة إلى يد رئيس الديوان
الذي كان يكره عبد العليم طابع بغياء، ويتصيد له الأخطاء لأنه يدرك أنه
أقرب منه إلى قلب وعقل وأذن الرئيس.. ونجح رئيس الديوان في أن يوغر

صدر الرئيس ضد عبد العليم طايح.. والطريف أنه كان قبل هذه الواقعة قد قدم للرئيس عدداً من جريدة الأيام والذي تضمن في باب " حدث في مثل هذا اليوم " أن السيدة الأولى الفاضلة ولدت في يوم ٢٥ مارس قبل ٦٥ عاماً وهو ما أثار غضبها واستهجان مؤسسة الرئاسة التي استنكرت بشدة التعرض لهذه المسألة بالنشر خاصة وأن الأمر شخصي محض ، ولا يعد من المعلومات التي تهم القارئ في شيء ، وبالفعل تم استدعاء عبد العليم طايح بصفته المسئول الأول عن كل ما نشر في جريدة " الأيام " إلى الرئاسة على وجه السرعة ، ووقف أمام الرئيس مثل التلميذ الخائب في الامتحان السهل ، بينما وقف رئيس الديوان منتصباً بشماتة وتشفي ، والرئيس يويخ عبد العليم طايح رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام.. ويعدّها بأيام صدرت أوامر عليا بالقبض عليه بتهمة التحريض ضد النظام ، والإساءة إلى الرئيس وأسرته.. ووجد الرجل نفسه في دوامة لم تكن تخطر على باله في يوم من الأيام!

كان يقضى أيامه داخل زنزانته مثل إمبراطور في مخدعه ، يتحرك في قصوره ويتنزه في بساطينه ومزارعه ، وذات يوم فاجأ مأمور السجن وطلب صندوق مياه ماركة " إيفيان " الفرنسية على نفقته الخاصة حتى ولو جاءوا به من عاصمة النورا

وبرغم أنه يعتبر سجيناً سياسياً إلا أنه كانت هناك أوامر عليا بمعاملته بصورة طبيب وتلبية كل طلباته ، حيث كان مسموحاً له بممارسة رياضته المفضلة " بلاي ستيشن " وقراءة الصحف ، ومشاهدة التلفزيون بقنواته المختلفة ، وتزويده بكل الكتب التي يريدها.

" الصحفي .. خبر يبحث عن مبتدأ! "

فوجئ ناجي شرف الدين برسالة قصيرة على بريده الإلكتروني من إيناس مندور تطلب فيها رأيه في قرارها بالحصول على الجنسية السويسرية ، وتلتزم رده على وجه السرعة.. أحس بالفضولة والأهمية ، وأعجبه أن ترسل من فوق جبال وروابي سويسرا تسأله المشورة.. أعد لنفسه كويًا من الشاي الأخضر ، وتيسم زهوًا بحاله ثم جلس على الكمبيوتر يكتب ردًا عاجلاً..

قال لها :

عزيزتي إيناس مندور.. القرية من القلب.. البعيدة عن العين.. أعرف تمامًا أنك الآن تعيشين في أوروبا ، وتحدثين الفرنسية.. سوف أخطبك بلغة العقل.. العقل يا صديقتي زينة الرجال ، كما هو زينة النساء أيضًا.. وهاأنذا أكتب إليك رسالتي تلك بالعربية.. لغة أبائك وأجدادك وبنى جلدتك.. وأنا يا عزيزتي لست ضد إجادتك لغات أخرى عالمية ، والنطق بها كأهلها تمامًا.. اللغة العربية يا إيناس ليست زينة نلبسه ونخلعه حين نريد ، ولا سيارة نبيعها حين نشاء أو عندما تنهالك أو يصيبها العطب.. ولا ورقة طائشة نرميها في سلة المهملات بعد حين.. فاللغة وثيقة العمر.. الوثيقة الوحيدة التي تثبت هويتنا وانتمائنا لأرض ما وحضارة ما ، وبدونها نكون كائنات هلامية تسكن في العدم وتأتي من فراغ!

أعرف يا عزيزتي تأثرك بالأوروبيين والثقافة الغربية ، ومصادر الفكر هناك مثلما تتأثر الأسماك الصغيرة بكل تيارات الحضارة الإفريقية ، وصراعاتها وجنونها ومخترعاتها وعجائبيها!

يا عزيزتي أنا لا أستطيع أن أمنعك من أن تعيشي وقتك حيث أنت ، لا أستطيع أن أجبرك على أن يكون جسدك في أوروبا ، وعقلك وروحك في

الشرق.. هنا فى وطنك.. لكل وطن يا صديقتى فلسفته وأفكاره وثقافته ،
لكن ما أريده منك يا إيناس دون إكراه أن تحتفظى بأهائلك الشرقية
وعروبيتك ومصريتك.. كوني أنت.. كوني كما خلقك الله ، وكما أرادك
سبحانه.. فنحن لنا جذور وحضارة وتاريخ حتى لو كنا دون ذلك الآن

أنا لا أريد ولا أستطيع أن أحبسك فى قارورة زجاجية مثل أسماك
الأكواريوم "وأمنعك من استنشاق هواء الحضارة الأوروبية ، والتنعيم
بجنسيتها فهذه فرصتك ، ولكن نصيحتى لك كصديق.. ألا تذوبى فى
محيطك الجديد ، وتفقدى شخصيتك وهويتك.. عومى فى أى بحر من
بحار الشمال تشائين ، وإياك أن تذوبى فى مياهه.. حافظى دائماً على
جواز سفرك المصرى ، فلن تستطيعى أن تكونى إنجليزية أو سويسرية أو
فرنسية.. إن كل المواطنين العرب الذين تنجسوا بجنسيات أخرى ، ظلوا
على هامش الحياة فى بلدانهم الجديدة ، فلا عرب أمريكا استطاعوا أن
يصبحوا أمريكيان ، ولا عرب بريطانيا استطاعوا أن يصبحوا نواباً فى
مجلس العموم.. أو أعضاء مجلس اللوردات.

ابق مصرية يا إيناس كما كان أبوك مصرياً.. وكما كان جدك وجد
جدك وأعمامك وأخوالك.. ابق مريوطة بهذه الأرض المباركة مغروسة فى
طينها كشجرة طيبة ، موصولة بحيل سرى مثلما يتصل الجنين بأمه ، هذه
الأرض فيها كل الخير والبركة فلن تجدى أرضاً أجزل منها عطاء ، ولا
أكثر منها حباً وحناناً مهما كانت قسوتها.. والله يرفعك.

مع خالص الود... ناجى شرف الدين.

"اعتن بسمعتك جيداً، وسوف تثبت لك الأيام أنها أغلى ما تملك!"

منذ تعرضت المحررة الصحفية نهير السباعي لمحاولة الشروع في اغتصابها من المطرب الشهير، وتركزت العمل في قسم الفن، واتجهت للعمل في التحقيقات وتخصصت في الموضوعات والقضايا الشائكة التي تخص البنات والنساء على وجه الخصوص.. فاجأت الجميع بإصدارها لكتاب مثير للجدل عنوانه "كلاب السكك"، استعرضت فيه التجارب الشخصية، والحكايات التي عاشتها أو سمعتها من صديقاتها بشأن التحرش بهن، وكافأها رئيس التحرير بنشر الكتاب على حلقات مسلسلة في الجريدة.. كل أسبوع حلقة.. ليس هذا فحسب بل كافها أيضاً مع مجموعة من زملائها وزميلاتها بإجراء دراسة عن أثر ممارسة الحب على حياة المصريين، وثرثب أولوياته بالنسبة لهم، وتضمن الاستبيان ٦٠ سؤالاً يتم توجيهها للمشاركين بحيث تغطي العديد من جوانب العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة بجانب أولويات أخرى مثل الصحة العامة، والعلاقات الخاصة والمال والحياة الأسرية..

وجاءت نتائج البحث مذهلة، وتضمنت خمس نقاط أساسية:

أولاً: يحتل الجنس مرتبة متقدمة ضمن أولويات الحياة للسيدات والرجال في مصر بالرغم من عدم رضا معظمهم عن حياته العاطفية، فقد طلب من المشاركين ترتيب ١٨ من أولويات الحياة المختلفة مثل الصحة العامة والقدرة المالية والحياة الأسرية وإنجاب الأولاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها من الأولويات فجاءت الصحة العامة في المرتبة الأولى بالنسبة للرجال يليها العمل والمستقبل المهني، بينما جاء الجنس في المرتبة الثالثة متقدماً على كثير من أولويات الحياة مثل القدرة المالية والحياة الأسرية

أما بالنسبة للسيدات.. فجاءت الحياة الأسرية على قمة الأولويات بينما احتل الجنس المرتبة الخامسة وبالرغم من أن ٩٨٪ من الرجال و ٩٦٪ من النساء أقرروا أن الجنس مهم في حياتهم فإن ٨١٪ من الرجال والسيدات أقرروا بعدم الرضاء عن حياتهم الجنسية الحالية ، وتوضح أهمية الجنس في منطقة الشرق الأوسط عند مقارنة نتائج هذا المسح بنتائج بحث مثيل أجرى في جنوب شرق آسيا أقر فيه ٥٥٪ من الرجال و ٣٦٪ من النساء بأهمية الجنس ضمن أولويات الحياة.

ثانياً: عدم الرضاء عن الحياة العاطفية لا يقتصر على الرجال والسيدات المتقدمين في السن ولكن يشاركهم فيه الشباب أيضاً ، فقد تمت مقارنة المشاركين في البحث بعد تقسيمهم لثلاث مجموعات سنية شملت الأولى الرجال أو السيدات قبل سن الثلاثين والثانية بين سن الثلاثين والخمسين ، والثالثة فوق سن الخمسين.. وتبين أن السيدات تحت سن الثلاثين هن الأقل رضاءً عن الحياة الجنسية ، وعلى الجانب الآخر كان الرجال بين سن الثلاثين والخمسين هم الأقل رضاءً عن حياتهم الجنسية والعاطفية.

ثالثاً: أظهرت نتائج الاستبيان أن الرضاء عن الحياة العاطفية يؤثر بشكل كبير على الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى فالسيدات والرجال الذين أقرروا بالرضاء التام عن حياتهم أظهروا قدراً كبيراً من الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى ونظرة أكثر ايجابية لأمر الحياة العامة ، وأظهروا قدراً أكبر من الثقة بالنفس.. وقد تبين أن الرضاء عن الحياة الجنسية يؤثر على معدل النشاط الجنسي حيث بلغ معدل اللقاء الحميم بالنسبة للسيدات والرجال الراضين عن حياتهم الجنسية نحو ١٢ لقاء شهرياً مقارنة بنحو ٧ لقاءات للسيدات والرجال الذين أظهروا قدراً أقل من الرضاء ، وهذه الأرقام تبين مرة أخرى اهتمام شعوب منطقة الشرق الأوسط بالجنس لأنه يمثل ضعف معدل اللقاء الحميم لدول جنوب شرق آسيا ، وكذلك تفوق المعدل العالمي والبالغ ٦,٤ لقاء حميماً شهرياً.

رابعاً: فى محاولة لمعرفة العوامل المؤثرة على الرضاء عن الحياة الجنسية من محددات اللقاء الحميم المختلفة مثل عدد مرات الجماع وصلابة الانتصاب والقدرة على تأخير القذف واستخدام أوضاع جنسية مختلفة، والمحافظة على الانتصاب والمداعبة وحدوث انتصاب بعد القذف تبين أن المحافظة على الانتصاب أثناء اللقاء الحميم تمثل الأهمية الأولى بالنسبة للرجال والسيدات، يتلوهما فى الأهمية قوة الانتصاب حيث أقر المشاركون فى الاستبيان أن الانتصاب تام الصلابة من أهم عوامل الرضاء ليس فقط عن الحياة العاطفية.. ولكن أيضاً الرضاء عن الصحة العامة، والثقة بالنفس وكذلك معدل اللقاءات الشهرية.

خامساً: ٨٠٪ من السيدات و٧٦٪ من الرجال أقروا أن حدوث انتصاب غير تام الصلابة يمثل لهم مشكلة كبيرة بالرغم من قدرتهم على المعاشرة الزوجية حيث أقر المشاركون فى البحث أنهم يشعرون بالذنب تجاه شريك الحياة، ويحسون بالحرج الشديد الذى يدفعهم للابتعاد عن اللقاء الحميم. ومثلما أخذت فضول كتابها "كلاب السكك" طريقها للنشر فى حلقات متسلسلة.. أخذت تحقيقها الجريئ طريقه للنشر، وقد نصحتها رئيس التحرير الذى كان عضواً فى لجنة تحكيم مسابقة الموضوعات الصحفية بنقابة الصحفيين أن تتقدم بهذه السلسلة من الحلقات لمسابقة النقابة، وبالفعل تقدمت بأوراقها، وساعدها الرجل بحماس وخاض معركة فى كواليس اللجنة التى تحدد الموضوعات الصحفية الفائزة حتى ضمن لها الفوز بالجائزة الأولى مع عشرين صحفياً وصحفية من جرائد ومجلات مختلفة!

فى تلك الفترة بدأت الأوساط الصحفية تشهد رواجاً وانتعاشاً، وعرفت الأرصفة عشرات الإصدارات الجديدة من المطبوعات اليومية والأسبوعية التى ولدت فجأة بعد مخاض عسير مع الحكومة والجهات الأمنية ومجلس الشورى الأب الشرعى والرسمى ومالك الصحف القومية.. عرفت مصر

الصحف الخاصة أو كما يجلو لأصحابها من رجال المال والأعمال والأثرياء الجدد وجزرالات الأحزاب السياسية أن يطلقوا عليها لقب " الصحافة المستقلة " وأحدث هذه الصحف وأكثرها إغراء للصحفيين فى المؤسسات القومية بالمال صحيفة " الغروب " لصاحبها فريد المعلم صاحب أكبر دار نشر فى البلاد

منذ عرف شارع الصحافة عشرات المطبوعات الوليدة ، عرفت طيور صاحبة الجلالة الهجرة إلى جريدة " الغروب " .. لجأوا إليها من مختلف الصحف القومية الحكومية ، وبصفة خاصة أبناء مؤسسة " الأيام " الصحفية ، حيث استقطبت معظمهم ووقعت معهم عقود عمل برواتب مجزية لا يعلمون بها ، وتجاوز عشرة أضعاف ما يتقاضونه فى مؤسساتهم الحكومية ، ومن هنا دبّت المشاكل والخلافات بين ميرفت العطيفى ومجموعة من محررى مجلتها " نجوم الفنون " التابعة لمؤسسة الأيام بعد أن رفضت منحهم أجازة بدون مرتب للتفرغ للعمل فى جريدة " الغروب " بدعوى أن عدد المحررين بالمجلة محدود وحاجة العمل لا تسمح ، وأنها تسعى لتطوير المجلة والعمل على زيادة نسبة توزيعها بجانب إنشاء موقع إلكترونى يثبت مواد المجلة وينشر أخبارها إلكترونياً لحظة بلحظة وكانت جريدة يومية لا مجلة أسبوعية !

" عيوب الناس نحضرها على النحاس.. أما فضائلهم فنكتبها
على الماء! "

فى صباح أحد الأيام الشتوية الدافئة المشمسة تصدر الصحف القومية قرار العفو الرئاسى عن عبد العليم طايح ، وخرج الرجل من السجن ليدخل سجنًا آخر ، فقد وضعوه تحت الإقامة الجبرية فى الفيلا الضخمة التى شيدها لنفسه أيام المجد والعز من مال مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر ، والتى تربع عرشها ، وجثم فوق صدرها أكثر من عشرين عامًا.. رضى للإقامة الجبرية فى قصره المنيف المحاط بأسواره العالية لمدة عام تقريبًا.. ترهبين الرجل خلال هذه الفترة لتدوين مذكراته تحت عنوان: " سمعت ورأيت.. مذكرات الجورنالجي " وبدأ يحكى على صفحاتها تفاصيل أجدته اليومية منذ استيقاظه من النوم ، ثم يصلى ركعتين ثم يحتسى كوب الشاي ، ويطلع الصحف ، وينتابه إحساس سريالى غريب بمجرد أن يلمح اسم الشخص الذى إحتل مكانه ووضع اسمه بدلاً منه على ترويسة جريدة الأيام ، هذا الشخص الذى طالما وقع عليه عقوبات ، ونقله إلى العمل فى المطبعة لعدة سنوات ، ثم نكل به مرة أخرى ونقله إلى الأرشيف ، وكان دائمًا ما ينكل به ، فها هى الظروف والأقدار قد شاءت لأن يجلس مكانه فوق كرسيه الأثير فى المؤسسة ، ويتبوأ مقعده رئيسًا لمجلس الإدارة والتحرير.. وهو الأمر الذى جعل عبد العليم طايح يفضل العزلة بين جدران قصره الشاهق ، ويكتفى بالتجول فى حديقته وبين ردهاته مغللاً ذلك بأنه لا شئ فى هذا البلد يبعث على الأمان ، ويدعو للطمأنينة بعدما أصبح التشقى هو السلاح الذى يجيد استخدامه الحبراء والسفلة فى هذا البلد وفى أوساط صاحبة الجلالة!

استهل عبد العليم طابع مذكراته بوصف القصر الذى آل إليه مصيره
حييًّا فيه يحيطه مراقبون بملابس مدنية من جهة أمنية عليا!

وشرع يحكى عن الفيلات المجاورة له ومن هم أصحابها! ومن أين
حققوا ثرواتهم الطائلة فى غفلة من الزمن.. وبعضهم من الصحفيين الذين
دخلوا لعبة المضاربة فى العقارات والإعلانات من الباب الخلفى للصحافة
وصاروا مليونيرات بلا مقدمات!؟

فى لحظات كثيرة كان يتمنى أن يرن تليفونه ولو مرة واحدة ثم يخرس
من جديد.. كان يتمنى أن يسمع صوتًا غير السفرجى والجناينى والسائق
والخادمة السيرلانكية "إيرين".. كان يتوق لأن يسمع صوت أنثوى آخر غير
صوت زوجته التى كان يصفها دائمًا فى سره "بالحيزيون.. مرضعة قلاوون"
التي يراها صباحًا وهى تهم بالخروج لمزاولة أنشطتها الاجتماعية، وجمعياتها
الخيرية، ولا يسمع منها سوى.. "صباح الخير.. سوف أتاخر.. لا تقلق"، وعندما
تعود لا يسمع منها إلا "تصبح على خير"!

وقد أعد عبد العليم طابع أربعة تواريخ لأحداث فى غاية الأهمية من حياته
ثم وضعها على شاهد من الرخام مثل تلك التى تنتصب على مقابر الأقباط..
هذه التواريخ تحمل يوم مولده ويوم تعيينه فى مؤسسة الأيام، ويوم أصبح
رئيسًا لمجلس الإدارة، ورئيسًا للتحريير، ويوم خروجه من منصبه بصحبة
رجال الأمن القومى إلى السجن الحريى وأخذ يكتب ويكتب، ويقضى
ساعات يومه وليله فى التدوين، وتسجيل الذكريات والخواطر والأحداث
والمواقف.. أخذ يسرد ما حدث يوم مولده.. ذلك اليوم الذى سمع عنه من
والده أنه ولد فى عز البرد، ولم يكن لديه ملابس يرتديها، ووالده ليس
لديه مال ليشتري له أى شئ، وكان من عادة الناس فى بلدتهم أن يتبادلوا
ملابس الأطفال بينهم.. كان هذا اليوم عصيبًا للغاية وبعد ميلاده بيوم واحد
ماتت أمه متأثرة بحمى النفاس! ويوم تعيينه فى مؤسسة "الأيام" الصحفية
عقب تخرجه فى كلية التجارة، وقد توسط له ابن خالته لدى بلدياتهم الذى

يعمل فى صحيفة الأيام!

ويوم أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة، ورئيسًا للتحريير، كان يومًا عظيمًا مشهودًا عظيمًا حيث طلوع أحد المحررين الأثرياء بذبح ثلاثة عجول قبل أن يدخل المؤسسة بعد قرار الترقية.. ويوم خروجه من المؤسسة بصورة مهينة بغضبة سمع بأذنيه من يلغونه، ويسبونونه بأمه وأبيه، ويدعون عليه بخراب الديار ويئس المصير!

فى مذكراته التى تشبه اليوميات حكى عبد العليم طابع كيف كان يتعامل مع سائقه الخاص الذى عينته له المؤسسة طوال فترة وجوده فيها، ومدى خوفه من هذا السائق الذى يعرف كل أسرارهم، وأيضًا علاقته الخاصة جدًا مع سكرتيرته التى كانت تعطيه كل شئ، وعلاقته السرية مع ميرفت العطينى، وأيضًا الفيرة القائلة بين المحررين وبعضهم البعض! كما استعرض عبد العليم طابع فى مذكراته ما يدور فى قصره من حكايات مثيرة، ومربية مع الخدم بعد انقطاع صلته بكل أصدقائه وزملاء المهنة ورفاق الدرب، والعمر الطويل إثر خروجه من المؤسسة معترفًا بأن معظمهم يكرهونه، ويحقدون عليه.. وكان مسعود سائقه الخاص سابقًا هو الذى يجمع له الأخبار، والمعلومات ويلتقط له أدق الأسرار داخل المؤسسة بحكم عمله معه بعد خروجه من المؤسسة مقابل راتب شهري كبير.

لم يبخل عبد العليم طابع فى مذكراته، بل كان كريمًا فى كشف كل الأسرار وهتك المستور، وحتى الأسوار العالية فى حياته التى قيدها طويلاً، وكتبته سنوات تحدث عنها واصفًا إياها فى قصره المنيف بمدينة السادس من أكتوبر.. وكيف إقتنى كل أثائه وسجاده الفخم من أوروبا، وقيمة السجادة الواحدة ٣٠٠ ألف جنيه على حساب المؤسسة التى أعطته بلا حساب طوال مدة خدمته رئيسًا لتحريرها ومجلس إدارتها.

وأفاض الرجل بكل صراحة وجراءة عن علاقته بخادمته السيرلانكية

التي كان يمنحها ٥٠ دولارًا في الليلة الواحدة علاوة على راتبها الشهري الذي كانت تتقاضاه مقابل خدمتها في القصر.

وبدأت تتسرب أخبار في الوسط الصحفي، وتنتشرها على استحياء بعض وسائل الاعلام يقرأها بنفسه أو تصله عن طريق مسعود سائقه الخاص بأن رؤساء مجلس إدارات ورؤساء الصحف القومية سوف يتم التحقيق معهم في مخالفات مالية حدثت طوال فترة وجودهم على رأس مؤسساتهم الصحفية.. تملك عبد العليم طابع حالة من القلق المزري، وكان ينتظر كل يوم أن يتم استدعاؤه للتحقيق والاستجواب أمام النائب العام.. القلق يزعجه والفرع يسيطر عليه ويرتجف عندما تكتب الصحف سواء الخاصة منها أو المعارضة في هذا الموضوع الحساس المثير للجدل.

استعاد الرجل من ذاكرته الوظيفية سيناريو فساد بحلقاته الطويلة، وتذكر جنرالات المقالات النارية والمدافع الصحفية.. كيف عاش طفولة قاسية بائسة، ونهشه الضنك، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية كبرى طوال ربع قرن أو يزيد، فحول أحد طوابقها إلى فندق خمس نجوم، وكان يدير أكثر من ٥ آلاف عامل وموظف ومحرر ومصور من تحت الماء المعطر في مقر إقامته بالجاكوزي الذي أقامه في مبنى المؤسسة، وعلى بعد خطوات معدودات من مكتبه الفخم الأنيق المريح!

وفي الوقت ذاته تذكر سوءات أقرانه رؤساء مجالس الإدارات والتحرير في المؤسسات القومية الأخرى، وقارن نفسه بهم ليرى أيهم الأكثر فساداً، والأكثر استحقاقاً للمحاكمة.. تذكر عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "المصرية للصحافة والنشر".. وكيف كان يبيع صفحات جريدته يوميًا، ويؤجرها مفروشة لبرامج الفضائيات الليلية التي يطلقون عليها "برامج التوك شو" لتحقيق رواجًا جماهيريًا قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدي القراء في اليوم التالي.. تذكر حكايته الغريبة التي

يعرفها القاصى والدانى عن غرفة النوم الملحقة بمكتبه وعشيقاته فى المؤسسة.. وكيف دوت فضيحته حينما حاول التحرش بصحفية حسنة!

وعقد مقارنة أخرى بينه وبين جلال عمار رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "الأحداث" القومية للصحافة.. وكيف كان يقضى أكثر من نصف الليل ساهراً يبدع سطوراً عن القيم والمبادئ السامية، وبعد صلاة الفجر يسكر ويعريد ويضاجع راقصة مصر الأولى.

وكيف كان لا يكتب حرفاً ولا يخط سطراً إلا إذا وصله المعلوم فى مظهر مخطوم من جهة حكومية، ومملوء بآلاف الجنيهاً ثمن الكلمات، ولا يجرد مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم الذهبى مرتشياً.

وتذكر أيضاً صديقه القديم وعدوه اللدود توفيق أبو المكارم رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير دار الكلام للصحافة والنشر وكيف جاء من قريته النائية بمحافظة المنوفية، ودخل المهنة عقب هبوطه إلى القاهرة، وهو لا يملك ثمن تذكرة العودة بالقطار إلى بلده، ومع مرور الأيام صار نقيباً لكل الجورنالجية فى بر مصر، واستغل موقعه المهم والخطير فى ابتزاز الأكابر والوزراء، وصار من أثرى الأثرياء والغريب أن هذا النقيب نال هذا الشرف على مدار خمس دورات يتباهى بحب مصر جهازاً نهاراً، ويفخر فى مقالاته بأنه يركب طائفة الرئاسة، وفى سره يلعن مصر المحروسة، ويصف شعبها بالحقير الواطئ، ويعرب لأقرب المقربين يتأفف أن حظه العشر جعله يعيش فى هذا البلد القذر صاحب حضارة الحجارة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع.

ولكى يخرج عبد العليم طابع من دوامات أزماته بدأ فى تنظيم حفلات يدعو فيها بعض المقربين والمسؤولين حتى لا يظن الآخرون ضعفه، وكسر عزله خلف أسوار قصره العالية، وخرج لمقابلة الأصدقاء فى المقهى المعتاد جلوسه عليه أثناء فترة عمله فى مؤسسة الأيام.

خرج الرجل وبصحبته الخادمة السبرلا تكية " إيرين " بسيارته المرسيدس السوداء التى يقودها العجوز مسعود لكى يقابل أصحابه الذين تهربوا منه كما يفر السليم من الأجرب ، وغربوا موعد اللقاء المعتاد إلى موعد آخر وقابلهم على كل الأحوال وأخبرهم بعزمه تأسيس شركة رأسمالها سبعة ملايين جنيه يقوم من خلالها بإصدار صحيفة يومية تكون فرس الرهان فى الوسط الصحفى.

وبعد هذه المقابلة ارتسمت علامات القلق جلبة واضحة على وجه عبد العليم طابع عندما وصله الخبر من الرجل العجوز سائقه الخاص بأن رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية سوف يحالون للتحقيق معهم بشأن إهدار المال العام والمخالفات المالية التى ارتكبوها طوال سنوات رئاستهم للمؤسسات الصحفية ، كان كل يوم يتوقع أن يستدعوه للتحقيق ويكون مصيره المثل أمام هيئة النيابة.

القلق يسرق النوم من عينه ، والفزع يرعبه.. يرتجف عندما تكتب صحف المعارضة فى هذا الموضوع الشائك ، وتفتح هذا الملف الملفوم!

ثم يهدأ الرجل واسترجع فى ذاكرته كل مراحل عبثه ومجونه داخل المؤسسة.. سلسلة خطاياہ أشبه بشريط سينمائى يبعده عن لقطات ومشاهد ، ويقربه من أخرى. ذهب عبد العليم طابع ليلتقى كبار المسئولين على مركب فى النيل.. مقابلة سوف تحدد مصيره إلى الأبد.. وفى الجلسة أعلن مولد صحيفته ، واختار اسمها وبدأ فى توجيه من سيعملون فيها بالتركيز على حواديت عن الماضى ، وعن كبار المسئولين فى هذا البلد وتجوم المجتمع والليل والسهر ، وأبطال المغامرات من رجال الأعمال والفنانين ونواب البرلمان ثم ذهب إلى الفندق الذى كان محجوزاً له جناح فيه باسمه هو وإيرين.. وفى اليوم التالى ذهب إلى قصره حتى يأتى ببعض حاجاته الشخصية للسفر إلى قريته النائية التى مكث فيها خمسة أيام تذكر فيها طفولته وصباه.. وفى هذه الأيام جلس مع زوج عمته فهاجمه

الرجل بكلمات قاسية ، وعنفه بغلظة على غيابه الطويل وإصراره على قطع صلة الرحم ، فترك القرية وعاد إلى قصره في مدينة السادس من أكتوبر آسفاً نادماً على تلك الزيارة.

في تلك الأثناء كان أحد كبار المسؤولين الأمنيين يحاول الاتصال به طوال الفترة الماضية ، إلا أنه كان يماطل في الرد على هاتفه.. لكن هذه المرة رد على الهاتف فوجد هذا المسئول يسبه بأمه ، ويلعنه بأبيه وهنا تذكر عبد العليم طابع أن الذي سبه بأمه اثنان فقط هما زوجته وهذا المسئول الأمنى الوقح.

لم يعد أمام عبد العليم طابع سوى الرحيل عن مصر ، وعلى الفور بدأ يفكر في السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم يخبر مخلوق بخطته السرية سواء عشيقته السرية وخادمتها العلنية إيرين أو سائقه مسعود العجوز لأنه لم يعد يثق في أحد ، ولا يعرف من معه ولا من ضده ، وسافر بالفعل لأداء العمرة ، وهناك لم يجد ما كان يلقاه دائماً من حفاوة وترحيب في مكتب المؤسسة في العاصمة السعودية الرياض.

إختار ذات الغرفة التي كان يسكنها دائماً في ذات الفندق الذي يحبه ، وفي بهو الفندق مساء أحد الأيام رآته إحدى الصحفيات التي قضى على مستقبلها منذ عشر سنوات وأجبرها على تقديم استقالتها من مؤسسة الأيام بعد أن عرفها القراء ، وصارت صحفية لامعة يشار إليها بالبنان.. فقد كان يمقت أن يشتهر أى صحفى في مؤسسته ، ويرى أن من يسخر قلمه لينال بريق الشهرة يجب القضاء عليه بشتى الوسائل حتى لو وصل الأمر إلى نشر خبر في صحيفة الأيام الأوسع انتشاراً في مصر يؤكد فيه موت هذا الصحفى إثر حادث أليم ومفاجئ ، مثلما فعل مع تلك الصحفية الموهوبة التي غادرت مصر ودموعها تسح فوق خدها لتتعاقد مع كبرى الصحف السعودية ، ولتجعل من الأرض المقدسة مقر إقامتها الدائم.

ولم يكتف بذلك ، بل يكتب فقرة في مقاله الافتتاحي بالجريدة ينعى

بأسى هذا الصحفي أو تلك الصحفية، ويؤكد بكلمات حزينة مؤثرة أن
فى بلاط صاحبة الجلالة قليل من ملائكة الفردوس لا يعيشون طويلاً..
وكثير من شياطين أسفل سافلين يعيشون أطول ويعمرون أكثر!

لم يتوقف عبد العليم عن التفكير فى مصيره المجهول الغامض وهو
فى مكة المكرمة.. دار فى رأسه السؤال الحائر المحير.. هل يعود إلى
مصر أم يسافر إلى بلد آخر سواء كان عربياً أو أوروبياً ليقضى هناك
بقية عمره؟ تذكر هول ما كان يراه بعينه من أجهزة الأمن، وما يسمعه
عن بطش كبار المسئولين بالمعارضين الخارجيين عن سياسة البلد، وطوع
النظام الحاكم، لدرجة أنه كان قد جعل من نفسه جزءاً من كيان النظام
وترساً فى هيكله الأساسى.. فكيف لكبار رجال الدولة وأجهزتها الأمنية
أن تبطلش به فى نهاية المطاف، وبعد سنوات طويلة من خدمة النظام والأمن
والحزب وكل أجهزة الدولة؟ هل غريت شمس سطوته وجبروته، وانقلب
السحر على الساحر لمجرد الخروج عن النص لمرة واحدة فى العمر؟ ولماذا
يهوى النظام مثل معظم النظم العربية أن تشرب دماء خادميها، وتطحن
عظام عبيدها بعد أن صلوا لها وفى محرابها صلوات خاصة مخصصة نقيه
على مدار سنوات عديدة؟

وذات صباح جاء اتصال هاتفى من المحامى الخاص به فى القاهرة
يخبره فيه بأن صحفياً من مؤسسة الأيام تقدم ضده ببلاغ إلى النائب
العام، وكان كل ما يشغله ويثير شجونه العقد المزور لقطعة الأرض التى
اشتراها للمؤسسة لبناء مبنى جديد بقيمة عشرين مليون جنيه، ودون فى
العقد أنه اشتراها بمبلغ خمسين مليون جنيه، ولو ظهر هذا العقد المزور
الذى ربح من ورائه ثلاثين مليون جنيه دخلوا فى حسابه فى البنك ستكون
فضيحة مدوية، وتلتف أساور الحديد حول معصمه لذلك سعى على الفور
لتغيير مسار رحلته من القاهرة إلى مكة، والعكس لتكون من مكة إلى
الدوحة.. وسافر بعد أداء العمرة إلى قطر، وهناك التقى مع عدد من الرفاق

والأصدقاء القدامى فى بلاط صاحبة الجلالة من الذين زاملوه ردحاً من الزمن.

إلا أن يقائه طويلاً فى قطريعد أمراً لا يمكن تخيله أو الصبر عليه ، فالجو حار بشكل لا يطاق ، رطب رطوبة لا تحتمل طوال العام.. سأل نفسه.. ما هذا الجحيم الذى لا تطفئه نار المكيفات ولا ماء الخليج!

جاءته فكرة الفرار إلى فرنسا فهو بلد ممتع صيفاً وشتاء خاصة وأن معظم رجال الأعمال المصريين الذين هربوا بأموال البنوك ، وثروات البلد فروا إليها واستقروا فيها ، وأعربوا عن سعادتهم بهذه الهجرة الاضطرارية ، وهو نفسه سافر فرنسا عشرات بل مئات المرات فى مهام صحفية عبر الطائرة الرئاسية ، وأعجبه جوها وأهلها وشوارعها وميادينها ومطاعمها ، وكل ملامحها وبصفة خاصة التحور العين من بنات باريس.

كان يطالع الصحف المصرية يومياً ، ويترقب ما تحمله من أخبار قد تكون غير سارة وصادمة بالنسبة له ، وكانت كل الصحف بلا استثناء تهاجمه سواء بشكل مباشر أو غير مباشر حتى المؤسسة التى رأس مجلس إدارتها وتحريرها.. كظم غيظه ودفن غضبه فى صدره ، وتوعد كل من ألقاه بحجر أو وجه إليه كلمة سباب جارحة أو انتقده بأسلوب غير لائق بأن يضعه فى حجمه الطبيعي عندما يعود إلى مصر ، ويسترد ثقته فى نفسه ، وكان قد توسل له مسئول قطرى عند الرجل الكبير فى مصر الذى يمسك بخيوط اللعبة كلها ، ووعده أنه لا نية على الإطلاق لتقديمه إلى المعاكمة لأنه رجلهم فى النهاية ، وعندما سمع الكاتب الصحفى الكبير عبد العليم طابع هذه الكلمات قال:

لقد نفذت كل ما طلبوه منى وما لم يطلبوه أيضاً.. طلبوا مهاجمة الإخوان المسلمين هاجمت بضراوة لا نظير لها ، وتلقيت تهديدات بالقتل.. حرصونى على الاشتياك مع الناصريين اشتبكت.. أعطونى الضوء الأخضر لمهاجمة أمريكا ففعلت.. طاليونى بأن ألصق تهمة مشينة بأتباع أمريكا فى مصر

فوصمتهم بالخيانة العظمى ، وتلك جريمة لا تغتفر ، وبعد كل ذلك تركونى للكلاب الضالة تنهش لحمى !

ثم طار عائدًا إلى مصر حيث ارتضى فى أحضان خادمته وعشيقتة إيرين ، وظلت علاقته بزوجته باردة فاترة لأنها كما كان يصفها دائماً.. جيل الجليد.. وفى نفس الوقت تمنى لو تعود علاقته بالمستول الأمنى الكبير كما كانت فيما مضى ليفرض سطوته وسيطرته على المحررين المتمردين الجدد فى سوق صاحبة الجلالة الذين أغرتهم أموال الصحف الخاصة والحزبية التى أطلق عليها لقب " دكاكين الصحافة " لصاحبها رجال الأعمال وخبراء نهب أموال البلد أمثال رجل الأعمال والمال وشهريار العصر والأوان همام مصطفى الذى سقط ضحية غرامه وانتقامه من المطربة سوزان عبيد !

فجأة رن جرس التليفون كان المستول الأمنى الكبير على الطرف الآخر.. ظل الرجل صامتاً لفترة تذكر خلالها عبد العليم طايح أن هذا المستول سبه بأمه ولعنه بأيه ولكنه كان فى أشد الحاجة إليه فى هذا الوقت ، وبدأ الحديث معه قائلاً :

— صباح الخير يا معالى الباشا..

دار بينهما الحديث على أفضل ما يرام وكأن شيئاً لم يكن.

اتصل عبد العليم طايح بمدير تحرير الجريدة الجديدة التى أسسها ليستعرضاً معاً الماكيئات وأسماء المحررين المرشحين للعمل فيها ، وطالب باستبعاد المحررين أبناء الفلاحين والفقراء ، فقد فوجئ بأن أحد المحررين الذين عملوا معه سابقاً جاء ليعمل فى الجريدة ، وتذكر عبد العليم طايح أنه كان قد عرض على هذا المحرر أن يتزوج من محررة أخطأ عبد العليم معها فى لحظة طيش عابثة ، رفض المحرر لأن المؤسسة كلها كانت تهمس وتتأقل هذه الحكاية سرّاً ، وعلى الفور فصله من المؤسسة ثم أعاده للعمل مرة أخرى بعد وساطة من شخصية كبيرة فى

رئاسة الجمهورية، وعرض عليه الزواج منها مرة أخرى مقابل منحه شقة وسيارة وراثيًا كبيرًا مغريًا يضمن له حياة أفضل، ولكن المحرر رفض بعناد شديد، فقد كانت جذوره الصعيدية تمنعه من الاقتران بفتاة مثل الفريسة التي التهمها أسد شرس شره، ولم يتبق منها سوى الفتات!

فى نهاية الأمر طلب عبد العليم طابع من شئون العاملين ملف خدمته وأوراقه الأصلية للإطلاع عليها بعد أن شك فى مؤهله الدراسى، كما كلف أحد أصدقائه من ضباط أمن الدولة بالتحرى عن هذا المحرر، وكانت الصدمة الكبرى أن المحرر انتحل صفة واسم أخيه التوأم الذى توفى فى حادث أليم، واستغل شهادة شقيقة الجامعية فى التعيين، وكانت فضيحة لا مثيل لها فى كواليس المؤسسة!

التقى عبد العليم طابع مع محاميه الشهير الذى يتعامل معه منذ عشرين عامًا، واستعان به فى مؤسسة " الأيام "، واستحدث له منصب مستشار قانونى يميلغ خيالى وبعد التحيات والسلامات سأله: ماذا يفعل إذا تم القبض عليه فى أى وقت؟ نصحه المحامى نجم الفضائيات، والصحافة الذى يسعى لأن يرد له الجميل بأن يقول للقضاء ثلاث كلمات فقط! وبعد أن تركه المحامى وانصرف انتابته حالة من البكاء المتواصل المحموم الذى يشبه العويل.. تلك الحالة جعلت خادمتة ومعشوقته السرية إيرين تخلع عنه ملابسه بالكامل حتى يتحرر من كل شئ ويستريح، ثم طلبت منه أن ينام على بطنه كنوم الأعزب، وأنهمكت فى تدليك جسده بقطعة قطن مبللة بالشمبانيا، وبعدها أخذ الحمام ونام باستغراق، وفى الصباح قرأ الصحف كعادته واحتسى القهوة.. وسألتة فى تلك الأثناء عن حالته النفسية، ولماذا يبدو هذه الأيام حزيناََ مهموماً؟!

قال الرجل بمرارة:

يا عزيزتى.. أنت لا تدركين ما أعانيه، ولا تقدرين خطورة الموقف.. الهروب خارج البلد لن يحل مشكلتى، والبقاء داخل مصر قد ينتهى بى فى

السجن! أنت ساذجة وبريئة ولا تعرفين هذه الحكومة، ولا العناصر التي تجلس في مواقع السلطة.. إنهم جبابرة.. أنا أعرفهم أكثر من أي مخلوق في هذا البلد التعس!

— ماذا تقصد بالضبط؟

أطلق تنهيدة حارة وقال:

— الحكومة تلجأ لتفليق القضايا لكل مسئول مغضوب عليه أو خرج عن النص وخالف سيناريو أصحاب السلطة، وصناع القرار.

ثم استغرق لحظات في التفكير، وساوره القلق والخوف، وطاردته مشاهد السجن والتحقيقات والإهانات.. وسأل نفسه بحسرة.. يائري كيف سيعاملونه هناك مرة أخرى؟

في هذه اللحظة التراجيدية دخل عليه مدير تحرير جريدته الجديدة التي اختار لها اسم "٤٨ ساعة" وعرض عليه العدد التجريبي الأول، فاستعاد عيد العليم طابع ذكرياته وسلطاته الضائعة، وبدأ يضع السياسة التحريرية، ويحدد ملامحها، ويطرح الأفكار والموضوعات في صورة أوامر صارمة، ويرسم سيناريو توزيع الجريدة، والكمية المطبوعة منها وحجمها وشكلها، والرعاة الذين سيتولون الإنفاق عليها مقابل الإعلان عن مؤسساتهم ومصانعهم وشركاتهم.. انتشى الرجل وعاد إليه الأمل من جديد، وردت فيه الروح واسترد الطموح في مكالمات كبار المسؤولين له، وسيعود هاتفه الأخرس ليصرخ من جديد، ويدوى بالرنين.. وفي مصر تقاس أهمية المرء واعتباره من خلال هاتفه وعدد مرات رنينه!

كان يؤمن بأن المصالح تحرك العالم من حوله مثل الوقود الذي يحرك الشاحنات والبواخر والطائرات، ولا بد من التعامل معها بواقعية، سواء فوق الكرسى أو تحت الكرسى.. هو يؤمن بأن المرء عندما يكون فوق الكرسى يأمر فيطاع.. ويؤمن أيضا بأن المصالح تتصلح.. كان وهو فوق الكرسى يلقي بالتعليمات والتوجيهات والأوامر فيجد العشرات يهرولون

لتنفيذها ، وعندما يكون تحت الكرسي يبحث عن خندق آمن ، وملاذ حصين ليهرب بجلده من اللعنات الحفيرة والطعنات الشريرة.

أدرك فى قرارة نفسه بما لا يدع مجالاً للشك أن الخروج من المنصب يكسب الإنسان فضائل ومزايا عديدة منها فضيلة الإلتصاف إلى الآخرين.

كل هذه الأسرار والخفايا والحواديت كان قد أفضى بها إلى ناجى شرف الدين فى جلسات مطولة فى قصره بمدينة أكتوبر مع المزيد من الصور والمستندات وعندما فرغ من كتابة قصة حياته التى تتضمن مذكراته فى بلاط صاحبة الجلالة تم القبض عليه فى ليلة ممطرة ، وفى الطابق العاشر بمبنى الجهاز الأمنى العتيق بكوبرى القبة ثم إستجوابه عن ثروته وأملاكه وأرصده فى بنوك مصر وأوروبا ، وفى نهاية الأمر أمسك ضابط كبير برتبة لواء بالمذكرات التى سهر ليلال طويلة ، حتى أنجزها وفى لحظة عاصفة مزقها الضابط بمنتهى الغضب والعصبية ، وهو يلعن الصحافة والصحفيين الذين لم يحفظوا سرّاً لمخلوق فى هذا البلد.. وقال :
يا أولاد الكلاب حتى مصر نزعتم عنها ورقة التوت الأخيرة بأسنة

أقلامكم الوقحة الحادة كشفرة السيف الفتاك!

وألقي ببقايا المذكرات فى سلة المهملات!

" كثرة إضاعة الفرص نوع من الانتحار المتدرج "

فوق ربوة عالية ساحرة على جبال الألب الخلابة ، التقت إيناس مندور مع حمد الغامدى فى كازينو يقدم وجبات غذائية ، ومشروبات شرقية.. لبنانية ومصرية وخليجية.. تناولا العشاء والموسيقى الكلاسيكية تصدح حولهما ، والأضواء الخافتة تسرى ساحرة ناعمة تضوى فى الأنحاء.. دار بينهما حديث هامس رقيق عذب عن الحياة والحب والعمل.. سألته عن المستقبل ، وماذا سيفعل بعد الدكتوراه؟

بدأ يحكى عن تجربته السابقة فى العمل بمركز رعاية الفتيات بالسعودية قائلاً:

متذ سنوات ومشكلة الفتيات الهاريات محل نقاش وتداول من جهات عدة وبدلاً من تراجع الظاهرة ، وانحسارها نجد أنها تسجل أرقاماً وإحصائيات مخيفة تؤكد بما لا يقبل الشك أننا نعيش خطراً اجتماعياً مرعباً يجلب العار ويفكك الأوصال.. والمقلق فى هذه الظاهرة التى عرفت ولمست تداعياتها أن الأنثى الهاربة من بيت ذوبها فى معظم الحالات تبقى آخر شيء يمكن الاعتناء به فهوروبها لا يشكل خوفاً وهلعاً لأسرتها التى تخشى فقط من الفضيحة ، وتخاف أن يلحقها القيل والقال على ألسن الأهل ، فلامانع لديها من أن تذهب إلى الجحيم ، والبنات الهاريات لسن مجرمات بقدر ما هن ضحايا ، ولسن نباتاً شيطانياً خبيثاً بقدر ما هن مريضات نتيجة عنف جسدى ولظى مورس عليهن عنوة دون أن تكون هناك جهات رسمية لديها الصلاحيات الكاملة فى رفع الظلم عنهن قبل وقوعه أو حتى بعد وقوعه ، والسبب عادات اجتماعية تفرض الصمت والانصياع على بنات حواء فى مجتمعاتنا العربية ، وإن طفع الكيل تضطر الأنثى إلى الفرار للهاوية ، لاذت إيناس مندور بالصمت والشرود والدهشة ثم قالت:

— هل هناك حالات معينة تتذكرها؟

— حالات عديدة عشت أسرار وتفاصيل وكواليس أزماتها ومشاكلها ، وسوف أتوقف عند قصة فتاة تدعى " عالية " هربت من بيتها وعمرها ٢٢ عامًا وجاءت لتعيش في مركز رعاية الفتيات ، وفي أول مقابلة قالت لي :

" هربت من المنزل عدة مرات بعد أن سئمت الحياة التي أعيشها مع والدي الذي كان يعاشرتني ، وعندما أفكر في منعه من ذلك ، كان يضربني ويعتدي علي بالقوة في غياب والدي ، وعندما علمت أمي بفعلته الشنعاء انفصلت عنه ، وعادت إلى بلدها فهي من دولة أجنبية ، أما أنا فبقيت مع والدي في البيت حيث كان يفترسني كل ليلة ، ويرغمني على ممارسة البغاء معه ، ويهددني لو منعت نفسي بالطرد من البيت الذي يأويني شر طرده " .

وواصلت عالية حكايتها الغريبة قائلة بمرارة :

" بعدما سئمت من الوضع المخجل الذي أعيشه ، وحياتي القذرة مع أبي قررت الهروب إلى أي مكان بعيداً عن هذا الوكر ، والنجاة من بؤرة الشيطان ، ولن أعود إليه أبداً ، لذلك لجأت إلى مركز رعاية الفتيات من أجل حمايتي ، والحصول على صك الأمان الذي فقدته داخل البيت.. ولا أعرف الصورة التي سيكون عليها حالي ومستقبلي في قادم الأيام ، ولا أدري ماذا تخبي لي الأقدار غداً أو بعد غد.. وهل سأبقى هنا لآخر العمر أم لا؟ ومن الذي يقبل أن يرتبط بفتاة ملطخة بالعار؟ " .

قالت إيناس مندور :

— " يا الله.. الحياة فيها مصائب كثيرة ودائمًا الضحية أنثى بريئة من بنات حواء " .

علاود حمد الغامدي حديثه مسترسلاً :

— تبدو قصة "آمنة" مختلفة تمامًا ونهايتها درامية مشوقة حيث قالت لى:

"أنا فتاة أبلغ من العمر ٢٨ عامًا لا أكثر ولا أقل، هربت من بيت والدى عدة مرات وفى كل مرة تتم اعدائى من خلال رجال الشرطة، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد الإمساك بى فى أحد الشوارع التى أكون مختبئة فيها، ولكن فى إحدى المرات قررت الهرب برفقة شاب كنت قد تعرفت عليه فى أحد المجمعات التجارية، وذهبت معه إلى منزله وجمع الحب بين قلبينا واستمرت قصة الحب مدة طويلة حتى أمسك بى رجال الهيئة بعد أن تم إبلاغهم من أسرئى بأننى هاربة، وهناك احتجزونى فى مكتب الهيئة لحين مجئ أهلى لإستلامى! لم أكن نادمة برغم أننى منحت هذا الشاب خلاصة أنوثتى وفورة شهوتى"

وتقول آمنة أيضًا:

لعل الظروف الصعبة التى عشتها فى بيت عائلتى، والقسوة التى كانوا يعاملوننى بها خاصة أخوتى، واعتدائهم على بالضرب فى جميع الأوقات، ولأسباب تافهة وليس منطقية هى التى أدت إلى هذا الحال، فأنا أعلم أن هروبى مع شخص آخر يعد سلوكًا غير أخلاقى بالمرّة، ولا من العادات والتقاليد المألوفة فى مجتمعنا العربى الذى كان قلعة الشّهامة فى سالف الدهر.

هزت إيناس مندور رأسها ثم قالت: فعلاً حكاية غريبة وعجيبة..

احتسى خمد الغامدى فتجأناً من القهوة ومصمص شفّيته وقال:

— القصة الأغرب تلك التى سأحكىها لك الآن.. وهى لفتاة تدعى ياسمين.. مطلقة وتبلغ من العمر ٣٠ عامًا ولديها طفلان، وجاءت إلى مركز الرعاية وقالت لى:

"لقد انفصلت عن زوجى بعد قصة حب سريعة مثل وجبات "التيك أواي" وعشرة ثلاث سنوات فى بيت الزوجية، لكن المشاكل العائلية المزعجة

والمزمنة أدت إلى الطلاق في نهاية المطاف ، وعدت بعدها خائبة الرجاء
مكسورة الجناح إلى بيت أبي مع طفلي ، ووضعت في ذهني أن الحياة سوف
تصغولي ، وأنتى سأعيش في أمان وأطمئنان ، ولكن الواقع شئ والتمنى
شئ آخر.. بدأت المشاكل تطل بوجهها القمئ مجدداً ، وتحيط بي من كل
صوب وحذب ، وصار أخوتي يفرضون سلطتهم علي ، ويمارسون معي جميع
صنوف العنف الجسدي والنفسي ، وكذلك والدي الذي لا يكل ولا يمل
من تهديدي بالطرد من البيت في حال عدم الانصياع للأوامر التي تملي علي
من أشقائي ، فقررت الهرب من البيت ، واللجوء إلى مركز رعاية الفتيات
لحمايتي من شر أخوتي!

...

" الأدباء يطهرون نفوسنا، ويعيدون إلنا ذلك القدر من
التوازن الذى يخفف عنا متاعب وأشجان الحياة! "

عاد الصخب من جديد إلى شارع الصحافة ، وسالت الأخبار على الأخبار ،
وتناثرت الحوارات واللقاءات والتحليلات الصحفية فى مختلف الصحف
القومية والحزبية ، والخاصة التى يطلقون عليها " مستقلة " .. لا صوت يعلو
من جديد فوق صوت قضية رجل الأعمال الملياردير صاحب الحصانة
البرلمانية النائب همام مصطفى المتهم بتحريض ضابط أمن دولة سابق
على قتل المطرية سوزان عبيد ، وفجرت المفاجأة هذه المرة أسرة المطرية
الراحلة المغدورة عندما تنازلت عن حقها المدنى فى الدعوة المتطورة أمام
المحاكم المصرية ، هذا الأمر أثار الكثير من الجدل حول وجود صفقة
ما لإنقاذ رقية همام مصطفى من حبل المشنقة!

نشرت جريدة " الأيام " القومية الحكومية فى صدر صفحتها الأولى
تقلاً عن والد المطرية الضحية سوزان عبيد تأكيد تنازله عن حقه المدنى
فى القضية الجنائية المروعة ، وإعلانه عن كشفه تفاصيل التنازل قريباً ،
وجدد الأب المكلوم اتهامه لضابط أمن الدولة السابق بقتل ابنته مع سبق
الإصرار والترصد ، كما أكد محامى الأسرة أن التنازل تم بالفعل فى
العاصمة اللبنانية بيروت ومن خلال أوراق ثبوتية رسمية معتمدة من وزارة
العدل اللبنانية مبرراً ذلك برغبة الأسرة فى نسيان تلك المأساة الفظيعة
حتى تعيش الأسرة فى هدوء بعيداً عن ضجة الاعلام ، وأجواء المحاكم
والتحقيقات ، وألمح محامى الأسرة إلى قيامه برفع دعوى قضائية ضد من
سرب معلومات حول أن واقعة التنازل تمت مقابل دفع همام مصطفى دية
لأسرة سوزان عبيد قدرها ١٠٠ مليون دولار!

وذكرت صحيفة " الأيام " أيضاً أن والد ووالدة وشقيق سوزان عبيد قد وقعوا بالتنازل عن الادعاء بالحق المدني في القضية أمام موثق الشهر العقاري بوسط العاصمة بيروت ، وسوف يتقاسم أفراد العائلة مبلغ الدية بالتساوي.

وقد تسلم محامي رجل الأعمال همام مصطفى التنازل موثقاً من وزارتي العدل والخارجية ، وتقدم به لمحكمة جنايات جنوب القاهرة بعد حصول آل عبيد على الرقم الخيالي من الدولارات من خلال الصفقة التي أدارتها ، وأبرمتها شقيقة همام مصطفى والمعروفة في الأوساط الصحفية بالمرأة الحديدية.

وقالت صحيفة " الغروب " الخاصة نقلاً عن مصادر قضائية أن المحكمة عندما تنظر الدعوى بعد التنازل عن الحق المدني تنظر إلى شخصية المتهم ، وشخصية المجنى عليها ، والظروف التي أحاطت بالدعوى الجنائية بهدف تخفيض العقوبة ، وأن التنازل لن يكون له تأثير في سير المحاكمة إلا إذا صاحبت التنازل حقائق وأدلة وبراهين جديدة ، ودائمة من الممكن أن تغير مسار ومصير القضية.

واستشهدت الصحيفة برأى الدكتور عواد العايد أستاذ القانون الجنائي وعميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة حيث أكد فيه أنه من الناحية القانونية يحق لأي شخص أن يتنازل عن دعواه المدنية أمام المحكمة الجنائية لأن تنازله عن هذه الدعوى هو حقه الخاص وله الحق في إثبات التنازل ، وهل تم بمقابل أو بدون مقابل بمعنى أنه حصل على أموال أو لم يحصل لأن الدعوى ملكه.

وأوضح أنه من الناحية القانونية يجوز للمدعى بالحق المدني إذا تعدد المتهمون أن يترك دعواه المدنية بالنسبة إلى أحد المتهمين دون المتهم الآخر ، وأنه ليس هناك ما يحول دون ذلك قانوناً ، لأن القضايا المدنية عبارة عن تعويض ، وفي القضايا الجنائية الكبرى يجب أن تقف هيئة

الدفاع والمحكمة على ظروف التنازل، والمقدمات والمبررات المحيطة به، وهل هو تنازل مجرد لوجه الحق والعدالة أم له أسباب أخرى؟.

كما كتبت صحيفة "الأحداث" تؤكد أن هناك آراء شرعية تثبت أن من حق ولي الدم فى أى مرحلة من مراحل التقاضى أن يعفو، ويقبل الدية أو يتصالح، وفى هذه الحالات يمنع القصاص شرعاً، وأن هذا التنازل واليت فى تغييره لمسار القضية من عدمه يرجع إلى تقدير المحكمة.. بينما أقرت الشريعة الإسلامية أن التنازل يسقط القصاص، وهو الإعدام للمتهم فى القضية.

أما موقف القانون الجنائى المصرى الذى ركزت عليه معظم الصحف الحزبية فهو لا يعفى المتهم من العقوبة حتى ولو كان بالتنازل عن حق الدم ولا يمنع القاضى من توقيع عقوبة الإعدام لأنه محكوم بنصوص جنائية، وملتزم بمبدأ الشرعية.

فى ظل هذه الفوضى العارمة، والأمواج العاتية فى بلاط صاحبة الجلالة تذكر ناجى شرف الدين حكايات أستاذاه الصحفى القدير عطا الهلالى الذى اختفى منذ سنوات، ومنها هذه الحكاية العجيبة وكأن الهلالى كان يقرأ المستقبل ويطلع على المجهول بعيون "زرقاء اليمامة" تلك الشخصية الأسطورية العربية القديمة.. هى امرأة من قبيلة "جريس" من أهل اليمامة سكنت جنوب الجزيرة العربية، وتحديداً السعودية والبحرين، وكانت ترى الشخص القادم من بعيد على مسيرة ثلاثة أيام، وهى أبصر خلق الله عن بعد، وفى إحدى الغزوات الحربية استتر جنود العدو بقطع الأشجار وحملوها أمامهم، فرأت زرقاء اليمامة ذلك وأنذرت وحذرت قومها.. فلم يصدقوها وقالوا: لقد خرفت المرأة، ورق عقلها، وذهب بصرها!

فلما وصل الأعداء لمهاجمة قومها وجدوهم فى حالة لهو وعبث واسترخاء تام، فأبادوهم وهدموا بيوتهم، وأحرقوا خيامهم، ونزعوا عين زرقاء اليمامة فوجدوها محشوة بالأثمد، وهو حجر أسود كانت تطحنه وتكتحل به

وسميت زرقاء اليمامة لزرقة عينيها.

وقال العرب القدماء عنها: إن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشعرة البيضاء في اللين والنملة السوداء في الليلة الظلماء.. وفي النهاية قتلها الأعداء!

استعاد ناجي شرف الدين من ذاكرته حكاية طريفة سمعها ذات ليلة مقمرة من عطا الهاللي قبل اختفائه بأسابيع، تدور الحكاية حول صحيفة روسية تدعى "أنا بوليتكو" عملت أثناء حكم "بريجنيف" في الصحيفة السوفيتية الأولى آنذاك "أزفستيا"، وهي الفترة التي حظي فيها الصحفيون الروس بالحرية.. تلك الحرية التي شجعت "أنا بوليتكو" على إقتحام قضايا خطيرة، وفتح ملفات شائكة وملغومة للتدقيق بالفساد والأفاسد صعوداً إلى شن حملة صحفية شرسة ضد التدخل العسكري للقوات الروسية في الشيشان من خلال التحقيقات الجريئة التي قامت بها، وسجلتها بالصوت والصورة والكلمة، ولفتت تحقيقاتها نظر المسؤولين عن صحيفة "نوفايا جازيتا" المعارضة، وعرضوا عليها العمل معهم وبالفعل رحبت "أنا" وذلك لأن تلك الصحيفة تقاوم سياسة التطبيع الصحفي مع النظام الحاكم، ثم كانت المفاجأة المدوية بوصول يوتين للحكم، والذي أعطى دعماً قوياً لفرض سياسة التطبيع والتطويع لصاحبة الجلالة مستخدماً في ذلك عصا التهيب وجزرة الترغيب!

في كتاب "هل ماتوا هباءً؟" الذي صدر مؤخراً في فرنسا صفحات عديدة تروى حكايات مثيرة عن تداعيات "تطبيع العلاقات الصحفية مع النظام الحاكم"، الإلحاح على هذا التطبيع أجبر الكثير من مشاهير الصحفيين الروس على التخلي شيئاً فشيئاً عن "الكلمة الحرة".. طوعاً، أو كرهاً!

الصحفية الدعوبة "أنا بوليتكو" حافظت على موقفها، وتمسكت باستقلالها، ولم تضعف أمام الإغراء، كما لم تخف من التهيب، ولم تكتف بنقد أخطاء نسيبتها للقوات الروسية، وإنما صعدت هجماتها

واتهاماتها، لتستهدف الكرملين وأهم المقيمين فيه: "فلاديمير بوتين" بصفة خاصة!

شككت في سياساته الداخلية منها قبل الخارجية، طعنت في مصداقية الحرب على الإرهاب التي يخوضها الغرب على الإسلام، بدليل أن الإرهاب لا يزال يوجه ضرباته العنيفة ضد المدنيين الأبرياء في مناطق مختلفة من العالم.. الواحدة بعد الأخرى.

والموقف المعارض الذي حافظت عليه صحيفة "نوفيا جازيتا" كان ثمنه باهظاً على الصحيفة، وعلى كتابها ومحرريها، اثنان منهم تم إغتيالهما برصاصات أطلقها مجهولان ثم لاذا بالفرار (واثنان آخران لقيتا حتفهما في ظروف غريبة لم يكشف غموضها حتى الآن) وصحفية خامسة اسمها: "آناستاسيا بابوروفنا" نجح مجهول في إغتيالها.

هذه الاغتيالات كلها لم ترهب "أنا بوليتكو" ولم تقنعها بالتهدة، كما لم تتأثر أو تتغير عندما مارسوا ضغوطاً عليها، وكان ردها المزيد من كشف الأسرار، والمزيد من فضح الأكاذيب!

لم تهتم "أنا" عندما منعوا استضافتها في برامج التلفزيون الحكومي، ولم تقلق من كثرة الخطابات والرسائل الإلكترونية التي تلقتها وكلها تهددها بالأذى والحرق والقتل والسحل.. ولم ترتعد أيضاً عندما تم القبض عليها بواسطة رجال من المخابرات الروسية أثناء قيامها بتحقيقاتها في "الشيشان" وإخضاعها للتحقيق يومين وليلتين ومصارحتها باحتمال قيامهم باغتيابها، ثم قتلها إن لم يردعها الاغتصاب ولولا تدخل إدارة تحرير صحيفة "نوفيا جازيتا" لدى وزارة الدفاع الروسية لما أمكن الإفراج عنها، والسماح لها بالعودة إلى موسكو.

لم تتوقف الضغوط عليها بهدف إجبارها على التطبيع أو التطويع مع التصعيد فيها مرحلة بعد أخرى، فبعد التهديد انتقلوا إلى التنفيذ، استخدموا سموماً للتخلص منها، منها السم الذي يحتاج إلى أيام عديدة

قبل سريانه في الجسد ، ولحسن حظها أمكن إتقاذها من الموت في آخر لحظة وفي النهاية.. تقرر قتلها رميا بالرصاص أمام مصعد منزلها.

التخلص من الصحفية جسدياً لم يكن كافياً بل أرادوا القضاء عليها معنوياً بعد موتها ووجدوا للأسف _ زملاء وزميلات لها يمسكون بأقلامهم ويكتبون ما يملئ عليهم من قصص وحكايات عن "أنا بوليتكو فسكايا " التي لا يعرفها غيرهم! من هؤلاء رئيس تحرير صحيفة "أزفيسيتيا " فلاديمير مامونتوف " الذي ألمح إلى أن "أنا بوليتكو" انخرطت في نشاطات مشيوية ، ومثمرة في الوقت نفسه!

بينما الجريدة الاقتصادية "كوميرسانت" شككت في ولائها لبلدها بزعم أنها ولدت في نيويورك عندما كان والدها عضواً في الوفد السوفيتي لدى مقر الأمم المتحدة وتحمل الجنسية الأمريكية إلى جانب الروسية! وقلم آخر كتب يتهم "أنا" بأنها تتحدث لغة أوكرانيا بنفس إجادتها للروسية ، وكان ذلك يشكل خيانة عظيمة!

...

" البحر الهادئ لا يخلق بحاراً ماهراً "

لم تكن السنة الصحافة تلوك سيرة وتخوض فى سمعة عيد العليم طابع فحسب، بل إمتدت ألسنتها الطويلة لتمسك بتلابيب ابنه، وصار أحمد عبد العليم طابع مادة خصبة وثرية للكتابة اليومية، وبصفة خاصة فى الصحف الحزبية والمستقلة..

كان الابن يهوى اللعب بالمليارات بعيداً عن الأضواء والشهرة عكس والده تماماً يفضل دائماً الاستثمار وجنى الأموال الهائلة من مشروعات عملاقة فى الخفاء، لا يطيق الشهرة وكفاه ما حصده والده منها.. فى نهاية الأمر ظل رهين المحيسين قلقاً مطاردًا يخشى الغد، ويخاف من رنين هاتفه أو طارق لبابه وكتبت إحدى الصحف المارقة عن النظام الحكومى ذات يوم تقول:

إن همزة الوصل بين أحمد طابع وحكام الإمارة الخليجية كان والده الصحفى المرموق طبعاً عيد العليم طابع الذى عرف طريقه إلى أمراء وأثرياء الإمارة النائمة على برميل من الذهب الأسود غير مسار ملتبس فلم يعرف أحد أن اطلالة عبد العليم طابع على شاشة قناة " الجريئة " هى ثمن الصلة بين الطرفين، وكانت الملايين الخمسة من الدولارات التى يتقاضاها عيد العليم طابع سنوياً من تلك القناة والبوح بأسرار الصحافة وبعثرة أوراق الساسة والسياسة بالحق تارة، وبالباطل تارة هى الثمن الإضافى لصفقة أكبر جعلت أحمد عيد العليم طابع يجنى الملايين هو الآخر!

كانت تعليمات الأمراء إياهم واضحة كالشمس عليه كنهار أغسطس: استثمار أموالنا فى الأرض!

ولم يكن أمامه سوى السمع والطاعة، لذلك كانت المحطة الأهم

والأبرز للاستثمار في الأرض هي السودان.. تربة خصبة بكر عفيه قوية شاسعة، والمياة تحيط بها من كل جانب، هناك اشترى مساحات هائلة من أجود الأراضي في بلد تبلغ مساحة أراضيها الصالحة للزراعة ٢٠٠ مليون فدان ولن تمر سوى سنوات قليلة حتى تغرق أسواق البلاد بسكر السودان الذي ينتجه أحمد عبد العليم طابع عبر شركته " القابضة " وهي مؤسسة استثمارية ضخمة جعلت تركيزها الأول على المسائل الزراعية، وقد توسعت الشركة العملاقة في مشروعات زراعية أخرى داخل مصر حيث تملكوا " مزارع ديانا " الشهيرة على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى لتضم إلى جانب زراعتها المتنوعة واحدة من أكبر مراكز تربية الأبقار " ٥٠ ألف رأس " من أفضل سلالات الأبقار الأمريكية المعروفة باسم " الهولشتين " مع إنتاج الحليب الذي يتم تصنيعه وفق أحدث التكنولوجيا العالمية.. واشترى أحمد عبد العليم طابع أشهر مصانع إنتاج العصائر المعلبة في البلد.

ولم يتوقف طابع الصغير عند مجال الاستثمار في الأرض فحسب، بل توجه إلى كل ما له علاقة بالنشر أيضًا، وتم هذا الأمر بتوجيه من والده الكاتب الصحفي، حيث إشتري مجموعة مكاتب " الغروب " وقام بتطويرها وتجديدها، وكذلك جريدة " الغروب اليومية " ودار النشر التي كانت مملوكة لصديق والده فريد المعلم.. مراقبون ماليون أكدوا أن أحمد عبد العليم طابع لن يتوقف عن الشراء في الحقول والمصانع والشركات ولن يتوقف أيضًا عن البيع، فهو كمعظم رجال الأعمال الكبار يشتري ما يعتبره خاسرًا أو رخيص السعر ثم يعمد إلى ضخ الملايين فيه لزيادة رأس المال، وي طرح أسهمه للبيع بعد ذلك فيحصلد سعرًا مرتفعًا، وينتقل إلى مشروع آخر وسلعة أخرى.. وهكذا.

المدهش في الملياردير الجديد أنه بدأ حياته موظفًا بسيطًا في أحد البنوك وفي فترة الانفتاح الاقتصادي تغيرت أوراق اللعبة.. وفي الوقت الذي خرج فيه عبد العليم طابع من لعبة الصحافة والسياسة، دخل ابنه لعبة

السوق والاقتصاد مستثمرًا الأموال التي تأتيه من على شاطئ الخليج حتى أصبح واحدًا من أهم أصحاب شركات الاستثمار المالي ثم الزراعي في مصر رغم اختلافه مع ابن الرئيس الذي كان شريكًا له في الاستثمارات وتحول إلى منافس لدود له بقدرة قادر.

المتابعون لحركة أحمد عبد العليم طابع المالية يراقبون زيارته المتكررة إلى جنوب لبنان بطائرة خاصة دائمًا يلتقى خلالها كبار المسؤولين في حزب الله بعيدًا عن العيون والأضواء وكاميرات وسائل الاعلام، وجواسيس الصحافة التي ترصد ديب النمل في جوف القمقم، ولا يعرف أحد متى يأتي ومتى يغادر إلا عدد قليل من مسؤولي الحزب الفارسي في أقصى أقصى الجنوب، أو من خلال قراءة جدول السفر في مطار رفيق الحريري الدولي في العاصمة بيروت، ومستقبله ومودعيه من الحزب نفسه.. الكثيرون يعتبرون أن حزب الله يستثمر جزءًا هائلًا من أمواله في مشروعات أحمد عبد العليم طابع الزراعية الكبرى في السودان تحديدًا حيث للحزب مكانة خاصة لدى المسؤولين السودانيين الذين يتلقون دعمًا سياسيًا وإعلاميًا وماليًا من طهران.

ويتوقع الكثيرون أيضًا أن يحل أحمد طابع محل رجل الأعمال اللبناني الشيعي وضاح عز الدين الذي أفلست مؤسسته المالية التي كانت تشكل حافظة نقود حزب الله، وبلغت خسائره ٥٠ مليون دولار شملت ودائع الفقراء، ومتوسطي الحال من الشيعة وبعض المستثمرين الخليجيين فضلًا عن أموال قادة حزب الله السياسيين والأمنيين في حالة شبيهة بإفلاس شركات الريان المصرية في ثمانينيات القرن الماضي.

عندما طالع عبد العليم طابع هذا الكلام أدرك أن أبواب جهنم أصبحت مفتوحة عليه ومن زاوية لم يكن يتوقعها على الإطلاق.. لم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن يكون ابنه مصدر الخطر، ومكمن الإزعاج، ونقطة الضعف التي يجهزون عليه من خلالها!

" سأل أحد الصحفيين إحدى الممثلات:

متى نعرف أن المرأة تكذب؟

فأجابت: إذا تحركت شفاتها! "

أوفدت ميرفت العطيفي رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " ناجي شرف الدين إلى الإسكندرية لتغطية وقائع مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي، وهناك التقى صحفية إسرائيلية فائقة الجمال تدعى " روث إيجلاش " جاءت موفدة من جريدة " هآرتس "، تعرف عليها في كواليس المهرجان، وخرجوا سوياً في نزهة بحرية ثم دلفا إلى أحد المطاعم الشاطئية لتناول ثمار البحر الشهية من الأسماك والاسماكوزا والجمبري، وفتحت له قلبها وقالت لناجي شرف الدين:

ـ " لقد كتبت عن تجربتي هنا في بلادكم تقريراً لصحيفة " هآرتس " تساءلت فيه عما إذا كانت ترتدى النساء المسلمات في مصر للحجاب من أجل الموضة والظهور بأحدث الأزياء أم لتطبيق الشعائر الدينية والشريعة الإسلامية؟ "

بدأت الكاتبة الصحفية الاسرائيلية تقريرها قائلة:

ـ استفرقت رحلتي في مصر حوالى ثلاثة أيام أثناء مشاركتي في المهرجان الذى استمر على مدى عشرة أيام، وحضره ٤٠ صحفياً ومراسلاً من دول عربية وأجنبية مختلفة، لكن الأمر تحول بالنسبة لى أن يكون هدف رحلتي بجانب تغطية أعمال المهرجان أن أجد إجابة للسؤال: لماذا ترتدى المصريات كل هذه الأزياء والأشكال المختلفة من الحجاب؟ وعندها زادت رغبتى أنا الاسرائيلية اليهودية في شراء حجاب لأتدثربه بعد أن رأيت هذا الكم الهائل من الألوان والأشكال

والأحجام من الأحجية ، فهناك الحجاب ذو اللون الواحد ، والحجاب متعدد الألوان ، والحجاب الحرير أو القطن أو الباشمينا..

ثم وجهت سؤالاً لناجى:

هل أنا كعلمانية يهودية أعيش فى تل أبيب فى حاجة لارتدائه هنا فى بلدكم؟

تبسم قائلاً: لا أعرف.. أنت حرة!

قالت: لقد شعرت أنى كيهودية علمانية بانجذاب لشراء غطاء الرأس الاسلامى ، وكان من الواضح لى أن ارتدائه لم يكن بوازع دينى ، ولكن ما كان يدفعنى لارتدائه هو السترة على الأقل طوال فترة وجودى فى مصر ، وأيضاً لأننى واثقة من أن الحجاب سيكون مهماً لحمايتى من التحرش.

قال ناجى ضاحكاً:

_ لا تخافى على نفسك إلى هذه الدرجة ، فلن يأكلك الرجال هنا.. المصريون ليسوا وحوشاً آدمية كما تتصورون فى إسرائيل!

قالت روث إيجلاش:

_ يا ناجى يجب أن تعرفى يا عزيزى أن كل من حولى من الفتيات والنساء المصريات صغيرات وكبيرات يسرن فى شوارع المدينة الساحلية مرتديات الحجاب بأشكاله المختلفة ، والمتنوعة فهناك الحجاب المتورم أو المنتفخ ، والحجاب المندسوس ، وآخر بدون عدة لفات ، وآخر محشو ومزخرف بالترتر ، وحجاب مطرز وآخر بلا تطريز ، وهناك أيضاً الحجاب الذى يظهر بعض خصلات الشعر تبسم ناجى وقال بإيماءة:

_ هذا أمر عادى جداً ، فالأنثى هى الأنثى فى كل زمان ومكان تبحث عن الأناقة والجمال تحت أى رداء..

ردت الصحفية الإسرائيلية بكبرياء:

— وسط هذا الكرتفال من الأزياء المتنوعة من الأحذية يمكن لأي
إنسان أن يحصى بسهولة عدد النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب،
كما أن وجودي بينهن عارية الرأس يجعلني أبدو مثل سائحة أفريقية
جاءت إلى بلادكم كي تتفرجوا عليها!
سألها ناجي بحسم:

— وكيف وجدت نفسك تحت الحجاب؟ بماذا شعرت؟
ضحكت بسعادة وزهو قائلة:

على الرغم من أنني في نهاية الأمر قررت التخلي عن الحجاب وتركته
إلا أنني ظلت مقتونة به، وعندما ارتديته شعرت باحترام كبير لذاتي
وأحسست بوقار غير عادي، وأنا تحت هذا الزي الإسلامي القديم جدًا.
قال ناجي بهدوء وحكمة:

— هذه فطرة الله التي فطر الناس الصالحين عليها.
هتفت قائلة:

ولكن بالرغم من كل ذلك فقد لاحظت أن ارتداء النقاب أو الحجاب
لم يكن لأسباب دينية فقط، بل إن العديد من النساء والفتيات يرتدين
الحجاب مع مزيد من الملابس الضيقة غير اللائقة، والعارية في كثير من
الأحيان، وذلك لمواكبة آخر صيحات الموضة.. ثم لاذت بالصمت المطبق،
وبدا عليها أنها تفكر في أمر خطير، كانت عيونها مصوية نحو البحر،
وعقلها شارد في السماء.

وفجأة طرحت عليه سؤالاً صادمًا:

— لماذا أصبحت الصحافة عندكم جريئة إلى درجة الوقاحة، ووقحة إلى
درجة البذاءة وعشوائية إلى درجة الفوضى؟
قال ناجي:

— هذه ملاحظة ذكية تستحق التحية، ودعيني أقول لك أنني منذ بدأت

العمل فى بلاط صاحبة الجلالة قبل أكثر من خمس سنوات أسرى
أستاذ عزيز على قلبى بنصيحة ، وأنا أخطو خطواتى الأولى قائلاً :

" عليك بجذوة الكلمة وصدقها.. تمسك بها ما حييت "

وها أنذا متمسك بهذه العبارة القصيرة الخطيرة.

الصحافة تلك المهنة المغرية للكثيرين ، والغامضة للغالبية العظمى
بكل تفاصيلها ودهاليزها ومساراتها الصعبة ، وطرقاتها الوعرة ومنحنياتها
الخطرة وجرونها السحيقة ، لم تتوقف حتى الآن عن مشاكلها
ومعاكساتها وأدوارها حتى وإن تغيرت أشكال بعضها ، وتعددت قوالبها
بين تقليدى واليكترونى.

سألته :

— وما الذى قدمته لك صاحبة الجلالة بعد خمس سنوات كاملة من
الشقاء والبحث عن المتاعب فى دروبها ؟

— هذا سؤال يا عزيزتى لا يبدو سهلاً على الإطلاق لمن اختار " مهنة
المتاعب " .. لا يعرف القارئ سوى فرسانها وأصحاب أقلامها البارزين ،
ولكن بين دهاليزها طاقم يملأ ما بين الأرض والسماء حيوية ونشاطاً
وعملًا.

أولى محطات المعاناة التى واجهتها مع مهنة " الشهد والدموع " هو تغيير
نظامى اليومى لأصبح " يومه " ليلية لا تكل ولا تمل من طول السهر ، وقد
أقنعت نفسى بعدها بأننى نجم ليلى أنام النهار ، وأسهر الليل .. شئ مؤلم أن
تغير ساعتك البيولوجية فتلك أم المصائب لتبقى على علاقة بالعالم أجمع
فى الوقت الذى أنت فيه بعيد فيزيقياً وعلاقتك به من خلال وكالات الأنباء
التي تمزق عباها فى الليلة الواحدة ألف مرة.

أما علاقتك بالواقع فلا تعدو سوى حضور الفعاليات والتواصل مع بعض
الكتاب فيما تدور كتروس الساقية مجبراً بين أروقة الصحافة.

كانت " روث إيجالاش " مبهورة بكلامه مشدودة لكل ما ينطق به..
وعندما سكنت سألته:

ـ هل تمنحك الصحافة علاقات عامة واسعة، ونفوذاً كبيراً؟
قال:

ـ باختصار شديد يا عزيزتى إذا ما خبرت الصحافة جيداً فسوف
تكتشفين أنها " قرية مثقوبة " يتسرب منها الأصدقاء كما يتسرب الرمل
من بين الأصابع..

على المرء أن يخسر الكثير من الأصدقاء فى سبيل الحفاظ على مهنيته،
وقد يخسر الكثير ليخرج مع نجمة الفجر من مبنى الجريدة وحيداً ليجرى
حواراً مع راقصة عاهرة أو ممثلة داعرة شهيرة.. أنهت وصلتها ثوا فى الملاهى
اليلية والبلاطوهات السينمائية.. يخرج الصحفي وحيداً لا أحد يسامره يا
عزيزتى سوى برودة الفجر التى يرثشفها مع كوب الشاي أو فتجان قهوة
يقاسمه وحدته، وبعضاً مما علق فى أنفه من حبر المطبعة!

عاد للصمت ونظراتها مصوبة إلى وجهه.. وقالت:
ـ لماذا الصمت.. تكلم.

بصوت مبحوح متهدج:

ـ أصدقاء الصحافة وحيدون أيضاً فى حمل شباك صيدهم، عليهم يجدون
فكرة طائفة يقتصونها.. الوحدة شعارهم للبحث عن الأفكار،
ولتحقيق السبق فى ماراثون لا ينتهى.. السبق الذى يتطلب مصادر تجبر
المحرر الصحفي على أن يظهر مالا يبطن فى كثير من الأحيان..
والعبارة لا يعرف كنهها سوى زملاء المهنة ورفقاء القلم!

بين المنشور واللامنثور يُنشر الصحفي والنشر هنا ليس بمعناه الورقى
المعروف، بل بمعنى " التمزيق "، فالصحفى منشور بالوقت الذى يحكمه
كحد السيف على الرقاب، ومنثور بالأمانة الملقاة على عاتقه، ومنثور

بالبعد عن عالمه الواقعي، ومنشور بالقارئ الذي ينتظره ليشرّب كلماته مع كوب شايه الصباحي الساخن على مكتب وثير أو فراش أثير.

لكن هناك دائماً من يقرأ على قارعة الطريق، وعلى رهوة مرتفعة بين المزارع وفي أحراش العقول، وعلى حد البحر بين النوارس والصقور، وعلى مقعد الدراسة وفي غرفة النوم، وبين زملائه وأصدقائه، وفي المقهى والنادي وفندق خمس نجوم، وغرفة حقيرة فوق السطوح، وزنزانة ضيقة كئيبة في سجن لعين.

لكن السؤال: ما الذي تقدمه لنا صاحبة الجلالة الصحافة؟ أليست مهنة كهذه جديرة بأن تطلق عليها "مهنة المصائب"؟ واستعداد من ذاكرته مجموعة أبيات من قصيدة رائعة لا يتذكر مؤلفها، أسمعها إياها قائلاً بلحن شجي:

صغيرود لو كبرا	وشيخ ود لو صغيرا
وخال يشتهي عملاً	ودو عمل به ضجرًا
ورب المال في تعب	وفي تعب من إفتقرا
ويشقى المرء منهزماً	ولا يرتاح منتصرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حيروا القدر؟

سألته بإعجاب دهش:

— قل لي يا ناجي.. ما الذي تحلم به لصحافة بلدك؟

— أحلم لصحافة بلدي أن تكون السلطة الرابعة بالفعل، تكشف الحقائق ولا تغطي عين الشمس بالغريال.. لا تجامل ولا تدهن في الحق، ولا تصدر الحقيقة بل تقدمها للناس عارية كما ولدتها أمها حتى ولو كانت صادمة المهم أن تكون صادقة.. صحافة لا تعمل من أجل أشخاص ولا تخضع للسلطة خضوع العبد للأذل للحاكم الجبار

وإن كنت أرى أنه مع كل تقدم تحققه صاحبة الجلالة في عالمنا العربي هناك ثمة انتكاسة أمنية، ومحظورات إضافية، وممنوعات تهدد الصحفي نفسه وجسدياً بما لا يطيق! سألته ببراءة أقرب إلى السذاجة:

— لماذا ترتبط علاقة مصر مع إسرائيل الآن بالجواسيس؟ وهل هناك جواسيس في الصحافة؟

قال ناجي:

— هذا سؤال في منتهى الذكاء والخطورة.. سأحكي لك يا عزيزتي عن أغرب أمسية حضرتها في أحد الأيام.. وكانت عن "جواسيس الصحافة".. الأمسية تبرع بعقدها أحد الصحفيين المعروفين، وحضرها أكثر من مئة وعشرين صحفياً بين هاو ومحترف.. وكان الكلام كثيراً بين الصحفيين عن زملائهم الذين يقولون إنهم يخونون مهنتهم الشريفة فيتحولون إلى عشاق للنميمة داخل المؤسسة الصحفية التي يعملون بها من أجل المال أو الترقية أو من أجل أشياء أخرى ومآرب مختلفة، وإذا باشروا هذا الدور باقتدار وكفاءة يحسدون عليها فإن لهم إضافات جهنمية لا يرقى لها الشيطان، ولا تخطر له على قلب بشر لتأكيد قدراتهم، وأثبت ذواتهم..

قال الصحفي الأول: أنه فوجئ بقرار فصله من المؤسسة فأجرى على الفور اتصالاً هاتفياً بالمستئول عنه في المؤسسة مستغيثاً ومستتكرًا فجاءته الإجابة الغريبة المريبة: إذا كنت تريد أن تعود للعمل عليك أن تمدني بتقرير يومي عن تحرك زملائك في المكتب فرداً فرداً!

قال الصحفي: لكنني لم يسبق لي العمل في هذا المجال وأخشى أن أفشل في هذه المهمة.. رجائي أن تعفيني منها، وتختار شخصاً آخر غيري، وأن تأمر بإعادتي إلى عملي، فأنا يا سيدي لا أعرف مهنة ولا أجيد غير الصحافة.

جاءته الإجابة قاطعة حاسمة بغياء من المسئول إياه: لا يوجد عندنا عمل لك وأنت بمواصفاتك تلك، وعلى العموم قرار الاستغناء عنك في يدك، وإذا عرفت مصلحتك فتحن نرحب بك في أي لحظة ثم أغلق الهاتف.

وقال الصحفي الثاني في تلك الأمسية: إن رئيس التحرير عاقبه على أسلوب عمله وقال له صراحة.. عليك أن تفعل مثل زميلك تميم حسان الذي يكتب تقريرًا يوميًا عن أحوال العاملين بأقوالهم وأفعالهم ويرفعه لى.. فلماذا لا تكون مثله؟

أفعل يا سيدي بشرط..

ما هو هذا الشرط؟

أن تقوم بتنفيذ ما أعرضه عليك.

مستحيل.

ومستحيل أن يذهب جهدى هباءً منثورًا.

أنا قلت لك ما يفعله زميلك الذي صار أعلى منك درجة في السلم الوظيفي وهو الذي بادر بكتابة التقرير وأنا معجب به جدًا.

قال الصحفي الثالث: إن رئيس التحرير الذي عمل معه لسنوات كانت تبدو على ملامحه علامات الوقار والورع والتقوى لكنه اكتشف أن له "جواسيس" داخل هيئة التحرير يتقلون له بالتفصيل الممل غير المخمل كل ما يجهر به المحررون أو يهمسون، بل ويجلبون له ليل نهار ما يكتبه البعض من مواد صحفية يرون فيها خروجًا على هوى رئيس التحرير وطريقته في العمل وأسلوبه في الإدارة، وطبعًا ينالون على ذلك التقدير المناسب والمكافأة المجزية، ويتم بطريقة تدريجية قصيرة النفس أو طويلة النفس التخلص من المحررين غير المرغوب فيهم بناء على تقارير زملائهم دون أدنى استفسار أو تحقيق أو حتى مجرد حوار أو فرصة للدفاع عن النفس.

أما الصحفي الرابع فقال عائدًا بعجلة الزمن إلى الوراء أنه سمع عن عدد

من "رواد الصحافة" كانوا لا يخلون عن رفع التقارير إياها ، وإذا وجدوا أنه لا فائدة ترجى من كتاباتهم تلك التقارير هم يجيزون ذلك لأنفسهم من باب "المصلحة العامة" ومشتقاتها والرغبة فى الوصول إلى الأفضل!

هذا هو الشعار العام لهم وللمطبوعات التى يمارسون فيها "طقوس الكتابة" فى الشؤون الإنسانية والاجتماعية والتاريخية ، وتكون كتاباتهم أو تقاريرهم السرية غير مقبولة خاصة وأن من تناوله هذه التقارير يكون فى غفلة فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

وقال أيضاً: إن زميلاً له أعترف أمامه بأنه حرر ٤٨٠ تقريراً ضد زملائه ، كانت معظمها كاذبة ومفبركة وكيدية إعتد فيها هذا الملعون على خياله الخصب وبراعته فى تأليف الافتراءات ونسج المؤامرات ، وأنه أطلعه على صور من هذه التقارير التى أطاحت ببعض زملائه الأعزاء ، ونجا منها البعض بأعجوبة لم يصدقها أحد.. الضرر جاء من داخل الجريدة ومن خارجها.

ويواصل الصحفى الأخير مسترسلاً فى رصد الحكاية المثيرة قائلاً: أنه على ثقة تامة من أن زميله لم يرحمه من تقاريره الكاذبة ، ولم يخب ظنه فقد وجد ضمن تلك التقارير تقريراً عنه يتضمن ملاحظة واحدة ألا وهى أنه يمضى وقتاً طويلاً من نهار العمل الصحفى فى الترتبة عبر هاتف المؤسسة التى تتحمل فاتورة هذه المكالمات ، كما أنها كلها مكالمات حريمى.. أى أنها علاقات عاطفية ساخنة ومشبوهة ويحاسب عليها النظام العام.. ثم سكت وهنا ضجت القاعة بالضحك والهمهمات.

حوارات وحكايات واعترافات من هذه العينة تكشف بجلاء ما يفعله الناس حين يتركون مصالحهم رهينة لدى التاريخ ، ومن يرى الدنيا بعينين ويكتب بعين واحدة يشعر بالمتعة التى ليس بعدها متعة.. متعة التقريب ، ومتعة التباعد.. متعة التوازن ومتعة الجموح.. متعة اللهو ومتعة الجد ، وكلها من الصور التى تنعكس على بعضها البعض.. مثلاً عن الكاتب الساخر حين يدخل لعبة الورق والقلم بهدف السخرية ، وليس بهدف التصدى

للكتابه نفسها.

والسخرية فى حد ذاتها مادة ساحرة من مواد الأدب والفن، وتعتبر من المطالب الضرورية للحياة، فالمرء يحتاجها فى عمله، والموظف فى مكتبه، والمرأة فى بيتها، والأستاذ فى جامعته لأنها هى التى تجعل الإنسان يرى الأشياء عن قرب وعن بعد بشكل لا يتسنى له أن يراها بدونها، مثل العدسة تمامًا يجعله يرى ويتأنى ويتأمل قبل أن يصدر أحكامه على قيمة أو تفاهة ما حوله ومن حوله.. من معه ومن ضده.. ولماذا تستمر التفاهة فترة أطول من عمرها الإفتراضى، ولماذا تغيب وسائل الردع والقمع عن مباشرة دورها فى تعرية هذه التفاهة ووضع حد لتضخمها واسترسالها وانغماسها؟ كما أن التفاهة لا يستطيع التصدى لها وردعها إلا الصحفي الساخر، ولا يستطيع التندر عليها وإخراج لسانه لها إلا الصحفي الساخر، وإذا لم يفعل ذلك، ويقوم به يكون أول ضحاياها وعليه أن يدفع ثمن انتشار تلك التفاهة بالطول والعرض، ويتحمل أيضًا مسئولية التنبية عنها والتحذير منها، وإذا لم يصغ له أحد فهذا يزيد من حجم مسئوليته ولا ينقص منها حتى لو دخل فى تحد معها.. والكتابة الساخرة علاوة على أنها فن رفيع المستوى عالى القيمة إلا أنها لا تجد الحماية الكافية واللازمة لمنع الدخلاء من ارتياد ساحتها، ولا تجد فى نفس الوقت التشجيع الكافى لإستمرار موكيها، ومضى مسيرتها بعيدًا عن العقبات والعراقيل.

وبقدر ما يكون دخول الغريب ساحتها مؤلما، يقدر ما يكون غياب التشجيع عنها مؤثرا فإن ذلك يمنحها وقودًا جديدًا، وحافزًا قويًا لاستمرار العطاء، وبقاء شمعة الأمل مشتعلة.

جواسيس وسخرية فى عالم الصحافة بلا شك.. السخرية هى الفاكهة الأولى لصاحبة الجلالة، ويجب ألا تخلو موائدها منها، بل يجب أن تصدر هذه الفاكهة المائدة الصحفية بكل ما فيها من فواكه.. كثير منها بلا طعم ولا فائدة سوى أنها تملأ المائدة!

"إنهم يفضلونها ساخنة.. لا باحثة ولا عالمة!"

هاجمها الشوق للوطن وخريش الحنين بأظافره أيامها.. وكاد يحولها إلى رماد ودخان.. استعادت ايناس مندور ذكرياتها في محاولة لتبدد عنها وجع الغربة وبرودتها.

فبين سماء مصر وثلوج سويسرا آلاف من الأميال، ولكنها في حساب عشقها أقصر من ضربات القلب.. هذا الوطن المتدثر بشال أزرق يلامس الأفق ويحضن السحاب، هو إدمان لا فرار منه ولا شفاء.. مازالت تحلم بأن تتكور في رحم الوطن، رائحته العطرة تهاجمها في اليقظة والأحلام.. تتوق لحضن الديار وتشتاق لتراب الوطن ونيله وناسه.. مازالت تحلم بأن تخرج المرأة المصرية من المعتقل، وبالثقافة وحدها تستطيع أن تسترد مفاتيح حريتها، وبالثقافة وحدها تكون قادرة على العودة من المنفى الإجماري الذي تعيش فيه منذ قرون طويلة.

الوطن العربي غارق في جهله، ومصر قطعة أصيلة من جسده.. نسبة الأمية بين الرجال ٤٥٪ ونسبة الأمية بين النساء ٦٥٪ ولابد للنساء من اقتحام معترك الحياة لتحقيق التوازن في المجتمع العربي اللامتوازن أصلاً..

النساء في المجتمع العربي بحاجة إلى تصحيح المعادلة المغلوطة التي تعطى للرجل كل الامتيازات، وتضعه في خندق مراكز القوى، والمرأة في خندق الضعفاء!

كانت ايناس مندور تشعر بغصة مرارة حادة ومؤلمة في حلقها.. لا أحد يحرق أحداً في هذا العالم.. فالحرية من صنع الأحرار وحدهم، ولم يحدث في التاريخ الاتساني أن شعباً تحرر بالمراسلة، أو أن امرأة تحررت بالتوسلات وتقبيل الوجنات، وذرف الدمعات.

كانت تحب وطنها وتحن إليه وتؤمن أنه محاصر بمليون مشكلة ومشكلة لكن الموضوع الأساسي الذي تتوقف عليه حركة التاريخ، ويطلق على أخبار الفقر والأمن وأخبار الاقتصاد، وانخفاض أسعار النفط وأخطار الحرب النووية العالمية الثالثة هو المرأة!

هل يسمحون لها أن تعيش كما أراد لها الله؟ هل يسمحون لها أن تمارس دورها في الحياة كاملاً كأي كائن حي حر التفكير والإرادة.. أم يتركونها واقفة ألف سنة أخرى تحت الريح والمطر حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة جوعاً وبرداً وعطشاً وقهرًا وكيثاً؟

لماذا دائماً يشغل العرب بالهم يمثل هذه الهوامش التي أسقطها العالم من حساباته؟

ولماذا لا يغلقون ملف المرأة للأبد من الاستفادة من كل طاقات المجتمع؟ فليس في ميدان الفكر والعلم والابداع ذكر أو أنثى، إنما هناك إنسان يؤسس مجتمع العقل والعدل والمساواة.

لماذا يقبل الرجل أن تجالس المرأة حجرة الطعام، وحجرة الاستقبال؟ ولماذا يقبل أن تطارحه الغرام، وتقاسمه الفراش وتشاركه رحلة العمر والحب والمرض والشيخوخة ولا يقبل أن يعطيها مقعداً مساوياً له في قطار الحياة؟

لماذا يتغزل الرجل في عيون المرأة السود طوال الليل حتى إذا طلع النهار شرب الشاي وقرأ جريدته بسرعة، وانصرف إلى حال سبيله، ونسى المرأة ونسى عيونها؟

لماذا يكتب الرجل للمرأة رسائل العشق قبل الزواج، وعندما يتزوجها يضعها قيد الإقامة الجبرية، ويتصرف معها كما يتصرف الاستعمار مع شعوب أفريقيا المنكوبة بلغته؟ وإذا ناقشنا المسألة لغوياً وجدنا مفردات الحكم مؤنثة فالحكومة أنثى، والسلطة والديمقراطية أنثى والحرية أنثى والحياة نفسها بكل ما فيها أنثى.. في حين أن جميع صفات القمع

والإرهاب والاستبداد والشنق والسحل والتعذيب والذبح والإجرام صفات
ذكورية ، ولا يليق بالرجل العريى الشرقى أن يحاكم كل يوم أمه وأخته
وزوجته وابنته وحبيبته بتهمة القصور العقلى ، وإذا كن أميات أو منطفيات
الذهن فلأن الرجل الذى خرجن من تحت عبائه أمياً ومنطقى الذهن.. هذا
هو الواقع ، وهو واقع كسيح مشلول لأنه يمشى على قدم واحدة.. فالمرأة
مطلوب منها أن تكون ولوذا خصبة كثيرة النسل.. إنهم يفضلونها ساخنة ،
ولا يريدونها باحثة أو عالمة أو مفكرة، يفضلونها صامتة لا مجادلة أو
مناظرة أو متحدثة!

يريدونها خرساء.. صماء.. بكماء.. يريدونها زوجة أو عاشقة أو جارية
بالسخرة لأنهم لا يقبلون قسمة الحياة على إثنين.

يريدونها بلا عقل ولا ذكاء لأن عقل المرأة ضد الأمن القومى.. ضد
الأمن الاقتصادى.. وضد الأمن الثقافى.. وضد الأمن الاجتماعى.. المرأة
هى جدول المياه المهدور والنهر الضائع ، والأجنحة الممنوعة من الطيران
والتعليق فى أى اتجاه.

هى منجم الذهب الذى لا يزال مخبوءاً فى أحشاء الأرض.. فتمتى يفتحون
نوافذ الضوء لتدخل أشعة الحرية ونسمات الحياة إلى أعماق هذا المنجم!9
ثم إنخرطت إيناس مندور فى بكاء محموم ، وألقت بجسدها فوق فراشها
الوردى ، ودموعها تساب على خدها تبلل وسادتها!9

...

"من يسرق رغيف خبز فهو لص.. ومن يسرق قلب أنثى فهو
لص شريف!"

مل ناجى شرف الدين الصحافة ، ودروها وشوارعها وحكاويها
وحبرها ، فابتعد أسبوعاً عن مجالها المغناطيسى عساه يهدأ ويستكين
ويفرق قلقة فى البحر.. هناك على شاطئ الاسكندرية استلقى على الرمال
تعبت الأمواج بأنامله وظل يفكر ويفكر.. أسئلة كثيرة تضح فى رأسه ولا
مجيبة.. ما الذى يحدث فى البلد؟ أين اختفى أستاذهم عطا الهالى؟ ولماذا
أصبحت ميرفت العطيفى بحالة من جنون العظمة ودخلت فى صراعات
واشتباكات مع معظم محررى مجلتها " نجوم الفنون"؟ وكيف تصاعدت
تلك الصراعات ووصلت إلى شكاوى متبادلة فى نقابة الصحفيين والمجلس
الأعلى للصحافة ورئاسة الجمهورية؟

لم تغادر رأسه فضائح ومواجه صاحبة الجلالة.. ألقى بعينه فوق الأمواج
يتأمل لونها الأزرق الصافى الرقراق.. دارت فى ذهنه علاقة الانسان العربى
بالبحر وهو يعلم تماماً أنها علاقة قديمة قدم التاريخ نفسه.. كيف لا وبلاد
العرب مفتوحة على بحار ومحيطات ، وقاموا بصناعة السفن والأساطيل
البحرية وبصفة خاصة فى زمن الأمويين والعباسيين ، وقد قادتهم هذه
السفن والأساطيل إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً لدواعى الفتوحات والتجارة ،
وظهر بينهم علماء بحار عظام يتصدر صفوفهم أحمد بن ماجد فى القرن
الخامس عشر وهو شاعر موهوب وأسد البحار والمحيطات كما وصفوه.

وضع ابن ماجد العديد من الكتب من بينها كتاب " الفوائد فى أصول
علم البحر والقواعد " الذى قال عنه المستشرق الفرنسى جابريل فيران أنه
أروع وأكمل مؤلف فلكى ملاحى فى عصره.. أما ابن ماجد نفسه الملقب
بأسد البحار فيرى أنه وريث ثلاثة شيوخ عرب من رواد علم البحار.. سهيل

بن أنان والليث بن كهلان ومحمد بن شاذان.. وإذا كان الإسلام أعظم ثورة دينية وإنسانية حملها الإنسان العربي إلى العالم فقد لعب البحر دوراً كبيراً في نقل هذه الرسالة إلى بلاد وأصقاع بعيدة، وكان للتجار العرب دورهم الخالد في هذا المضمار من خلال انفتاحهم على الصين ودول الشرق الأقصى من جهة، وسكان السواحل الأوروبية من جهة أخرى حيث جرى تعميق عرى الود والتواصل وفتح باب لحوار الحضارات مع الآخرين، وتميز التجار العرب القدامى بأمانتهم مع أبناء الشعوب الأخرى مما جعلهم يثقون بهم ويدينهم وأخلاقهم وثقافتهم، فانخرطوا تلقائياً وعن قناعة في الاسلام.

كانت السفن العربية تخرج من موانئ عمان والاسكندرية والبصرة وعكا وعدن متوجهة إلى الهند والصين وموانئ أوروبا المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسيطر العرب على الطرق البحرية الممتدة من كانتون في الصين إلى طنجة في المغرب، وكانت فروع هذه الطرق تصل إلى الملايو والخليج العربي وبحر إيجيه، والبحر الأدرياتيكي، وامتلك التجار والبحارة العرب السفن البحرية العملاقة وتمرسوا في فنون الملاحة وإخترع أدواتها من البوصلة إلى الأسطرلاب، كما مكنتهم تلك الرحلات البحرية من التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى وفنونهم وآدابهم وطبائعهم وطرق عيشهم خاصة وأن بعض السفن التجارية العربية كانت تحمل على متن رحلاتها كل التجارب والحوادث التي عاشوها، فآثروا بذلك علوم الجغرافيا والملاحة البحرية والاجتماع، ولعل أشهر هؤلاء الرحالة العرب "ياقوت الحموي" صاحب "معجم البلدان" والمسعودي صاحب "مروج الذهب" وابن بطوطة عملاق المسافات والفضاءات المتراصة.. ودام هذا الإزدهار التجاري والثقافي العربي من خلال الأمواج والشواطئ والموانئ والبحار والمحيطات من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وقد عرفت البحار باسمهم "بحر العرب" كما أن شينغلر الألماني قال:

"إن العرب وراء حضارة أوروبا كلها ، ولولاهم لما كانت لنا نهضة علمية وفلسفية.. من موانئهم الأولى انطلقوا إلينا ليعلمونا كل شيء.. حقاً إن البحر الأبيض المتوسط كله حضارة عربية " هكذا أجاد العرب حوار الثقافات عبر البحر منذ زمن بعيد ، وكان حوارهم ناجحاً ومثمرًا على كل الأصعدة ، وما بين عرب الأمس وعرب اليوم ثمة بون شاسع وبعيد فى كل شيء يلمسه ليس العرب أنفسهم فقط ، بل الشعوب المحيطة بهم ، والبعيدة عنهم فى آن واحد.

ولم يعد البحر بالنسبة للإنسان المصرى خاصة والعربى عامة عامل تواصل ثقافى وإنسانى وحضارى وتنويرى بقدر ما صار وسيلة للهرب من جحيم بلادهم الطاردة لهم ، وبعضهم تحول البحر أمامه إلى مجرد مقبرة مائية وللمراكب والزوارق التى يمتطيها ويغامر بها قارراً من نار وطنه!

وكتب ذات مرة شاعر صينى يدعى "شوان شورنج" من مقاطعة كانتون الصينية.. تلك المقاطعة التى وطئها قبل عدة قرون تاجر عربى استطيع العيش فيها ، وتزوج منها ومات ودفن فى أراضيتها ، ويبدو أن هذا الشاعر من سلالة ذلك التاجر العربى.. يقول فى قصيدته التى تحمل عنوان: " صينى ابن عربى .."

خرجت من سلالة تاجر عربى استزرع نفسه فى كانتون.
تزوج امرأة ذات جمال سماوى هى جدتى الأولى.

ولا أدري من الذى علم الآخر الحب.. الحب فى الصين أقوى من الحب فى كل مكان.

فكر ناجى شرف الدين أن يكتب قصة أو رواية ، واستعاد من دهاليز ذاكرته كلمات أستاذه المخفى عطا الهلالى حين قال له :

ضع فيها كثيراً من وجعك.. ضع عقلك جانباً.. واصنع للرؤيا أجنحة

بيضاء.

فكر بصمت شهى.. تأمل الوقت.. تجنب الأفكار الكبيرة.. اترك
رؤوس الأفكار تسبح حرة طليقة.. قل فقط ما يناوش القلب.. افرد الخيال
بجناحين.. ترصد المعانى الشاردة.. مرر اللغة بانسيابية من ثقب الفكرة..
قل أشياءك الصغيرة واهرب من أى رتابة تصل إلى حلمك البعيد بعد أن
تستوفى شروط الصبر الجميل!

"أسوأ ما فى الدنيا .. جار سئ وابن عاق وزوجة خائنة!"

بدا ناجى شرف الدين كسائح فى بلاط صاحبة الجلالة ، ينتقل من جريدة إلى أخرى ومن مجلة إلى دار نشر ، وذلك بعد أن توترت علاقته مع ميرفت العطيفى رئيسه المباشر ، وبلغت الأمور ذروتها عندما كتب موضوعاً صحفياً وفوجئ بغلطة فى اسمه بعد أن أصبحت المجلة فى السوق.. وجد اسمه " ناجى سرق الدين بدلاً من ناجى شرف الدين " النقاط فقط ضاعت من فوق الحروف.. فهاج وماج فى صالة التحرير أمام الجميع ومزق المجلة وداسها بحذائه ، وبسرعة البرق انتشر الخبر فى المؤسسة كلها ، وغضبت ميرفت العطيفى غضبتها الكبرى ، وقررت طرد ناجى من جنتها.. ومن وقتها صار كطير يبحث عن حبات رزقه يلتقطها فى أى مكان كان.. والرزق يجب الحركة والسرعة ويكره الخمول والتباطؤ والكسل.. ظروف الحياة القاسية فى القاهرة المعز لدين الله وجنون أسعارها جعلته مثل آلاف البشر يلهثون يومياً لأداء أكثر من عمل عساهم يتكسبون عيشهم فحسب وليس لتحقيق الثراء.

انطلق ناجى يعمل فى مجلة " فريدة " بجانب وجوده طبعاً فى مجلة " نجوم الفنون " التى يرأس تحريرها ويمتلكها شاب سورى فى العقد الرابع من عمره يدعى بشار عمار ، متوسط القامة أبيض الوجه ، ذهبى الشعر ، ضيق العينين يتحرك بخفة ورشاقة وسرعة مثل عقرب الثوانى فى إحدى الساعات السويسرية التى لا تقدم ولا تؤخر مهما جار عليها الزمن بنوائيه.

عاش بشار فى شوارع القاهرة ودروبها ونواديها وحدثتها قصة حب جنونية مع فتاة مصرية لعوب تدعى " فريدة " فتزوجها وأنجب منها طفلة جميلة أسمياها مى.. ودارت الأيام والتقى ناجى شرف الدين بفتاة اختطف قلبه من أول نظرة كما تقول كتب الرومانسية والحب العذرى ملامحها

دقيقة برونزية البشرة ، سوداء الشعر والعينين ، ابتسامتها تضيئ الدنيا مثل شمس الشتاء.. صابرين جاءت تعمل سكرتيرة ، وبسرعة عرفت أنه فقير موهوب يستكتبه كبار الكتاب ويقولون له نعطيك الفكرة واكتب أنت.. الحجة دائما أن الكاتب الكبير الذى يستكتب ناجى شرف الدين لديه اجتماع.. وفى كل الأحوال تكون الفكرة مسروقة ومختلصة من آخرين.. فى بداية تعارف ناجى شرف الدين وصابرين دارت بينهما بعض المناوشات ، والمشاكسات البسيطة ثم سرعان ما تحولت إلى مشاعر ودية ، وصداقة لطيفة فيها احترام متبادل ، ولأن العادة أقوى من الحب ، وهما يقضيان معظم الوقت مع بعضهما بحكم العمل فى المجلة ربطت خيوط الحب بين قلوبهما ، وأصبحت صابرين تهتم به فى كل شئ ، وخاصة الطعام فقد كانت تحرص على أن تعد له بيدها ، وتتفنن فى صنعه ، وبمجرد أن أحس بشار عمار وزوجته فريدة بما يدور بين ناجى وصابرين رحبا بتلك العلاقة العاطفية العفيفة البريئة ، فلا الحب ولا الحرب يمكن إخفاؤهما مهما بذل المحب أو المحارب من حيلة ، عرض بشار أن يقدم لهما دبلى الخطوبة هدية منه تنويجا لحبهما وإخلاصهما للمجلة التى تحمل اسم زوجته.

تقدم ناجى لخطبتها بعد أن تبسرت أحواله بعض النشئ ، ويمرور أقل من عامين تزوجها ، ورزقهما الله بطفلين فى غاية الجمال والذكاء.. ولد وبنت.. ومنذ لحظة زواجهما أصر ناجى على أن تتفرغ صابرين لبيت الزوجية ، وتمتع نهائيا عن الخروج إلى العمل.. وبالفعل كان له ما أراد ، وفعلت هى ذلك راضية مرضية حبا فيه واکراما له واحتراما لرأيه.

لم يكن ناجى شرف الدين يعرف أن فريدة أنشئ لعوب إلا عندما حكى له صابرين ما حدث ذات يوم فى القناطر الخيرية.. كانت فريدة قد قررت أن تخرج فى نزهة خلوية ، واصطحبت صابرين معها فى سيارتها الشيفروليه السوداء التى اشتراها لها بشار ، وفى حدائق القناطر الخضراء المترامية الأطراف بدأت اللعب ، اصطحبت شابا وسيما قسيما تعرفت عليه بالصدفة

البحثه واختارته بعناية ، كانت قد وجدته وحيداً راقداً تحت شجرة صفصاف عتيقة يطالع صحيفة قومية ثم فرغ منها ، وحدث في الفراغ وظل شاردًا يراقب المارة ويتأمل الطريق ووجه الماء وحركة الناس في كل اتجاه..

انطلقت معه بعيداً عن العيون تلهو به ومعه في سيارتها ، وتركت طفلتها الرضيعة بحوزة صابرين لكي ترعاها ، غابت أكثر من خمس ساعات ثم عادت بصحبة الشاب إياه متوردة الخدين باسمه الثغر ، ملتبهة الشفتين ضاحكة مستبشرة كأنها خرجت لتوها من مستودع السعادة! وبمجرد أن رأتها صابرين ثارت في وجهها غاضبة محتدة ، ونهرتها بسؤال استهجانى وهى ترمقهما شذراً :

— أين كنت يا فريدة كل هذا الوقت؟ ثم ألقت لها طفلتها بين يديها وتركتها وانصرفت مسرعة ، بينما فريدة تحاول أن تستبقها دون جدوى.

وظلت صابرين تتمتم بضيق :

— مستهترة.. عابثة.. مهمة.. لا يمكن أن أشاركك هذا العيب والجنون ولا يمكن أن أكون شاهدة على ما يحدث في بئر الخيانة!؟

فى تلك الأثناء كانت صابرين قد إرتبطت بصداقة ودية مع فادية السكرتيرة الخاصة للدكتور عمر فرج طبيب الأسنان المعروف فى العيادة المجاورة مباشرة لمقر مجلة " فريدة " فى نفس الطابق بالعمارة.. جمعتها جلسات دردشة وفضفضة ونميمة بريئة مثل كل البنات ، وفى بعض الأحيان كان ناجى شرف الدين ثالثهما.. وذات مرة حكّت فادية لصابرين أن الدكتور عمر فرج غريب الأطوار ، لأنه قيل أن يبدأ عمله يشاهد على كمبيوتر العيادة فيلم بورنو ، ومن حين لآخر يتحرش بها ، وأنها تجارية قليلاً بدون خسائر حتى لا تفقد عملها الذى يدر عليها عائداً مجزياً إلى حد ما يساعدها فى تجهيز نفسها وشراء كل ما يلزم زواجها ، خاصة وأنها مخطوبة لشاب يعمل فى مطابع مؤسسة " الأيام

"للصحافة.

وظل هذا الطبيب المشهور حديث الصحف القومية والحزبية والخاصة على مدار عدة شهور، بداية الأحداث كانت في أحد أيام شهر يونيو.. همسة من إحدى الساقطات عن طبيب الأسنان المعروف.. قالت إنه يراود مريضاته عن أنفسهن.. بعضهن يسقطن في المحظور بعد جولة قصيرة من التحرش بهن أثناء الكشف وفق خطة جهنمية يعتمد عليها.

واحدة من مريضاته الحسنات إنهارت بعدما أدار لها مشاهد ساخنة على أسطوانة يحتفظ بها على كمبيوتر العيادة.. خارت قواها تمامًا ورفضت الراية البيضاء للطبيب الذئب.. ولم تكن تدري أن كاميرا خاصة مثبتة في أحد الأركان تسجل كل شيء، ١٢ امرأة من المترددات على عيادة طبيب الأسنان استسلمن لرغبته المسمومة، وسجل رجل الطب مشاهد صارخة بينه وبينهن في غرفة الكشف، منها ما تم تحت تأثير المخدر ومنها ما تم بدونه.

هناك أربع جوارى يساعدن الطبيب في الإجهاد على فريسته.. الهمسة والوشاية المرفقة بالدليل وصلت إلى مكتب أحد ضباط مكافحة جرائم الآداب، الذهول أصاب الضابط وظل يضرب كفًا يكف متسائلًا بهستيرية:

– رجل الطب والإنسانية نجم الصحافة والفضائيات حول العيادة إلى وكر للمتعة الحرام، ولا يكتفى هذا الجشع بذلك بل يصور مريضاته أيضًا.

عندما سأل الضابط مصدره السري عن حكاية الجوارى.. جاءت الإجابة مباشرة هن أربع فتيات يتمتعن بقدر كبير من الجمال الشرقي الخلاب.. شاء حظهن العثر أن ينشأن في مناطق شعبية لعائلات تعيش على حافة الفقر خرجن الواحدة تلو الأخرى بحثًا عن فرصة عمل، ومصدر للرزق لمواجهة شظف العيش فكان مصيرهن اللقاء تباغًا في عيادة الطبيب المعروف للعمل سكرتيرات.

رجال الشرطة ذهبوا إلى المكان بشكل سرى قبل مdahمته للتأكد من صدق المعلومات التى تطايرت إلهم ، لكن المفاجآت ثالت ، وأثبتت التحريات صدق المعلومات وإن كان الواقع أقل من الخيال ، فهناك أسطوانة C.D تحوى مشاهد ساخنة للطبيب مع ١٢ من المترددات على عيادته بينهن فريدة المصرية زوجة بشار عمار السورى.. ساكنات الأحياء الراقية وسيدات المجتمع سقطن فى براثن الطبيب الذئب ، نفذ خطته بمساعدة السكرتيرات أو الجوارى وفى النهاية أصبحت الوليمة بين أنياب الذئب يفترسها من حيث يشاء أمام الكاميرا التى لا تكذب أبداً!

فى معظم الأحيان تظل غرفة الكشف مغلقة أغلب الأوقات ، لا أحد يعرف على الإطلاق ما يدور بداخلها من المترددين على العمارة الموجودة فى أحد أهم شوارع حى المهندسين.

أما حكاية الجوارى.. فهن أربع حسناوات وظيفتهن الحقيقية خدمة طبيب الأسنان الثرى المعروف.. خرجت كل واحدة منهن للبحث عن عمل ، وساقهن حظهن الأسود إلى العيادة بعدما قرأن إعلاناً فى النصف القوميومية اليومية.. "مطلوب سكرتيرة حسناء براتب كبير" .. كثيرات حضرن للفوز بالوظيفة ولكن العيون المتوحشة للذئب المتكرر فى بالطو أبيض كانت تتفحص.. وعندما تلمع ببريق النشوة فمعنى هذا أن الفتاة نالت الإعجاب وفازت بالوظيفة ، ويستطيع الطبيب طرد السكرتيرة الحسنة التى لا ترضخ لأوامره ولا تستجيب لطلباته الممنوعة ، وحتى بعدما تسقط معه فى بحر الخطيئة بورقة زواج ليس عليها شهود يحتفظ الطبيب بعشرات النسخ منها فى مكتبه بغرفة الكشف ليؤهم ضحاياها بأنه يتزوجهن.. ولكنه زواج بلا شهود!

الجوارى الأربع ومنهن فادية بالطبع من إحدى المناطق الشعبية بالقاهرة القديمة كن يخرجن من منازلهن فى العاشرة صباحاً ويعدن فى العاشرة ليلاً ، لدواعى العمل فى العيادة وقد نال منهن الارهاق وطول الوقت.

الشرطة أنهت عملها.. ودون الضابط المختص ورقة تحمل عنوان "محضر تحريات" قال فيها كل شيء، وأضاف عليه أن الطبيب يقوم بتسجيل لقاءات المتعة المحرمة على أسطوانات C.D..

محضر التحريات تم وضعه في مظروف أصفر اللون وأغلق بشرط لا يفتح.. الذهول سيطر على وكيل النيابة، وأصدر الأمر على الفور.. القبض على الطبيب والسكرتيرات والمترددات ومداومة العيادة وتفتيشها. ضباط الشرطة انطلقوا إلى العمارة المكونة من ١٤ طابقاً هدفهم الطابق السادس كيبرهم طلب منهم أن يصعدوا على دفعات، ويتجمعوا في طابق أعلى من مسرح الحدث ثم يتحرك الجميع في توقيت متزامن.

أحد رجال الشرطة كانت مهمته مراقبة مدخل العمارة ربما تواجدت بالصدفة إحدى المترددات على العيادة.. وبعد دقائق وقفت القوة بكاملها على بعد خطوات من وكر الذئب حتى صدرت الإشارة بالاعتحام، ليهبط أفراد القوة السلم.. ثوان قليلة وكان الجميع داخل العيادة.. فوجئوا بالطبيب وسكرتيرته يجهازان إحدى الضحايا لممارسة الخطيئة. ألقوا القبض على الجميع، وعثروا في مكتب الطبيب على ثلاث ورقات مدون بها بيانات غريبة، واكتشف الضابط أنها أوراق زواج عرفي لا تحمل توقعات الشهود وغير موثقة.

الورقة الأولى فيها اسم الزوجة "مريم حلمي" عمرها ٢١ عامًا طالبة باحدى الجامعات الحكومية وتقيم في منطقة شعبية عشوائية.

تقدمت في البداية للعمل كسكرتيرة عن طريق إحدى صديقاتها في عيادة الطبيب المعروف فالراتب يكفي نفقات طالبة جامعية ويزيد.. كان جمالها هو المفتاح السحري الذي فتح لها أبواب العيادة، وجعل الطبيب الذئب نجم الفضائيات والمصحف يرحب بها للعمل معه.

الورقة الثانية.. لفتاة عمرها ١٨ عامًا.. لا تعمل وتقيم في منطقة إمبابة بمحافظة الجيزة اسمها هدى جاد الله حاصلة على دبلوم تجارة.

أما الثالثة.. حميدة حمدي عمرها ٣٠ عامًا حاصلة على بكالوريوس زراعة طويلة هيفاء بيضاء وهي أقدم السكرتيرات.. أو الجوارى لدى الطبيب ومهمتها الأساسية مساعدته على اقتراح ضحاياه سواء من السكرتيرات أو المريضات الجميلات!

أما الأحراز فهي أوراق زواج عرقي لا تحمل شهودًا.. تحريات المباحث تثبت أنه زواج صوري، والعيادة ما هي إلا ستار لوكربغيض.

وهناك أيضًا كاميرات فيديو حديثه عشر عليها الضابط وبداخلها شريط صغير الحجم يحتوي على مشاهد للطبيب المذكور مع الحسنات في أوضاع مخلة.

وهناك جهاز عرض بشاشة تليفزيونية يعرض من خلالها لقطات لدغدغة مشاعر الضحايا، وإسقاط حائط المقاومة النسائية لنواذعه الوقعة.

قام رجال الشرطة بتفريغ أسطوانات الـ C.D وشرائط الفيديو ومصادرة كميات كبيرة من أقراص الفياجرا المستوردة.. انتهى التفتيش وتم القبض على الطبيب وجواريه للمرة الأولى يجد نفسه محاطًا بالمخبرين مقيد اليدين ويساق إلى إدارة مكافحة جرائم الآداب.

وشرع رجال الشرطة في تحرير المحضر لعرضه على النيابة.

الدكتور عمر فرج بدأ مذهولاً لم يعلق كثيرًا سوى بالنفي، ويهتف أنه بريء ومظلوم حتى في حالة الأشرطة والأقراص المدمجة التي تحمل صورته.. إكتفى بالنفي ثم اتهم مطلقته أنها وراء تسريب الأشرطة وتعمد فضحه.

في هذه الأثناء كانت فادية السكرتيرة صديقة صابرين قد أصبحت قيد التحقيق، وقرر ناجي شرف الدين أن ينأى بنفسه، وبحبيبته صابرين عن المكان المشبوه فتركها المجلة نهائيًا، واعتذرا لبشار عمار وزوجته فريدة.

استغرق تحقيق النيابة عدة أيام.. وقرر وكيل النيابة حبس الطبيب أربعة

أيام على ذمة القضية ، وعرض المضبوطات على الجهات المعنية للتحقيق ، لكن الأمر المثير أن الطبيب الشهير فجر أكثر من مفاجأة فور القبض عليه.. وزع اتهاماته على مطلقاته ، وادعى أنه صور ضحاياه فى أوضاع مخلة لاستخدامه الشخصى ، وليس للتوزيع فى الأسواق ، وكانت هناك بعض الأشرطة توزع فى الأسواق تحت اسم " شريط الدكتور " لأنه كان يظهر بالباطو الأبيض ثم يخلعه فيبدو عارياً تماماً بدون ملابس داخلية.

عاشت صابرين حزينه لفترة طويلة ، تعاني من صدمة عصبية بسبب مشهد القبض على فادية صديقتها وجارتها فى العمارة.

ظل ناجى شرف الدين يواسيها ويهدئ من روعها ويخفف عنها ، قصة ضبط طبيب الأسنان المعروف الثرى شديدة الإثارة.

وقد وجدت أجهزة الأمن سهولة فى تحديد شخصيته من خلال الأسطوانات التى أغرقت الأسواق.

مصدر سرى لأجهزة الأمن اكتشف الأسطوانات التى سرت كائنار فى الهشيم الجاف تحت عنوان فيلم " الدكتور " .. بعض سماسرة المتعة غالوا فى ثمن هذه الأشرطة ووصل سعر الشريط الواحد ألف جنيه.

أمام خطورة هذه الظاهرة هرعت مباحث القاهرة إلى التنسيق مع مباحث الجيزة بتشكيل فريق بحث على أعلى مستوى لكشف سر هذه الأسطوانات على اعتبار أن كل المشاهد دليل دامغ لا يقبل المراوغة.

حاول مدير مباحث الآداب بالعاصمة تكبير لقطة الشهادات الطبية المعلقة بالعيادة ، وتوصل رجال المباحث إلى الإمساك بطرف الخيط ، والقبض على الطبيب وجواريه.

بعد بحث وتحريات تمكن رجال المباحث من تحديد المكان ، وجدوها عيادة واسعة مؤثثة بشكل أسطورى فاخر تحوى أغلى وأجود أنواع الأثاث الإيطالى المستورد .. مكتبه الخاص وغرفة نومه ثم تجهيزها بأكثر من مليون جنيه . الطبيب الشهير خصص مدخلاً للمصعد فى قلب عيادته ..

مريضاته يستقبلهن ثلاث حسناوات فى ثياب بيضاء كأنهن ملائكة الفردوس.. لكن الحقيقة أنهن ملائكة العذاب!

إحدهن ترد على الهاتف لتحديد المواعيد والمقابلات لإجراء الكشف وأخرى تقوم بدور السكرتيرة، والثالثة تختص بالأمر المالية.

كاميرات المراقبة الحديثة الدقيقة مزروعة فى أركان العيادة.. الطبيب أحاط نفسه بجو أسطورى، وضحايا من سيدات المجتمع الراقى ومذيعات شهيرات لامعات وزوجات وزراء ورفيقات رجال أعمال ولواءات!

واجه ضابط التحقيقات الطبيب بالإتهامات الموجهة إليه، أنكر التهم تماماً، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه رجل شريف عفيف له وضعه الاجتماعى، وبكل هدوء بدأ الكمبيوتر فى عرض الأسطوانات.. صمت المتهم تماماً خجلاً من مشاهدة نفسه مع الجميلات.. تعرض أمام الجميع.. تمنى أن تفتح الأرض بطنها وتبتلع فلا يراه أحد بعد اليوم.

لم يجد ما يقوله، نبرته العاليه تحشرجت ثم تلاشت، وسالت دمعة على خده فلا سبيل أمامه للإنكار.. اعترف أن ما فعله مع النساء تم بالاتفاق معهن وليس بالإكراه، وصورهن لمزاجه الشخصى، وأخفى بعض الأسطوانات فى منزله لكن كيد النساء غلب كيد الشيطان.. سرقت مطلقته الأسطوانات وطبعت منها عشرات النسخ وطرحتها على الأرصفة، وتولى أصحاب شركات الكمبيوتر توزيع كميات هائلة منها على الشباب والراغبين بأسعار رمزية.

قص الطبيب حكايته مع مطلقته التى سببت له الكثير من المشاكل، ونصبت له العديد من الفخاخ.. قال أنه تزوجها لمدة أسبوع واحد ثم طلقها بعد اكتشافه أنها ليست بكرًا كما ادعت، ثم تزوج من أخرى، وهددته الزوجة الأولى بانتقام شرير شرس، واختلف مع زوجته الثانية فتضامنت مع الأولى ودبرتا خطة جهنمية للنيل من الزوج الذئب.. سهلت الزوجة

الثانية للزوجة الأولى دخول المنزل للسطو على بعض المتعلقات ومن بينها
أسطوانات الـ C.D.. فحدث ما حدث.. وأقسم الطيب الشهير نجم الصحافة
والفضائيات أنه ضحية كيد النساء!
غادر ناجي شرف الدين وصابرين العمارة المشبوهة للأبد.. وقررا عدم
العودة إليها مجدداً مرة أخرى.

" إذا أردت التطهير فاعترف بذنوبك، واصفح عن خصومك! "

انتقل ناجي شرف الدين بعد تجربته المريرة مع مجلة " فريدة " للعمل في جريدة " الوعد " الأسبوعية المعارضة التي يمتلكها ويرأس تحريرها مصطفى شكرى الذى عرفه الجميع بمعارضته الشديدة والمتطرفة للنظام الحاكم في مصر، واعتمد في اصدار صحيفته على تمويل هائل من إيران، وتدفقت عليه الدولارات كالسيل المنهمر من ملائى طهران عندما شرع في اجراءات تشكيل حزب سياسى تحت اسم "مايحكمش" فى إشارة واضحة لرفضه مبدأ توريث الحكم إلى ابن الرئيس..

وبدأ الصدام الحقيقى بينه وبين النظام الحاكم عندما فتح ملف التوريث على صفحات جريدته، وتعرض للمحاكمة والاعتقال والسجن لأكثر من عام.

لكن من يكون مصطفى شكرى هذا الذى يصف نفسه فى مقالاته بالمناضل العربى القومى؟ هل هو بطل من ورق وحبر كذب؟.. مصطفى شكرى من مواليد محافظة قنا، درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة القاهرة، وعقب تخرجه التحق بالعمل فى الدائرة السياسية بحزب " ما يحكمش " وترأس الحزب بعد عدة سنوات ونهج فى الصحافة المصرية نهجاً جديداً لم يجرؤ أحد قبله على الولوج فيه، وبدأ ينشر ملفات ممنوع الاقتراب منها.. تلك الملفات التى زجت به إلى ظلمات السجن والملاحقة والمراقبة ليل نهار.

فى ليلة ٥ سبتمبر من العام قبل الماضى تم اعتقاله بتهمة إهانة رئيس الجمهورية، وإثارة النعرة الطائفية للاضرار بالمصلحة العليا للبلد، وصدر ضده الحكم الذى قضى باغلاق الصحيفة لمدة ستة أشهر والحبس لعام

كامل، رضخ لكلمة العدالة حتى ولو كانت غير عادلة، وبعد الافراج عنه بعدة أيام، تعرض لمحاولة شروع فى قتل من خلال الضرب بآلات حادة وصلبة أدت إلى إصابته بجروح خطيرة أثناء عودته من الجريدة فى طريقه إلى منزله بمنطقة المقطم بعد منتصف الليل.. فقد قامت عصابة مسلحة مكونة من ٨ أفراد باختطافه، دفعوه بقوة إلى المقعد الخلفى للسيارة الجيب السوداء التى تحمل لوحات مطموسة الأرقام والملاح، وتحت أحذيتهم الغليظة وضعوه، وبدأوا الركل والضرب بعنف فى كل أنحاء جسده..

كانت التهمة الموجهة إليه هى التآمر على نظام الحكم ثم خففوها إلى الإساءة لرأس الدولة والنظام فى مقال كتبه ولم ينشر تحت عنوان: "الطور الذى أصبح الفرعون؟"

لم تنته أزمة مصطفى شكرى عند هذا الحد، بل خرج منها أكثر اصراً وعناداً وبأساً ليؤسس موقعاً إلكترونيًا يثير جدلاً فى الأوساط الصحفية والسياسية ويحقق رواجاً وانتشاراً يدعو للدهشة والعجب.

وفى تحول غريب ومفاجئ أذهل معظم أبناء صاحبة الجلالة عقد مصطفى شكرى صفقة مشيوية مع الحكومة بموجبها يتولى التهذئة لنبرة النقد والهجوم ويعتمد سياسة المهادنة مقابل السماح له بترشيح نفسه نائباً مستقلاً فى البرلمان بحيث يكون بلا أنياب.

ويعرف الجميع أن مصطفى شكرى صاحب "سوابق" فى الترشح للبرلمان وأخفق مرتين للوصول إلى الكرسى النيابى، وحقق فشلاً ذريعاً لا يحسد عليه.. وفى المرة الثالثة والأخيرة لعبت كل الظروف لصالحه، سخرتها السلطة له، وتمت الصفقة بنجاح وفاز بالمقعد الذى كان يعتبره بعيد المنال، ودرّباً من دروب الخيال الأسطورى.

باع المبادئ الوطنية والأهداف العروبية القومية، واشترى مصلحة الشخصية.

و ذات يوم قال:

لقد ضيعت عمري في أوهام.. لا شئ يعلو على مصلحتي الخاصة.. ومن حقى أن أغير مبادئى وأخلاقياتى وجلدى لأحصل على ما أريد.. فالعمر واحد.. واليوم الذى يذهب لا يعود أبداً والغيبى هو الذى يدافع عن أشياء لو تحققت لاستفاد منها الجميع دون سواء!

الصحفى الصعيدى الصلد العنيد المغامر الحاصل على دراسات عليا فى النظم السياسية والقانونية والاقتصادية إلتحق بمنظمة الشباب الاشتراكى فى مطلع السبعينيات.. بدأ حياته محرراً صغيراً فى عدد الصحف والمجلات معدودة الإنتشار، وعمل بعد ذلك مراسلاً لإذاعة هونت كارلو من القاهرة قبل أن يفتح خطوط اتصال مع أطراف خارجية تمده بنهر من الدولارات لا ينقطع مداده، ولتنبوغه الصحفى والفكرى حصل على العديد من جوائز التفوق الصحفية من مختلف العواصم العربية، واختاره المنتدى العربى بالخليج شخصية العام الصحفية، وذلك فى مهرجان احتفالى كبير حضره رموز الحركة السياسية والحزبية من شتى التيارات العربية.

الطريف فى الأمر أنه على الرغم من أن ناجى شرف الدين لا علاقة له بالسياسة والأعيابها، ولا يحبها من قريب أو من بعيد، ويتجنب الحديث فيها والخوض فى غمارها إلا أنه كان قريباً جداً من قلب مصطفى شكرى خلال الفترة غير الطويلة التى قضاها معه فى جريدة "الوعد" حتى تم القبض عليه وهو يقود مظاهرة خرجت من نقابة الصحفيين بقلب القاهرة متجهة إلى مجلس الشعب فى ميدان التحرير ثم إلى السفارة الإسرائيلية على النيل بالجيزة تتدد بالتطبيع وتستكردم الشهداء الذى ضاع هباء منثوراً.

هاجم الحكومة ولعن النظام وسب القيادة السياسية التى ارتمت فى أحضان العدو الإسرائيلى تخطب وده، وسلامه اللئيم المخادع.. لقد ظن مصطفى شكرى وليس كل الظن إثم أن الحصانة الدبلوماسية التى نالها

فى صفقة حكومية سوف تحميه وتمنعه عن سياط السلطة خاصة وأنه كان قد ورط نفسه فى معركة تحت القبة مع رجل الحزب الفولاذى عز الدين عيد المجيد محتكر صناعة وتجارة الحديد فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وصاحب الجاه والسلطان والصولجان برغم أن هذا الرجل الحديدى لا يزيد طوله عن ١٥٠ سم.

وكانت نهاية مصطفى شكرى عندما ألفوا له دائرته الانتخابية.. واستيقظ ذات يوم ليجد نفسه بلا دائرة ولا مرشحين ليس هذا فحسب بل شددوا الرقابة على صحيفته ، واستجوبوا كل محرريها.. لم يكن أمام ناجى شرف الدين سوى الانسحاب قائلاً لنفسه: فلتذهب الفلوس إلى الجحيم.. الفقر خير ألف مرة من أن يكون لى ملفاً فى أمن الدولة!

" الدين .. هذا النطق الذى يسلكه الجميع لتبرير الغايات النبيلة والحقيقية "

معظم الصحفيين فى مصر مثل عمال التراحيل ينتقلون من حقل إلى حقل حسب الأجر، وهكذا أصحاب القلم يهجرون صحيفة ويهرولون إلى صحيفة أخرى سعياً وراء المكسب المالى.. لا عزاء للمبادئ أو الأخلاقيات أو الأيديولوجيات الثقافية أو الفكرية أو السياسية.. فى تلك الأثناء كان ناجى شرف الدين ينتقل أيضاً بين أكثر من صحيفة للإسترزاق وفقاً لمعايير سوق الصحافة الذى شهد انفتاحاً غير مسبوق مثل الانفتاح الاقتصادى الذى أرسى دعائمه السادات فى سبعينيات القرن الماضى.

شاء حظه العثر هذه المرة أن يقوده إلى فخ صحفى، ومنطقة ملفومة، وقبل أن يقع فى هذا الفخ انخرط فى الدراسات العليا بكلية الاعلام قسم الصحافة بجامعة القاهرة، وفى أول محاضرة داخل مدرجات الكليه فوجئ برئيس تحرير ومجلس إدارة جريدة " الأيام " معترز القمل يلقي المحاضرة.. أحس بالارتباك لكنه كظم غيظه، وانزوى فى ركن قصى من القاعة ينصت للرجل الذى قال بثقه وهدوء وسط صمت رهيب لجميع الحاضرين: منذ خمسين عاماً لم تكن قد وجدت بعد موضة مدارس الصحافة، كنا نتعلم فى صالات التحرير، فى ورش المطبعة، فى المقهى المواجه للمبنى، فى حفلات الجمعة، كل جريدة كانت صناعة تشكّل وتخيز بلا أخطاء، وتتولد آراء داخل مناخ من المشاركة التى تحتفظ فيها الأخلاق بمكانها. فنحن الصحفيون كنا نسير دائماً معاً، نصنع حياة مشتركة، وكنا متعصبين جداً للمهنة لدرجة أننا لم نكن نتحدث عن شئ غير المهنة نفسها، كان العمل يحمل معه صداقة المجموعة التى تترك هامشاً صغيراً للحياة الخاصة، لم تكن هناك تجمعات التحرير المؤسسية، لكن فى

الخامسة مساءً دون دعوة رسمية ، كل طاقم الدور كان يأخذ راحة من ضغوط اليوم ، وننضم لتناول القهوة فى أى مكان من الصالة.

كان تسامراً مفتوحاً حيث نناقش بحماس موضوعات كل قسم ونعطى اللمسات الأخيرة لطبعة الغد والذين لم يتعلموا فى تلك المراسى المتجولة والملتهبة أربع وعشرين ساعة يومياً ، أو الذين كانوا يملون من الكلام الكثير حول نفس الشئ ، هذا لأنهم كانوا يريدون أو يعتقدون أنهم صحفيون ، لكنهم فى الحقيقة لم يكونوا كذلك.. كانت الجريدة حينئذ ثلاثة أقسام كبيرة: أخبار ، أحداث ، تحقيقات ، وأعمدة افتتاحية. الحمل الثقيل كان يقع على المحرر الذى كان يحمل فى نفس الوقت مفهوم الصبى وحامل الطوب.

الوقت والمهنة نفسها برهنا على أن النظام المتوتر للصحافة يجول فى الواقع فى مغزى عكسى.. أعترف لكم: أننى بعد أن كنت أسوأ دارس للإعلام بدأت مجالى كمحرر للاقتراحات وصعدت رويداً رويداً وعملت كثيراً بسلا لم أقسام مختلفة ، حتى وصلت لأعلى مستوى للمحرر الصحفى المتمكن ، نفس الممارسة للمهنة كانت تفرض ضرورة أن تكون ثقافياً ، ونفس جو العمل كان يتكفل بتحميسى على ذلك ، وكانت القراءة إدماناً مرتبطاً بالعمل عادة ما يكون العاصميون طامعين متعجلين ، فى تلك الفترة كنا كذلك وزيادة لنستمر فى فتح أبواب من الحياة لأفضل مهنة فى العالم.. كما كنا نسميها نحن أنفسنا ، ألبيرتويراس كامارجو الذى كان صحفياً دائماً ، وكان رئيس كولومبيا مرتين ، لم يحصل حتى على دروس لتدعيم فكرة أن المهنة ينقصها التعليم الأكاديمى. الآن لا يقتصر الأمر فقط على الصحافة المكتوبة وإنما وصل لكل الوسائل المبتكرة والتي على وشك الابتكار ، لكن فى اتساعها أخذوا من الشارع حتى الاسم المتواضع للمهنة منذ أصولها فى القرن الخامس عشر ، والآن لا تسمى صحافة بل علوم الإعلام أو الإعلام الاجتماعى.. النتيجة عمومًا غير مشجعة.

الأولاد الذين يتخرجون من الأكاديميات مدهوشين، يرون الحياة أمامهم.. يبدون غير مرتبطين بالواقع وبمشكلاته الحياتية، ويضعون هدف البطولة فوق المكيال الطبيعي والمهارات الخلقية، وخاصة فوق شرطين مهمين: الإبداع والممارسة.. أغلب الخريجين يصلون للصحافة بعيوب فاضحة، وبمشكلات مع الهجاء والقواعد اللغوية، وبصعوبة لفهم النصوص بمرونة، بعضهم يُقدّر لأنهم يستطيعون قراءة مستند بالمقلوب على مكتب وزير، أو تسجيل حوار مباغت دون اخبار المتحدث، أو استخدام حوار حميمي قبل ذلك كخبر، أخطر شيء أن هذه الاعتداءات الأخلاقية تخلق مفهوم الخوف من المهنة، القائمة على الضمير والمؤسسة بفخر على تقديس المهمة مهما كان الثمن وفوق كل شيء، لا يشرهم مبدأ أن أفضل خير ليس هو ما يكتب بشكل أفضل، بعضهم مدرسين لعيوبهم، يشعرون بخيبة الأمل من المدرسة ولا ترتجف أصواتهم وهم يلقون اللوم على مدرسيهم الذين لم يغرسوا فيهم الفضائل التي يشتمكون منها الآن، وخاصة الفضول في الحياة، الحق أن هذا النقد يفيد في التعليم العام، الذي يفسده اكتظاظ المدارس التي تتبع الخط المفرغ الذي يُعلم ولا يُشكل، لكن في الحالة الخاصة للصحافة يبدو أن المهنة فضلاً عن ذلك، لم تستطع التطور بنفس سرعة أدواتها، والصحفيون تاهوا في متاهة التكنولوجيا المنطلقة بلا سيطرة نحو المستقبل، بمعنى أن المؤسسات راهنت بقوة على المنافسة الشرسة في جانب التحديث المادي، وتركزت للمستقبل تشكيل فرقة المشاة وميكانيزمات المشاركة التي كانت تعزز الروح المعنوية في الماضي. فضالات التحرير معامل عقيمة للبحارة الفرادي، حيث يبدو من الأسهل التعامل مع الظواهر الفلكية من التعامل مع قلوب القراء.

هناك تقدم مهم حدث في النصف الثاني من القرن وهو امكانية التعليق وابداء الرأي في الخبر والتحقيق، وهكذا أثرت هيئة التحرير ببيانات معلوماتية ومع ذلك لا تبدو النتائج أفضل، حيث أن المهنة لم تتعرض أبداً لخطر مثل اليوم، فالعمل الشائن المبني على اقتباسات مزيفة أو صحيحة

يسمح بأخطاء بريئة أو متعمدة ، تزييف مؤذى أو تحريفات سامة تعطى للخبر عظمة سلاح قاتل ، وآراء المصادر التى تستحق التصديق التام من شخصيات مطلعة بشكل عام أو من كبار الموظفين الذين طلبوا عدم ذكر اسمائهم ، أو من مراقبين يعرفون كل شئ ولا يراهم أحد ، كل ذلك يخلق نوعاً من الشكاوى التى لا عقاب لها ، لكن المذنب يتمسك بحقه فى عدم اطلاع أحد على مصدره دون أن يسأل نفسه ألم يكن هو هو نفسه أداة سهلة لمصدر نقل له المعلومة كما أراد ، وضبطها بالشكل الذى يناسبه أكثر فالصحفى السئ يعتقد أن مصدره هو حياته نفسها خاصة لو كان مصدرًا رسميًا ولهذا يقدسه ويتضامن معه ويحميه.. ويصل فى النهاية لإقامة علاقة تواطؤ خطيرة معه تؤدي به لاحتقار نزاهة المصدر الثانى.

لم يكن يخطر على بال أى محرر أو مصور أو حتى ساعى أن يكون معتز القط فى يوم من الأيام رئيسًا لهذا الصرح الصحفى العملاق ، كيف لقرمز يناطح العمالقة ويتنازلهم ويجلس على عرشهم ويشهر قلمه فى وجوههم الأحياء منهم أو الأموات ليقول هاأنذا!.. لكنه ظل قرمزًا يشفق عليه البعض ، ويسخر منه البعض ، ويتعاطف معه البعض.

بدأ حياته محررًا برلمانيًا صغيرًا رث الملابس ، غير متناسق الهندام يرتدى عوينات تشبه عوينات الممثل فؤاد المهندس ، شكله العام يوحى بالرتاء أحيانًا ، ويبحث على الضحك بهستيرية فى كثير من الأحيان.. ولأنه منوفى الأصل والفصل كان يعرف من أين تؤكل الكتف فواصل رحلة صعوده من البرلمان إلى رئاسة مجلس الوزراء وصار يبحث بأخبار رئيس الوزراء ، وذات مرة كلفوه بأجراء حوار مع رئيس الوزراء وأعاد ناجى شرف الدين صياغة الموضوع ووضع له عنوانًا فانتازيًا:

رئيس الوزراء: أنا خادم الشعب!

نال الموضوع إعجاب واستحسان رئيس الوزراء نفسه فمنحه مكافأة كبيرة واتصل برئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير مُبدئًا شكره

وإعجابه.. من هنا لمع نجم معتز القط الذي كان يعاني من الفقر، ولا يملك هاتفًا محمولاً ويجلس مع عشرة محررين في مكان ضيق وحجير، وكلما أرادوه في الجريدة يضطرون للاتصال بابنته "بسمه" على هاتفها المحمول لكن الحياة ابتسمت له وفي أول تغييرات صحفية صار رئيسًا للتحرير وجلس على العرش!

بعد هذه المحاضرة التي ألقاها الرجل تحت عنوان متحيز "الصحافة أعظم مهنة في الدنيا" كره ناجي شرف الدين الصحافة ومنافقيها ومتسلقي أشجارها وقاطفي ثمارها بغير وجه حق.. وقرر ألا يواصل الدراسة لأنه شعر بأنها مجرد إضاعة للوقت وإهدار للجهد المهدر أصلاً..

كانت قدمه قد زلت في الفخ وأصبح عضواً في هيئته تحرير لجريدة حزبية تسمى "العدالة الإنسانية".. تلك التي يصدرها حزب العدالة الذي يرأسه ويرأس تحرير الجريدة أيضاً الدكتور محمد العادلي.. مقر الجريدة والحزب في فيلا ضخمة بحى المهندسين.. الفيلا تشبه القلعة الحصينة محاطة بسور ضخمة وفوقه أسلاك شائكة وبوابات حديدية تعمل بطريقة إلكترونية، وكاميرات مراقبة داخلية بحيث يستطيع الدكتور محمد العادلي مراقبة المكان كله.. مداخلة ومخارجه والزوار والمحررين، وحتى أفراد الأمن الذين استعان بهم وراعى أن يكونوا أشداء أقوياء مخلصين له، واشترط أن يكونوا من أبناء المحافظات والأقاليم البعيدة ووفر لهم مكاناً ينامون فيه بالطابق الثانى من الفيلا.. والبيانات الاللكترونية لا تسمح لأحد بالدخول إلا بعد التعرف على هويته وهدفه والرجوع إلى الدكتور محمد العادلي الذى لا يفارق الفيلا إلا بعد منتصف الليل يومياً عائداً لمنزله بحى الزمالك..

فوجئ ناجي بأن المكان غريب الأطوار والناس فيه كذلك ولفت نظره الحرس الزائد والحراسة المشددة والإجراءات الأمنية غير العادية، وعندما استفسر قالوا له.. النظام هنا هكذا!

كان الدكتور محمد العادلي رئيس حزب العدالة رجلاً غامضاً يحيط نفسه مثل مقر حزبه وجريدته بأسلاك شائكة وأسوار شاهقة ، وحراسة خاصة كما لو كان يخشى من أن يفتاله أحد أعدائه ، وما أكثرهم في الوسط السياسي والثقافي والصحفي ، والرجل صفحته قائمة سوداء وسمعته كذلك ، وقد بلغت به درجة الشك والخوف والهواجس أقصى مداها حتى أنه أمر حراسه بتفتيش كل الناس الذين يأتون إلى مقر الحزب والجريدة ومن بينهم شقيقه الوحيد الذي كان يأتي بين الحين والآخر لزيارته والاطمئنان عليه لأنه يعرف أنه صاحب مرض مزمن ، يسأل عن أحواله ويتجاذب معه أطراف الحديث ، وبرغم جبروت محمد العادلي وشراسته وحيه للشر وحرصه على تعمد إيذاء الآخرين بشتى السبل إلا أنه كان مريضاً بالقلب والسكر والضغط ، ويسير على نظام غذائي وعلاجي قاسي للغاية ، لكن المثير للاستغراب أنه كان يتلقى الأموال من الخارج وتدفق عليه كسبل عرمرم ، وتتضخم ثروته وتتضاعف أرصده في البنوك ولا يعرف أحد مصادر هذه الأموال ، ولم يسأله جنس مخلوق: من أين لك هذا يا دكتور؟

تجاوز الرجل الخمسين بسنوات قليلة ، ويحرص على ارتداء الباطو الأبيض فوق القميص والبنطلون كما لو كان يحن لحلمه القديم بأن يكون طبيباً وأخفق في أن يكمل دراسته للطب قبل أن يتحول رغماً عنه إلى الصحافة والاعلام ، وشاء رب المشيئة وخالق الخلائق ألا يرزقه الذرية لا بنين ولا بنات فعاش وحيداً مع زوجته زينات التي كانت تنفر من اسمها ، وتصر على أن يناديها الجميع باسم " زيزى " ، وبرغم قسوته عليها وغلظته وخشونته في التعامل معها لدرجة أنه كان يسب لها الدين ، ويوبخها بألغن الشتائم وأقبح الكلمات ، ظلت صابرة على فظاظته ، متحملة لجنوحه وجموحه لأنها كانت تعرف أنه قادر على تجريدتها من كل شيء والزج بها في غياهب السجن إذا غضب عليها ، ظلت بجواره خوفاً وطمعاً وفي أعماق قلبها تكن له الحقد الدفين.. خوفاً من لعنته وتحاشي لغضبه وطمعاً في

جنته التي تتمثل في الثروة الهائلة التي تتضخم وتنمو مع الأيام في أرصده
كما ينمو الجنين في أحشاء أمه)

ظلت زينات تحلم باليوم الذي تداهم فيه غيبوبة السكر القاتلة أو نوبة
القلب المميتة عندما ينسى الدواء كعادته، لئن تذكره به هذه المرة عساها
تكون نهايته المأساوية، والنهاية السعيدة لحياتها الزوجية مع شخص غير
طبيعى في كل تصرفاته وأفكاره وجنونه.. وذات يوم أحس أنه لا يلقى
الاهتمام الذي يستحقه وهو رئيس حزب سياسى ومالك صحيفة أسبوعية
وفى طريقها لأن تكون يومية، ولا أحد من الحكومة أو قصر الرئاسة
يعره العناية التي تليق به فافتعل حادثه اغتياله على طريق مصر إسكندرية
الصحراوى - وأطلق الرصاص بنفسه على سيارته ليوهم الجميع بكذبتة،
وأملى على الصحف والقنوات الفضائية المصرية منها والعربية والأجنبية
أن حياته فى خطر، وأن النظام يبغي التخلص من معارضيه وهو على
رأسهم بالطبع، طار الخبر فى أرجاء المعمورة وعرف به القاصى والدانى
فى مصر المحروسة، فأصدر الرئيس مرسوماً رئاسياً بتعيينه عضواً فى
مجلس الشورى، وهكذا يحظى الرجل بالحصانة البرلمانية، كما تضمن
المرسوم الرئاسى أيضاً بأن يتم تعيين حراسة من وزارة الداخلية للرجل مثل
كبار الشخصيات فى الدولة ويعد أن ذاع الأمر وانتشر وحقق الدكتور
محمد العادلى المراد أرسل زوجته زينات إلى شوكت الغطريف رئيس
مجلس الشورى الذى هو فى الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للصحافة
وأمين عام الحزب الحاكم الزيارة كان غرضها توجيه الشكر، وتقديم
فروض الولاء والطاعة ولو لزم الأمر التسرية عنه وعن رغباته فى جناحه
الخصوصى بالفندق الفخم القريب من مقر البرلمان والمطل على نهر
النيل، ولم يكتف الدكتور محمد العادلى بهذا القدر بعد نجاته من حادث
الاغتيال المشؤم المزعوم، بل أرسل برقيه شكر وعرفان وامتنان للرئيس
فى ذات الوقت الذى أوفد فيه زينات لشوكت الغطريف، ومن وقتها دأبت
على معاودة الرجل فى جناحه الخاص بإصرار وإلحاح من زوجها العصامى

صاحب الحصانة والحزب والجريدة!

مقر الحزب والجريدة فيلا فخمة استأجرها الدكتور محمد العادلي من مذبة شهيرة لمدة عام واحد ثم تلاعب بشروط العقد واستعان بمحامى متخصص فى التزوير وحتى اليوم مرت عشر سنوات والقضية متداولة فى المحاكم، والمذبة أصابها اليأس من استعادة الثيلا التى ورثتها عن والدها الذى كان رئيساً لوزراء مصر.

داخل هذه الثيلا الإيطالية الطراز والتصميم المعمارى يقضى ناجى شرف الدين نهاره فى العمل الصحفى بقسم الديسك حيث يتولى إعادة صياغة الموضوعات لمحررين أنصاف مواهب إن لم يكونوا معدومي المواهب على الإطلاق، وكثيراً ما كان يستعير التشبيه اللبناني لمن يعمل بالديسك قائلاً:

"إنه الشخص الذى يتولى غسيل الملابس الداخلية للآخرين! فهو يجمل عمل غيره ويضعهم على طريق الشهرة والنجومية ويظل هو كالجندى المجهول شهيد مهنته التى تحتم عليه أن يبقى وراء الستار وفى الظل بعيداً عن الأضواء..

فوجئ ناجى بأن رئيس التحرير الذى هو فى الوقت نفسه رئيس الحزب يأتى بأمور جهنمية ما أنزل الله بها من سلطان تخالف القانون والأخلاق، فقد نشر إعلاناً فى عدة صحف قومية يومية من بينها جريدة "الأيام" عن وظائف خالية لثمات من الشباب خريجى الجامعات والمعاهد والمؤهلات المتوسطة، وعندما توافدوا إلى المقر كان قد أصدر أوامره بتحصيل خمسة جنيهات من كل متقدم لشغل الوظيفة مع ملء عدة استمارات من بينها استمارة يوقع عليها دون أن يكتب فيها كلمة واحدة، واكتشف ناجى شرف الدين بعد ذلك أن هذه الاستمارة البيضاء مسوغات انضمام لحزب العدالة الإنسانية دون أن يعلم هؤلاء الشباب المساكين الذين جاءوا من محافظات مختلفة وهم يعانون من كابوس البطالة المزعج أنهم وقعوا فى

الفخ الذى نصبه لهم.. وفى دردشة عادية بين ناجى وشاب يدعى عبد الصبور الجبالى من محافظة المنيا ويعمل بالفعل فى هذا المكان منذ عامين عرف ناجى بقصة الفتاة "زهرة" التى كانت تعمل سكرتيرة وكاتمة أسرار للدكتور محمد العادلى، وشاء حظها الأغبر أن تقضى زهرة شبابها وأجمل سنوات عمرها خلف الأسوار، ثم القبض عليها متلبسة بحيازة مخدرات وحكم عليها بالسجن عشر سنوات ومات والدها حسرة عليها.

ذات ليلة شتوية كالحة جاءت مكالمة هاتفية سرية من لندن عاصمة الضياع للدكتور محمد العادلى قال المتحدث على الطرف الآخر كلمتين فقط: أرسل المندوب!

وبالفعل أرسل المخدرات فى حقيبة يد مع "زهرة" بقيمة مليون دولار إلى شخص ما فى فندق الهيلتون بوسط القاهرة.

وهناك وقعت الواقعة، ثم القبض عليها ورفضت أن تقول الحقيقة لرجال الشرطة على أمل أن يتدخل الدكتور بنفوذه وحصانته ويتشلها من الضياع، ولم يكذب الرجل ظنونها جاءها مهرولاً وأوهمها بأنه سيخلصها كما تخلص الشعرة من العجين لكن بشرط ألا تذكر اسمه فى القضية على الإطلاق وأرسل لأمها عشرة آلاف جنيه ذراً للرماد فى العيون.

وظلت زهرة تكتم الحقيقة المرة عن الجميع، وتنتظر الفرج والإفراج على يد الدكتور محمد العادلى حتى نطق القاضى بالحكم النهائى فى القضية، وأفاق المسكينة على الكارثة.. السجن عشر سنوات مع الشغل والنفاد.

لم يصدق ناجى شرف الدين أذنيه وبدا كما لو كان طفلاً ينصت لإحدى حواديت ومغامرات ألف ليلة وليلة الخرافية أو يستمع لواحدة من الأساطير الإغريقية.

لكنها كانت الحقيقة بوجهها المشرق الذى يبدو وقتها فى كثير من الأحيان لكنها الحقيقة ولا شئ غيرها.

وبرغم أن الأجواء في المكان مليدة بالغيوم، وتعلوها سحب الضباب، وتفوح منها رائحة الشبهات النفاذة إلا أن ناجى شارك في اجتماع حضره أكثر من ٢٠٠ محرر وموظف صاروا دون علم منهم ولا رغبة أعضاء في حزب العدالة الإنسانية، اتبرى الرجل الأصلع التحيل الشاحب الذي يضغط على نهايات الحروف مقلداً الرئيس السادات وهو ما يزال بالبالطو الأبيض الذي يعتبره داء ودواء كما لو كان ملاكاً طاهرًا نقيًا تقياً.. بدأ " الشيطان يعضّ " فقال:

هذه الكلمات ليست شأنًا يخص الجماعة الصحفية في مصر، بل شأن عام يخص المواطنين كافة، حكما ومحكومين، باعتبار أن الجميع هم المكون الحقيقي للرأى العام، الذى يتوجه إليه الكتاب والمفكرون والصحفيون وأصحاب الرأى والإعلاميون على تنوع معتقداتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية.. فالقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة نجاح أى مطبوعة صحفية بالإقبال عليها فيتحقق لها الاستمرار والأزدهار.. والقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة وفاة أى صحيفة بالابتعاد عنها، لأنها تخون أمانة القلم، وتقلب على المهنة وآدابها وتقاليدها التى توارثتها الأجيال عن الرواد الأوائل عبر سنين طويلة.

وما أقوله مجرد لفت الأنظار للمخاطر التى تواجه الصحافة المصرية.. اليوم، وفى مستقبل الأيام.. من سعى بعض رجال الأعمال، الذين لا صلة لهم بالصحافة من قريب أو بعيد بهدف إحكام السيطرة على مقدرات الصحافة والصحفيين.. وما نراه من محاولات رأس المال من تملك بعض الصحف، تشبهاً بأخطبوط الاعلام العالمى مردوخ، من تملك بعض الصحف، وكثير من القنوات الفضائية والعيث بسياساتها التحريرية، والنيل من رسالتها فى التنوير، والتثقيف، وقد لا يعرف البعض من هو ذلك المردوخ الرهيب، هو روبرت مردوخ ملياردير وناشر استرالى المولد، أمريكى الجنسية، وهو من أكثر الرجال تأثيراً فى الرأى العام العالمى بوجهه وفق

أغراضه ومخططاته ، كما قالت عنه صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الشهيرة ، في تقرير مهم عن أكثر الرجال نفوذاً وتأثيراً على الناس ، في هذه الأيام ، أرجعت الصحيفة نفوذه وسطوته لامتلاكه لعدد كبير من وسائل الاعلام العالمية المرمية والمقروءة ، يسخرها لخدمة أغراضه ، مما جعل الإعلاميين المحترمين يقدمون استقالاتهم فور شرائه للصحف التي يعملون فيها ، ويستطرد التقرير: بنظرة سريعة على ممتلكاته الإعلامية تجعل الناس يتساءلون إن كان مجرد واجهة لمخطط صهيوني عالمي تمت صناعته ببراعة منذ سبعينيات القرن الماضي ، ويتساءلون أيضاً: كيف تحققت له هذه الأموال الطائلة ، وما هي مشروعاته جمعها حتى امتدت إمبراطوريته الإعلامية إلى أنحاء كثيرة من العالم من إستراليا إلى بريطانيا إلى نيويورك وإلى الصين فأصبح الملك غير المتوج للاعلام الدولي عابر القارات والمحيطات والذي يسعى لتخريب العقول ، وهدم القيم النظمية والداعى إلى كل ما هو فاضح ومشين.

إن إحتكار فرد أو مجموعة أفراد ، لا صلة لهم بالصحافة يقلق الشعوب ، فتملك فرد معظم صحف العالم ظاهرة إحتكار سياسى ، حيث يعمل الفرد أو مجموعة من الأفراد على تسخير ما تحت أيديهم ، وهو كثير بما يخدم أغراضهم ، كما أن دخول المؤسسات الصحفية إلى مجال المنافسة بين المستثمرين فى أسواق المال يثير قضية مهمة: ما علاقة رأس المال بالصحافة إلى جانب انعكاسات هذا التوجه على حقوق الصحفيين والإداريين والعمال الذين يعملون فى هذه المؤسسات؟ وفى نفس الوقت يثير قضية لا تقل خطراً على سابقاتها وهى: حقوق القارئ فى أن يتلقى إعلاماً نظيفاً يقوم على انتاجه وصناعته وتجويده صحفيون محترمون.. وفى ظل تنامي هذه الاحتكارات تحجب عن القراء المعلومات والحق فى المعرفة ، وهو أحد الحقوق الأساسية للإنسان ، والتي تقوم الحكومات وتنشأ لكفالة وتشظيم حق ممارستها ، كما قال بذلك منصور حسن وزير الاعلام فى عهد الرئيس السادات أواخر عام ١٩٧٨ ، وسواء تملك فرد أو مجموعة أفراد ، أو

أنظمة الحكم فالجميع يدعى أنهم يعملون على حماية المصلحة العامة ، وباسم هذه المصلحة تحجب بعض المعلومات بدعوى أنها غير حقيقية ، وأن فى إذاعتها ونشرها إضرار بالصالح العام ، ومن هذه النقطة تبدأ محاولة السيطرة على الاعلام فى خطوات متدرجة تنتهى إلى سيطرة كاملة على المعلومات التى تقدم للمواطنين عن طريق تملك الصحف ووسائل الاعلام الأخرى وتوجيه ما تذيعه ، فلا تمنع فحسب المعلومات غير الحقيقية ، بل تقدم للمواطن معلومات تعلم أنها غير حقيقية ، مدعية أنها تعمل على حماية مصالح الوطن العليا ، وهكذا تنتهى الرغبة فى حماية المواطن من المعلومات الضارة ، إلى مصادرة كل حق له فى أن يعرف.. وتكمن خطورة هذا الحجب فى أنه يحرم المواطن من خبرات كثيرة.. ومن معرفة حقائق الأمور داخل الوطن وخارجه.. انهم بهذا التصرف اللئيم يتشبهون بفرعون موسى الذى قال لقومه: "لا أرىكم إلا ما أرى " ، وقد ينجح القائمون على تملك هذه الصحف فى تكوين رأى عام مؤيد لهم فى كثير من تصرفاتهم الخاطئة.

وما دمننا نتحدث عن مساوئ احتكار الفرد أو مجموعة أفراد أو النظم الحاكمة للمؤسسات الصحفية ، ووسائل الإعلام الأخرى.. أذكر دراسة نشرتها منذ عشرين سنة ، فى مجلة " الصحفيون " وكانت تصدر شهرياً عن نقابتنا الموقرة ، وهى مجلة متخصصة فى الشؤون الصحفية وقضايا الرأى العام ، وكان نقيب الصحفيين هو رئيس تحريرها.

والمثير للدهشة أن القضايا التى عرضناها فى هذه الدراسة ، تحت عنوان: " الصحافة المصرية بين المهنة والمحنة " خمس قضايا أساسية ، حذرنا فيها من المخاطر التى قد تؤدى إلى انصراف القراء عنها ، وهى نفس القضايا المثارة على الساحة الصحفية والإعلامية فى هذه الأيام ، وكأن الزمن قد توقف ، وأصبحنا ندور فى حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر ، أو محلك سر بل إلى الخلف در ، وأصبحنا أسرى نفس السلبيات التى

حذرت من استمرارها منذ عشرين سنة! ولم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، نتحدث عن غيبة الانتماء المهني، وتجاوزات الصحف الدينية، وأخطار الفتنة الطائفية، وأجور الصحفيين المتدنية التي دفعت كثيرًا منهم للوقوف على أبواب الصحف الخاصة والجري وراء الفضائيات لعرض إنتاجهم من أخبار وتحقيقات صحفية بصورة غير لائقة، ولكن ما الذي رماهم إلى المر والبهدة وقلة القيمة هو الأمر منه، هم معذرون فالدخل الشهري الذي يتقاضونه من صحفهم التي يعملون بها لا يوفر لهم ولأسرهم الحد الأدنى للحياة اللائقة الكريمة.. وامتدت مناقشات الكتاب والصحفيين في مجلة "الصحفيون" إلى علاقة الصحفي بالإعلان.. وعلاقة رأس المال بالصحافة.. والصحافة بين الالتزام الحزبي وقواعد المهنة، وتقاليده الصحافة وترسانة القوانين المقيدة للحريات، والتساهل المعيب عند القيد بجدول الصحفيين، الذي أصبح مفتوحًا على "اليهلي أو البحري"، نتج عنه تكديس الجدول بأعداد هائلة من الأعضاء، وأصبح كثير منهم لا يجدون فرصة عمل لائقة.. وقد ساهم في هذا التكديس قيام المؤسسات الصحفية بسيادة الفكر القبلي بين رؤساء مجالس الإدارات وصحفيي كل مؤسسة، والحرص على أن يكون النقيب وأعضاء المجلس من بين ابنائها.. دون الاهتمام باختيار الأفضل.. حيث قامت المؤسسات الصحفية، بمنح بعض العاملين بها من غير الصحفيين، من إداريين وموظفي أمن وسكرتارية شهادات تتيح لهم القيد في جدول النقابة دون استحقاق قانوني وعملي.. وهذا التساهل المعيب يتحمله الصحفيون أنفسهم، فقد أخطأوا في حق مهنتهم، مما أتاح الفرصة للأسف وفق القانون الحالي، لتسلل عدد كبير ممن لا مهنة له إلى عضوية النقابة.

وأذكر أن القيد في جدول النقابة قبل صدور القانون الحالي، كان يمر بإجراءات تحفظ للمهنة هيبتها وكرامتها وقد مرت بهذه الإجراءات عام ١٩٦٥، عندما تقدمت للقيد بجدول المشتغلين، كانت اللجنة برئاسة عنصر قضائي وكان المتقدم يحلف اليمين أمام لجنة برئاسة أحد رؤساء

محكمة استئناف القاهرة وعضوية أحد رؤساء النيابة العامة ، وممثل للنقابة وممثل لهيئة الاستعلامات ، ويمنح العضوية بعد أن يكون قد اجتاز متطلبات مهنة الصحافة من تنوع ثقافى ، وعلى وعى بقضايا الوطن والأمة العربية والإسلامية مع إلمام بما يجرى فى الداخل والخارج من أحداث.. ورؤيته لها..

توقف الرجل لحظات التقط أنفاسه ، وتجرع كوب ماء ثم قال :
لا شك أن حلف اليمين أمام الهيئة الموقرة لجنة القيد ، يلقى على الصحفي مسئوليات كبيرة تجاه قرائه ، ويشعره بجلال القضاء وعدله ، والحرص على كرامته بين مواطنيه ، وإعلاء شأن الصحيفة التى يعمل بها .. لقد كان العنصر القضائى يمثل الضمان الوحيد لصحة الشهادات التى يقدمها طالب القيد ، وبعد صدور القانون الحالى عام ١٩٧٠ ، لم يعد للعنصر القضائى وجود يدعوى أن النقابة سيدة جدولها وقرارها ، وأنها ليست فى حاجة إلى عنصر قضائى ، وأصبحت نقابة الصحفيين أول من ابتدع هذا الشعار المعيب ، وسار على خطاها فيما بعد مجلس الشعب الذى أطلق صيحته المدوية : مجلس الشعب سيد قراره ، عند البت فى صحة انتخاب الأعضاء أو عند رفع الحصانة البرلمانية عن أحد أعضائه.. وعود على بدء إلى الدراسة التى نشرناها فى مجلة " الصحفيين " .. وكأننا كنا نستشرف المستقبل ، فقد حددنا خمسة مخاطر يجب تداركها ، والتصدى لها للحفاظ على أنيل رسالة لأعظم مهنة :

قيام الحكومات بحجب المعلومات عن الصحف ، ومنع الصحفيين من الوصول إليها بهدف إخفاء الحقيقة عن الرأى العام ، أو ما يسمى بالتعتيم الاعلامى إزاء حدث مهم ، أو مجموعة أحداث.

التفسير الخاطئ من بعض الصحفيين لمفهوم حرية الصحافة ، إذ يعتبرها البعض أنها حريتهم وحدهم دون سائر خلق الله إلى الدرجة التى تحولت فيها خلافاً للصحفيين الشخصية ، بينهم وبين بعضهم أو مع بعض

المواطنين إلى قضايا رأى عام.. لذلك نرى البعض يجيشون أنفسهم بكل أسلحة الهجوم على الآخر.. من اتهام بالعمالة، وتناذب بالألقاب وبالأفراط لا تليق بحملة الأقلام حماة الرأى والرأى الآخر.

تحول بعض الصحفيين إلى رقباء يتولون حذف أو تشويه الأخبار والموضوعات وقضايا الرأى لصالح مالك الصحيفة أو لصالح السلطة سواء طلب ذلك منهم أو قاموا بهذا العمل الأثيم نفاقاً ورياءً وتقريراً وزلفى أو خوفاً وطمعاً!

قيام الصحافة بإصدار أحكام الإدانة فى القضاء قبل أن يقول كلمته الفاصلة بحكم نهائى ويات.

"عجبت لمن ضاع حقه.. ولا يخرج على الناس شاهراً سيفه!"

إندلعت ثورة عارمة في مؤسسة الأيام الصحفية أطلق عليها جنرالات القلم في بلاط صاحبة الجلالة.. "ثورة السعاة" تيمناً بثورة الجياع.. تمردوا ورفضوا تنفيذ أوامر رؤسائهم بعد أن ضجوا وملوا ويشسوا من طول الانتظار لقرار التعيين الذي لم ولن يأتي، تعاهدوا على الإضراب والاحتجاج والصراخ حتى يصل صوتهم إلى أعلى عليين، رفعوا شعاراً تعلموه من المدرسة الابتدائية قبل أن يغادروا فصول التعليم إلى غير رجعة: الاتحاد قوة!

تركوا المكاتب بلا نظافة تحيطها الأوساخ من كل صوب وحذب عسى أن يشعر الكبار في المؤسسة أن هؤلاء السعاة الصغار أصحاب حق وهم بشر يستحقون الحياة، لا صراهير تستحق السجل بالنعال.. كان زعيمهم المتوج واثرائهم الأكبر سامي الأزعر شاب نحيل الجسم ضئيل الحجم دقيق الملامح قصير القامة لا يزيد طوله عن ٥٠ سم لكنه قوى الشخصية يتعامل مع الجميع بثقة كأنه طويل عملاق ضخيم، هو منوفى الأصل والفصل وقد غير محل إقامته في بطاقته الشخصية، وجعلها شبرا بدلاً من المنوفية حتى لا يعايره أحد بأنه منوفى ينتمى إلى محافظة سيئة السمعة.. نجح سامي الأزعر هذا الساعى الخصوصى لميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة "نجوم الفنون" فى أن يستفز ويثير غضب أكثر من عشرين من السعاة الذين قضوا فى خدمة المؤسسة حوالى سبع سنوات دون تعيين يؤمن مستقبلهم، وكانت مؤسسة الأيام تعاملهم بالأجر اليومى الذى لا يكفيهم لتناول الخبز الحاف.

اعتصموا جميعاً أمام المبنى الرئيسى للمؤسسة حيث يستطيع رئيس مجلس الإدارة رؤيتهم لو كلف خاطره وأطل من نافذته، وكتبت صحف

المعارضة وسجلت معهم بعض الفضائيات المصرية والعربية وفي المقدمة قناة "الجريئة" المثيرة للجدل والغضب، ولما يسوا من رحمة قيادات المؤسسة لجأوا إلى سلم النقابة مطالبين بحقهم في التعيين أسوة بزملائهم في المؤسسات والهيئات والشركات الأخرى

وجاء الفرج بعد أسبوع الغضب استجاب رئيس مجلس الإدارة وأصدر أوامره بتحرير عقود سنوية لهؤلاء السعادة، فرحوا وهللوا وظنوا أنهم حققوا نصراً مؤزراً لكنهم اكتشفوا أنها كانت خدعة كبيرة، وأن العقد مجرد فخ نصيبته لهم المؤسسة، لأنه لا يمنحهم مزايا جديدة، وأجورهم كما هي لن تزيد جنبهاً واحداً فلم يكن أمامهم إلا رفض صيغة التعاقد وأصرروا على التعيين قبل العودة لممارسة عملهم مرة أخرى، وعندما علم رئيس مجلس الإدارة غضب كثيراً ووصفهم بالحقالة، وهدد بالاستغناء عنهم والاستعانة بشركة نظافة قطاع خاص تحل محلهم ما لم يعودوا لأداء عملهم خلال ٢٤ ساعة، أحس السعاة بالخطر الداهم يهدد مصيرهم ووجودهم في المؤسسة، وأنهم صاروا على كف عفريت فرفضوا وعادوا لعملهم في إصدارات المؤسسة المختلفة مكسوري الجناح على أمل أن ينفذ رئيس مجلس الإدارة وعده الهزيل بتعيين من يثبت كفاءته وولاءه للمؤسسة والصبر عليها حتى تمنحه شرف البقاء الأبدى بها في الوقت المناسب.

ظهرت لسامى الأزعر كرامات تجسدت في سلطته القوية على زملائه وطاعتهم العمياء له برغم أن مواصفاته الجسدية لا تؤهله أبداً للزعامة، وإن كان قد قدم التاريخ لنا زعامات من قصار القامة.. والقائمة طويلة يتصدرهم الزعيم لألماني ناظر مدرسة النازية أدولف هتلر!

أمرهم سامى الأزعر أن يعودوا إلى أماكنهم فعادوا.. مثلما يأمر الجنرال جنوده أن ينسحبوا من ميدان المعركة بعد أن أوشكوا على الهزيمة ليخرجوا منها بأقل الخسائر الممكنة، لم يلوموه أو يسألوه.. لماذا حرضنا على التمرد؟ ولماذا تأمرنا الآن بالتراجع والاستسلام؟

الغريب في الأمر أن محرراً انضم لصفوف السعاة الغاضبين الثائرين، فقد شعر هذا المحرر بالظلم والغبن، وله قصة طريفة جداً، دفعته لأن يكون بينهم بعد أن استأذن سامي الأزعر بالطبع الذي أذن له بشرط ألا يخرج عن طوعه ولا يشذ عن الجماعة قائلاً له بحزم وحسم:

ـ لا يغرنك أنك محرر صحفي ونحن سعاة، فالمجموعة لا بد لها من قائد تسمع له ولا يشق أحد صفها، صحيح الأمر شوري لكن القيادة ضرورة. أبدى المحرر موافقته راضياً مرضياً.

هذا المحرر ظل يعمل بمجلة "الحوادث" التي تصدر عن مؤسسة "الأيام" ويرأس تحريرها مسعود صلاح حوالى ست سنوات، وذات مرة أعد موضوعاً صحفياً عن "فتيات الليل والبغاء في مصر"، وعندما عجز عن توفير الصور اللازمة للنشر بسبب رفض الفتيات نشر صورهن استعان بمجموعة صور عشوائية لعدد من الفتيات من على شبكة الانترنت، ولسوء حظه جاء أهالي البنات إلى مقر المؤسسة في اليوم التالي لنشر الموضوع وطرح المجلة في الأسواق.. وقد اعتبروا نشر صور بناتهم مصيبة كبرى، وهددوا باللجوء للقضاء إنقاذاً لبناتهم من العار والفضيحة، وأكدوا أن بناتهم فاضلات عفيفات طاهرات لا علاقة لهن من قريب أو بعيد بالليل والبغاء.

فكر مسعود صلاح رئيس التحرير طويلاً.. كيف يمكن له الخروج من هذا المأزق الصحفي والخطأ المهني الفادح؟.. مصداقته ومصدقية مجلته اهتزت بصورة غير مسبقة أمام الرأي العام، وقيادات المؤسسة وعلى شاشات الفضائيات التي ترصد الفضائح يومياً وتبحث عن الإثارة وإن لم تجدها تخترعها.

بعد تأمل عميق وتفكير دقيق إهتدى مسعود صلاح إلى حل مثالي ينقذه من هذه الكارثة، وفي الوقت نفسه يرضى عائلات البنات ويهدئ ثورتهم فما كان منه إلا أن كتب مقاله الافتتاحي في مجلة الحوادث تحت عنوان "المزور وبنات الليل.. الحقيقة الكاملة!" ونشر مع المقال صورة كبيرة

للمحرر المتهم بتزوير الصور على غلاف المجلة ، ولم يكتف بفضحه والتشهير به بل قرر طرده من المجلة والمؤسسة..وأعلن ذلك فى مقاله بصراحة يحسد عليها ، ولم يشفع للفتى المتهم بالتزوير أنه درس الصحافة والاعلام ، وعمل بمجلة " الحوادث " حوالى ست سنوات دون عائد يذكر سواء كان مادياً أو معنوياً ، وكان كل أمله أن يحظى بالتعيين ، ويصبح عضواً فى نقابة الصحفيين ليضمن مستقبله المهنى ثم يفكر فى الحب والزواج مثل كل زملائه الذين سبقوه فى العمل بالمؤسسة.

عاد السعاة إلى مواقع خدمتهم ، بينما توجه المحرر إياه إلى مكتب رئيسه متوسلاً إليه أن يعيده إلى عمله فلم يقبل.. لجأ المحرر إلى وساطة بعض الصحفيين وهو يعرف أن مسعود صلاح يقدرهم ولهم فى قلبه مكانه متميزة وحب لا ينضب ، وتحت الضغوط والإلحاح وحتى لا يضيع مستقبل الفتى هباءً ، وافق مسعود صلاح على إعادته لعمله بشرط أن يعمل ساعياً ينظف مكاتب زملائه فى المجلة ويقدم لهم الشاي والقهوة لمدة عام كامل! بكى المحرر بالدموع الحارة واستجدى رئيس التحرير أن يخفف عنه تلك العقوبة القاسية ، فقرر الرجل أن تكون سته شهور فقط ، ورأها عقوبة عادلة فى حين رآها المحرر المتهم بالتزوير والحماقة عقبة ظالمة لا بد من تجاوزها ، وعادت الأمور إلى نصابها بعد فترة من الزمن وانتهى الأمر!

فى هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يتابع من خلال قراءاته حكاية أخرى أكثر إثارة وطرافة وجاذبية من حكاية السعاة الذين يقودهم قصير القامة المنوفى الطموح الجريئ سامى الأزعر والمحرر الغيبى الأحمق إياه.. كان يتابع حدوثه رجل والده كان مولعاً بالثقافة ، وبارعاً فى الجدل والحوار وطمنى أن يصبح ابنه الذى يتسم بالذكاء والفطنة ، رجل دين ، وامثل الفتى روبرت مالتوس لرغبة الأب ، وصار كذلك لفترة ، لكنه كان شغوفاً بالفلسفة والاقتصاد ، ولذلك ترك الكهنوت ، وصار أستاذاً للاقتصاد فى الجامعة البريطانية حدث ذلك نهاية القرن الثامن عشر.

وكان مالتوس محبا للمرح ويؤثر البهجة ولم يقطب جبينه إلا لماما ، خاصة عندما توارقه مشكلات زمنه وأفضت به دراساته المستفيضة ، وتأملاته العميقة إلى إطلاق إنذارات احتمالات المجاعة القادمة ، وأكد أن السكان يتزايد عددهم بمعدل أكبر من زيادة الموارد التي يقتاتون بها ، وحذر من أن الأوبئة والحروب والكوارث الطبيعية هي وحدها القادرة على تقليص عدد السكان.

وعندما نشر مالتوس رؤيته القائمة هذه تسابقت الصحف السيارة لرحمه بسيل أحبارها ، ورشقه كبار الشعراء بقصائد الهجاء والسخرية ، وقال شاعر مرموق هو كوليريدج مبدع " الملاح القديم " .. إنه لأمر معزن أن يصفى حكماء بريطانيا وحكامها لما يقوله مالتوس ، وكان المطلوب اسكاته ، وتحديد إقامته الفكرية.

وكان المفكرون والسياسيون في ذلك الزمن يرون أن زيادة السكان نعمة لا نقمة ، ويمنون النفس بالفردوس الأرضي المنشود ، ذلك أن الرومانسية الفكرية كانت تسدل ستائرهما الزاهية ألوانها عليهم ، وما أن كاد مالتوس يعصف برومانسية أحلام يقظتهم ، حتى انقلبوا عليه ، لكن كان من حسن حظهم وأنذاراته لم تتحقق ، برغم أن منطقهم كان صائبا فقد انطلقت الثورة الصناعية ، وتجلت التكنولوجيا وتقدم الطب .. وأقلت البشر من براثن الموت جوعا ..

غير أن رؤية مالتوس لم تهبط من عرشها ، وظلت تراوغ وتشتغل لحظة انفجار حممها ، وربما كان هذا ما بدت أنذاراته منذ نحو ثلاث سنوات ، فقد استبد الفزع بالدنيا ذات صباح من غلاء أسعار المواد الغذائية ، واندلعت مظاهرات صاخبة في عواصم شتى ، وترنحت حكومتها هايتي والسفنال وصرخت صحيفة وول ستريت الأمريكية في صفحتها الأولى وهي تحذر من تجدد مخاوف مالتوس.

وكانت جماهير الهند قد بدأت الاحتجاج مبكرا ، وأطاحت بحزب

يميني متشدد كان يرفع شعار الهند المشرقة ، لكن الفلاحين لم يشعروا
بأى إشراق فى حياتهم ولذلك صوتوا لحزب المؤتمر بزعامة سونيا غاندى ،
واهتم رئيس الوزراء بتحسين أحوال الفلاحين ، وزيادة ميزانية الزراعة ،
وكانت الهند قد تمكنت إبان الثورة الخضراء الأولى فى عقد الستينيات
من تحقيق طفرة زراعية ، وهى سياسة سعت بلدان أخرى لبلوغ أهدافها ،
فانخفضت أسعار المواد الغذائية.

وعندئذ غيرت الحكومات مسار اهتمامها ، وأهملت الفلاحين والزراعة
طوال ثلاثة عقود.. حتى صدمها ارتفاع الأسعار ، وتحذيرات من أن زمن
المواد الغذائية الرخيصة قد ولى وانتهى إلى غير رجعة.
ولم يعد ممكنا الإفلات من هواجس مالتوس ، وحتى يمكن ذلك لابد
من العودة إلى الأرض الزراعية ، وبدء ثورة خضراء جديدة.

" لا تنتقم.. إجلس على حافة النهر وانتظر.. وذات يوم سوف يأتيك الموج حاملاً معه جثة عدوك! "

يعرّض معتز القمل رئيس تحرير جريدة الأيام كل الحرص على أن يحج كل عام ولا يترك ركعة من صلاة سواء كانت فرضاً أو سنة إلا ويؤديها على أكمل وجه ، ويهتم بشدة بمقالاته التي يتفق فيها السلطة ، ويتزلف للرئيس وبطانته ، ويلعن الجهاد ضد الفنانات المحجبات ، ويطالبهن بنزع الحجاب ، ويكفيهن برقع الحياء ، ويشجع عودتهن لإرتداء المايوه ، وهو شخصية تجمع كثير من المتناقضات ، فهو طيب شرير.. جميل قبيح.. مجنون عاقل.. عتيف حنون شرس هادئ ثائر كبير كان نائم تحت الرماد ، وكثيراً ما أكد للمقربين منه أن رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير السابق لمؤسسة الأيام لم تنته علاقته بالمسبق الصحفي والشارع والمؤتمرات السياسية ، والتصريحات النارية الخاصة.. الرجل لاشك مختلف تماماً عن القيادات الصحفية " التاريخية " التي خرجت من بلاط صاحبة الجلالة قبل سنوات بعد خدمة طويلة جداً إلى جوار القيادة العليا في قمة الهرم الصحفي.

الرجل أسس صحيفته اليومية الخاصة ، وما زال يكتب عموده اليومي في جريدة " الأيام " ليس هذا فحسب بل إن الصحفيين سيعثرون عليه بسهولة في المنتديات الكبرى حيث المعلومة والمصادر المهمة أو عبر الهاتف بحثاً عن رأيه في قضية أو كضيف لبرنامج فضائي مثير للجدل والصخب من البرامج التي تملأ الشاشات والفضائيات ليلاً ويسمونها " التوك شو " في المقابل ما تزال قصص وذكريات الرجل الكبير السابق في الهيمنة على المؤسسة على مدار ربع قرن من الزمان ماثلة في الأذهان داخل المبنى الصحفي الضخم بشارع الصحافة ، وهو المقر الجديد لمؤسسة الأيام للنشر

والصحافة ، الصدفه وحدها قادت معتز القبط إلى عرش الرجل السابق ليكون خليفته فى حكم المؤسسة ، والهيمنة على مقاليدها ومقدراتها .

لم يسع القبط للدخول ولم يغامر باختراق المجهول ، ولم يفكر طويلاً فى حسابات المكسب والخسارة لتصوير المكتب الذى آل إليه بملحقه " الجاكوزى " الشهير ، وهل هو حقيقى كما تردد .. أم مجرد شائعة أطلقها أعداؤه ، كما أكد الرجل بنفسه أكثر من مرة .

فى الطابق التاسع من مؤسسة الأيام يوجد نصف المكتب الفخم لرئيس المؤسسة السابق ، وهو عبارة عن إستراحة ضخمة ، أما النصف الآخر فهو فى الدور الثامن حيث كان المكتب الرسمى للكتاب الصحفى الذى تيوأ رئاسة المؤسسة لعقدين ونصف من الزمان .

الاستراحة التى تجول فيها معتز القبط فيها مكتب متوسط المساحة كان مخصصاً لطاقم السكرتارية الخاص به ، وتشغله حالياً سكرتيرة معتز القبط ، وهذا المكتب مفتوح على مصراعيه الآن بعد أن عصفت السياسة والصحافة برئيس التحرير السابق .

الغريب فى الأمر لأن مكتب معتز القبط يعد جزءا من مملكة الرجل السابق ، ومفتوح على بهو واسع تتجاوز مساحته المائة مترويه هائلة استقبال حديثة تنتهى بسلم حلزونى يربط الاستراحة بالمكتب فى الطابق الثامن .

أما الجهة الأخرى للإستقبال فهى مرتبطة بغرفة نوم كبيرة ورومانسية بألوان هادئة بدرجات اللون الأزرق الناعم . واللافت للنظر فى الغرفة أنها تحتوى على سرير نوم فسيح مريح حريرى الفراش وكرسى فوთيه ، والكوميدون المجاور للباب تغلوه ثلاثة أجهزة تليفزيون .

وحجرة النوم هذه يربطها باب داخلى بحمام متسع تتجاوز مساحته الخمسين متراً ، وما أن فتح معتز القبط الباب حتى وقعت عينه على الجاكوزى السرى الشهير ، ولكى يتأكد من أنه حقيقى وليس وهمًا أو دريًّا من خيال اقترب منه وطلب من كبير مصورى المؤسسة فاروق علم

الدين أن يلتقط له مجموعة من الصور التذكارية للتاريخ في هذا المكان الذي لا مثيل له في كل المؤسسات الصحفية على أرض المحروسة) قال مازحاً:

— اسمع يا فاروق هذه الصور ليست للنشر.

ولأن معلومات معتز القطر الأولية في عالم الحمامات لم تنفعه في تقدير قيمة وفخامة "جاكوزى" سلفه قياساً بغيره.. تساءل: هل هناك إرشادات معينة قبل الإستحمام فيه، وما الوقت المناسب للمساج؟ وهل كتابة العمود الصحفى وعمقه ودقته تكون مختلفة بعد الجاكوزى عما كانت عليه من قبل؟

في هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يسعى جاهداً أن يثبت أقدامه في صحيفة حزب العدالة الإنسانية حتى يضمن الحصول على العائد المادى المجزى برغم كل المخاطر والمطبات التى حاصرتة.

وقد ظن ناجى شرف الدين أن علاقته توثقت عراها مع الدكتور محمد العادلى صاحب الجريدة ورئيس الحزب بعد أن إكتشف الرجل موهبته الصحفية المتفردة، ولكن العادلى طلب من محررى الجريدة إعداد موضوع صحفى عن أبناء الرؤساء فى الوطن العربى، وكيف يرثون عروش الأباء، وتعرض فيه بسوء لتجلى رئيس الجمهورية، ودلل على أنهم جمعاً ثروة هائلة وغير مشروعة من وراء وجود والدهما فى سدة الرئاسة، وكتبوا فى الموضوع بصراحة أنهم لا يصلحان للحكم والرئاسة والسياسة ووضع الدكتور محمد العادلى اسم ناجى شرف الدين على هذا التحقيق الصحفى أثناء وجود ناجى شرف الدين فى أجازة لزيارة والدته فى قريته النائية بمحافظة الغربية.

وتوالت المفاجآت على رأس ناجى شرف الدين بعد نشر الموضوع، فقد فوجئ دون جريمة إرتكيبها بأكثر من جهة أمنية تستدعيه لسؤاله، ثم كانت المفاجأة المدوية التى زلزلت كيانه.. مفاجأة لم يكن يتوقعها

على الاطلاق حيث رفع نجلا الرئيس قضية ضده بصفته محرر الموضوع، وكذلك ضد الدكتور محمد العادلى بصفته رئيس التحرير، ولم يعدم الدكتور العادلى الوسيلة للخروج من تهمة السب والقذف والاساءة لهما..

نجا العادلى بسهولة بنفوذه وألاعيه وحصانته البرلمانية كرئيس حزب معارض وعضو فى مجلس الشورى وصدر الحكم ضد ناجى بالحبس لمدة عام، وتم القبض عليه بالفعل، واقتادوه للسجن لتنفيذ الحكم، ولم يكن ناجى وحده ضحية جرائم النشر، فقد صدرت أحكام عديدة بحبس الصحفيين، ولم يكن أمام نقيب الصحفيين تحت ضغط وإلحاح من جموع الصحفيين أعضاء النقابة إلا أن يتقدم بمذكرة إلى رئيس الجمهورية يلتمس تدخل الرئيس لمنع حبس الصحفيين فى جرائم النشر بدعوى حماية الحرية التى منحها الرئيس للصحافة والاعلام طوال فترة حكمه المديدة.

وكعادة الرئيس فى مثل هذه الحالات إستجاب لهذا المطلب الإنسانى الجماهيرى للإعلاميين والصحفيين، وأصدر مرسوماً جمهورياً يقضى بالافراج عن الصحفيين المحبوسين على ذمة قضايا النشر، وعدم جواز حبس أى صحفى فى قضية نشر، ويمكن الاكتفاء فقط بالغرامة المالية!

"جميعنا سجناء.. بعضنا في سجون ذات نوافذ.. والبعض الآخر في سجون بلا نوافذ"

احترار ناجي شرف الدين كثيراً.. لم يعرف لماذا اختارته تلك المرأة دون غيره لتبوح له بحكايتها ، جاءت تلك السيدة المنقية لقاء رئيس التحرير الذي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت ، فجلست في مكتبه لتحكي له عن القبض على زوجها أثناء مشاركته في إحدى المظاهرات التي يحرم على قيادتها أمام مبنى نقابة الصحفيين بوسط القاهرة..

أرادت أن تطلب مساعدة رئيس التحرير للإفراج عن زوجها الذي هو بطبيعة الحال يعمل صحفياً في جريدة " الأيام " وإذا لم يساعدها في الإفراج عن زوجها فمن يساعدها إذن؟.. ناجي يعرف زوجها عز المعرفة فهو زميله في المؤسسة وابن صحفى وروائي شهير راحل ذائع الصيت ، وتحولت معظم أعماله إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تلفزيونية.. لكن ابن هذا الرجل الشهير الذي هو زوجها إنخرط في جماعة الإخوان المسلمين على غير رغبة والده ولا مباركته ، ومن ساعتها أطلق لحيته وصار يقف على باب نقابته ممسكاً بالميكروفون يدعو للحرية ، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقيب ، ويحرم عليهن مشاهدة التلفزيون ويجبرهن على إرتداء النقاب.. بدأت السيدة تحكي قصتها مع زوجها الصحفي رهين الاعتقال الآن قائلة :

— لقد تسابقتم.. يا أصحاب الأقلام الصحفية كل واحد بأسلوبه ، وبقدر شجاعته للترحيب بإنقاذ شعب أفغانستان من عذاب عهد الجاهلية الذي عانى منه طوال سنوات عديدة ماضية ، ونشرت الصحف والمجلات العربية ، والفضائيات الأجنبية والعربية صور مظاهر الفرح والسرور التي عمت كل أرجاء أفغانستان بعد خلاص شعبها من نير الجهل ،

والتعصب الأعمى لكل الأديان السماوية، وإنقاذ المرأة الأفغانية من
تعنت الحاكم الأفغاني الجبار، وإصراره على إذلالها، واضطهادها،
والتحقير من شأنها، وحرمانها من كل ما أحله الله سبحانه وتعالى،
ومن كل ما نهى عنه شريعة الإسلام السمحة التي أعطت المرأة حقوقاً
أكثر من كل الحقوق التي حددتها باقي الأديان السماوية لنسائها.
لقد نشرت صحفنا، ومجلاتنا العربية، وفضائياتنا الإعلامية صور
المرأة الأفغانية، بعد استسلام حكم صبية الطالبان، وبعد هروب
جنباة تنظيم القاعدة، وهي تلقي على الأرض بالبرقع الذي فرض عليها
ارتداؤه، وتكشف بعد سنوات عديدة عن وجهها آملاً في استنشاق
نسمات الحرية بعد طول اختناق، وصورة أخرى للمرأة الأفغانية التي
عاودت ترددها على الكوافير بعد طول غياب، وصورة ثالثة وهي تترك
وجهها لأخرى تعيد تزيينه بالأحمر على شففتيها، و الرميل الأسود فوق
رموشها، ويحدد حاجبيها، والأزرق أو الأخضر تحت جفنيها، إيذاناً
ودليلاً على استعادتها لأبسط حقوقها في أن تتنفس وتتجمل وتزين
بعد أن تم تحريرها من الخيمة التي تتخفي تحتها، ومن الإحلام المادي
والنفسي الذي كرهها في الحياة ذاتها، وكثيراً ما ابتهلت إلى الله
تعالى في سرها وبعد أن يكون جلادها قد نام وشبع نوماً قاتلة:
ربي.. لقد خلقتني حرة، ووضعت لي أسلوب حياتي في الدنيا بحيث لا
أغضبك، ولا أعصي أوامر، ولا أكون عاراً على أهلي وبيتي وعشيرتي،
أما بعد أن أسلمنا حياتنا وأمورنا إلى الجهلاء بدينك وشريعتك.. فأحالوا
حياتنا إلى جحيم لا يقل في نيرانه ولهيبه ولسعائه المميتة عن جهنم
التي تحذرنا منها، فقد فقدنا أية رغبة في الحياة الدنيا التي لم نعد
نستمع بها، ولا نحرص عليها، ربي.. لا تغضب منّا إذا خالفنا أوامر، ولا
أقدمنا على الانتحار خلاصاً من الأهوال التي لم يعد في وسعنا، ولا
في استطاعتنا احتمالها، وفقدنا الأمل في اقتراب تحريرنا من أسوأ
أنواع الرق والعبودية التي تحرمها شريعة ديننا الإسلامي السمح الرحيم.

ولم تكتف أبواقكم الصحفية والتليفزيونية بالتهليل لتحرير المرأة الأفغانية، وإنما أسرفتم أيضا في التبشير بتحرير الرجل الأفغاني الذي حرّم عليه صبيبة طالبان ارتداء زي غير الزي الذي فرضوه، ومنعهم له من حلق لحيته والتبويه عليه بعدم تهذيبها، وحظر مزاوله الرياضة، أو مشاهدة الأفلام السينمائية، أو الاستماع إلى الموسيقى والأغاني إلى جانب وقف الإرسال التليفزيوني!

لقد نشرتم صورا عديدة لافتتاح صالونات الحلاقة في كابول وباقي المدن الأفغانية، وصورا ثانية للشباب وهم يلعبون مباراة في كرة القدم، وصورا ثالثة، ورابعة، و...و...وعاشرة لرجال يرقصون، ويضحكون، ويغنون، ويترددون على دور السينما التي أعيد افتتاحها، وعودة الإرسال التليفزيوني وظهور مقدمات برامج تليفزيون غير منقبات، ومقدمي برامج يرتدون الحلة، والقمص، والكرافت! وواصلتم في مصر وفي باقي الدول العربية مسيرتكم الجهادية ضد الإرهاب والإرهابيين، اكتفاء بالمقالات النارية، ونشر صور تحرير الشعب الأفغاني من الجهل والتعصب، وتهنئة بعضكم البعض على ما قتم به، باعتبار أن الإعلام يقدم للرأي العام ما يجري في الدول الأخرى، وليس ما يجري في بلده، وتحت سمع وبصر عياقة الإعلام، وأصحاب الريادة في بثه وكتابته وعرضه! ما أبشع ما قتمتم وتقومون به.. أيها السادة الإعلاميون العرب، والإعلاميون المصريون!..

أرجوك ألا تستعجلني..وآلا تمل بسرعة مما تسمع..هو مجرد مقدمة للقضية الحقيقية والأساسية التي أريد أن ألفت نظرك، ونظر الشعب المصري بصفة عامة إلى حقائقها، ووقائعها فعلى ما يبدو أنكم جميعا تعيشون في أبراجكم العاجية العالية جدا.. ولا يعنیکم إلقاء نظرة على ما يجري تحت أنوفكم. وثق يا أخي أن ما لا تراه، وما لا تسمعه تحت أنفك وبعيدا عن سمعك هو أشبه بالبركان المشتعل، الذي ينتظر أول فرصة للاندفاع بحممه

ليشعل الأرض كلها ناراَ ودماراً.. لن تتوقف لساعاتها على أجساد الفقراء والمحرومين والضعفاء في هذا البلد أو ذاك، وإنما ستمسك أول ما تمسك بأجساد الأثرياء والأغنياء الذين يتوهمون أن الأبراج العالية التي يحتمون بعاجها قادرة على منع النيران المتأججة من الوصول إليهم ولسعهم وحرقهم، وتحويلهم إلى رماد تتناثره أول نفحة هواء. أعترف لك أخي الكريم بأن المقدمة طالت أكثر مما يجب.. ولعاني قصدت بهذه الإطالة أن أثرد هشتك، وأكثر من لهفتك إلى معرفة النهاية التي أريد اقتيادك إليها.. فلو أنني كنت مياشرة في طرح مشكلتي، فمن المؤكد أنك ستعتبرها مشكلة شخصية. الذي أريد أن أؤكد لك أنني لا أطمع في كسب مساندتك، فأنت لا تملك مع إحترامي لقدراتك أن تساعدني في هذه المشكلة، فهي أكبر بكثير من قدراتك، أعلم أن صبرك عليّ قد نفذ، وأنت تحاول الآن أن تستعجلني لأصل إلى ما أسعي إليه، لكن أستحلفك بأغلي شخص لديك أن تتحملني أكثر مما تحمّلت. وثق أنني بعد أن أطلت في المقدمة، سأصل إلى النهاية أسرع مما توقعت!

حياتي بدأت عادية جدا، طفولة سعيدة بين أسرة بسيطة متدينة، وملتزمة بتعاليم ديننا السمح.

شاء حظي ألا أكون جميلة، ورغم ذلك لم أحزن ولم يمتليء قلبي بالغيرة من زميلاتي الجميلات في المدارس والجامعة التي تخرجت فيها، قلبي لم يعرف طوال طفولتي وشبابي غير الحب، وغير المشاركة في أفراح معارفي وصديقاتي، والحزن لأحزانهم. وشجعتني أسرتي على مزاولة العمل في وظيفة تتناسب مع دراستي، وتنفق مع ميولي. فكل أفراد أسرتي الصغيرة، وعائلتي الكبيرة، لا يفرقون بين الولد والبنت، وبالذات حقهما في العمل الذي يعتبر عبادة.. كما كنا نقول وحتى زمن قريب.

وتقدم شاب لطلب يدي..

أعجبتني فيه قوة شخصيته، وسلامة تفكيره وخفة دمه، وعدالته في كل موقفه.

فهو متدين.. لكنه لا يتزمت.

يرفض التبرج في زينة المرأة.. لكنه لا يستخدم في إقناعها إلا الكلمة الهادئة، والنصيحة الصادقة، ويترك لها بعد ذلك أن تقرر ما تراه، دون أن يعادياها، أو يفضيها، أو حتي يكرر نصيحته.

لم يعارض في البداية أن استمر في وظيفتي المتواضعة بإحدى شركات القطاع الخاص وسط عشرات من الرجال، فمن رأيه الذي حُبني فيه كثيرا.. وقتذاك أن الفتاة التي حسنت تربيتها دينياً واجتماعياً وأخلاقياً، لا يخشي عليها حتي لو ألقى بها في جبالية الذئاب. وأضاف قائلاً، ومطمئناً:

إنني أوافق على استمرارك في العمل، مادمت راغبة فيه. وإذا رأيت فيما بعد.. أن اهتمامك ببيتنا وبأولادنا القادمين إن شاء الله تعالى، قد يتأثر.. فربما تضطرين إلى تقديم استقالتك، والتفرغ لمهامك الأكثر سموً، فساكون أول من يؤيدك وأول من يشجعك. كلمات طيبة.. ومواقف نبيلة.. بهرت بها، وزادت من حماسي للموافقة عليه زوجاً متفهماً، وهديقاً متجاوباً، ورب أسرة يحرص كل الحرص على أن يسعد شريكته في الحياة، ويوفر لها كل ما تحتاجه من حب، وثقهم واحترام. وسبحان مغير الأحوال..

فقيل انتهاء مايسمي شهر العسل.. فوجئت برجل جديد لم أعرفه من قبل، وشاءت الأقدار أن أعيش معه تحت سقف واحد حتي آخر لحظة في عمري. الابتسامة التي كانت لا تفارقه أصبحت نادرة ومنقرضة.

سمحته التي جذبتني إليه خلال شهور الخطبة تبددت فجأة، وتحولت في يوم

وليلة إلى ثغنت، وتسأط واستجواذ، وديكتاتورية لم أسمع طوال حياتي يمثل فرماناتها التعسفية، وقراراتها التي لا تسمح بأي نقض أو إبرام!

بعد أسبوع واحد من الزواج، طلب مني الجلوس أمامه ليسمعني أوامرهم: أولا: يجب قطع علاقتك بالعمل نهائيا. ليس مطلوباً منك تقديم استقالتك، وإنما المطلوب فقط أن تتغيب عن عملك بدون عذر، حتي يتم فصلك بعد غياب ٥ أيوما.. طبقا لقانون العمل، ودون الحصول على أي حق من حقوقك، لأننا لسنا في حاجة إليها.

ثانيا: لم تحظ من الطبيعة بلمسة جمال، وعليك الاعتراف الآن بأن مستحضرات التجميل الصناعية لن تحقق لوجهك ما تحلمين له به.. يكفيك إنني قبيلتك على حالتك، ورضيت بمواصفات وجهك وثقل جسديك، وهذا يكفيك.. مطلوب منك التخلص فورا من كل هذه المويقات التي تضعينها تحت مرآة الشوفينيرة، من أحمر وأزرق وأخضر وأسود. أريدك كما خلقك الله، بدون تزويق ولا تجميل زائف. لقد رضيت به رغم دمايتك، ورغم ترهل جسمك.. وفي المقابل فإنني أنتظر أن تحافظي على ما وافقت عليه، وأن تشكريني على ما رضيت به، وكان يمكن أن يرفضه غيري من الرجال.

ثالثا: أعلم أن وجهك لا يلفت أنظار الرجال، لكن لا أحد يستبعد أن بين الرجال من يلهثون وراء أية أنثى نظيفة أو قذرة، جميلة أو قبيحة، نحيلة أو سميكة، متدنية أو متحلة، شابة أو كهلة، وهذه النوعية من الرجال المنتشرة للأسف الشديد في مجتمعنا المصري الكافر الحالي يجب الابتعاد عنها، ويجب بالنسبة لك أنت بالذات عدم إثارة شهوة واحد منهم، والوسيلة الوحيدة لهذه الغاية هي ارتداء ما يخفيك عن أنظارهم الفاجرة، ويحميك من شهواتهم الحيوانية.

رابعا: لقد عشت طوال سنوات طفولتك وشبابك وأنت سافرة الوجه، مكشوفة شعر الرأس.. وهذا ذنب جسيم سيحاسب عليه أبوك وأمك وأخوتك الرجال، قبل أن تحاسبني عليه.. لقد كنت ضحلة التفكير، وضئيلة الإيمان،

ومهووسة بما يعرضه التلفزيون من موبقات وخطايا لا يقبلها دين أو عرف أو شرف! إن الله رحيم وغفور لعباده..ومن حسن حظك أن الله سبحانه وتعالى قد منحك فرصة عمرك بطليبي يدك، لأنقذك من عذاب جهنم الذي كان مصيرك لا محالة لو أنك تزوجت من رجل غيري لا يؤمن بما تؤمن به، ولا يهيمه ختام حياتك كما شاء قدرى أن أهتم به. مطلوب منك ابتداء من هذه اللحظة أن تقومي بعد انتهائي من هذه الجلسة بتمزيق كل ملابسك، وحرق كل أثوابك الحريرية الخارجية منها والداخلية وتحضري خياطة لتفصل لك الثوب الوحيد الذي يجب على المرأة المسلمة ارتداؤه داخل بيتها، وخارجها.. لقد أجمعت الآراء حول مواصفات هذا الزي الإسلامي نقلا عن الرواة، وبداية من رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إنه الثوب الذي يغطي جسد المرأة من أخصص قدميها حتي أعلى شعرة فوق رأسها.. لن أقبل بالحجاب الذي يثير أكثر مما يحصن، ولن أقبل بأثواب ملونة غير اللون الأسود، ولا أسمح بأيدي عارية دون جوانتي من الصوف الأسود أو الأبيض يخفي اليدين، إلى جانب الشراب السميكة الأسود الذي يخفي القدمين قبل إدخالهما في الشبشب أو الحذاء.. الثوب الإسلامي الأكيد هو الذي لا يسمح بأكثر من ضربة موسى واحدة، وزفيعة بعرض مساحة العين يمينا ويسارا يمكن من خلالها الرؤية التي تحمي من الاصطدام بأي عائق أمامك.

وهالني ما تلقيته من فرمانات لم تكن تخطر على بالي، ولا على بال كل من عرفتهم، وعشت بينهم، وصادقت معهم، وسمعت عن أحوالهم من جيراننا..القرييين منا أو البعيدين عنا.

لقد رفضت هذه فرمانات كلها.. وعدت إلى بيت أهلي أشكو لهم مما فوجئت بسماعه، وفزعني مما يطالبني به الرجل الذي لم أكن أعرف حقيقته قبل أن أدخل بيته، وأنام على سريريه، وأعيش تحت سقف بيته. وفزع أهلي، بقدر فزعني..

غضب أبي، أكثر من غضبي..

وبكت أمي، كأقصى ما يمكنها تقديمه لمساعدتي، ومساندتي..
وأجمعت الآراء على استعالة الاستمرار في حياة مع مثل هذا الرجل، وصمم
أبي وأمي وأخوتي وأعمامي على طلب الطلاق، ويادار ما دخلك شر.
والتقي أبي وشقيقه الأكبر مع زوجي.. وقالوا له مالم أستطع أن أصارحه
به، وهو يصدر لي فرماناته.. الواحد بعد الآخر.

وبعد انتهاء اللقاء.. عاد أبي وعمي لينقلا لنا نتيجته، فقال أبي نقلاً عن
زوجي إن الرجل فوجيء بثورتنا عليه، وأنه كان ودوداً إلى أقصى درجة،
وأن هدفه الأوحده من وراء فرماناته الأربعة حرصه على حمايتي، وحفاظاً
على قناعاتي الدينية.. لا أقل ولا أكثر!

ولا تسيء الظن بي إذا علمت أنني وافقت على ماقاله أبي وعمي، وتماشيت
مع تبريرات زوجي الذي كنت وقتها أسيرة حبه، ومصدقة لمعظم أفكاره
المغلقة برقائيق سماحته، ونبل توجهاته.

أرجوك.. لا تلمني إذا اعترفت لك بأنني وافقت بعد عودتي إلى منزله على
فرماناته الأربعة، بكل دقائقها وكل غرايبها، وكل تبعاتها:

(١) إنقطعت عن عملي بدون عذر لأكثر من ١٥ يوماً، ولم أرد على
مكالمات واتصالات وخطابات إدارة الشركة التي كانت حريصة حتي
آخر لحظة على الاحتفاظ بي موظفة جديرة بتحمل مسؤولية ما كُلفت به
من عمل ومسؤوليات.

وفي النهاية.. وصلني خطاب الفصل، الذي سعد به زوجي سعادة كبيرة،
وصمم على الاحتفال به بطريقته المعتادة التي كانت تسعدني في احتفالاته
قبل وصول هذا الخطاب الحزين على قلبي، وعلي إحساسي بآدميتي
ووجودي كعضو عامل في المجتمع.

(٢) رميت في كيس الزبالة بكل مستحضرات التجميل، ولم أعد أفعل

بوجهي أكثر من غسله بالماء ، الذي يتكرر خمس مرات يومياً.. وقبل كل صلاة.

(٢) وزعت كل ملابسني على المحتاجين لها ، وبعضها حصلت عليه شقيقاتني ، وبعض صديقاتني.

(٤) جاء زوجي بخياطة منقبة ، لم أر وجهها حتي هذه اللحظة ، رغم مرور أكثر من عشرين عاما على تردها سنويا على بيتي ، وأصبحت مصدرى الوحيد أمس واليوم ، وغدا للحصول على الثوب الديني طبقا لشريعة الله.. كما أكد لي زوجي الذي يتوهم أنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ الفتيات والنساء المسلمات من أخطائهن وخطاياهن! أثواب عديدة لا تفترق عن الشوال الذي يخفي كل بوضة من جسدي ، ما عدا ضربة موسى بطول عيني.. شمالاً ويمناً وبلونين لا شريك لهما.. اللون الأسود واللون الأبيض. الأول للخروج والثاني للبقاء داخل منزلي! لا تتعجب.. فالنقاب يجب الالتزام بارتدائه طوال الساعات التي أمضيها في البيت ، ليس باعتباري عورة بالنسبة لزوجي المتدين ، وإنما لأسباب أخرى ، سيأتي ذكرها لاحقا.. ولن تكون مقنعة لك ، تماماً كما أنها لم تكن مقنعة لي ، ولا لكل من سمع عنها.. من أقاربي ، ومعارفي والغرباء عني!

(٥) لقد عشت مع زوجي ما يقرب من ربع قرن من الزمان ، وأقسم لك سيدي الكريم إنني لم أنعم ، أو أسعد معه أكثر من أسبوع واحد خلال هذه الفترة الطويلة جداً من أغلي وأعز سنوات شبابي الذي ضاع هدراً ، وكبتاً ، وتعتيماً ، وإظلاماً ، وعذاباً.. لا أول له ولا آخر!

وأسباب هذا العناء كله يمكن تلخيصها في الوقائع التالية ، رغم حرصني الشديد على اختصارها في نقاط محددة ومعدودة حتي لا يزداد مللك ، وقد يتسبب في نفاد صبرك حتى لا أنسي.. أحب أن أبغك بأنني الآن أم لستة أطفال: أربع بنات ، وولدين ، في جميع مراحل التعليم من ابتدائي ، وإعدادي ، وثانوي ، وجامعة.

فزوجي ربما يهديه الله لا يري في الزواج أكثر من أنه يحقق المتعة التي يبررها زيادة نسل أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ولولا أنني بلغت الآن منتصف الحلقة الخامسة من عمري ٥٣ سنة لما قنع بالأولاد الستة، ولو كان في استطاعته لضاعف عددهم مرات ومرات!

الذي يهملك كما أعتقد أن زوجي غفر الله له، وسامحه وهداه أصدر فرمانا فور انتهاء أسبوع العسل يقضي بحظر الضحك في شقتنا.. وتحريم إظهاره أو سماعه، أو حتي رؤيته! فالضحك كما أكد لي صفة من صفات الشيطان الذي لا هم له، ولا هدف غير إفساد المؤمنين المسلمين!

فور انتهاء ما يسمي: أسبوع العسل.. اختفت الضحكات من وجهي ووجه زوجي كما لم يجرؤ أحد من زوار شقتنا الكبيرة المتعددة الغرفات على الضحك أو حتى الابتسامة.. كي لا يخضع لعقوبة فرمان حظر دخوله مرة أخرى إلى شقتنا! تخيل حجم الكآبة التي خيمت تحت سقف غرف شقتنا نتيجة للالتزام بتنفيذ فرمان يحظر ويحرم الضحك تطبيقا لتعاليم زوجي الذي يزعم أنها مستوحاة من تعاليم وينود ونصوص الشريعة الإسلامية.

وتخيل أيضا كيف يكون بيت يمتليء بالأطفال الصغار، ويحظر فيه الضحك، أو اللعب لأن قراقوش عصره وزمانه منع أولاده بدءاً من سن الرابعة من الضحك، أو اللعب، وجاء بشيخ ضرير ليحفظهم القرآن طوال ساعات النهار بما فيها الدقائق التي تجتمع خلالها حول المائدة لتناول وجبتي الغداء والعشاء.

أطفال لم يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية.. ولم يعرفوا بعد الفرق بين الألف و الباء، ورغم ذلك أجبرناهم على ترديد وحفظ ما ينطق به الشيخ الضرير دون أن يفقهوا كلمة واحدة مما يحفظونه عن ظهر قلب، ويرددونه ويكررونه لساعات وساعات. فوجئت به يطلب مني تغطية شعر الطفلة بمجرد بلوغها سن الرابعة، ثم النقاب بعد بلوغها سن السابعة وما بعدها. وحتى أكون قدوة

لبناتي، فقد أمرني بإرتداء النقاب الأبيض داخل المنزل، ولا أخلعه أبدا أثناء قيامي بالأعمال المنزلية من تنظيف وغسيل وطبخ، حتي لا يشجع ذلك بناتي على خلع النقاب خارج المنزل وبعيدا عن عيوننا! نسكن في شقة كبيرة مكونة من ٥ غرف وصالة واسعة، وهناك جهاز تسجيل في كل غرفة، وكل ركن وفي الوقت نفسه لا يوجد أي جهاز تليفزيون، أو جهاز راديو، لأن كلا الجهازين بدعة يحرمها الدين، وتبليل أفكار الأولاد والبنات، وتصرفهم عن الهدف الأوحد من وراء خلقهم في هذه الدنيا الفانية.

أجهزة التسجيل وحدها المسموح بتشغيلها طوال ساعات النهار، وحتى نأوي إلى فراش النوم. هناك أكثر من جهاز خصصه زوجي لسماع آيات القرآن الكريم، وباقي الأجهزة مخصصة لإذاعة أحاديث علماء الدين، ودعائهم من المصريين والعرب.. لدينا مئات من هذه الأشرطة التي يزداد عددها، أو يتناقص تبعا لأسباب أصبحنا نعرفها، ونتوقعها في أية لحظة.

فعلي سبيل المثال.. لا الحصر:

كان زوجي من أكثر المتحمسين لشرائط الداعية الإسلامي المعروف (حسان الحساني) وكثيرا ما كان يجمعنا لسماع أحاديثه، وخطبه، وتفسيراته لكل ما يهتم به المسلم المؤمن الملتزم في حياته اليومية. وكثيرا ما كان يثني على ابن أو ابنة من أولادنا إذا حفظ هذا الابن، أو تلك الابنة مقاطع من خطب وكلمات وتفسيرات الداعية (حسان الحساني) وكانت المكافأة الوحيدة والمعتادة لهما هي منحهما المزيد من الأشرطة الجديدة للداعية الإسلامي المعروف. مرت سنوات عديدة. وحفاوة زوجي بأشرطة (حسان الحساني) تتزايد، وتتضاعف، شريطا بعد شريط إلى أن فوجئنا ذات مساء بزوجي يعود إلى المنزل مكتئبا وثائرا وساخطا وانهال سبا وشتما، وتجرى في هذا الداعية!

لم نجرو بالطبع على سؤاله عن سبب ثورته على شيخه المفضل، فقد اعتدنا أن نترك له حق تفسير مايقوله أو الامتناع عنه. وبعد وصلة الهجوم

العنيف على الشيخ انتقل زوجي في حديثه الغاضب والساخط إلى تقديم مبرراته التي أنصت لها دون مقاطعة ، أو مشاركة في وصلة الغضب والسخط والشتم.

تحدث زوجي قائلاً: تصوّروا.. لقد طلع هذا المذكور نصاباً فاسداً ومتعللاً! لقد سجلت له وزارة الداخلية شريط فيديو ظهر فيه المذكور بالصوت والصورة في أوضاع مخلة بالدين والأدب ويستحق عليها شنقه في ميدان عام! وعندما استدعوه إلى مقر مباحث أمن الدولة وعرضوا عليه الشريط.. إنهار، وبكي، ورَكَع ليقبل حذاء الضابط الكبير، ويستحلفه بأغلي ما عنده أن يستر فضيحته، مقابل أن يفعل أي شيء وكل شيء يطلب منه، بما في ذلك استعداده الفوري للهجرة نهائياً من مصر وعدم العودة إليها حتي آخر يوم في حياته.. وتركه ضباط مباحث أمن الدولة فترة طويلة يعلن خلالها عن ندمه على ما قام به، وطلب منهم الرحمة به وبأسرته من الفضيحة المدوية التي ستصدم الملايين الذين يعجبون به، ويحرصون على سماعه في المساجد، ويدعونه إلى زيارتهم في بيوتهم ليهديهم بما لم يستطع أن يهدي به نفسه! وفي النهاية.. تعطف الضابط الكبير على الكافر المنحل النصاب الذي يتدثر بعباءة الشيوخ والعلماء الأجلاء فوافق على عدم عرض الشريط المخجل على الملأ، وطلب منه عدم الهجرة والبقاء في مصر بشرط واحد هو أن يتواري عن الأنظار، ويتوقف نهائياً عن انتحال صفة الداعية الإسلامي التي هو أبعد الناس عنها، وآخر من يمكن أن يتقمصها. وظهرت آثار الصدمة الهائلة وملامح الحزن العميق على وجوهنا جميعاً، ولم تصدر كلمة واحدة منا تعليقاً على ما سمعناه... ولم يكن زوجي ينتظر سماع أي تعليق على ما قاله فهو يكتفي عادة بإبلاغنا بالحدث، ثم يعلمنا بعد ذلك بقراره، وما علينا إلا التنفيذ. صمت زوجي قليلاً.. ثم أمرني بإحضار الحلة الكبيرة! فسارعت إلى المطبخ دون أن أسأله بالطبع عن سبب طلبه الحلة، فقد تعودت مراراً على هذا الطلب، وأعرف مقدماً الغرض منه.

جئت مسرعة بالحلة الكبيرة، ووضعتها على الأرض وسط غرفة الجلوس، وطلب زوجي من ابني الكبير أن يأتي بكل أشرطة الداعية الإسلامي المنحل من مكتبة الأشرطة التي تشغل حيزاً كبيراً من حوائط كل غرفة من غرف شقتنا الكبيرة. وكان الحمل ثقيلاً على ابني فاحتاج إلى سواعد أبنائي وبناتي الستة لمعاونته في حمل عشرات الشرائط للداعية المنحل!

وعندما تجمعت أكوام الشرائط على المائدة وعلي الشلت الموزعة داخل الصالة الكبيرة.. نسيت أن أقول لك أن زوجي باع غرفة الصالون.. المقاعد والفوتيل والكنبة لأن السلفيين العظماء كانوا يجلسون على الأرض، ولا بأس من الاستعاضة عنها بالشت في عصرنا الحديث، وقام صاحب الأمر والنهي الأوحده في بيتنا بإحصاء عدد الأشرطة ثم قسمها على أفراد الأسرة بالطريقة الشرعية للذكر ضعف حظ الأنثى، وطلب منّا إلقاءها شريطاً بعد آخر داخل الحلة الكبيرة، ثم سكب فوقها الكيروسين، وألقي بعود كبيرت مشتعل فوقها، لتتصاعد ألسنة النار، وتمتلئ الغرفة بالدخان والرائحة المنفرة من الأشرطة المحترقة، وكنا نردد وراء كبير العائلة أدعيته، وكلها تبتهل إلى الله بسرعة توقيع العقاب على الداعية المنحل الذي خدعنا وخدع الملايين معنا. لم يكن الداعية المنحل (حسان الحساني) هو أول أو آخر من عرفت أشرطة طريقتها المحتوم داخل الحلة الكبيرة، فلقد سبقه كثيرون من الدعاة الكبار، وكم أحزنني اليوم الذي ظلم فيه زوجي داعية إسلامياً كنت وما زلت مؤمنة بأنه أعظمهم وأتقاهم وأزهدهم حياة وأخشاهم لله، ورغم ذلك كله صدق زوجي وشاية كاذبة زعم له صاحبها أن فضيلة الشيخ (حسان الحساني) يعيش عيشة المترفين المبذرين، ويسكن قصرًا منيفًا، وأنه بالإضافة إلى ذلك يوافق الحكومة، ويسعى إلى التقرب منها، ويمتنع عن كشف كفرها، وفضح قوانينها التي تتعارض مع تعاليم ونصوص الشريعة الإسلامية، مما استحق الامتناع عن ذكره، أو الاستماع إلى مايقوله في

الأشرطة التي احتفلنا ذات مساء بحرقها داخل الحلة الكبيرة!

وفي هذا العام فقط، حدثنا زوجي عن شاب صغير السن تخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويرتدي أحدث بدع الأزياء الأوروبية، وأنه أصبح فجأة داعية من دعاة الإسلام، وأن السيدات الثريات يتسابقن إلى حضور الجلسات التي يعقدها لتعليمهن حقائق الدين الإسلامي.. وعلق زوجي بعد ذلك قائلاً: يكفي أن تعلم أن هذا الغلام تخرج في الجامعة الأمريكية حتى نحكم عليه بأنه دسيسة أمريكية هدفها تشويه ديننا الحنيف في أذهان السامعين! ويكفي أيضاً أن هذا الغلام يجد قبولاً من السيدات اللاهيات السافرات المتعطرات اللاتي ترددن على منازل الغرياء عنهن بزعم الاستماع إلى مايقوله لهن هذا الغلام من خزعبلات ترضيهن، ومحرمات يحلها لهن حتى نتأكد من أن الحكاية كلها لا تخرج عن كونها فسق في فسق، لا يرضاه الله ورسوله الكريم.

وفهمنا من حيثيات الحكم الذي أصدره زوجي ضد هذا الداعية الغلام أنه لن يحضر لنا أشرطة لسماعها كما تعودنا منه مع كل الدعاة الجدد الذين سمع عنهم، واستمع إلى أقوالهم ووافق عليها ورضي عنهم مقدماً. وبعد شهور عديدة.. فوجئنا بزوجي يجمعنا من حوله ليقول:

يبدو أنني ظلمت الداعية الشاب.. فقد تأكدت بنفسي من أنه مخلص في جهاده من أجل نصرة ديننا الحنيف، وأن هدفه الحقيقي هو هداية الفتيات والنساء السائرات على حل شعرهن! وكان من الذكاء بحيث أنه حرص على الظهور كشاب أوروبي يرتدي البدلة ويخلق لحيته حتى تطمئن النساء السافرات إليه، ويجلسن أمامه ليسمعن حديثاً هادئاً فيه من المسموحات أكثر بكثير من الممنوعات، وجلسة بعد أخرى يبدأ الداعية الداهية بعد أن كسب ثقتهن، ونال إعجابهن، وسيطر على عقولهن في الكشف عن حقيقته كداعية إسلامي متشدد، وكواعظ ديني متمكن، وسمعت أن العشرات من الفتيات السافرات

حرقن أثوابهن العارية الفاجرة ، وتحجب بعضهن وتثقب البعض الآخر .
لقد رفضت شراء أشرطته الأولى التي يمؤه بها ، ويظهر خلالها في صورة
غير حقيقية.. أما الأشرطة الأخيرة فهي مختلفة تمامًا وجئت لكم ببعضها
حتى نستمتع إلهها ثم نتناقش حول أقواله وأحكامه.

أذكر أن ابنتي الكبرى سألت أباهذا ذات يوم:

لماذا يا والدي لا تحضر لنا أشرطة كبار علماء الدين مثل فضيلة شيخ
الأزهر وفضيلة مفتي الديار المصرية ، وأساتذة جامعة الأزهر الذين سمعت
خالي بيدي إعجابه بأقوالهم في الإذاعة والتلفزيون؟

فوجئت بزوجي يرد على ابنتنا بأغرب إجابة كنت أتوقعها قال:

هؤلاء من عملاء الحكومة الكافرة يأترون بأوامرها ، وينطقون بلسانها.
إن خالك من الجهلاء الذين لا أمل في هدايتهم ، لذلك نراه يجد بغيته فيما
يسمعه من أحكام عملاء الحكومة الذين يحلون الحرام ، ويفسرون كلام
الله على غير ما أنزل به! لا مكان في بيتي لأشرطة هؤلاء.

توقفت السيدة لحظات ثم قالت: أكرر رجائي بمزيد من صبرك على
ثرثرتي..

لقد شرحت لك باختصار مخل عن حياتنا اليومية داخل بيتنا ، والآن حان
وقت الحديث عن قضايا أخرى تحظى هي أيضًا بقرمانات زوجي التفسيرية:
يرى زوجي أن التعليم حتى آخر مراحلها.. يصلح للابن الذكر ، ولا فائدة منه
للابنة الأنثى.. وحجته في ذلك أنني زوجته تعلمت وتخرجت في الجامعة ، ثم
تفرغت فور زواجنا لإنجاب الأولاد وتولي مسؤولية تربيتهم التربية الإسلامية
البعيدة كل البعد عن تربية المجتمع الكافر الذي نرفضه ، ونضطر إلى
الانتساب إلهه رغما عننا وعلي أمل السعي الدؤوب مع غيرنا من المسلمين
المؤمنين الحقيقيين لتغييره ، وإنقاذه من عذاب جهنم الذي ينتظره!

لقد وافق زوجي على تعليم أولادنا من الذكور في المدارس والجامعات..
الابن الأكبر حاليا في منتصف دراسته الجامعية ، والأصغر في نهاية

المرحلة الثانوية. أما بناتنا الأربع.. فقد اختار لهن معهداً دينياً قريباً من منزلنا ليتعلمن فيه ما لا علم لي ولا له به من تعاليم الدين وشريعته.. هذا المعهد عبارة عن شقة في الدور الأرضي لا يقبل غير الفتيات الصغيرات، ولا علاقة بين ما يُدرّس في فصوله وبين مناهج التعليم الحكومية، وبالتالي فإن الشهادة التي يمنحها في نهاية المرحلة الدراسية لا تجد من يعترف بها أو تساوي أكثر من ثمن الورق الذي كتبت بياناتها عليه. الابنة الكبرى، والابنة الثانية أنهتا دراستهما الابتدائية في هذا المعهد، ثم انتهت علاقتهما به، وقرر زوجي بقاءهما في البيت، وجاء لهما بالشيخ الضرير ليواصل تعليمهما الديني الذي يجب ألا تحصلا عليه خارج جدران المنزل، أما الابنتان الثالثة والرابعة فهما في سن تسمح لهما بالتردد على المعهد الديني إلى أن تعودا نهائياً إلى البيت بمجرد الانتهاء من المرحلة التعليمية الدينية الابتدائية. لا تسألني ما الذي تعلمته بناتي؟ ولا تسألني أيضاً عن جهلن المطبق بكل شيء وأي شيء مما تقدمه مناهج وزارة التربية والتعليم في مدارسها الحكومية المجانية.. ولا أقول عن مناهج المدارس الخاصة التي تفوق مدارس الحكومة في نوعية موادها، وحداثة مناهجها.. إن بناتي الأربع لا يعرفن - الكبرى متهن قبل الصغرى - أكثر من فك الخط، وإن كن يحفظن الكثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وبعض فقرات مطولة من أحاديث ومواعظ الدعاة الإسلاميين من خلال انصاتهم الدائم لما يسمعهن طوال ساعات النهار من الأشرطة التي حدثتك عنها من قبل. والأمر يختلف بالنسبة لولدينا الشابين اللذين يواصلان بتفوق ملحوظ الدراسة المنهجية في المدارس الحكومية وجامعتها، ويستقطعان كل وقت وجودهما داخل المنزل وحتى لحظة نومهما في مشاركة شقيقاتهما الاستماع إلى الأشرطة، وقيام الأخ الأكبر بامتحان شقيقاته فيما تعلمنه وحفظته أولاً بأول.. ويقدم للأب بعد عودته من العمل نتيجة هذه الاختبارات اليومية، فيكافئ الحافظة الناجحة بشريط جديد، ويعنف التي لم تحفظ جيداً مستخدماً في ذلك لسانه ويده وعصاه وحزامه الجلدي!

في البداية كنت أشفق على الولدين من الحياة التي فرضت عليهما ، وكنت أبكي بحرقة وأنا أراهما محرومين من اللعب مع أولاد الجيران ، ومنعهما من التردد على النادي في أيام الجمعة والأجازات ، ورفض ذهابهما إلى دار السينما إلى جانب حرمانهما من وجود جهاز تليفزيون يشاهدان برامجه ، وعدم وجود جهاز راديو يستمعان إلى ما يذيعه من نشرات أخبار وبرامج وموسيقى وغناء! وفي بعض الأحيان ومن فرط إشفائي عليهما ، كنت أنتهز فرصة خروج زوجي إلى عمله فأصحبهما لزيارة إحدى جارائتي في نفس العمارة للعب مع أولادها ، ومشاهدة برامج التليفزيون ، والاستماع إلى موسيقي وأغنيات منبعثة من جهاز الراديو ثم توقفت هذه الزيارات الخاطفة فور علم زوجي واعتراف الابن الأكبر بها فأنزل زوجي عقابه الشديد عليّ ، وعلي الولدين اللذين لا ذنب لهما! هل تصدق أننا لا نعرف ما يجري في الدنيا خارج حدود شقتنا إلا ما نسمعه من أخوتي وأخواتي؟

وهل تصدق أيضا أنه لا وسيلة لنا بالاتصال بهؤلاء الأخوة والأخوات إلا إذا جاءوا لزيارتنا ، وبتصريح مسبق من زوجي؟

لقد حرمتنا من ترف التليفون حتي لا نتعرض للمعاكسات! واكتفي زوجي بالتليفون المحمول الذي لا يفارق الجيب الأعلى من جلبابه طوال اليوم ، ويضعه بجانب مخدته خلال ساعات نومه ، ولست في حاجة لأقول لك إنه محظور علينا استخدامه أو حتي الرد على مكالماته فهذا تحصيل حاصل.

وقد تسألني: ما الهدف الذي حدده زوجي لي ولأولادي؟

الهدف ببساطة شديدة إنقاذ أرواحنا في الآخرة بشرط واحد أن نلتزم بكل أوامره ، ونؤمن بكل أفكاره ونبتعد عن كل المحظورات التي يتزايد عددها يوما بعد يوم.. في مواجهة التحديات والبدع الإنحلالية التي تحيط بنا من كل جانب ، وفي كل مكان كما يقول. الممنوعات التي فرضها علينا ، تكون ضرورية من وجهة نظره لتعزيز إيماننا ،

والفوز برضاء الله سبحانه وتعالى ، وربما تفتح أبواب الجنة أمامنا لننعم بها إلى أبد الأبدين.. كما أن النفور من قائمة المحرمات الطويلة التي يمارسها الكافرون والكافرات في الدنيا الفانية هو وحده الذي يمكنه حمايتنا من مصير هؤلاء وأولئك الذين اشتروا دنياهم ، و باعوا آخرتهم بأبخس ثمن ، وكثيراً ما أوصانا بأن نبذل كل مافي وسعنا واستطاعتنا من أجل هداية قريبتنا وجاراتنا ونساء وبنات حينما حتي تتضاعف حسناتنا ، وتثقل كفتها أمام كفة أخطائنا وخطايانا في ميزان يوم الحساب وهوأت لاريب في ذلك. وقمنا بتنفيذ كل أوامره والتزمنا بحرفيا بأفكاره كلها ، وبذلنا كل مافي استطاعتنا من أجل هداية وإنقاذ كل من دخل بيتنا أو قمنا بزيارتهم في منازلهم. وأعطيت زوجي لعمليتي الهداية والإنقاذ كل ما تستحقهما من اهتمام ومتابعة ومحاسبة. والأمثلة عديدة:

قال لي ذات يوم فور عودته من عمله:

جارتك أم فلان.. رأيتها اليوم أمام باب شقتها شبه عارية تتحدث إلى رجل! إذهبي إليها غدا بعد أن تتأكدي من غياب زوجها وأولادها وابذلي كل مافي وسعك لهدايتها ، وإنقاذها مما هي فيه.

في اليوم التالي أرسلت صغري بناتي مرتدية نقابها لتستأذن جارتني أم فلان في زيارتي لها لعدة دقائق، وبعد الاستئذان والتأكد من عدم وجود الجنس الآخر في الشقة جلست مع جارتني، وفوجئت بها ترتدي فستانا عاديا محتشما ترتديه عادة داخل منزلها ، وهو نفسه أو مثله الذي كانت ترتديه بعد ظهر أمس، عندما فتحت باب شقتها لتدفع حساب النور لموظف وزارة الكهرباء!

لقد مررت بنظري على جسم جارتني بحثا عن العري الذي فزع منه زوجي، وأكد أنها كانت شبه عارية أمام رجل غريب فلم أجد أي جزء عار غير وجهها ، ويديها وفيما عدا ذلك كانت مغطاة برداء كامل، وحتى شعرها كان مخفيا تحت الحجاب الأبيض الذي تحرص عليه عند الخروج، أو عند

استقبال ضيوف في منزلها!

لم أعلق ولم أتهم زوجي بالكذب أو المبالغة في وصفه المهين لهذه الجارة الفاضلة.. على العكس من ذلك تهمت ماقاله وعذرته في اتهامه. فمن رأي زوجي الذي يؤمن به ويؤكد ويكرره، بمناسبة وبدون مناسبة: أن المرأة العارية هي التي تسمح للرجل الغريب كهلاً أو شاباً أو طفلاً أن يري أي جزء من جسدها أو وجهها أو حتي خصلة واحدة من شعرها! ورغم عدم اقتناعي بهذا الرأي الغريب جداً، والمرغوض قطعاً من أي عقل متحرر أو نصف متحرر إلا أنني لم أعترض عليه.. ليس فقط خوفاً منه، وإنما حتي لا أصدم بناتي اللاتي يتعذبن ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة من فرمانات أبيهن ولا أريد لهن بالتالي الوقوف إلى جانبي ضد أبيهن.

هذه المشاعر والأحاسيس كلها دارت في مخيلتي وأنا جالسة أمام جارتي المسلمة المؤمنة المهيبة التي تفهم حقائق ديننا، وتحرص على تعاليمه السمحة، ورغم ذلك وصفها زوجي بأنها تستقبل الغريب.. شبه عارية لا لشيء إلا لأنها اكتفت بالحجاب، ولم تأخذ بالنقاب!

تناسبت هذه المشاعر والأحاسيس والاعتراضات كلها.. وركزت همي في تحقيق الهدف من وراء زيارتي طبقاً لأوامر وتعليمات زوجي والذي يعتبره هدف حياته الأوحـد في هذه الدنيا الفانية.. وسألت جارتي سؤالا أكثر الناس رفضاً له ومعاناة منه:

لماذا لا تتقيي يا أم فلان؟

فوجئت جارتي بهذا السؤال الغريب والعجيب والمستفز لها ولي قبلها، وللملايين من السيدات والفتيات المصريات. وبدلاً من أن تجيب عن سؤالي تجاهلته وسارعت بسؤالي:

— ولماذا يجب علي أن أتقَّب؟ هات لي آية قرآنية واحدة، أو أي حديث نبوي صحيح، وغير مدسوس يفرض على المرأة المسلمة والمؤمنة والملتزمة بتعاليم دينها والحريضة على نصوص شريعته ارتداء ما يسمى بالنقاب.. إن

الدين كما تعرفه يسر لا عسر، والإظلام الذي يفرضه هذا النقاب على من ترتديه نفسيًا، وإنسانيًا، وحضاريًا، وصحيًا، واجتماعيًا يتعارض جملة وتفصيلاً مع ألف باء ديننا الإسلامي الصحيح، وليس المفتعل أو المزور أو الذي أفتي به المعقدون، والمهووسون والمتحجرون الجهلاء... ممن تتزايد أعدادهم في مصر لسوء حظ شعبها يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى.

ولم تكتف جارتني أم فلان بما لم تصدمني مكاشفتي به، وإنما أضافت إليه قائلة:

إنني كثيراً ما بكيت على حالك وعلي حال بناتك... وولديك. فكلنا في العمارة نسمع ونألم وندهش مما تعانون منه على يد زوجك.. لقد تحدثنا كثيراً عن هذه المأساة، وقد سألتني زوجي مندحشاً ومستغرياً: لماذا تقبل جارتك البقاء مع هذا الرجل؟ لماذا لا تترك بيته وتعود إلى بيت أبيها، أو إلى أي مكان آخر.. فمهما تدني مستوي المعيشة في هذا المكان، سيكون بالقطع أرحم، وأخف وطأة وإذلاً مما تعانیه حالياً في شقته؟ ولم أجد رداً مقنعاً على سؤال زوجي فأنا شخصياً لا أتصور ولا أصدق.. في نفس الوقت كيف يمكنك احتمال ما تتحملينه؟ ولا أعرف في الوقت نفسه لماذا قبلت أن يحرم أطفالك أبسط حقوقهم، وأولها حرمانهم من الضحك واللعب واللهو مع غيرهم من الأطفال؟ قد لا تصدقين إذا قلت لك أنني وزوجي وأولادي، وكل سكان العمارة بلا استثناء لا حديث لنا غير السخط على زوجك، والتعاطف مع أطفالك، وفي الوقت نفسه نسخط عليك لأنك وافقت على العيش يوماً واحداً مع هذا المخلوق الذي لا يمكن أن يعيش في مطلع القرن الحادي والعشرين، فمكانه المناسب.. هو عهد سكان كهوف ما قبل التاريخ، أو على الأقل من الجاهلية الأولى. لم أغضب مما سمعته من جارتني التي اتهمها زوجي ظلماً، واقتراءً بالفسوق، والانحلال لمجرد أنها لم تتقب وهي تحاسب مندوب وزارة الكهرباء، وأظهرت له وجهها عارياً، ويديها بلا قفاز من القماش السميك

الذي يفرضه عليّ وعلي بناته فور بلوغ الواحدة منهن سن الثامنة من عمرها! علي عكس ما كانت جارتي تخشي منه فوجئت بي أوافقها على رأيها.. ليس هذا فقط.. بل وشاركتها في غضبها وسخطها على شخصي الضعيف، وزايدت على رأيها..قائلة:

— لا تظلميني يا أختي العزيزة.. فأنا أدري بحالي، وأقسي منك في إدانتني لضعفي وقلة حيلتي.. إنني أعترف بأنه لولا استسلامي ولولا عجزتي، ولولا ضعفي ما استأسد زوجي.. كما استأسد وما وصلت وأولادي إلى ما وصلنا إليه. إنني وحدي المسئولة عما أصابني، وحطم حياتي وأوصلني إلى الحالة التي أتمني فيها الموت على البقاء في هذه الحياة التي لا يمكن للمرأة عادية أن تقبل بها، أو توافق عليها.

ولمحت مؤشرات الدهشة والعجب على وجه جارتي أم فلان.. فالذي سمعته مني كان متفقاً مع رأيها، ورأي زوجها وآراء كل سكان شقق عمارتنا ورغم ذلك لم تسمع مني رداً..أو ميرراً مقتنعاً واحداً لاستسلامي لهذا الزوج الجاهل المتسلط الذي ألغى كل ما جاء بالكتاب السماوي الكريم، وكل ما حدده لنا رسول الإسلام صليّ الله عليه وسلم، وكل ما انتهت إليه الحضارة الإنسانية بمختلف دياناتها، واتساع اهتماماتها وجاء زوجي بدينه الخاص، مبتكراً حدوده، وفارضاً اشتراطاته ومعانيه وتفسيراته التي تتناقض كلها مع ألف باء الدين الذي ولدت منتسبة إليه، ونشأت ملتزمة به، و كبرت في العمر طامعة في هديّهِ وسماحته وتعاليمه. احترمت جارتي رغمًا عنها هذا التناقض الشديد في مبادئ وتصرفاتي. فأنا مسلمة حقيقية، ورغم ذلك وافقت على خزعبلات الرجل الجاهل التافه الذي شاء قدري أن أرتبط به وأنجب منه ستة من الأولاد والبنات!

ربما يرجع تهم جارتي لتناقضي الغريب واللامعقول مع ذاتي إلى اعترافي لها بأنه سبق السيف العذل.. بمعنى أن خضوعي لهذا الرجل المتحجر، وموافقتي على أفكاره الجاهلية يرجع أولاً وأخيراً لعجزتي عن حماية أولادي مما يمكن

أن يدمر حياتهم في حالة ابتعادي عنهم ، وترك البيت تحت رحمة من لا يرحم! كل ما حصلت عليه من نتائج زيارتي لجارتي التي اتهمها زوجي ظلماً بلا أدنى خجل بالعري والفسق والفجور.. أن غضبي من نفسي وسخطي على ضعفي ، تضاعف مرات ومرات.. وأن كراهيتي للحياة ذاتها شجعتني على الإقدام على ما كنت أنويه عشرات المرات ، وفي كل مرة كنت أخشى من غضب الله فأرجع عن ارتكاب جرمتي. صدقني إذا قلت لك أنني صممت على الانتحار والتخلص من حياتي أكثر من عشرين مرة ، وفي المرة الحادية والعشرين فور مغادرة شقة جارتي شعرت بإحساس عميق مألؤ قلبي وعقلي بأن الله سيرحمي لو نفذت قرارتي وأنهيت حياتي بيدي! فالعذاب الذي ذقت مرارته طوال معاشرتي لجلادي لا أتصور أنه يزيد على العذاب الذي ينتظرني في السماء لإقدامي على الانتحار الذي يحرمة الله الغفور الرحيم بعباده. انتهزت فرصة خروج زوجي وولديه لصلاة الفجر في زاوية قريبة من المنزل يجتمع فيها مع من شابهه في أفكاره ، ومن تعلم منهم استبداده ، ومن يعلمهم أسلوبه في جعل حياة من يعيشون معهم جحيماً ، واطمأنت إلى استمرار بناتي في نومهم.. وتوجهت إلى المطبخ وأغلقت بابه خلفي ثم أمسكت بسكين حادة قطعت بها شرايين يدي ، وجلست على مقعد خشبي صغير أتابع براحة عميقة لم أشعر بها منذ ربع قرن سيلان دمي الغزير المتدفق من جرحي ، وأخذت أتمتم بكلمات صامته استغفر بها الله ، وأتمني رحمته وأرجع عصياني لتعريمه الانتحار إلى هول العذاب الذي تحملته وصبرت عليه حتى اللحظة التي فقدت عندها البقية الباقية من صبري ، ولم أعد أستطيع فيها تحمل أكثر مما تحملته.. ولم أتوقف عن ابتهالاتي للرحيم الغفور إلا بعد أن فقدت الوعي ، وللأسف الشديد استرجعته في اليوم التالي على سرير المستشفى! لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن أعود إلى الحياة بعد أن تصوّرت أنني نجحت في التخلص منها.

تجمّع أولادي وأفراد عائلتي أمام سريرتي ، ووجوههم ناطقة بالفرح والسعادة لعودتي إليهم ، أما وجه جلادي فكان كالعادة جامداً ، غاضباً ، وساخطاً! لم أسمع منه كلمة واحدة يشجعني بها أو حتي كلمات: حمداً

لله على سلامتك.. لم ينطق بها! ولم يكتف بذلك.. وإنما صمم على إذلالني وأصر على صدم مشاعر أخوتي وشقيقاتي وبناتي عندما فاجأنا قائلاً:

لقد ارتكبت جريمة لا تغفر في حق ديننا، ولا تتصوّري أن الله سبحانه العادل، القاهر الجبار قد غفر لك لأنه سبحانه وتعالى قد أعادك إلى الحياة، وإنما الهدف من هذه العودة هو أن تمضي بقية عمرك في التكفير عن خطيئتك العظمي، ونسأل الله أن يتقبل توبتك، وأن يجعلك من الصالحات المؤمنات.

ولم أغضب مما قاله.. فلا جديد فيه، ولا كلمة من كلماته تستحق التفكير أو تتطلب الغضب.

أخوتي وشقيقاتي وبناتي هم وحدهم الذين ظهرت على وجوههم ملامح السخط، والقرف والكراهية.. وإن كانت صامتة ومكبوتة.

عدت إلى جحيمي الأسري مرة أخرى..

والطريف أن جلادي تصوّر أنه مضطر إلى أن يطيب خاطري، ولو للمرة الأولى منذ ربع قرن من الزمان.. ففوجئت به يدخل غرفتي وبادرني قائلاً: أعلم أنك غاضبة عندما منعتك بعد زواجنا من قيادة السيارة حماية لك، وحفاظاً على تعاليم رب السماوات والأرض! ولا بأس الآن من السماح لك بقيادة السيارة بعد أن سمعت فتوى من الداعية.. تبيح ذلك بشروط محددة أهمها ضرورة وجود محرم معك في السيارة مثل أحد ولدينا.. لقد اشتريت لك سيارة جديدة تقف الآن أمام المنزل، ولننزل فوراً لتجربتها، ولم أعلق بكلمة يفهم منها الترحيب أو الرفض، واكتفيت بإبداء دهشتي في سري من هذا الرجل الذي تصوّر أن السماح لي بالعودة إلى قيادة السيارة هو أكبر شازل، وأعظم تسامح يمكنه الإغداق عليّ بهما! أو ربما يتصوّر أن إقدامي على الخلاص من حياتي كان نتيجة هذا الحرمان، وليس نتيجة الأحوال التي سبب بها حياتي وحياة أولادي منذ عرفناه لأول مرة وحتى تلك اللحظة! نزلت معه لركوب السيارة الجديدة، وعندما طلب مني الجلوس أمام عجلة

قيادتها اعترضت قائلة: كيف أقود السيارة وأنا منقبة، وأنت تعلم أن نظري ضعيف وإذا وضعت النظارة الطبية تحت النقاب فلن أرى شيئاً من خلال ضربة الموسي بطول العينين؟

لم يرد زوجي على اعتراضي، واكتفى بالجلوس إلى جانبي في المقعد الأمامي، وأمرني بالانطلاق!

وسرنا في شارع أو شارعين.. وكدت أصطدم مع المارة والسيارات من حولي وأمامي.. والمدهش أننا مررنا بالقرب من رجال شرطة المرور عساكر وأمناء شرطة وضباط ولم يعترض أحد منهم على قيادتي السيارة بالنقاب، ولا على تخبطي وتهديدي لأرواح وممتلكات الآخرين فاهيك عن تهديدي لحياتي وحياة من معي! على العكس فوجئت برجال المرور يتطلعون إلىّ وربما لمحت على وجوههم علامات الرضا والاحترام والتشجيع!

فالنقاب يحظي شئنا أم أبينا باحترام الكثيرين، وتأييدهم وإعجابهم.. ولا يجزئ أحد على منعه في الأماكن والمواقف التي ينص القانون على ضرورة الكشف عن الوجه والتحقق من الشخصية!

فلا يخفى عليك أن هناك من المتقدمات لأداء امتحانات المدارس والجامعات من يرتدين النقاب، ولا يستطيع المراقبون التحقق من شخصيتهن، لأنهن يرفضن الكشف عن وجوههن!

وما يقال عن الامتحانات يقال أيضاً عن مغادرة المنقبات عبر منافذ الجوازات في المطارات، أو عودتهن إلى البلاد من خلال نفس هذه المنافذ، فلا يعترض الضباط بعد أن يشوا من الجدل العقيم الراض للكشف عن الوجه بأي شكل من الأشكال! ورجال المرور لا يعترضون على قيادة المنقبات لسياراتهن، رغم أن النقاب لا يسمح لهن بالرؤية الكافية وبالذات على الجانبين، مما يعرضهن ويعرض الآخرين لأخطار قد تكون قاتلة! أعرف منذ زمن بعيد أن رجال المرور في أوروبا وأمريكا يمنعون تعليق حلية صغيرة مثل الحجر الأزرق

أو الدمية ، أو حتى سلسلة تتدلى من المرأة الداخلية أمام قائد السيارة لأن هذه المدلاة رغم صغرها وضآلتها ، يمكن أن تحجب بضعة سنتيمترات من مساحة الرؤية.. هذا ما يطبقه رجال المرور في العالم كله منذ عشرات السنين.. أما نحن في مصر فلا يعترض واحد منهم على هذه الخيمة المغلقة والمظلمة فيما عدا ضربة الموسي التقليدية ويسمح للمتخفية شبه العمياء تحتها قيادة السيارة ، وتهديد حياة وممتلكات كل من يعترض طريقها أو يقترب منها!

لست في حاجة إلى تكرار ما تعرفه وتعرفه جميعاً عن استغلال البعض لهذا التساهل والاحترام لكل منقبة:

رجال هاربون من العدالة وجدوا في ارتداء النقاب الحماية الكاملة من الملاحقة والقبض عليهم!

ورجال يرتدون النقاب لتأدية الامتحانات بدلا من الفتيات! وفتيات فاسدات يحميهن ارتداء النقاب من نظرات المتطفلين ، وحراس العمارات وهن يترددن على شقق العزاب!

ورجال يرتدون النقاب ويدقون على أبواب شقق عشيقاتهم ، ويرحب بهم الأزواج باعتبارهن صديقات زوجاتهم!

هذه الطرائف الباكية نسمع عنها ونقرأها في مايكشف عنه في صفحات الحوادث في الصحف ، ولا تحتمل التعليق أكثر مما سمعناه وقرأناه ، وأعود إلى حكايتي لأقول لك إنني توقفت بالسيارة فجأة.. ونزلت منها وطلبت من زوجي قيادتها وإعادتي إلى منزلي ، وكانت آخر مرة قادت فيها سيارة حتي لا أكون مصدر خطر وتهديد على حياتي وحياة المحرم بجاني ، وحياة الآخرين. ولعلك لا حظت قلبي بأن هناك من يستغل ارتداء النقاب للقيام بأعمال غير سوية ، ومعني ذلك أن الأغلبية من النساء والفتيات المنقيات لا غبار على تصرفاتهن ، ولا طعن في سلوكهن.. فمنهن من ارتدت النقاب اقتناعا به ، ومنهن أيضا مثلي من أجبرت على ارتدائه.

إن ما ألاقيه من عذاب هو ذاته عذاب بناتي، وكدت أقتنع بأن هذا هو قدر المرأة منذ طفولتها وحتى مماتها ما دام هناك رجال على شاكله الجلال الذي إبتلينا به. لم أستطع أن أفعل شيئاً لبناتي ففاقد الشيء لا يعطيه.. كما يقولون.. المشكلة الكبرى كانت مع الولدين الشابين.. فقد فوجئت بهما يصبحان نسخة طبق الأصل من أبيهما.. فهما يؤمنان بما يؤمن به من أفكار وآراء وتفسيرات وممنوعات ومحرمات ومحظورات!

وكم كانت سعادة الأب بما حققه من نجاح وإصلاح في تربية من يحملان اسمه، وبإصلاح سيرته بعد وفاته. وكنت أتصور أن طالب المدرسة الثانوية، أو شقيقه في الجامعة لن يلتزما بما فرض عليهما وهما بعيدان عن البيت.. لكن ما عرفته منهما، ومن أبيهما أنهما يطبقان حرفياً في المدرسة والجامعة ما يلتزمان به تماماً في المنزل! والأخطر من هذا.. أن طالب الجامعة أصبح في أفكاره أكثر تطرفاً من أبيه، وأكثر منه حماسة ورغبة في إنقاذ الكرة الأرضية من مهازل وخطايا وموبقات، وكفر سكانها غير المؤمنين، وغير الملتزمين بالأفكار التي يصر على أنها أنزلت في كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

كان الأب بحكم سنه يكتفي بالقول.. أما الابن فإنه يرى أن فرض الالتزام بهذه الأفكار لا تجدي معه الهداية بالموعظة الحسنة، ولا بد من استخدام اليد أي القوة في إجبار الشعب على الالتزام بما فرض عليهم الإيمان والالتزام به حرفياً. لقد بكيت ساعات طويلة عندما جاء ابني من الجامعة ليشيد بما تحقق في ١١ سبتمبر الماضي في نيويورك! لم أبك فقط على آلاف الأبرياء الذين قتلوا في هذه العمليات الإرهابية، وإنما كان بكائي الأكثر على ما رسخ في عقل وقلب ابني من عنف وحقد وكراهية تخطت كل ما كنت أتصوره أو أتوقعه من قلادة كبدي. قد تقول إن موقف ابني هو مجرد حالة فردية أو مرضية.. لكن هذا الابن نفسه هو الذي كان يبشرنا بأن المئات من رفاقه

هللوا مثله لما يصفونه بأنها الحرب التي اشتعلت لتتحرق كل من ليس مسلماً كإسلامهم، وكل من لا يطبق ما ينادون بتطبيقه! الخطر كما أرى ليس مقصوراً على بيتنا، ولا على بيوت العشرات أو المئات غيرنا.. وإنما أؤكد أن العدد أكبر بكثير مما نتصوره.. كما أنه ليس وقفاً على الأحياء العشوائية، والمناطق الفقيرة حيث تنتشر البطالة بين شبابها.. كما يحلو للبعض تبسيط هذه القضية الخطيرة في كل مرة نسمع فيها عن حادثة إرهابية. إن بيتي يقع في حي راق، وزوجي لا هم له بعد تفتنه في تعذيبنا غير جمع المال الوفير من عائدات محلاته.. فهو المتدين والأمين والعاقل.. كما تؤكد لحبته الطويلة، والسريحة التي لا تفارق يده.. يتمتع في الوقت نفسه بأكل حقوق الدولة فهو لا يدفع ضرائب عن أرباحه الطائلة، ويؤور مستبداته ليثبت خسائره والإفلاس الذي يهدده!

وولدي يدرسان في المدرسة والجامعة، وينتظرهما مال طائل يرثانه عن أبيهما غداً أو بعد غد ليسارعا بالزواج وإنجاب الأولاد ليبتا في عقولهم وقلوبهم أعنف الأفكار التي غرسها أبوهما فيهما ليصبحوا أكثر منهما عنفاً، وحماسة، وتطرفاً.

ليس هذا بلاغاً ضد زوجي، ولا صرخة لحماية أولادي من التطرف واستخدام العنف الجاهل، لكنه بلاغ إلى الرأي العام لينظر إلى ما هو أبعد من طرف أنفه.

فجأة دخل الساعى قائلاً لها: رئيس التحرير وصل وفي انتظار سيادتكم.. همت بالإنصراف قائلة: آسفة على الإطالة وشكراً لك على صبرك وحسن انصابتك.

...

" الذئب لا يعوى لمجرد المرح "

دأب الدكتور محمد العادلى من حين لآخر على شن حملة صحفية من خلال صحيفته " العدالة " ضد بعض كبار رجال الأعمال ، ويظل يواصل حملته الشرسة للتشهير بهم ، والنيل منهم وتلطيخ سمعتهم فى الوحل ، ولا يكتفى بذلك بل يرسل عشرات النسخ من الجريدة إلى مقر شركات ومؤسسات ومكاتب هؤلاء الرجال حتى يتأكدوا بأن أعينهم أن فضيحتهم بجلاجل ، ويظل الرجل كالذئب الذى ينتظر لحظة ضعف فريسته كي ينهش لحمها ، ولا يطول انتظاره ولا يخيب ظنه ، فسرعان ما يرن هاتفه المحمول بعد ساعات قليلة من النشر ، يأتيه صوت رجل الأعمال المستهدف مستغيثاً مثل شاه صارت رقيبته تحت نصل السكين.

فى هذه اللحظة المفصلية يشعر العادلى بقوته وجبروته ووسطوة نفوذه وطفيان سلطانه.. فالتناس لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الفضيحة ، وتحسب لها ألف حساب فهو يملك أداة الفضيحة ، يملك صحيفة سيارة بين الجماهير ، صحيفة لا تقل فتكاً عن قنابل أمريكا الذكية والعنقودية التى هدمت العراق فوق رؤوس أحفاد هارون الرشيد ، ودمرت الهاربين من جحيم النيران فى أفغانستان إلى أعماق جبال وكهوف ثورا بورا.. هنا فى تلك اللحظة يتأهب الرجل على الفور للمساومة والمناورة حتى يحقق مأربه ، ويتلذذ بالإجهاز على فريسته ، ويحصد صيده الثمين وفى بعض الأحيان تكون المكافأة سيارة فخمة أحدث موديل أو مبلغاً ضخماً من المال يضاف إلى رصيده السرى فى البنك فى صورة تبرع من رجل أعمال إلى حزب العدالة الإنسانية وجريدته الموقرة!

سارت الأمور على ذلك العديد من الأعوام ، وفى كل مرة يصطاد العادلى فريسته ، ويمعن فى البحث عن فضيحة مدوية مؤلمة تطول عنان السماء

حتى تأتبه الضحية راکعة متوسلة مستسلمة فينال المكافأة المجزية ،
ويقبض ثمن السكوت ، وقد يحول حملة الهجوم والسياب الجارح إلى
التسبيح بإنجازات ووطنية رجل الأعمال ويجعل منه بطلاً قومياً على
صفحات جريدته.

لا يهم إن كانت التهم التي ينشرها زوراً وبهتاناً أو حقيقة دامغة.. لا
يهم أى شئ بعد ذلك.. المهم الالتزام حرفياً بمذهب ميكيا فيلى الوقح..
الغاية تبرر الوسيلة.. معظم الناس بسطاء يصدقون تماماً ما تنشره الصحف
ويعتبرونها لا يأتونها الباطل من بين يديها أو من خلفها حتى لو كانت ما
تنشره زيفاً وشائعات وأكاذيب ودسائس ونميمة.. الناس فى كل زمان
ومكان تستهويهم الفضائح ، ولا يعينهم كثيراً من ستكون سيرته مضغة
فى الأفواه ، وسمعته على حافة الهاوية ، ويحرص أى رجل أعمال أن يكسب
ثقة الناس لأنهم مصدر قوته ورواج سلعته ، ولو خسر ثقة الناس خسر
الكثير والكثير ، وقد تكون خسارته تلك فوق طاقته.. لكل ذلك يكون
العادلى هو الحصان الرابح فى كل مرة ، وأرصده تترفع ونفوذه يتعالى..
لكن الله لا يستر المرء ألف مرة ومرة ، ولا يدارى ذنوبه ويغيب خطاياهم
عن العيون الدهر كله ، فالسما تمنح المخطئين عشرات الفرض الذهبية
ليتوبوا ويتوقفوا ويعودوا إلى رشدهم ، لكن يبدو أن العادلى استنفذ فرضه
مع السماء ، وكان لزاماً عليها أن تكشفه وتعريه وتجعله عبرة لمن يعتبر ،
ومن لا يعتبر!

بعد حملة ضارية وشرسة ضد رجل أعمال شهير يمتلك سلسلة محلات
تجارية عملاقة " التوحيد والإيمان " كشف فيها العادلى على صفحات
جريدته بأن هذا الرجل آفاق ومخادع.. زير نساء يشتري الصبايا الصغيرات
بعقود زواج عرفى وبمهرهن بضعة آلاف من الجنيهات ثم يتمتع بعزيرتهن
وأنوثتهن عدة أسابيع وقيل أن يصاب بالملل يلفظهن للبحث عن أخريات..
جماليات صغيرات فائحات فقيرات دائماً تلك هى المواصفات.

لقد أطلق العادلى عليه فى منشيطات جريدته.. "شهرىار العصر".. لم ينتظر طويلاً فسرعان ما جاءت المكالمه المرتقيه، ودار الحديث بينهما بكل صراحه وبلا خجل أو مواريه، طلب العادلى بكل وقاحه مئة ألف جنيه لكى يوقف نشر حملته الصحفيه لتشويه سمعه الرجل بين أهله وذويه ومجتمعه، ويمنع نزيف الخسائر الفادحه التى منيت بها سلسله محلاته التجاريه، وكان "شهرىار العصر" حصيفاً ذكياً عندما وضع الأمر برمته تحت أعين العدالة وأبلغ النيابة قبل أن تدور المكالمه بينهما، والتى اتفقا خلالها على زمان ومكان تسلم العادلى للمبلغ المالى الذى طلبه، وعندما حانت اللحظه الحاسمه كان رجال العدالة قد ألقوا القبض عليه متلبساً بالأدله الدامغه، والتسجيلات الصوتيه التى لا تقبل الشك، ولا تحتمل اللبس!

فى اليوم التالى كتبت الصحف الحزبيه الأخرى المنافسه لحزبه وصحيفته تقول:

"أخيراً سقط واحد من أعمام الفساد الصحفى والسياسى فى مصر رغم محاولاته المستميتة للتقرب إلى السلطة، فقد انتهت المحكمه إلى قرار بإدانته بجرائم الرشوة والابتزاز، وقضت بسجنه عشر سنوات مع عزله من منصبه.. فهل يمكن أن يمثل هذا الحكم بداية جديدة مع فساد الصحافه، وصحافه الإفساد فى البلد؟"

التاريخ الأسود للدكتور محمد العادلى وعلاقته بالحكمه تلقى ظلالاً من الشك والريبة حول قيام الحكمه بتفعيل هذا الحكم ليكون رادعاً لغيره من الأفاسد، وبداية مرحله جديدة لتطهير الصحافه والإعلام من أمثاله.

لم يكن العادلى اكتشافاً فى تاريخ الانحراف الصحفى داخل بلاط صاحبه الجلاله، بل هو معروف منذ سنوات، وارتكب حماقات ووقاحات يندى لها جبين أى إنسان، وسبق إدانته فى قضايا أشد خزيًا مما دفع نقابه

الصحفيين إلى إسقاط عضويته من النقابة.. أما وصف " الشعبان الأقرع " فقد أطلقه عليه الصحفي المعارض حمادة حمودة في تحقيق صحفي نشره قبل خمس سنوات أدان فيه أفعال العادلي وجرائمه، وأقام العادلي وقتها دعوى قضائية ضده لكن حمادة وقف أمام هيئة المحكمة يؤكد بجرأة وجسارة ما وصفه به، وقدم ما يكفي من الأدلة والبراهين مما أدى إلى إصدار المحكمة لحكمها ببراءة الصحفي المعارض المشاكس من تهمة السب والقذف بحق العادلي، إنما الغريب في الأمر أن الحكومة كافأت العادلي بتعيينه عضواً في مجلس الشورى.

وعلى غير عادة الحكومة مع أقطاب الأحزاب الجديدة، والصغيرة سمحت للعادلي بتأسيس حزبه المشبوه وجريدته الصفراء بمجرد حصوله على حكم قضائي بذلك في حين لم تسمح لحزب العمل بمعاودة نشاطه أو إصدار جريدته " الشعب " رغم حصوله على ١٥ حكماً قضائياً، وفي الوقت الذي كان فيه العادلي يمثل داخل قفص الجنايات لمحاكمته في الجرائم التي أدين فيها " وهو مغلى سبيله " كانت جريدة " الأيام " الحكومية تفتح صفحاتها لنشر مقالاته التي عنوانها " عبقرية رئيس الجمهورية " بل وفتحت له مطابعها لكي يطبع فيها جريدته التي خصصت معظم صفحاتها لمدح سدة الحكم ويطأنته، والتشهير بمن لا يرضون عنه واتهامهم في شرفهم وعرضهم.

ثم ترحيل محمد العادلي خلف الأسوار الذي لم تتناول التقارير السنوية للمجلس الأعلى للصحافة مخالفاته الصحفية رغم أن جريدته نموذج مثالي يمكن أن يدرس بما تعج به من مخالفات من النشر الدعائي إلى النشر المجهل إلى الترويج للخرافة لدرجة أنه كان ينظم لقاءً أسبوعياً لرجال مع زبائنه من أصحاب الأمراض والأوهام بمقر الجريدة مقابل أجر مادي.

أزاح مجلس الشورى العادلي بالإجماع من عضويته، أطاحوا به خارج مجلس الحكماء وكان المجلس الموقر اكتشف فجأة أن مبادئ حزب

العدالة الإنسانية من الخيال العلمى مثل أفلام "سوبرمان واكس مان،
وبلاك أند وايت أند براون مان" وأنه اعتمد على القرصنة على الجمعيات
والحصول على المال من الأميرة الخليجية هند العباسى، وعدد من
الشخصيات الكبيرة فى البلد.

كان البعض يتوقع أن تمتلئ الصحف بمانشيتات عن رئيس الحزب
المرئشى الذى يبتز الأكابر.. عن الأسباب والدوافع التى حولت الطيب
الفاشل إلى محترف سياسة وصحافة حزبية، وكانوا يتوقعون أن يكون
هناك نقاشاً حول ظاهرة هى الأكثر غرابة فى الصحافة المصرية والعربية..
شخصية اللص الذى يسرق ويسرق ويسرق دون أن يشكو منه أحد ثم يستاء
الكثيرون من القبض عليه عكس نهايات كل الأفلام العربية والهندية!

لم تكن نهاية مفاجآت هذا الحاوى حديث الصحافة والسياسة، ففى
اليوم التالى نشرت صحيفة "المساء والسهرة" أن زوجة الدكتور محمد
العادلى زينات السيد الشهيرة بزيى فواد قد عينت نفسها رئيساً لحزب
العدالة الإنسانية بأصوات ١٤٥ شخصاً من أعضاء الجمعية العمومية ودون
منافس، وفسرت الصحيفة هذا الاختيار الكاسح بأن زينات أرادت عقد
الجمعية العمومية للحزب قبل أن يعقد منافسها عبد الراشد العدوى جمعية
مماثلة ويفوز بالحزب والجريدة.

المهم أن زينات السيد وعدت فى تصريحاتها الصحفية النارية بتلافى
السلبات السابقة التى حدثت فى الحزب أثناء رئاسة زوجها وأدت إلى
انشقاقات داخلية، وتصدعات لجدران الحزب وأعمدته، وتعهدت زينات
بأن تعمل بجد وإخلاص لصالح المرأة المصرية فى عهد سيدة مصر الأولى
التي ترعى المرأة فى كل مكان من ربوع المحروسة.

وبعد يومين نشرت نفس الصحيفة نبأ مثيراً للدهشة، فقد كشفت أن
العادلى حاول الهرب من مصر لكن الشرطة ألقت القبض عليه.

الطريف فى الخبر أن الصحيفة ذكرت أن رجال الشرطة قبضوا عليه

وهو متكرر فى ملابس امرأة حتى يستطيع الفرار!

لم تنته قصة محمد العادلى عند هذا الحد فقد أفرج عنه بعد عشرة أشهر فقط رغم أن الحكم عليه كان عشرة أعوام، وفى أول تصريح صحفى له عقب الإفراج عنه قال:

"أحمد الله رب العالمين أننى سجت فى عهد رئيس مصر المبارك.. بارك الله فيه.. وفى وقت يتولى فيه اللواء حسان الشاذلى حقيبة وزارة الداخلية، وأضاف قائلاً: إن السجون المصرية الآن تراعى حقوق الإنسان، وأكد أنه تمتع داخل السجن بكافة صور الرعاية الصحية، وقضى تلك الفترة فى المستشفى الملحق بسجن القناطر بسبب معاناته من مرض القلب والضغط والسكر.. قال العادلى بثقة: إن السجناء اليوم يلقون كل صور الرعاية واختفت تمامًا الصور المأساوية التى كانوا يعانون منها فى عهود سوداء سابقة حين كان السجناء يسمون بأسماء النساء، ويقفون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فى أول يوم من دخولهم السجن ثم يؤمرون بتنظيف أرضيات السجن بأجسادهم العارية!

وكانت محكمة النقض قد أصدرت أخيرًا حكمًا بإلغاء الحكم الصادر من محكمة أمن الدولة العليا بسجن محمد العادلى عشر سنوات فى قضية الابتزاز والرشوة على أن تعاد محاكمته أمام دائرة أخرى لم يتم تحديدها ولا موعداً وجاءت حيثيات الحكم الأول صدر معيياً بالقصور فى التسبيب.

وقال العادلى الذى بدا فى حالة معنوية عالية:

"لقد تم الإفراج عنى ونقل من السجن إلى بيتى مباشرة فى سيارة مجهزة نظراً لظروفي الصحية" مشيراً إلى أن اهتمامه فى المرحلة الحالية سوف ينصب على العناية بحالته الصحية خاصة بعد إصابته بالتهاب فى أعصاب ساقه اليسرى، إضافة إلى معاناته من مرض القلب مؤكداً أنه سيمارس مهامه كرئيس للحزب من جديد فور تسلمه قرار محكمة النقض بإلغاء

الحكم السابق القاضى بسجنه ، والذى تضمن عزله من منصبه مشيراً إلى أنه سيرسل القرار إلى لجنة شئون الأحزاب بعد النزاع الذى نشب بين ثلاثة من أعضاء الحزب على رئاسته فى ظل إبعاد الحكم الأول للعادلى من منصبه.

وقال العادلى أنه تلقى العديد من برقيات التهنئة ، وسوف يعيد ترتيب أوراق الحزب من الداخل وإعادة إصدار صحيفته من جديد. وتنفى العادلى فى مؤتمر صحفى عقده بمقر الحزب ما نشرته بعض الصحف عن وجود ٢٥ جنحة وأحكام سابقة ضده تسببت فى تعطيل الإفراج عنه وقال:

"بالفعل كان هناك حكمان صدرا ضدى ، واتخذت كافة الإجراءات للطلعن فيهما أثناء فترة سجنى وليس بعد الإفراج عنى" ويشأن الحكم بإعادة محاكمته من جديد بنفس التهم التى وجهت إليه مثل الابتزاز والرشوة إسترسالاً قائلاً:

"إننى واثق من أن عدالة السماء سوف تتصفى وواثق من براءتى وإلغاء محكمة النقض لحكم محكمة أمن الدولة العليا بسجنى عشر سنوات خطوة على طريق إثبات براءتى من كل ما نسب إلى من تهم!"

بعد ستة أشهر تقدم الدكتور محمد العادلى رئيس حزب العدالة الإنسانية المجدد نشاطه بالترشيح لعضوية مجلس الشعب على مقعد الفئات فى دائرة الكيت كات ، وتم قبول طلبه ، وبدأ يتجول فى الدائرة وسط مجموعة من أنصاره ومؤيديه وكان من بينهم على مبيض ناجى شرف الدين وفوجئ بأن أقوى المنافسين ضده على مقعد البرلمان ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين ، فتقدم العادلى إلى اللجنة العليا للانتخابات بإبلاغ رسمى يطلب فيه شطب جميع مرشحي جماعة الإخوان المسلمين المحظورة من إنتخابات مجلس الشعب باعتبارهم جماعة غير شرعية ، وباطلة بعد أن تم حلها ولم يصدر حكماً قضائياً حتى الآن يعيدها من متطلق أن ما بنى على باطل فهو

باطل ، كما أن المحظورة ارتكبت مخالفة خطيرة للقانون باستخدامها شعار " الإسلام هو الحل " .. ووصف العادلي الجماعة في بلاغه بأنها كافرة لاعتمادها على شعار يعنى أن أعضائها فقط هم المسلمون .. أما غيرهم فليسوا مسلمين ، وأنهم يتاجرون فقط بشعار الإسلام هو الحل لكسب أصوات البسطاء الذين لا يدركون حقيقة هذه الجماعة المحظورة وشعارهم نصب في نصب.

ذات مساء كان العادلي يطوف الدائرة وسط المئات الذين تجمهروا حوله ينصوا لاثهاماته للجماعة المحظورة .. في تلك اللحظة انطلقت رصاصة في الزحام تعرف طريقها ووجهتها وخط سيرها حتى استقرت في قلب العادلي .. سقط الرجل مضرجاً في دمائه ، وسط ذهول الجميع هرول ناجي شرف الدين مسرعاً وضع العادلي رأسه على صدر ناجي ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو يهمس بصوت مكتوم متحشج لم يسمعه سوى ناجي :

— زهرة .. زهرة ..

تطلع ناجي من بين صفوف المتزاحمين فلمح فتاة في منتصف العمر تهرول من بين الجموع حتى اختفت عن الأنظار ، أدرك ناجي أن الرصاصة التي قتلت الرجل جاءت من ناحيتها ..

وقبل أن تغادر مسرح الجريمة نظرت نظرة انتقام وشماته ..

كانت زهرة دون سواها سكرتيرة محمد العادلي السابقة التي خرجت ثوا من السجن ، تأرت لنفسها ، ومضت غير آسفة على شيء فلم يعد لديها ما تخسره !

" على الباغي تدور الدوائر "

مع بزوغ شمس يوم ٢٥ يناير خرج الشباب بالآلاف ثائرون غاضبون يهتفون بسقوط النظام.. انتفضوا فى كل محافظات مصر، وربوعها وحواريها وشوارعها وميادينها رافعين شعار.. الشعب يريد اسقاط النظام.

بدأت المظاهرات العارمة والحاشدة، كما لو كان متفقاً عليها بين ملايين الشباب الذين رسموا خطة التحرك ضد أباطرة النظام الذى جثم على الصدور ثلاثة عقود من الزمن عبر " الفيس بوك " أو ما يعرف بشبكة التواصل الإجتماعى.. الصحف الحكومية وصفت هؤلاء الشباب بالقلّة المندسة والمخيرة، بينما وصفتهم الصحف المستقلة والمعارضة والحزبية بورد الجنائين الذى فتح فى حدائق مصر!

سقط العشرات قتلى، والمئات جرحى فى مواجهات عنيفة مع الشرطة، وبلطجية النظام والحزب الحاكم، وامتألت الميادين والشوارع بالثائرين الذين أعلنوا الصمود، وقبلوا التحدى بصدور عارية، وطالبوا رأس النظام الحاكم بالرحيل أو الزحف من ميدان التحرير بالملايين نحو القصر الرئاسى لخلع الطاغية من فوق كرسى العرش.. ومع بيان التنحي للرئيس، واختياره شرم الشيخ منفاه الإضطرارى سقطت كل الأقنعة، وخرجت للنور كل الملفات السوداء، وتوارت الوجوه الكالحة التى عاشت فى البلاد فساداً وطفاناً، ومألت الصحف بصورها وأخبارها وأكاذيبها سنوات وسنوات، ومع سقوط النظام وتصدع أركانه، اندلعت المظاهرات المطالبة بالتطهير، وتحرير الصحف الحكومية من رؤساء تحريرها، ورؤساء مجالس إدارتها الذين اعتبروها عزية لهم ولأولادهم من بعدهم، وتكية ورثوها عن آبائهم وأجدادهم!

لم تطل الفترة الزمنية حتى صدرت القرارات الثورية التطهيرية التي أطاحت برؤساء تحرير ومجالس إدارات الصحف الحكومية ، منهم من توارى في بيته خوفاً وهلعاً من بطش الصحفيين الثائرين الذين أذلهم وأذاقهم الهوان سنوات عجاف!

ومنهم من كان مصيره المثل أمام النائب العام بتهم إهدار المال العام ، والكسب غير المشروع ، والإثراء الحرام.. وكان مثواه الأخير في زنزانة ضيقة لا تدخلها أبداً شمس الحرية.. جفت الأقلام ، وطويت صفحة سوداء من تاريخ صاحبة الجلالة ذات الثوب الناصع البياض كمعروس ليلة زفافها.

تمت بحمد الله..

من قائمة الإصدارات رواية - قصة

إبراهيم عبد المجيد
إبراهيم درغوثي
إبراهيم الناصر الحفيدان
أحمد عمر شاهين
أحمد الشيخ
أحمد الفيتوري
إدريس علي
إدوار الخراط
إدوار الخراط
أمير تاج السر
تركية عبد الحفيظ
جمال الفيثاني
د. جمال التلاوي
خالد الأنشاصي
خيرى عبد الجواد
د. رشا سمير
زكريا عبد الغني
سليمان زيدان
صابرين الصباغ
عباس منصور
د. عبد الرحيم صديق
عبد الفتاح البشتي
عبد الفتاح صبري
عبد خال
عز الدين الأسواني
عفاف السيد
د. علي فهمي خشيم

ليلة العشق والدم
وراء السراب قليلا
حيطان الريح
حمدان طليقا
ملاعيب الأكابر
سريب
وقائع غرق السفينة
طريق النسر
صخور السماء
صيد الحضرمية
همس القوارير
مطربة الغروب
تكوينات الدم والتراب/ الخروج عن النص
رفيف التراث
كيد النسا
حب خلف المشربية
حالات الروح
أوزار
عندما تموت الملائكة
الطماشة
الدميرة
مرسى ديله
حكايأ انثوية
ليس هناك ما يبهج
آخر ما قاله النهر
سراديب
إينارو

علي مصطفى المصراطي	ولا يزال المعطف معلقاً
د. فاروق أوهان	جنبة الشفق (قصص شاعرية قصيرة جداً)
فاطمة يوسف العلي	تاء مربوطة
فؤاد قنديل	الحمامة البرية
فوزية مهران	فتار الأخوين
فيصل سليم التلاوي	النعاس يغشي المدينة
كرم شعلان	أعباء
معسن الرملي	الفتيت المبعثر
محمد الأصغر	المداسة
محمد جبريل	مد الموج
محمد جراح	العابدة
محمد العشري	هالة النور
سيف المري	رماد مشتعل
محمد الغريي عمران	حرم .. (أعزكم الله)
محمد قطب	الخروج إلى النبع
محمود قاسم	الحياة مفرد مؤنث
مرم الخولي	شمس الملوك
نبيل عبد الحميد	حافة الضروس
نجوى بن شتوان	وير الأحصنة
نميسة الشرفاوي	شموع تحترق
غير بن سالم آل سعيد	المشي إلى مدار المطر
نهاد شريف	تحت المجهر (رواية من الخيال العلمي)
نهلة السوسو	قمر أخضر
هناء زكي	الولايا و....
هيام عبد الهادي	أنت وحدك السماء
وارد بدر السالم	شبيه الخنزير
وفية خيرى	امراة بين الرجال

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد
وكتب متنوعة؛ سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الأراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز